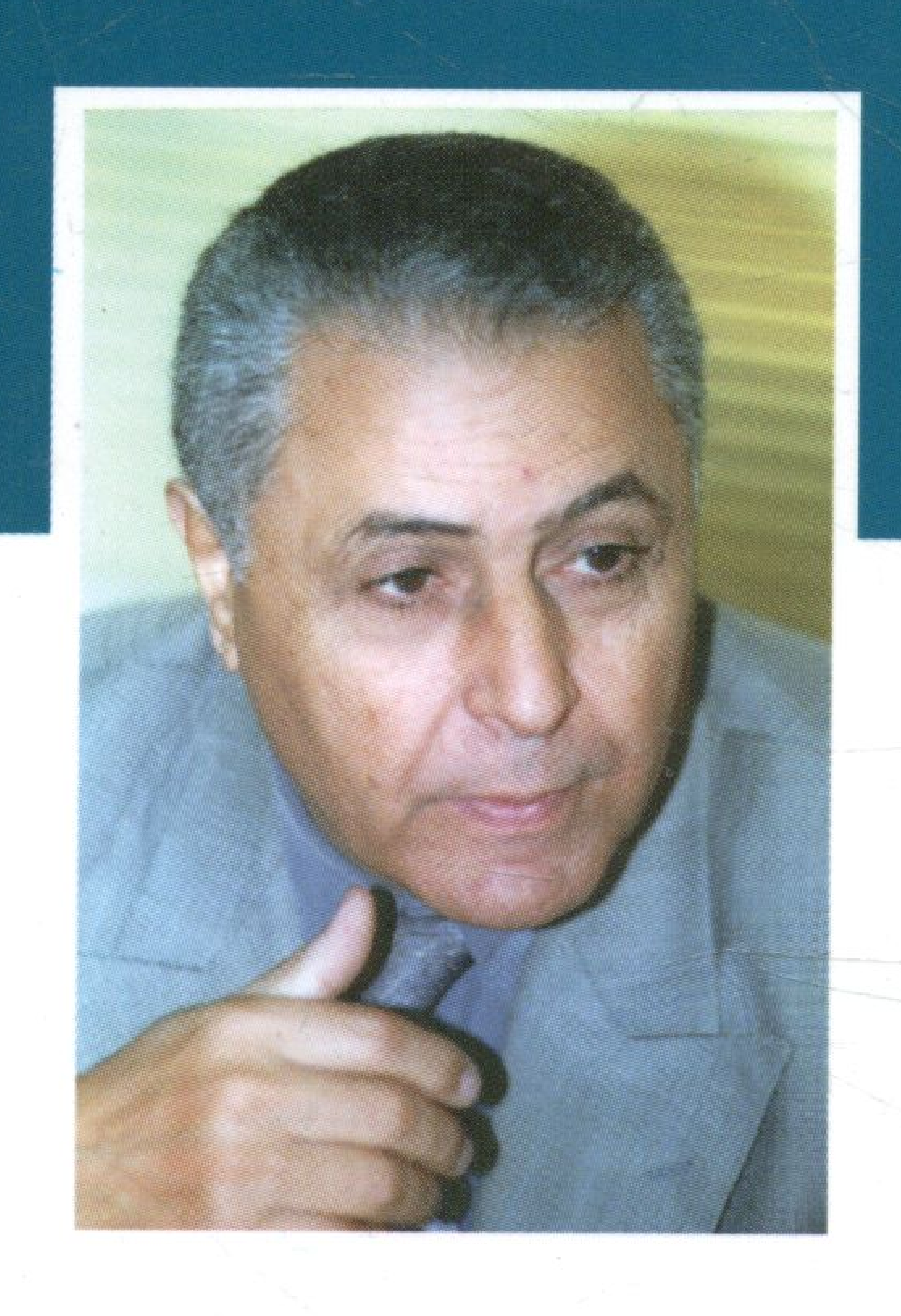
مبارك ربيع

الأعمال الكاملة

الروايات



الجزء الثالث

I

منشورات

وزارة الثقافة

مبارك ربيع

الأعمال الكاملة

الجزء الثالث

(II - I)

مبارك ربيع : الأعمال الكاملة الروايات- (الجزء الثالث)
الإيداع القانوني : 2012M0 0267
ردمــــك : 978-9954-581-26-1
منشورات وزارة الثقــافــة
سحــب : مطبعة دار المناهل - 2012

مبارك ربيع : الأعمال الكاملة الروايات- (الجزء الثالث)
الإيداع القانوني : 2012M0 0267
ردمــــك : 978-9954-581-26-1
منشورات وزارة الثقــافــة
سحــب : مطبعة دار المناهل - 2012

بـدر زمـانـه

رواية

(الطبعة الأولى : 1983)

ثم كائنات مائية دقيقة،
ما تكاد تلمسها حتى تتفتت بين أصابعك،
فما عليك إلا أن تترك لها حد السكين ترقاه،
ثم ترفعها إليك في أناةٍ وهدوء.

(عن فكرة لجون شتاينبك)

سمعوا لي يا حضار — بجاه النبي المختار

قصة مروية في الاجفار — للناس والفهما

قصة البارح واليوم — بدر الزمان ما عليه لوم

عينيه حرمت النوم — لا شين فيه لا ذماما

مللي شاف الشر — والدس في العباد والغدر

قلبه ثما تكدر — فين صحابه الكرما

«زاهور» وحشي مسكين — عينيه دمعت في الحين

قال له: يا ولدي الحنين — انس من بالك الرحما

السيف وحده البتار — يرد الظلمة نهار

يفتك بمن هو غدار — ما تبقى في القلب نداما

قال له: يا نعم الصديق — في الشدة والضيق

لسانك بالحق نطيق — ما بقات علينا ملاما

الطريق على صعيب — اشحال من جبيب وحبيب

ما بقا بيجي ولا يجيب — قتلوه الظلما

ـ ما الأخبار؟

ـ أخبار؟

ـ أخبار أحمد؟

ـ لا جديد

ـ لا جديد؟

ـ صافي... يعني يحاكم.

ـ والله مهزلة!

❑ ❑ ❑

ـ سمعت؟

ـ ايه؟

ـ وتعرف؟

ـ أحمد

ـ ما له؟

ـ مقبوض.

ـ لا؟!

ـ نعم، إسالني أنا.

ـ قل.

ـ مهزلة والله!

❑ ❑ ❑

ـ سمعت؟

ـ إيه.

ـ رأيك؟

ـ القضية جد... والله أعلم.

ـ المحاكمة؟

ـ طبعاً، ملف كامل.

ـ شيء مضحك.

ـ قل مُبك.

ـ كيف... كيف...!

❑ ❑ ❑

ـ هل يزار؟

ـ الآن، طبعاً.

ـ كيف حاله؟

ـ ففف...

ـ معنويته كيف؟ سيئة؟

ـ تسأل عن الظاهر أم الباطن؟

ـ ففف.

ـ عجائب... الدنيا عجائب... مهازل وفضائح وعجائب!

❑ ❑ ❑

ـ حكموا عليه؟

ـ طبعاً.

ـ مسكين.

ـ كلنا مساكين.

ـ فينك يا الحق؟

ـ اخرج للزنقة وسول!

ـ مهزلة.

❑ ❑ ❑

ـ الحبس للرجال.

ـ إيه. للرجال... ولكن احمد فأر... فريخ... واقف معك عينه في الأرض وقلبه يرعش!

ـ كل شيء مكتوب.

ـ مهزلة.

❑ ❑ ❑

البئر عميقة بلا قرار، غورها الظلام، تبدو في الطوفان المائج الهادر الذي يقترب سفينة النجاة الوحيدة. أطلُّ على الغور المظلم. لا أجد القوة للهبوط، ألتفت خلفي وإلى الجهات الأربع... يتهددني الطوفان الهائج المكتسح الذي تبدو أمواجه البعيدة جبالاً هادرة، ويقترب. لا أدري كيف أمد يدي للحبل المدلى في البئر، والذي هو مربوط بشيء ما، على فوهة البئر في مركزها، لا أتبينه، أوْ لَم انتبه إليه. أشرع في النزول، في الحبل عقد تسهل العملية. أنزل عقدة عقدة، الحبل متين ومريح، أتوسط الغور المظلم كما يحدث عندما نتقدم في الضباب الكثيف، كلما بلغتُ بقعة عمّها بعض الضوء، الأمر إذن سهل، وسفينة النجاة تؤدي إلى النجاة فعلاً... البئر جاف كما في علمي ويؤذي في قعره إلى مخرج بعيد... الحبل متين يتحرك بفعل ثقلي وحركتي، يتلوى قليلاً

حول رجليّ وبينهما... حول كل كياني، يتولى وبضغط، أحس به أملس رخواً بين يدي ورجلي يعلو ويهبط، بحركة رئيسية كحركة التنفس، بالفعل يتنفس الثعبان بين يدي ورجليّ، يتلوى عليّ، أستغيث فزعا. يرتفع صوت الطوفان فجأة هادراً، يصل الماء فوهة البئر، يندفع الموج علي من فوق... أنتظر سقوطه علي... أستغيث... أستغيث... أفيق مستغيثاً مبللاً بالعرق والبول والفرع...

زهروية تضمني إليها مطمئنة. لا تخف يا ولدي، تقرأ باسم الله الرحمان الرحيم.... أعوذ بالله من أهل المكان، الظاهر منهم والخفي... صوت والدي الحاج مهدي ينتهي إلي من الغرفة الأخرى، سائلاً ما بي. ترد أمي بصوت خافت، أن لا شيء. أحمد كالعادة. نفس الجواب كالعادة. تكرر باسم الله الرحمان الرحيم. أحس بعرقي ينشف وأنفاسي تهدأ شيئاً فشيئاً.

تتحسس زهروية تميمة ولد سيدي بن علي في عنقي. تقرر أن تجددها عنده منذ الغد، أتبين الهدوء الذي يحيط بي، محمد وعبد الله نائمان بهدوء يتنفسان برتابة، كل تحت غطائه فوق سداري. نصف عبد الله عار، تقوم زهروية لتسوي عليه الغطاء، ثم تنهضني لتأخذني معها إلى غرفة الحاج مهدي. أبي يسأل: ما له؟ لا شيء. حلمت كالعادة...

❑ ❑ ❑

فطومة فتاة حينا. رفيقتي وبنت الدرب. تكبرني بسنة أو سنتين على الأكثر، لعبنا كثيراً في فناء الدار وفي الزنقة وحدنا أمام الأبواب، ومع أطفال الحي. يتيمة الأب. تبنتها (حبيبتها أمها) العاقر وجاءت بها من القرية في القماط كما تقول وتكرر في أوقات كثيرة، لتبرهن على حسن تأثيرها في البنت المترعرعة دون مشاكل. زوج حبيبتها أمها سي سليمان صديق والدي الحاج مهدي، يعمل مع أمين الجزارين في المجزرة الرئيسية للمدينة، يبدأ عمله مع الفجر، وينتهي منه قبيل منتصف النهار، منتصف النهار بالضبط يكون قد عاد، وطاف

على بعض المعارف والأصدقاء يناولهم ما أوصوا عليه من طحال أو كبدة أو قلب أو كرشة وأمعاء... يفضلونها سليمة طرية ومن يد صديق عارف معروف. بعد جولته هذه، ينام سي سليمان مباشرة دون غداء، لأنه يكون مكتفياً بما نال من شواء متنوع، من مختاراته لدى أصحاب المجامر المصطفين أمام المقاهي والمطاعم المقابلة للمجزرة مباشرة. وجلسته المفضلة تبدأ بعد المغرب، حيث يقبل أصدقاؤه وفيهم جملة من مدخني الكيف، يشتغل بعضهم في إعداد الكومة وتقطيعها بالشفرة على اللوح، بينما سي سليمان ينشر أطايبه أمامهم من أمخاخ وألسنة وملوج، يعالجها بالأفاوية والتقلية الأولية والتقليب، قبل أن يسلم أمرها أخيراً إلى راضية زوجته، أو إلى ربيبته فطومة تراقب طهيها، دون أن يفتر هو نفسه عن إلقاء النصائح والتوجيهات والتحرك نحو الطنجرة آونة بعد أخرى، ليطمئن على تطبيق تعليماته، ويلقي نظرة إلى قعر الطنجرة، فتفعم روائحها المنعشة المكان عند إزالة الغطاء، تدغدغ الحس وتحرك كوامن الشهية.

والدي الحاج مهدي كان له مقام بين الجماعة، صداقة قديمة تربطه بسي سليمان وجوار وتعامل، إذ قلّما كان والدي يشتري لحماً ونحوه من حوانيت الجزارين. فالبركة في سي سليمان، وقلما تحاسبا على الثمن إلا وعلا الحلفُ بينهما، كل يريد أن يؤثر صاحبه. ورغم أن أحدهما كان ملاكا للمسكن (الحاج مهدي) والآخر مكترياً، فلم تكن لذلك من أثر على علاقتهما. لم يكن الحاج مهدي مدخناً للكيف ولا لغيره، عندما أدركت ما حولي. ربما كان على شيء من ذلك وأكثر قبل الحج، لكنه منذ وعيت وأنا أصغر أبنائه من زهروية، كان مهتماً بحانوته في بيع وكراء الأواني النحاسية للطبخ في الأعراس والمناسبات الكبيرة. رغم أن الحاج مهدي لم يكن مدخن كيف، فقد كان حضوره ضرورة في مجلس سي سليمان ومأكولاته الطيبة. أعلم الآن أن والدي كان من النوع الذي تصدق عليه كلمة «غلاق» عندما وعيت، لا يدخن ولا يشرب لكنه

محب للأكل، ولم يكن حبه ذاك ليذهب سدى أو بدون أثر في رأيي. إذ بقدر ما كنت أميل إلى الالتصاق بالأرض متداخلاً بعض في بعض طولاً وعرضاً، كأني أخشى شح المكان، كان الحاج مهدي، ما شاء الله قامة وسمكا وصوتاً. كنت أصغر اخوتي، كلنا ضعاف، لكنني كنت نموذجياً في ذلك، وعندما كنت أسمع حكايات العفاريت، كنت أتصورها على عظمة الحاج مهدي، مضخمة أكثر بعض الشيء مع مميزات النار المتطايرة من المنخرين والعينين، والقدرة على كلمة كن فيكون، وما شابه ذلك؛ كنت أيضاً أدرك المفارقة بين خلقة الوالد العظيمة، والأعواد المركبة بلحمة نحافتها زهروية أمي. عندما وعيت بعض الشيء تساءلت: كيف يحتمل هيكلها الغش هيكله الذي ما شاء الله... كما تساءلت كيف تحس أو تعير اهتماماً شجرة الجميز العتيدة أمي راضية، لضآلة وزن سي سليمان، الذي كان لا جسد له رغم طيبات الأكل التي يسهر عليها بنفسه. أين تصرف المخاخ والملوج والكلي وأصناف الكبد والطحال... إن لم يكن ثم حبل سري منه إلى شجرة الجمير تلك؟ تساءلت بوعي فيما بعد، وربما كان التساؤل أزلياً في داخلي: ألم تكن زهروية أولى بسي سليمان، والحاج مهدي أولى براضية؟! مقارنة بسيطة عادية جداً، وكنت أفضل أن أكون ابن سي سليمان ومن زهروية على كل حال.

❑ ❑ ❑

شمس محرقة جميلة، جو رائق، زملاء نلعب الكرة. كرة سحرية رائعة منمقة بألوان زاهية على شكل أهلة أتى بها أخي الأكبر محمد، تطير هنا وهناك، يطير معها محمد يعلمنا طريقة اللعب، يحتج وينهر. وأحياناً تطير الكرة ناحيتي لا أحسن إمساكها، تتجاوزني، أجري وراءها، تغيب في حفرة صغيرة، ربما كانت بئراً قديماً طمر وامتلأ، حتى أصبح قعره بقد قامتي أو أقل. الكرة تتمايل في مركز القعر، وأنا أطل عليها. هذا يضيع الوقت، وصوت أخي محمد يستحثني.

بنصف قفزة أقف على حافة الفوهة... الكرة تتمايل في القعر الجاف القريب. بقفزة بسيطة أرتمي إلى القعر. لا تغيب قامتي في العمق، أجرب أن أرى الآخرين وأنا واقف في القعر أراهم فعلا، الحافة حدو أذني عندما أقف، أنحني على الكرة حيث كانت في المركز لا أجدها. أدور حولي... لا أجدها. أرفع رأسي. أخي محمد يقف على الحافة، يطل علي يشجعني ويحثني على البحث.... هنا... إنها هناك في الركن... هنا... محمد يحرك صخرة عاتية يسد بها الفوهة علي. أستغيث في الظلام... أصرخ... أستغيث وأختنق... أفيق.

كل شيء قسمة ونصيب، كل شيء في مكانه منذ الأزل. كنا وسطاً فوقنا فوق وتحتنا تحت، من عين الدار في الوسط كنت بالصدفة واقفاً، أطل على التحت وأبصق محاولاً في كل مرة أن تنزل البصقة على مكانها الذي تحدده إرادتي على الزليجة البيضاء أو السوداء. تف. تف. تف. تفو... هكذا حميت معركة التباصق من فوق، ومن تحت منذ تصدت فطومة للغارة ترد العدوان بمثله. كنت في موقع القوة من أعلى، وكانت في موقف الضعف في الأسفل بالصدفة، لكنها كانت عنيدة قوية ومرحة، إذ سرعان ما أخذتنا حمية المعركة بعد جد البداية، وتحولت ضحكاً وعبثاً وهرجاً هز أركان الدار من تحتها ومن فوقها، وأمسكت برقبة كل منا في لحظة واحدة من الخلف أيدي لا ترحم، علا صياحنا متوازيا وكان ذلك بداية تآلفنا.

❑ ❑ ❑

انزويت أرتعش كفأر في ركن مصيدة. أعلم جرمي وأعلم أنه عظيم ما دامت الجارة تعلي صوتها على هذا النحو. تشير بأصابعها إلى إبنها الضحية الذي شاركني في العبث الصبياني عن طواعية، سمعت زهروية تحاول أن تخفف منذرة إياي بشديد العقاب، والمرأة لا تقتنع ولا تكتفي بالوعيد، فللكرامة جرح لا يستهان به، أخيراً تقبل عليَّ زهروية تمسكني من حيث ما اتفق وأنا أرتعش،

تصفع وتركل وأنا أتكور على نفسي متدحرجاً هنا وهناك، لم أشعر بألم، لكنني كنت خائفاً مما هو أكثر.. تتفرج الجارة وابنها عليّ برهة، ثم تمسك بأمي تحاول إيقافها عن ضربي، فيزداد غيظ هذه علي ويزداد وعيدها قبل أن تنصرف مع جارتها المهدئة، وتجلسان معاً لشرب الشاي، أظل أرتجف، وأنا أسمع زهروية تحدث جارتها بخوفها علي من الحاج مهدي إذا سمع بالحادث. تطمئنها الجارة، وهل يصح؟ عبث صبية يجب ألا يتكرر والسلام، والكلام من الفم للقبر.

أفلتت من العقاب الحقيقي، ضرب زهروية ليس مؤلماً بالمرة. لكنني بدأت أشعر بأنني أحياناً أسير عارياً. إنهم يعرفون عني كثيراً بسبب حماقة هذا الصبي الأخرق الذي كان مصدر الاقتراح ومصدر الشكوى بعد ذلك. لم يكلمني الحاج مهدي بشيء، ربما لأنه لم يسمع بالأمر، وربما سمع لكنه آثر الصمت، لأنه لا يليق أن يتحدث عنه بأي شكل من الأشكال، وقد تأتي المناسبة ليجمع لي كل الحساب، ويواجهني به دفعة واحدة. وإذا كان لم يعرف بعد، فقد يعرف في يوم ما، يحدثه بذلك زوج الجارة مثلا، أو زهروية نفسها في تساهل منها، باعتبار أن الحادث قد تقادم. ليتها تعلم أن أي تساهل منها في إفشاء مثل هذا السر، مهما كان السبب، أشد عليَ من القتل ذاته. شعرت بعدها بأن كل ضحكة أو ابتسامة من عبد الله أو محمد، من أي كان كبيراً أو صغيراً، تعني شيئاً مفتضحاً من أمري.

❏ ❏ ❏

حدث فجأة بلا مقدمات ولا انتظار، شحمة أذني بين طرفي سبابته وإبهامه، وأنا أرتعش أشعر بالذنب دون أن أحدده بالضبط، أنت أيها الفأر المخادع؟ اسمع. أنا عالم بما تفعل، وإذا بلغني عنك شيء في المرة القادمة، فسآخذك إلى الشرطة بيدي وأطلب منهم سجنك، أتسمع؟ وهناك تكون آخرتك. زهروية إذن فضحتني ولم تحترم السر والعهد، ولا تدري ما سببت لي من ألم.

لم أصدق أنني أفلتت بجلدي رغم شدة القرص على أذني، هذا ليس عقاباً، خشيتي الكبرى مما قد يأتي فيما بعد، خشيتي من نفسي ذاتها، أن تخدعني وتغرر بي، وتكون تلك آخرتي.

دخل الحاج مهدي وقت الغداء دخولاً عادياً إلى الدار، نزع البلغة من رجله، ورمى بكتلته على السداري. نزع العمامة وطلب الغداء، بعد لحظة كنا على المائدة القصيرة المستديرة، زهروية تقابل الحاج مهدي ونحن الثلاثة بينهما، محمد أكبرنا وعبد الله الأوسط، وأنا أصغرهم احمد. كنت أفضل أن أتناول غدائي على انفراد مع أخويّ، وأفرح بذلك عندما تسمع به الظروف، لكن أبي يؤكد أننا يجب أن نأكل معه على مائدة واحدة، ليراقب طريقتنا في الأكل. باسم الله، لا تبدأ قبل الأكبر منك. لا تمد يدك لما ليس أمامك. لا تترك مكانك وتنهض قبل الأكبر منك، لا تسرع، لا تكن آخر من يرفع يده عن الطعام. اجعل اللقمة معقولة... أمي كانت تنوب عنه في تبليغ هذه التوجيهات. لم يسبق لحد الآن أن «أكلت» العقاب على مخالفة مثل تلك الأوامر، لا لأني أحمد، أصغر الأبناء، بل لأني رأيت غيري ينال جزاءه بما يكفي ليجعلني مؤدباً أكثر من اللازم، وربما حظيت بالتنويه. انتهت عملية الأكل. كانت زهروية أول من قام رافعاً صحن الطعام، وبدأنا نغادر مجالسنا، حين أخرج أبي من شكارته العريضة حبلاً مفتولاً من الدوم الأخضر الغليظ، ناوله لأخي محمد طالباً منه بلطف وشبه همس أن يضعه في سطل ماء، ويتركه فيه لحين الحاجة.

❑ ❑ ❑

اليوم عطلة مدرسية بالنسبة لمحمد وعبد الله على الأقل. أمي، خرجت في زيارة معتادة لخالتنا، متنصف النهار يقترب، ونحن الثلاثة نرتع في الغرف بألعاب صبيانية، دخل الحاج مهدي في وقت غير مألوف، فاجأنا، جمدت حركتنا، دخل إحدى الغرف، وما لبث أن نادى إليه محمداً، طالباً منه أن يحضر

إليه حبل الأمس. أغلق باب الغرفة عليهما بقوة من الداخل، سمعنا حديثاً، لم نتبين منه إلا صوت استرحام، ثم أخيراً صراخاً متعالياً، وانهيال سوط، دهر طويل مضى قبل أن يتميز السوط وحده عن الصراخ الذي اختنق. كنت وعبد الله في الغرفة الأخرى نرتجف لا ندري أي مجهول ينتظرنا، ولا أي مجهول يحدث في الغرفة المغلقة، وربما فكر عبد الله في أن يقفز ويطير إلى أمه عند الخالة، يعود بها، لكنه بلا شك قدر عواقب مثل هذه المغامرة، فلم يفعل. فتح الحاج مهدي أخيراً باب الغرفة، تنحنح مراراً، وخرج دون أن يمسنا بسوء. ظللنا جامدين فترة طويلة بعد خروجه، ثم تحرك عبد الله نحو الباب الفاصل يغلقه، ودلف إلى الغرفة الأخرى، تبعته. رأينا محمداً مجرداً من ثيابه إلا السروال، وجلده متورم بخطوط متقاطعة من أثر انهيال الحبل المفتول المبتل.

❏ ❏ ❏

عرفنا السبب، عرفته بشكل غير متكامل، من الجو السائد، زهروية رغم علاجها لجراح محمد، لا تخفي تأنيبها له وأنه يستحق، القضية مدبرة من قبل الحاج مهدي، وتعود لأسبوع كان يراقب فيه جيوب محمد أو علي الأصح زوايا جيوبه، في غفلة عن الجميع يفتش عن بقايا التبغ ليتأكد من أن ابنه الأكبر أصبح مدخناً. يقول محمد إنه بمجرد أن دخل الغرفة على والده، وأغلق الباب، بادره الحاج مهدي طالباً منه أن يريه أطراف أنامله.

تبين صفرتها ولم يملك محمد إلا أن يعترف، وإلا أن يؤكد توبته، وأن يعلن اقتناعه بأن انحرافه إلى التدخين هو سبب فشله في الدراسة، وهو يكرر فصل الشهادة الابتدائية للمرة الثانية... هي إرادة الحاج مهدي تصدر اعترافات غير مجدية من فم محمد، وابتدأ العقاب...

❏ ❏ ❏

كنت منبطحاً على بطني ممدد الرجلين واليدين كالمصلوب، عبد الله ومحمد كل من جهة، يهويان علي بخيوط من الصوف طويلة كأنهما يضربانني، الخيوط تتلوى في الهواء قبل أن تصيبني، كأنها تقاوم، لكنها بعد المحاولات تصيبني بخفة لا تؤلم بقدر ما تمتع. أتظاهر بأنني أتألم، أصيح وأستغيث، لكنهما لا ينفكان عن الضرب الوهمي... أتبين أن الخيوط ليست صوفية كما كنت أعتقد. لا يعبث بها الهواء والمقاومة، وإنما هي حبال مجدولة قوية تترك أثرها خطاً دموياً على ظهري. مقاومة تشد يدي ورجلي إلى الأرض، وتجبرني على أن أبقى مصلوباً مسلماً ظهري العاري للجلادين... أتصفح بعيني الاثنتين الخطوط الدامية المتقاطعة على ظهري، والألم يبرح بي... أستغيث وأفيق مذعوراً..

❑ ❑ ❑

حال محمد لا تصلح. لا يتقدم خطوة في دراسته مطلقاً. صراعه مستمر مع الابتدائية. سمعت زهروية تنذر والدي بأنه سيقتله دون فائدة، إذا استمر معه في العقاب. ولم تدخر جهداً أثناء ذلك في أن تبخر وتعقد التمائم لمحمد، عسى أن يرتفع عنه الضرر الخفي من الجن والناس. سمعت الحاج مهدي يتهم نفسه بالتساهل الذي أفسد محمداً عليه. لكنه لن يستسلم. ولا بد أن يعيد الضال إلى طريقه. وفي يوم ما... في يوم أكيد سيدفنه حياً!

❑ ❑ ❑

المسألة لا مجاز فيها. حق صارخ أن يدفن الحاج مهدي ابنه حياً، حقا أنه لم يفعل ذلك، ولكنه قرر أن سيفعل ذلك في يوم ما، وهو سيفعل ذلك بلا مجاز أو مبالغة، وتتم العملية على النحو التالي بالضبط: عندما يستغرق الابن في النوم، أو عندما يتأخر في نومه صباحاً، يغريه الكسل والدفء، لا حاجة إلى إزعاجه باللوم، أو جر الغطاء أو إفراغ كوب ماء على وجهه أو حتى ضربه... لا

حاجة إلى كل ذلك. ليترك نائما هانئاً. وليأت الحاج مهدي بالآجر والأحجار والاسمنت والجفنة والملاسة، وليعجن عجينة البنائين، وهكذا يأخذ الأجر والحجر واحدة، واحدة، بهدوء، ويغلق فراغ الباب، ويملسه على النائم أو النائمين! حتى ضوء النهار لن يزعج النومة السعيدة الهانئة، ولا ضوء المصابح، لأن يد المعلم قد قطعته من الخارج. أتخيل ماذا يحدث للنّوم في الداخل، فأراهم يتقلبون يميناً وشمالاً كأصحاب الكهف، يقوم أولهم إن كانوا ثلاثة مثلنا بعدما شبع نوماً، يقوم ليشعل النور، فلا يجده، يتوجه إلى الباب ليفتحه فلا يجده، يبحث عن النافذة فلا يجدها... كل شيء مغلق مصمت. وإذن هو في القبر!؟ مات حقا وهو الآن يستيقظ أو هو في قبره أو يحلم حلماً مزعجاً. يتلمس أخويه، يوقظهما، يتحركان، يخبرهما، يقومان، يستنتجان مثل ما استنتج. ما العمل؟ وأين هم الآن؟ كل شيء يوحي بأنهم في قبر حقيقي أو في حلم مزعج. يتصارخون، يبكون ينتحبون، بجنون... وكائنات الظلام تزحف حولهم شيئاً فشيئاً من كل ناحية، تمد خراطيمها الخشنة، تطير أمام وجوههم، تصفر في آدانهم تفتح أفواهها النارية، فتبدو أجوافها كأعماق البراكين... تتقدم رويداً رويداً نحوهم، تمد ألسنتها. لا تأكلهم، وليتها تفعل ذلك دفعة واحدة، إنها تظل تتحرك في كل اتجاه كأنها لا تتحرك، ولا يراها أحد. الإحساس بوجودها يملأ المكان والزمان... يتهافت الثلاثة بعضهم على بعض، يتماسكون، يتلوون تتصبب أجسادهم عرقاً، ويبدأ الاختناق يعصر صدورهم واحداً واحداً، هنا قد يلين الحاج مهدي لتوسل الجيران والأهل. ليفتح القبر كما لاَنَ أحد أسلافه ممن قاموا بالعملية أصلا وتركوها ذكراً خالداً. وقد لا يلين، ليحقق أنه خير خلف لخير سلف، فيظل من بالداخل فريسة للاختناق المتأني وكائنات الظلام المرعبة.

❑ ❑ ❑

مراراً سمعت الحاج مهدي، يتساءل مع زهروية عن الطريقة المثلى ليرد

بها محمداً إلى صوابه، ولتأديب غيره أيضاً إذا خرج عن حدود الاستقامة في أي شيء، ولم أكن أتصور غير طريقة الدفن يمكن أن تكون ناجعة ومهولة، كل ليلة قبل أن أنام، كنت أظل أرنو إلى ستارة الباب وحركتها، أحاول أن أرى ما وراءها من حركتها مع الهواء الخفيف، حتى لا يكون هناك بناء ماهر يغلق فراغ الباب بالإسمنت والأحجار، وعندما أفيق، كان أول شيء أبادر إلى التأكد منه، هو زر النور وفضاء الباب.

❑ ❑ ❑

أخيراً وجد الحاج مهدي طريقة لعلاج حال محمد، لم تكن منتظرة لمن يفكر في طريقة الدفن، بل كانت خفيفة جداً. الولد محمد لا حظَّ له في الدراسة، ضربه الإنس أو الجن أو سكنه عفريت أزرق... المهم أنه لاحظ له، ولا خير يرجى منه في دراسته. وطريقة العلاج يجب أن تحمل في طياتها تحقيراً لشأنه لا بمضمونها بالذات، بل بطريقة معاملته على أساسها، منذ اليوم لن تعرف طريقك إلى المدرسة يا محمد. طريقك منذ اليوم إلى درب بنجدية عند المعلم عبد السلام النجار، لتكون متعلمة وعبده طول الحياة. على محمد الآن أن يفيق باكراً حوالي السادسة ويقطع المسافة الطويلة من درب الشرفاء إلى درب بنجدية راجلا. المعلم عبد السلام صديق قديم للحاج مهدي، لا يرد له طلباً، ويعرف فوق ذلك قصد صديقه من ائتمانه على ابنه، ويعرف أكثر من ذلك ما يصلح للمتعلم الجديد ويصلحه.

❑ ❑ ❑

ما كرهت شيئاً في حياتي رغم طاعتي، كما كرهت شراء الشفنج، والشفنج ذاته رغم اشتهائي لأكله. كانوا يتندرون علي بذلك في ساعات ابتهاج الأسرة، فيتراهنون علي إن كنت أستطيع أن آتيهم به، طبعاً كنت أحاول أن أتملص

من المهمة متعللاً بوجود عبد الله ومحمد. حانوت الشفنج مكان مفضل لوقوف عمي بوشعيب البوليسي، كلما كان في فراغ، يقف مزهواً ببذلته وقامته يتدخل في كل شيء... في مشاريع النزاع، بل يخلقها خلقاً بين الناس ليقضي فيها، أما نحن الصغار، إن غفلنا عن أنفسنا ومررنا بقربه فهو يوم الحساب، من أنت أيها العفريت؟ اسمك؟ ابن من؟ إلى أين تسير؟ ماذا تحمل؟ ولماذا تتهاون في حمل هذا الشيء؟ أتريد أن تسقطه عمداً أيها العفريت؟ أهذا ما بعثوك من أجله؟ ماذا تمضغ؟ ماذا في جيوبك؟ من أعطاك هذا؟... وينتهي الموقف بوعيد يشمل الماضي والمستقبل إن عدت لفعل السوء (أي سوء؟!)، وبمشروع صفعة أو ركلة على المؤخرة، من حذائه الغليظ، يتعمد ألا ينفذها بدقة بالغة. عندما نتظلم يضحكون علينا. لأن عمي بوشعيب والله هو الوحيد الذي يعرف كيف يحد جماحنا، وكيف يجعلنا نحترم آباءنا وواجباتنا.

❑ ❑ ❑

كنا على العشاء، انتظر بفارغ الصبر أن تنتهي هذه العملية الشاقة، كل شيء سائر في طريقه المرسوم، حتى أبي بدأ يطلق بعض الحكايات المسلية. الجو رائق. حتى محمد ربما شارك ببعض ملاحظات حول معلمه الجديد، بعد استئناسه به.. حكايات عن مراوغتة لزبنائه أو حذقه في صناعته. فكرت بأن شيطاناً ما، قد عبث بعبد الله الذي كان متعقلا مثلي تقريباً، لا يكاد يتكلم تقريباً، لا يكاد يتكلم إلا إجابة لطلب أو سؤال. شيطاناً جعله يقول وهو يسمع أذان العشاء يتناهى إلينا ونحن على المائدة: «عشانا الليلة حلال» أدركت أن الشيطان هو الذي أنطقه بذلك من نتيجة قوله الذي أطلقه في عفوية وبراءة. زهروية تنظر إليه شزراً مستنكرة: لماذا يقول هذا؟ يجيب متابعاً ببراءته، لأننا لم نكن نسمع الأذان وقت العشاء، كنا نتعشى قبل أو بعد الأذان. الشيطان أنطقه ولا زال ينطقه. وهل عشاؤنا حرام في الأيام السابقة؟ هل كنا نسرقه؟ هل كنا

نزهق الأرواح من أجله؟ هو الشيطان الحرامي الذي أنطقه بهذه الأفكار... أحسست بصدمته تصيبني، شعرت برعشة الخوف والحساب كأنني صاحب القولة ومتلقي النتيجة. لم يعلق الحاج مهدي بشيء، ربما لأن تدخل زهروية كان قوياً ورادعاً كافياً، وربما ـ سويا للهول ـ أن تدخله سيكون بشكل آخر في وقت آخر، رأيت عبد الله وقد تغير لونه إلى صفرة الموت، حنجرته تعلو وتهبط، كأنه في بلع متتابع مستمر، أحسست برغبة في البكاء، واكتناز حاد في الحنجرة.

❑ ❑ ❑

ظللت أترقب أن يحل العقاب بعبد الله، وأتخيل كيف يكون، لكنه لم يحدث في الوقت الذي انتظرته، ولا بالكيفيات التي تخيلتها، أو رأيتها في حلمي. رأيت مائدة شهية عليها من أصناف الحلوى ما لذ وطاب منظراً ومذاقاً. مصفوفة مرصوفة يتقاطر منها عسل العيد، وتتوزع ناتئة على رؤوسها وحافاتها حبات اللوز، أمد يدي بتهيب، تمتد مع يدي عبد الله، أصيب ويصيب، يزول التهيب، شرعنا بالالتهام كأننا في سباق، أشرق بالكم والكيف. ألوح بيدي باحثاً عن شيء استنجد به، ماء أو ضربة على القفا... عبد الله ينظر إليّ ضاحكاً بشكل هستيري مغيظ كأنه لا يقدر جدية الوضع، يمد يده بقطع الحلوى يدفعها في فمي المتخم وحنجرتي المحشوة، يزيد من أزمتي تعجز يداي عن دفعه فيستمر في عبثه السخيف القاتل إلى أن تزهق روحي وأفيق.

❑ ❑ ❑

دخلت الكتَّاب وكانت فطومة بجانبي، نلعب في الزنقة وفي الدار والكتَّاب. دخلت المدرسة وتخلفت هي. ظلت بعدي تختلف إلى الكتَّاب، ثم توقفت لتبقى بالبيت. سي سليمان يعرف أن البنت لدارها رائحة، فلدارها تهيأ، وفوق ذلك فحبيبتها أمها راضية أحوج إليها، عجز أصاب راضية زوجة سي سليمان قعد بها عن الحركة إلا ما كان يسيراً.

مع ذلك ظللنا نلعب، أحياناً نصعد إلى السطح، وأحياناً في صحن الدار السفلى أو الوسطى. تكبرني بسنة أو سنتين على الأكثر، لكن من يراها وكيف تترعرع، يدهش ويتعجب... في الثامنة... في العاشرة... في الثانية عشرة... عجب كيف تستدير يوماً عن يوم، وكيف يتورد الخدان، ويتحفز الصدر، كنا نلعب ألعابنا المفضلة... الغميضة والقفيزي... تدرجنا... لعبنا لعبة العرس... قليل من فتات الخبز، وأحياناً تراب النمل المفتول إذا وجد، يمثل الكسكسو، وقطع من مكسرات الفخار أو الزجاج... تمثل الأواني... وبقايا القشور تمثل اللحم والخضر... أحياناً نضع وسائد تمثل المدعوين، وأحياناً تمثلهم مجرد أسماء وأماكن وهمية فارغة، تدرجنا إلى لعبة الدرس، وأنا معتز بالصف الرابع في المدرسة الابتدائية. بدأت أحكي لها من الكتاب المصور متفنناً في الحقيقة والخيال، دهشت... أعجبت... أحبت أن تتعلم. بدأنا في الدروس، لم تعد لعبة العرس تثيرنا، لعلها رابضة متخفية في ركن ما، لكننا بدأنا نعرف رعشة متبادلة، وتمنّعاً من طرف لطرف، وحباً في إطالة الجلسة لا حد له، واهتماماً بالتفاصيل: تقول قالت عمتي... أقول قلت لأبيَ... عملت.. رأيت... كل شيء من طرف له استجابة مباشرة عند الطرف الآخر... له قيمة كونية، كنا وحدنا المصيبين في هذا العالم الجاهل الذي يستحق الانتقاد والسخرية والضحك، فعلا بدأنا نضحك، نضحك كثيراً ولأقل سبب، لأقل بادرة وأقل انتقاد من أحدنا لهذا العالم الاخر. تدرجنا بالفعل إلى لعبة الضحك. ووصلنا إلى الاستحياء والخجل... في الحادية عشرة أو الثانية عشر تكبرني بسنة أو سنتين على الأكثر، لكنها تنمو وتستدير وتتفتح على نحو لا يصدق، أضاف إليه روعة تباطؤ كياني في التفتح وتضاؤله. غرقنا في الاستحياء والخجل، وأنا في زهو الشهادة الابتدائية، كنت انصرف إلى السطح، أتعمد أن أرسم على ورق المربعات قلوباً تخترقها سهام، وصفحات وجوه متقابلة في مشروع قبلة، وشعوراً مهدلة، وسيف فارس على

جواد يسعى لإنقاذ حبيبته، تسألني، أشرح بالرمز والإيماء عن هذا السهم في هذا القلب المتفطر وعن قطرات الدم المنسابة منه... وعن هذا الحبيب... و... تقاطعني وقد تركز تورد خديها خجلا وتبتعد متمتمة: حشومة. أسرع إليها معتذراً شارحاً المقصود، تنصت، تستمع، نبدأ الرسم بطلب منها، كانت تحب أن أرسم لها، لا أرسم إلا قلباً تخترقه السهام ومشروع قلبة وسيف حبيب يخلص حبيبته. تقبل كراسة الرسم هدية ثمينة مني، تخفيها تحت حزامها وتنزل بها من السطح. أبقى وحدي مخدّراً في عالم أطياف وألوان ومشاعر...

يهزني صوت الحاج مهدي قوياً: أنت تضيّع وقتك تترك الدرس وتلعب. أقفز مفزوعاً، أحتمي بالجدران، مقلّصاً نحو الأرض من هيكلي المتواضع. تستمر لعبة الرسم والدرس والخجل، يتخللها صوت أمي هامساً إليّ: «بركة من الطلوع للسطح. البنت كبرت... هي امرأة وأنت رجل».

أهي حقاً بنت؟! قاموس جديد! وامرأة؟! لم تكن فطومة بالنسبة لي بنتاً، فأحرى أن تكون امرأة! وأنا رجل؟! كنت لها أحمد. وكانت لي فطومة فقط لا غير، بما يحمله الاسمان البسيطان من استحياء وخجل ورسم وضحك وعرس، البنت كبرت... رجل... امرأة... لهجة غريبة، لغة عارية جداً، ومفزعة كوزن ريشة سي سليمان إلى أمي راضية، كريشة زهروية لحجم الحاج مهدي، لغة لا تحتمل رسماً ولا ضحكاً... لا أحمد ولا فطومة... لغة لا تفهم ولا هي قابلة للفهم.

لا يطول الأمر، أبي يشرح هذه اللغة بوضوح بعد فترة وجيزة من ذلك. يتزوجها! نعم، فطومة يتزوجها الحاج مهدي!

❑ ❑ ❑

صحن دارنا التحتية تحيط به الغرف الثلاث، يحده الباب الفاصل

الداخلي، لكنه أشبه بالسطح الفوقي تحده جدران بقدر نصف قامة متوسطة، تتقاطع على فضائه حبال الغسيل بعضها فارغ وبعضها مليء تتدلى عليه قطع أثواب متنوعة. الحاج مهدي وزرهوية متقابلان مكفئ كل منهما على ركبتيه ومرفقيه، يمارسان لعبة الخرفان المتناطحة. لعبة غير مؤلمة. قبل أن يتماس رأساهما يتباعدان ضاحكين، ويقبلان كل منهما على الآخر، بهدوء وتؤدة، يحكان الرأسين قليلاً، ثم يتضاحكان. كنت واقفاً عند مدخل السطح على الدرجة الأخيرة. فاجأت الموقف ووقفت متردداً جامداً، لا يمكن أن أتقدم ولو تحركت راجعاً لانتبها إليّ. حيرة وارتباك لا مزيد عليهما، ركبتاي تثاقلان بحملي، ولو تهاويت لانتبها. لو لم أفعل شيئاً إلا أن أبقى هكذا، لانتبها إلي أيضاً. لو كان هناك سحر يذيبني لكان حلاً موفقاً للموقف. يتمازحان بالتناطح على الركبتين. لعبة ساذجة أشعر أنها محببة إليَّ الآن، كما كانت محببة إليّ في الماضي والمستقبل. فجأة تلتفت صوبي زهروية بوجه فطومة، تنظر إلى مقطبة معبسة عن هذا التجسس، تشير إلى الحاج مهدي، يقطب وتتقد عيناه شراً، يظهر قرناه الملتويان المدببان، ويحبو نحوي منذراً تتبعه فطومة وزهروية التي انضمت إليهما أخيراً بقرنين ملونين!

❑ ❑ ❑

الحاج مهدي لا بد أن يكون على صواب، الزاوية التي أشعر منها بالحرج ليست زاوية الخطأ والصواب ولا من قاموسه، ألمي من أحمد وفطومة، لهما، بهما لا أكثر. الخطأ والصواب، الصالح وخلافه، المفيد وخلافه، قاموس آخر. سمعت أن سي سليمان رحب بالزواج منذ تلقاه من شفتي حميمه الحاج مهدي، سمعت أيضاً أن خالة فطومة، الجميزة الضخمة المنخورة، حبيبتها أمها راضية زوجة سي سليمان، ما قبلت إلا لعجزها، ولأنها فكرت بأن من الخير لها وهي في حالة العجز، أن تتزوج فطومة على القرب لتحظى برعايتها. سمعت

أيضاً أن الحاج مهدي بالمقابل يهيئ لحميمه سي سليمان زواجاً مماثلاً، يعوضه عن عجز كتلته الرصاصية، وسمعت أن عجز أمي راضية إمرأة سي سليمان هو السبب، وأنهما سي سليمان والحاج مهدي، اغتنما حالة ضعفها لتمرير المشروع... وأن زهروية ذات شخصية ضعيفة وإلا ما حصل...

حاولت أن أقتنع بأن الحاج مهدي لا يكون على خطأ.

مأتم كبير، الحزن يجلل الناس، يعتصر قلوبهم. الجنازة لحبيب عزيز، أعز من الأم والأب والإخوة، أعز من النفس ذاتها وكل ما في الدنيا. الحاضرون جميعاً يشعرون بأنهم فقدوا كل شيء بفقدانه، حتى حياتهم ذاتها، كان الفقيد لهم العون والنصير والمحسن والمعالج، ينتظرون إتمام المراسيم الدينية لحمل الجثمان العزيز. أشعر بالحزن يعتصرني اعتصاراً. ما من شك في أن الميت يمثل بالنسبة لي ما يمثل للآخرين، لكن لوعتي كما أشعر بها لا تحتمل أن تكتم، تريد أن تنفجر، مع اعتقادي بأن إعلان الحزن والبكاء والنحيب ليس عين الحزن الحقيقي. الحزن الأصيل الكريم اللائق بالكرام، يتطلب التجمل والصبر. كل الحاضرين كرام أوفياء، كلهم متجملون صابرون، ولكنني الوحيد الذي أتفجر انفجاراً بالضحك. أحاول أن أمنعهم من النحيب والعويل، فلا أستطيع إلا أن أضحك واهتز ضحكاً. النظرات إليّ شزراء ماقتة مستهجنة، لكني لا أملك إلا أن أهتز ضحكاً بل أطرب وأرقص، يتحرك الكرام الأوفياء الماقتون نحوي صفاً واحداً بخطوات وئيدة منتظمة. خرقت كرامتهم. خرجت عن إجماعهم بحماقتي... فيتقدمون بخطى وئيدة صامتة متوعدة، أقهقه دائماً متراجعاً عنهم. أعلم أن الجدار خلفي سيوقفني، وأعلم أن موقفي شذوذ غريب حتى عن مشاعري وإرادتي، يتقدمون، فجأة يبرز من بينهم وجه الحاج مهدي، يمد يده يصفعني حتى أغيب في الجدار!

❑ ❑ ❑

زهروية... تتألم صامتة أم تحتج؟ تشكو إلى المعارف تؤلبهم على الحاج مهدي أم تعارك بذاتها وتناهض؟ تهدد بمغادرة الدار مع أولادها أم تتمسك بالبقاء؟... كل ذلك كان. أكثر من ذلك كان. فعلته زهروية بهيكلها النحيل الذي أصبح في قوة عفاريت سيدنا سليمان. أين يكمن هذا الصراخ في هذا الكيان النحيل؟ أي مصدر فيه تنبع منه كل هذه الدموع؟ أي قاموس قذر ساكن تفجر؟ أية قدرة على احتمال الضرب والرفس وصنوف الإذلال؟ كل ذلك كان، أكثر من ذلك كان، الحاج مهدي وهو ما شاء الله... لا يمكن أن يخطئ، وأكثر من ذلك أن يتراجع وفوق كل هذا وذاك، لم يبق ما يمكن التراجع عنه.

❑ ❑ ❑

استسلمت زهروية... لا... بل قل قاومت بالاستسلام، الحرب الآن باردة عوان بين الضرتين. لم أر فطومة منذ زواجها فهي حبيسة الفوق في غرفة من غرف دار سي سليمان، أفرغت لها وفرشها الحاج مهدي، زهروية في التحت، القطيعة تامة مطلقة بين الفوق والتحت. الحاج مهدي وحده، ما شاء الله، يستطيع أن يتحرك بينهما. يمر علينا في الدار التحتية يسأل بقوة وجمود أو يتفحص الوجوه. قد يحلو له أن يداعب أحدنا (إلا زهروية) مداعبة أشعر بأنها مخيفة مرعبة، ثم لا يلبث أن يصعد إلى عروسه، ليله كله لها .جزء كبير من نهاره ما عدا ما يتطلبه الحانوت، فكره... ماذا ننتظر؟ الحرب باردة عوان بين الضرتين، رأيت العجب وما يسخطُ: ذلة زهروية تصطنع العناد، استسلامها يتصنع المقاومة. أصبحت أكثر اعتناء بنفسها، كحل وسواك مستمر ومشط... كانت تتصدى له كلما دخل دون أن تكلمه، أو تصدر إليه خطاباً، في غير اتجاه كأنها تكلم الجدار... لا يستجيب غالباً إلا بأن يضع إحدى القفتين لنا، ويصعد بالأخرى إلى الدار الثانية مردداً أن كيدهن عظيم!

❑ ❑ ❑

في كيانها النحيل أضحت قوة عفريت... أذكر جيداً كيف رماها أكثر من مرة بركلة قاتلة. كانت ترتمي وتعيد، يعيدها بقوة دفعة، لكنها تتحامل وتعيد لتهاجم متشبثة بالأثاث الذي كان يخرجه من الدار الفوقية إلى عربة كارو عند الباب لنقله إلى داره الجديدة، كنت وعبد الله لا نملك إلا أن ننزوي في الركن، نمسك بأمنا لمنعها، لكنها تنفلت منا كمجذوبة لتعاود وتعاود. كانت تمانع في أن يخرج الأثاث أو ينقل، لأنه «رزق أولادها»؛ والحق أن سعارها كما ارتسم في ذهني إذ ذاك، وكما بدا لي فيما بعد، كان خوفاً من أن ينفلت الحاج مهدي من يدها دفعة واحدة، فلا تعود تراه. على الأقل في الوضع الذي اعتادته الآن، كانت تعرف متى ينام ويستيقظ، متى يكون ومتى لا يكون... وتستطيع أن تعترض سبيله ولو لم تكلمه، وتستطيع أن توجه إليه بالرمز والتلميح بعض ما تشاء من خطاب... وربما هناك ما هو أهمّ، أنها تستطيع وهو على القرب منها، أن تؤمل في تأثير السحر والتعاويذ، لإعادته إليها. أما هو فقد اكترى شقة فوق حانوته، لعل جلسة مجموعة سي سليمان العتيدة أصبحت تضايقه في داره، أو لعل تصفية حساب ودي بينه وبين سي سليمان، تقضي بأن يترك لحميمه فراغاً لإتمام زواجه المنتظر أيضاً... وذلك بعد أن ارتحلت امرأة سي سليمان إلى الأبد مريحة ومستريحة.

أنهكت أخيراً، تدخل الجيران أمسكوا بها. كنت وعبد الله جامدين لا نستطيع حتى البكاء، أقدّر الآن أن الحاج مهدي كان يعطف عليها في سره. أقدّر الآن أن رجالاً من أمثال الحاج مهدي وفي زمانهم، كانت قلوبهم من الاتساع لمحبة أكبر ما يمكن من البشر ومن النساء خاصة! اطمأن الحاج مهدي الآن إلى حياة جديدة، شقته ومتاعه وعروسه بعيداً عن العيون المحاسبة.

❑ ❑ ❑

غاب الكحل والسواك والمشط، غاب التصدي وحتى التحمل. الحاج

مهدي الآن بعيد لا تستطيع زهروية أن تبدو أمامه تخاطبه أو تقاطعه، تذكره بوجودها؛ كان يحضر إلينا باختياره وباستمرار، لكن دائماً باختياره، بقفته... يناديني أحياناً أو ينادي أخي عبد الله ويعطيه نقود المصروفات ليسلمها إلى أمنا. لم تكن زهروية تهتم بتسلم النقود بل ترميها جانباً إلى حين. كثر عندها الصديقات المواسيات والمشجعات، ونعمنا عبد الله وأنا في عالم من الحرية فريد. لا رقيب. لا تخوف. لا صوت يرتفع مرعباً ولا شبح، لا أمر، بل ولا تكليف بشيء حتى عن طريق التلطف، حتى أكبرنا محمد، بدأ عليه أثر النعمة الجديدة. بدأ تأخره المسائي يطول تدريجياً، إلا أنه بالمقابل كان يحاول أن يمارس علينا بعض السلطة أثناء النهار، عندما نلتقي أثناء الغداء، يسألنا عمّا نقرأ، ويتوعدنا إن تخلفنا في الامتحان. الحق أن توعداته كانت تثير في الرجفة وفي عبد الله أيضاً بلا شك، لا لأنها صادرة عنه، بل لأنها تذكرنا بتوعد الحاج مهدي وصدقه فيما يتوعد به، ولأنها تجعلنا نتصور أنّ من الممكن لأخينا محمد إذا أراد أن يكون نذلاً، أن يتوسل إلى الحاج مهدي بأخبارنا... فيما عدا هذا كنا نشفق على محمد، لأننا نعرف ضعفه الحقيقي، ولأن لهجته المتوعدة نفسها كانت مترددة خجولة، ولم تكن مقنعة.

❑ ❑ ❑

عرفت فيما بعد أنهم يشربون نخب النجاح والتفوق. نعم لكننا نحن إذ ذاك لم نكن نعرف هذا النخب، ولا ندري كيف نصرف طاقة الفرحة التي تعتلج بها جوانحنا، تريد أن تطير بنا لكنها لا تريد على أن تخنقنا. نجحنا في الشهادة الابتدائية. أمامنا الثانوي، عالم فسيح غامض. أمامنا أيام من الحرية، حتى الحاج مهدي بدا متسامحاً، وقال بلهجة متعالية وهو يمسح رأسي: «هاك: يا الله اخرج... تلعب مع أقرانك..!» مجموعة من الناجحين وقفنا في الدرب لا نكاد نقبل أن تحمل أقدامنا أرض، كنا نستمع في تواضع مصطنع لتجارب من

سبقونا إلى عالم المدرسة الثانوية، نظام مغاير في الدخول والخروج. أسماء طنانة لمواد غريبة، وتصنيف للمدرسين... سخرية حيناً وإعجاب حيناً آخر. تسابق وتعاون في إتمام الأحكام والحكايات على المواد والدراسة... فجأة يهجم ولد الزياني على الموضوعات: أين نحن وأين يجب أن نكون؟ في فرحة بالناجحين أم في قاعة موحشة للدرس؟ هل معنا فلوس؟... معكم فلوس أيها الناجحون؟ كم؟ يا الله كونوا رجالاً واتبعوني... تبعناه... قال: كنا في بداية درب البشير، بنايات صغيرة متراصة من طابق أو طابقين لا تختلف عن غيرها من الدروب إلا في شيء زائد من القذارة والعتاقة والقتامة. أوقفنا عند زنقة يتلكأ فيها بضعة متجولين بخطوات متئدة، يختالون. أيديهم في أنصاف الجيوب يرنون إلى أبواب مغلقة أو إلى شبابيك مفتحة أو شبه مفتحة. يرمون كلمة هنا وكلمة هناك. قال: أعطوني اثنين منكم فقط. تعال أنت وأنت، سرنا معه، يتقدمنا ونتبعه جنباً إلى جنب وفي تهيب، فجأة انفتل يساراً، دفع الباب، دخل وأشار إلينا بيده دون أن يلتفت. دلفنا. واجهتنا على الخطوات أمام الباب. سلم عليها. يبدو أنها تعرفه، مزوقة الوجه ضخمة.. ما شاء الله، تنفث الذخان وتمضغ العلكة في آن واحد. سألها عن اسم أو اسمين، سألته عن الفلوس، قال يا الله هاتوا، دفعنا واحتفظ بالباقي عنده، ظللنا ننتظر وهي تنفث وتمضغ وتدندن على الكرسي القصير بدون ظهر، عليه حشية عريضة. ولد الزناتي يهمس فينا لنكون رجالاً حقاً نختار ما نشاء من بنات. ظهرت واحدة، ما رأيك أنت؟ وأنت؟ كنت متهيباً جداً، مضى معها عبد الرحيم، نادت صاحبتنا الضخمة عن أخرى، زينب... أقبلت، رنت إليَّ القوادة، غمرت وابتسمت لي ابتسامة عريضة. سرت وراء زينب. أغلقت الباب، قرصت خدي وقبلتني، شممت رائحة دخان عميقة مركزة من جوفها. داعبتني مداعبة فاحشة وهي تسألني إن كان معي إضافي من الفلوس. فتشت جيوبي. قرصت خدي مرة أخرى.

بدأت تنزع... جرتني وارتمت أمامي على السرير. غشتني الرعشة. تداخلت الأشياء.. بدأت ضجة تعلو في الخارج... تقترب وهرج... رمتني بعيداً عنها بعنف... البوليس لامك... البس... البس... فتح الباب على مصراعيه، يملؤه كتفان ضخمان مزرران ووجه مجهم منذر. لا أدري لكياني رأساً من قدم... جرها من ذراعها إلى الخارج، فانصاعت في تذمر. لا قدم لي ولا رأس... الحزام وفردة الحذاء اللعين. لا يد لي تمسك، ولا قدم تثبت. أمسك بي من أذني بقوة كادت تقطعها.... أولاد الحرام... أولاد الزنى... هذه هي المدرسة والتربية والأخلاق؟! حشرنا. بضعة ذكور بيننا نساء ورجال، عبد الرحيم أيضاً... وولد الزناتي لا أثر له. صاحبة الدار ترغي وتزبد محتجة تنفث دخانها وألفاظها الفاحشة... الشرطيون الثلاثة لا يردون عليها، لا يعبأون... أحدهم فقط، ذاك الذي دخل عليّ، هو الذي كان يتوعدنا بين الحين والحين مما تقشعر له الأبدان. سيرمي بنا للمجرمين المحرومين من النساء... ونرى... هذه آخرتكم يا أولاد الزنى... سترون يا أولاد ال... وهنا نعرف عمل الرجال حقاً... يقعدوننا على أعناق زجاجات فارغة مطلية بالصابون ونشرب البول، نغطس رؤوسنا فيه إلى الاختناق... نتنفس ونعاد... ونعاد...! سترون يا أولاد الكلاب أولاد الفاسدات ال...! عبد الرحيم يبكي، يقبل الأرجل. يستعطف ولا رحيم. لم أستطع أن أجاري. أين الدمع، أين غاب، ولسان الاستعطان أين؟ والقدرة على التلوي والانحناء، جمدت والحزام اللعين والفردة لا شيء يثبت أو يطاوع... لا بكاء يجدي ولا استعطاف، لا رد على هدير القوادة إلا وجوه متهجمة في انتظار الفاركونيت... أزيزها يتوقف عند باب الدار، الأبواب تصفق. قلوب تطير في كل اتجاه بلا نهاية، خطو قوي يتقدم، خيوط وأزرار صفراء تلمع في سماء زرقاء. بركان القوادة يهمد فجأة. صمت تام. جروهم. كلمة واحدة تحرك همم الشرطيين الثلاثة... الحزام الخبيث والفردة اللعينة... تتوقف علي

النظرة النارية... هذي آخرتي... اسمك؟ أحمد... أبوك؟ الحاج مه... من... ددد... انفجرت بالبكاء ولا دموع ولا أدري ما حصل ولا كيف؟... ارتميت مطوقاً ركبتي الضابط متمسكاً بهما تمسك الموت بالموت! الأشياء تتداخل وتدور أتبين من خلالها صدى الصوت خافت بأوامر تصدر إليّ بفك ربطة يدي دون جدوى... قوى عاتية تجرني... لا جدوى... تمسك الموت بالموت... لا جدوى ولا فكاك، فوهة الفاركونيت فاغرة تنتظر! ضرب بالحديد كالحديد بالمطارق كالمطارق يصيب كعاب يدي... قوة تجرني، عاتية تحاول انتشالي عن ركبتي الضابط... لا، تمسك الموت بالموت. لا جدوى، شبح الحاج مهدي وفوهة الفاركونيت وبركان البكاء والدموع والنحيب، كيف تنفجر مرة واحدة بلا توقف؟ أمر بالصمت والهدوء لا مجيب له، ركبني ألف عفريت أزرق، أهتز كمقرور أبكي وأنتحب وأتمسك... تقتلع أطرافي بشدة لا أعتى منها... يدا شرطي تشدان يدي أخيراً إلى الوراء... يتقدم الخطو الثقيل نحوي متأنياً... صفرة في زرقة سماء عالية زرقاء تلمع بالنجوم الذهبية تملأ عيني، والخطو الثقيل المتئد يملأ السمع. فوهة فاغرة.. قعر مظلم وشبح... صفرة في زرقة متجهمة جهنمية، خطو ثقيل في الأرض في السماء، يختلط في رأسي في جوف في نسيج كيان يهتز مقروراً.... عاصفة قاسية هوجاء يشتعل لها خدي... صفعة في لمح البرق... السماء الزرقاء تلمع نجومها ببريق خاطف وتعيد... نزَّ بولي وأحسست به خيطاً ساخناً ينساب إلى أسفل القدمين... رنت في قعر سمعي في عمق عمقه كلمة: أطلقوهم! طرت، يداي على الحزام اللعين، قدم في الفردة وأخرى في الفراغ...

❑ ❑ ❑

أجري واجري بلباس العيد الأبيض كأنني في حفلة ختاني أو ذاهب إلى صلاة الجمعة. كل شيء أبيض... أجري لأدرك صلاة الجمعة لكنني أجري بأكثر

مما يلزم لصلاة... البلغة في رجلي تعثر خطوي... خطوات ثقيلة تجري خلفي كأنها تريد أن تذكرني، أعلم ذلك دون أن التفت، حذاء ثقيل ورائي، وأمام عيني أزرار (الحذاء) الصفراء اللامعة على كتفيه، اكتشف أني لا أجري لا أتحرك رغم إرادة الحركة والجري. ركبتاي لا تطاوعان... محمد... ومع ذلك يظل الحذاء يجري خلفي ليدركني. أمتنع عليه. أشعر به يجرد مسدساً كالسيف، يمده نحوي وهو يجري. يستطيل السيف ليدركني... ويستطيل... أشعر بسن رأسه المدبب يقترب من عمودي الفقري، يكاد يلمسه، أجري بسرعة خاطفة، أتحرك الآن بسرعة، سرعتي مضافة إلى سرعته تسهل عليه أن يخرقني من الظهر إلى البطن، ويرفعني مبقوراً إلى السماء!

❑ ❑ ❑

موعد الامتحان الدوري يقترب، كنت في الأول ثانوي، عبد الله في الرابعة منه. بضعة شهور مرت علىّ رحيل الحاج مهدي وعروسه. في غرفة الحاج مهدي كانت زهروية مع بعض النساء يشربن الشاي في الغالب. في غرفة زهروية القديمة كنت وعبد الله وصديقين لنا نلعب الورق. كنت وعبد الله مبتدئين نتعلم على الرفيقين. دخل أخونا محمد. أخذ شيئاً من خزانة في الغرفة دون أن ينتبه إلينا أو يهتم بنا، كان مستعجلاً فيما يبدو لسهرته، تلكأ عند الخروج واهتم بنا أخيراً، ليقول:

ـ مزيان. مزيان، لو كان الوالد شافكم يعمل عرس!! لا أدري ما الذي وقع، لم أفكر أو أتريث أو أدرس الموقف، كل ما وعيت أن ردي انتهى ببساطة:

ـ ولو كان شافك أنت؟!

انصرف محمد على الفور بدون كلمة إضافية. عدنا للعب، لم أقدر فعل

الرد البسيط ولا عبد الله ولا الصديقان، لكن النتيجة كانت فوق التصور، نبهني عبد الله من يومذاك، لم تصدر عن محمد كلمة تنتقد سلوكنا، حياد تام ومُرض.

❑ ❑ ❑

قال الراوي... وكان في أقاصي بلاد الشرك، من ديار العجم قديماً رقعة من أرض الله، على طرفي الإقليم الخامس والسادس من المعمور، يقال لها «كغاشي» ومعناها بالعربي «التربة الملحة» أو بلاد الملح أو ما شابه ذلك، وكان على رأسها إذ ذاك عظيم يقال له شهراموش، عرف بالقوة والبأس والشدة في الحرب والنزال، حتى ليروي من أخباره الكثيرة أنه هزم كتيبة كاملة من أعدائه بمفرده في آخر عام من حرب الملح التي استمرت عشر سنوات طوال بينه وبين أعدائه «التراجان». لقد دامت هذه الحرب سجالاً بين الطرفين طوال سنواتها العشر، وحاقت الهزيمة بجيش شهراموش حتى أوشك أن يولي الأدبار. فثارت حمية العظيم. وتملكته سورة مخبول غريبة، فارتمى إلى الأرض من هودجه الظليل حيث كان يشرف على المعركة الفاصلة، وامتطى صهوة أدهمه، وصاح في الكون صيحة اهتزت لها الجبال، ورددت صداها الوديان، وهجم على أعدائه بلا درع ولا زرد، إلا سيفه البتار يشق بريقه الفضاء، واخترق صفوف التراجمان، يحصد الأجساد حصداً. تتطاير حواليه الرؤوس والأطراف، وهو يعمل فيها يمنة ويسرة وأماماً وخلفاً كأنه عشرة أشداء، أو كتيبة كاملة مستديرة ملتحمة على نفسها، لا يصاب فيها منفذ ولا ثغرة.

قال... فسرى الهلع والرعب في صفوف التراجان، وانخلعت قلوب أبطالهم من هول ما يلقون ويرون، فتراموا إلى كل فج متخاذلين، يتسابقون إلى النجاة... وانفتل عليهم جيش شهراموش. مستعيداً نظامه وحماسه، مجهزاً على أجنحة التراجان وقلوبهم...

قال... كانت معركة رهيبة غاصت فيها الخيل والفرسان إلى الركاب في برك الدماء، وأوحال الطين واللحوم البشرية، بلا هوادة أو توقف، حتى أوشك قرص الشمس على المغيب، قال... عند ذاك تأكد عظيم التراجان أن نهاية محققة على جيشه لا محالة، فارتقى قمة جبل كان قد اتخذه حماية لظهره، وأيقن أن قوة الخصم من عظيم كغاشي نفسه بالذات لا من جيشه. فنادى بأعلى صوته أن يا كلب كغاشي، يا شهراموش الجبان، إذا كنت عظيماً حقاً فنازلني صباح الغد!

❑ ❑ ❑

قال الراوي... أطلت شمس يوم مترددة صباح الغد، كأنها تختفي وراء السحب تخوفاً وارتعاباً مما سيجري، واصطفت جيوش شهراموش، تقابلها على البعد متبقيات جيوش التراجان، وساحة القتال ممتدة بينهما تفوح بالدماء المتخثرة، والأجساد المتراكمة، والأطراف المتناثرة تحوم فوقها كواسر الطير. وبرز شهراموش مدججاً بسلاحه يغوص في الفولاذ حتى حافر فرسه الأدهم، وبرز عظيم التراجان في مثل ذلك على جواد أصهب.

قال... وقف الفارسان على بعد متقابلين يترنح بكل منهما فرسه ويختال، كأنه يستبطئ لحظة النزال. وهلل كل جيش لصاحبه محمساً متحمساً فترة، قطعتها إشارة من يد عظيم التراجان وعلا صوته ينشد بما معناه:

جبان كغاشي، أنت مقتول لا محالة

سيفي لم ينب يوماً ورمحي لا تصد أمثاله

عد لبطن أمك أو إلى القبر إن رمت نزاله!

قال... وما أتم عظيم التراجان وعيده، حتى امتشق سيفه، في لمح البصر، وحركه في الفضاء حركة لها لمع برق وقصف رعد وصفْر ريحٍ، أطارت خوذ الجند عن رؤوسها!

قال... أما عظيم كغاشي فلم يتحرك قيد أنملة أو يتزحزح، بل هدر صوته أن يا خنزير التراجان:

إنـــي لك الـيـــوم طـبـيـــب
لـــم يـمـتـنـع عـنـــه داءُ
إذا لـــم يـسـعـفـك خـــوف
فـــالمـوت عـــنـــدي دواء
لا تمـــن الـــنـفس بالـــرجا
حـــان الحـــين وحـــم القـضاء

قال... وما أتم كلامه، حتى بسط يده إلى الوراء، فرموا إليه بعمود رمح ثقيل، طويل السنان لماع، وجذب شهراموش إليه لجام الأدهم، فرفع هذا قائمتيه الأماميتين ووقف على خلفيتيه، واستقام الثلاثة على اتزان واحد مائل، الفرس والفارس والرمح اللماع الطويل، ثم مرق الرمح من يد عظيم كغاشي بأزيز وصفير مائلاً يخترق الفضاء، حتى أصاب سرباً من كواسر الطير شتتها أشلاء.

قال... ورمى عظيم التراجان سيفه، وتقدم بفرسه إلى الأمام ونادى خصمه أن أيها الجبان، أثبت في مكانك إن كنت تقدر، لأطوح بك إلى الطير! ثم همز جواده فطار به نحو عدوه حتى إذا اقترب منه، مد إليه يده ليقتلعه من حزامه عن ظهر جواده، فإذا به كالجبل الراسخ أو أثبت... حينئذ قهقه عظيم كغاشي، وقال مستهزئاً أن أثبتي أنت يا ريشة الدجاجة... قال... وأخذ عظيم التراجان مكانه ثابتاً فوق فرسه وكر عليه عدوه بدوره، في هجمة شرسة، حتى إذا حاذاه، ومد يده إلى حزامه ليطوح به، وجده جلموداً صامداً...

قال، وظل الفارسان يتناوبان الدور دون كلل أو ملل، ترتفع منهما الصيحات المنكرة، ويسمع لفرسيهما لهات وزفير... فلما لم ينل أحد منهما

مراده، بسط كل منهما يده إلى الوراء، فرموا إليه برمح عظيم، وتقابل الفارسان على البعد، كل منهما في طرف من ساحة القتال الفسيحة، وهجم كل على الآخر بصياح مفزع ورمح مشرع سنه الموت الزؤام، فلما التقى الرمحان تجاوبت قعقعتهما في الأرجاء، واهتز الفارسان من على سرجيهما لقوة الصدام، واختل الجوادان، ولكن أحداً من المقاتلين لم يسقط صاحبه أو ينل منه قليلاً ولا كثيراً، فتابع كل وجهته، ليتقابلا ويعاودا الكرة من جديد...

قال... كان يوماً تشيب له الولدان، وتضع من هوله ذوات الأحمال أحمالهن في الخدور، ومضى الفارسان على ذلك ساعات طوالاً لا يعتريهما كلل، ولا يصيبهما ملل، فتكسرت الرماح تلو الرماح، وتجدد السلاح تلو السلاح، وجنود كل طرف وراء صاحبها تهلل وتحمس بلا فتور، تنقطع أنفاسها، خوفاً وترقباً، وتخفق قلوبها هلعاً وتحسباً، حتى جاوز النهار عصره دون جدوى، حينئذ رمى عظيم التراجان رمحه ونادى أن السيف السيف يا من يأبى إلا أن يموت...!

قال... تناول كل منهما سيفه، وصاح بصاحبه وظلا يناوران يهاجم العزم عزماً. وتتقي الحيلة حيلة، يتلقى هذا ضربة صاحبه ويرد عليها بأصدق منها، ويكر ذاك بما هو أشد... حتى إذا مضت على ذلك ساعات دون أن ينال أحد منهما مراده. صاح عظيم التراجان: أن اثبت لسيفي إن كنت تقدر.

قال... ابتعد الفارسان كل عن الآخر بمسافة كافية، للكر، وثبت عظيم كغاشي في مكانه صامداً للتحدي، فكر عليه عظيم التراجان يلوح بسيفه في الفضاء، تلمح على خديه البروق، وتتراقص أطياف المنون، حتى إذا حاذى صاحبه، هوى عليه بضربه صادقة، تلقاها بعزيمة السيف ومضائه حتى تطاير الشرر من فولاذيهما المسنون... وتناوبا الصمود والهجوم، كل يثبت بدوره لصاحبه على التوالي، حتى أوشكت الشمس على المغيب في يوم ظلت شمسة غائمة أصلاً.

قال... حينئذ صاح عظيم كغاشي في صاحبه أن انزع دروعك، كما أفعل، وهاجمني إن كنت تقدر!

قال... فبدا كل من الفارسين ينزعان، ما عليهما من دروع واقية، حتى بقي كل منهما أعزل عاطلاً إلا من سيفه وثيابه، وثبت عظيم كغاشي على فرسه متيحاً لخصمه أن يكر عليه.

قال... هللت جنود التراجان محمسة متحمسة، وهي لا تشك في أن صاحبها سينال من عدوه في هذه الفرصة السانحة، فيعاجله بالضربة القاضية، لما تعرفه فيه من شدة البطش، وقد أصبح جسم عدوه مفتوحاً لسيفه... وهللت جنود كغاشي كذلك محمسة متحمسة موقنة بأن النصر حليف صاحبها، وهو البادئ بالتحدي والمبادر إلى هذا النوع من النزال، ولما تعرفه فيه من خفة وقوة عزم.

قال... وكر عظيم التراجان على خصمه بعزم وإصرار، يزن موقع الضربة القاضية على خصمه، تكون نهايته ونهاية اليوم... قال... وتلقى عظيم كغاشي الضربة بمضاء السيف، ولكن الحد انزلق على الحد في آخر لحظة، فلم يفلت من موت محقق إلا بأعجوبة انحبست لها أنفاس القوم هولاً.

وجاء الدور على عظيم التراجان فثبت في مكانه، وكر عليه عظيم كغاشي كرة جمع فيها كل حزمه وعزمه صائحاً صيحات مدوية، حتى إذا حاذى صاحبه ناور بسيفه كأنه يريد أن يقر في الصدر، ولكنه نزل بضربة مرقت في الفضاء كاللمح الخاطف، وتجاوز عدوه خفيفاً ثم توقف والتفت، فإذا عظيم التراجان لا يزال ثابتاً في مكانه كالجلمود يقول بصوت كأنه واهن من شدة السخرية أن حاد بك الخوف عن هدفك بإجبان... فيرد عظيم كغاشي بنفس اللجة الواهنة من شدة السخرية: ولكنك مشطور، فتزحزح!

قال... فتحرك عظيم التراجان فإذا به وفرسه ينشطران شطرين، إذ كانت الضربة قد مرقت فيهما بمضاء وعزم قاصمين!

قال... وما رأت جيوش كغاشي ذلك، حتى ارتفعت أصواتها بالتهليل، وشرع عظيمها سيفه متجهاً نحو أعدائه، تتبعه جنوده يعملون السيوف والرماح في فلول التراجان المندحرة، حتى أرخى الليل سدوله، وامتنعت الرؤية والمتابعة.

قال... وانصرف جنود كغاشي على أضواء المشاعل يجمعون الغنائم، وانقلبت معسكراتهم أعراساً فانصرفوا إلى أفراحهم يغنون ويرقصون ويشربون، حتى لعبت بعقولهم الخمرة وهد أجسامهم النوم والتعب... وفي الهزيع الأخير من الليل، هزهم شيء كالرعد الشامل من كل فج، أحسوا له كأن الأرض تميد تحت أقدامهم، والسماء تنقصف فوق رؤوسهم، فانطفأت مشاعلهم وهلعت قلوبهم وانقطعت أربطة خيولهم، وساد ظلام حالك وغبار لا تبرق فيه بارقة.

وما أن أشرق الصباح حتى فوجئوا بمشهد غريب: رأوا عظيمهم على صهوة جواده فوق قمة جبل لم يكن لهم به عهد من قبل في مكانهم، تفصله عنهم هوة سحيقة غريبة لم يكن لها وجود!

قال... فلم يعرفوا لذلك سبباً ولا معنى، ولا دروْا كيف يتصرفون، وبينما هم في حيرتهم تلك، وارتباك أمرهم نادى مناديهم: ويحكم يا أبطال كغاشي وصناديدها، هذا عظيمنا قاتل الأعداء وقاهر الأرض والسماء... ارتحتم وطربتم ونمتم بعد قتال التراجان، لكن عظيمكم بات يقاتل في الظلام أعداء لكم غير منظورين من الجن والأبالسة، جاؤوا ليأخذوا ثأر التراجان، حتى دحرهم وحده، وتناثروا قددا أمامه، واختفت بقيتهم بطلوع النور... هبوا طائعين ممجدين لعظيمكم.

قال... عند ذلك رفع القوم أصواتهم بالتمجيد داعين عظيمهم بلقب شهراموش (كلمة مركبة تعني عظيم البر والبحر والسماء) وانبطحوا طائعين خاضعين، حينئذ كر عظيمهم شهراموش على جواده وقفز فوق الهوة نحوهم، وسار يختال بين أصوات التعظيم نحو مدينته[1] لكل شيء نهاية، تبقى ذلك في دهني من مرثية أندلسية قرأتها، ربما سبق لي أن سمعت مثل ذلك من قبل، لكن، لماذا أنا بالذات؟! فضلت أن تقوم قائمة الأم هذه المرة وتهاجم الحاج مهدي، بكل ما يقع تحت يديها ولسانها، وأن تحتمل الركل والرفس والسب أضعاف ما سبق أن احتملت، لماذا تلتزم الحياد في هذا الموضوع بالذات؟ ولماذا أنا لا عبد الله ولا محمد ولا حتى زهروية؟! يقف الحاج مهدي، يضع قفته، يجلس قليلاً على السداري. تتظاهر زهروية بأنها تدبر بعض أشغال الدار، لكن كل جارحة فيها متفتحة لكل نأمة تصدر عن الحاج مهدي... حركة أو كلمة... كانت آذاناً تترصد. لم يفعل شيئاً: بعد لحظة استراحة وصمت، كنا نرمقه عبد الله وأنا بالنظر المحترس، ورؤوسنا في الدفاتر... قال قائماً: «أحمد. يا الله معايا أنت! عبد الله يبقى هنا ومحمد قادر براسه. يا الله اطلق راسك!».

لماذا أنا بالذات، ويضل عبد الله منعماً بحريته ويمضي محمد إلى تشييد قصور رحيبة في تأخره المسائي وسهراته خارج الدار، يرتع كما يشاء؟! تصورت الأصدقاء اثنين ثلاثة جماعة يسهرون مع عبد الله هنا في هذه الغرفة، أو يسهر معهم في منازلهم، ولماذا أنا بالذات أذهب معه؟! ومؤقتاً أم نهائياً؟ نبهني إلى أخذ ملابسي. جمعتها بنفسي. الصمت تام شامل، لا أرى شيئاً. زهروية ساكنة واقفة متربعة أو مقرفصة، لا يهمني شيء لا أرى شيئاً، أسمع الصمت الشامل

(1) إن حادثة ظهور الجبل هذه... مذكورة في عدد من اللوحات المنقوشة التي أبانت عنها حفريات بداية القرن، بحيث لا يرقى إليها الشك تاريخياً، والمؤرخون يفسرونها بحدوث زلزال في تلك البقعة صادف الأحداث. فنسج القوم حوله أسطورة.

ولماذا أنا بالذات؟ جمعت ملابسي، اتكأ يحزمها بنفسه ويحملها متأبطاً. لم أشعر بالحاجة لأرفع رأسي أو ألتفت لأودع أحداً. حملت محفظتي. لم أعرف كيف كنت أخطو ولا إلى أين أتحرك وراء الحاج مهدي، لماذا؟ لماذا أنا بالذات؟

❑ ❑ ❑

لا أصدق. مذهولاً وقفت. مأخوذاً. لا يمكن أن تكون قد انقلبت إلى هذه الحال! أية روعة. أي جلال! طول وامتلاء وتفتح لا نظير له. سلم على خيتك فطومة. ظللت مذهولاً جامداً تقدمت إليّ. أخذت يدي وصافحتني. منذ أكثر من سنتين لم أرها. منذ زواجها بل قبله بفترة. أية امرأة أصبحت؟! أقسم أنني لو التقيت بها قبل الآن في الشارع، في أي مكان آخر لما عرفتها. لم يبق من معالم الصبا شيء، لا، بل لا زال ذلك القاسم المشترك الأعظم: جمالها. لكن شتان ما بين جمال وجمال. زادت فتنة... زادت تورداً... قال الحاج مهدي: سلم على خيتك فطومة. وقال كلاماً كثيراً، أحمد أعقلهم. سيؤنسنا. لعله ظن تجمدي من حقد عليها لصالح زهروية. لعله ظن بي كراهية الأبناء لضرات أمهاتهم زوجات آبائهم. ما كان بي بعيد عن ذلك، جد بعيد. ما هو؟ دعتني للدخول إلى الغرفة الأولى، أخذتْ حوائجي منه. حلتْ لفافتها ترتبها. مأخوذاً لا أزال، وقدرت أنني سأبقى على ذلك عمري كله. عذرت أبي في داخلي بشكل غامض. على الأقل شعرت إزاءه بشعور خاص هذه اللحظة. إعجاب، إغباط، حسد، ارتياح؟ لكنه ليس اهتماماً أو تحاملاً في هذه اللحظة... كنت متأكداً من أن أي كائن في العالم لو وضعت أمامه فطومة هذه في جانب، وزهروية والعالم أجمع في جانب، لما تردد في الاختيار. كيف يتنبأ الحاج مهدي بأن فطومة القديمة الطفلة تلك، هي هذه فطومة اليوم، جلال اليوم، امتلاؤه وجماله وفتنته التي لم تر مثلها عين، ولا خطرت على قلب بشر. إنه ما شاء الله لا يمكن أن يخطئ.

جاملتني كثيراً ونحن على المائدة. الحاج مهدي مرتاح لذلك. وبيني وبين نفسي كنت أتمرن على أن أنطق «خيتي فطومة» عند كل طلب أو خطاب. في عينيها وكلامها جرأة ومعرفة، إنها لم تعرف قط الحاج مهدي الذي نعرف، أهذه التي كانت تلعب الغميضة والعرس والخجل ودفتر الرسم؟! الفرق شاسع. أي الصورتين أحب إليّ؟ تلك أعرفها بسيطة... كانت حية أكاد أتحسس مشاعرها بمشاعري، أقرأ أفكارها بأفكاري، وهذه عالم آخر معقد عميق وفسيح. هذه امرأة وتلك كانت فطومة. لا أثر لتحيزي لأمي. لا أثر لذكرى قريبة أو بعيدة عنها الآن، رغم أني كنت أنتظر تجدد لوعتي بمجرد رؤية زوجة أبي، لا أثر لشيء من ذلك، بدأت أتحسس مشاعري القديمة خفية... لم أعثر عليها، ولكني لم أعثر على الفراغ. لعل الجرح القديم بقدر ما كان قديماً عميقاً وسريعاً بقدر ما التأم، خفيت معالمه. لعل الالتئام ليس إلا ظاهرياً خادعاً. لعل المشاعر القديمة ثاوية كامنة. تحسستها خفية، لم أجدها ولم أجد الفراغ. الواقع أنني كنت غير ممتلك لشيء مني. ربما لو رأيتها من قبل أو تصورتها بمجرد خيال على هذه الفتنة والسحر، ما كنت أتحمل ما تحملت في الأيام الأولى لزواجها من أبي... لو عبرت خاطري في طيف خاطف صورتها على هذه الروعة لتهيأت لذلك، وتجنبت ما أبدو عليه من جمود وارتباك. وإذا كنت الآن مرتاحاً من مشاعري القديمة، فربما يرجع ذلك إلى أنني أمام امرأة أخرى، فطومتي لم يتزوجها الحاج مهدي أبداً. هذه أروع، ليكن، هذه فتنة أشد، ليكن، لكنها ليست فطومتي. رغم الاندهاش، بت مرتاحاً، نمت هادئاً كما لم أكن أقدر. حتى قربي الشديد من الحاج مهدي الذي حسبت له ألف حساب، لم يزعج راحتي بكابوس أو شبح.

❑ ❑ ❑

ما أزال أستأنس بأخبار الدار القديمة، أتنسمها بكل وسيلة. ليس فيها جديد حقاً. ولكنها مغرية لمثلي، الأخوان هناك ينعمان بحريتهما. الدار الفوقية

حيث سي سليمان وازنت بين طرفي معادلتها.سي سليمان تزوج أخيراً إمرأة جديدة على قدر وزنه، ريشة لريشة، حليمة، مجلس «الكويفة» وقطع الشواء المختارة منتظم دائماً مع نفس الرفاق، ينقصه شخص الحاج مهدي وحده، يذكرون عن سي سليمان أنه الآن متشوق للإنجاب. بدأ يصرف إليه اهتمامه، ويصرف عليه ماله، تتسلمه منه أيدي تعرف كيف تحكم الغيب، وتحدد الذكر من الأنثى، قبل الحمل ذاته، وتعرف كيف تقول للمرأة المترجية حملاً: احسبي تسعتك ابتداء من صفر الخير، فإذا مضى نصف التسعة أشهر دون ظهور بشارة، فاللائمة على المترجية لأنها فرطت في التعليمات، ويجب البدء من البداية وصفر الخير...

❑ ❑ ❑

فطومة وحمى كالهمس في أذني. تتوحم. قرأت ذلك في احتفاء الحاج مهدي... في كثرة ما أصبح يحمل من زيتون أسود بالفلفل الأحمر... كانت تتعشقه، بل أصبحت كذلك ولا تكاد تأكل غيره. عزفت عن الطبخ وأصبح الحاج مهدي يحمل معه المأكولات من الخارج. لم يظهر عليها شيء، أصبحت أتابعها دون أن تدري، أتحسسها بالعين رغماً عني لأفاجئ بطنها منتفخاً دون جدوى. لا شيء، لعلها الأيام أو الأسابيع الأولى للحمل. كل صباح، كنت أنتظر أن أجد بطنها مكوراً. كنت مسحوراً أو كالمسحور بذلك. هل كنت أرغب في ذلك أم أكرهه؟ لا أستطيع أن أجيب الآن. إلا أنها كانت لهفة. ربما لمجرد أن أرى التغيير.

عصراً عدت من المدرسة. وقت مناسب لشرب الشاي، كان الحاج مهدي يحافظ عليه، يترك حانوته مفتوحاً لرقابة جاره البقال، ويصعد لشرب كأس منعنع مع فطومة، ومعي عندما أكون حاضراً. كان ذلك قبل أيام الوحم. منذ أسابيع لم يعد يصعد في ذلك الوقت، لأن مؤنسه لم يعد كذلك. لعله لا يريد

أن ينغص عليها وعلى نفسه، بأن يشرب وحده أمامها، فأصبح يفضل أن ينزل بشايه إلى حانوته. عدتِ فوجدت الشاي جاهزاً لكن لا أحد يشربه، الحاج مهدي لم يصعد وفطومة لا تشربه. والبراد ساخن ملفوف بالفوطة الثخينة. صبت لي منه كأساً. بدأت أشرب لم أكن راغباً في المزيد. أخبرتني أن زيتونها نفذ. رجتني أن آتيها بشيء منه، وأن أنزل بالصينية إلى الحاج مهدي... كل شيء عادي، مأموريات بسيطة جداً قمت بها ما لا يحصى من المرات... عدت بالزيتون. ربما تذوقت واحدة أو اثنتين، فلفل قوي لاذع لا يطاق، يكوي، تفلته كعادتي مع (الحار)... أشتهيه، أتلمظ لرؤيته، لكني لا أطيقه مذاقاً ولا هضماً. دفعت لها الزيتون الملفوف، بلهفة فتحت الورق، ورمت في فيها واحدة أو اثنتين... قالت بلهجة صدق: ـأحسن زيتون ذقته في حياتي. ذق.

مدت أناملها لفمي بزيتونة، رائعة. رائعة المذاق. لا ألذ. عسل؟! أكثر. رائعة المذاق.

ـ هه؟

تتأكد من رأيي. قلت:

ـ ألذ ما دقت في حياتي!

ـ بصح يا أحمد؟

وضعت الزيتون جانباً، تقدمت، ظهر كفها على خدي بلطف:

ـ صحيح؟

ألف رعشة. ألف رجفة. ألف قرب. ألف هوة سحيقة. همست بعمق:

ـ والله العظيم.

بأذرع أربعة التقينا... هكذا... بالشفاه. غبت في الحزفة والدوخة والصمت مرتفعاً في قضاء، معزولاً عن الأرض والسماء والجدران، عن كياني

نفسه... غبنا لحظات، برهة، عصوراً... ثم توقف الكون، وقف الكون كله، تيقظ فجأة وانتبه شاهداً صارخاً صاخباً... أغوار تفتحت عند أقدامنا. تكسرت الجدران، تشققت وأطلقت منها رؤوس المردة ترج الدماغ، ألسنة نيران مترامية تلهب كل جارحة، طرق وصراخ. طرق يعصف بالجدران والأبواب، عويل، رعد بركان.أفقت وأنا أفتح الباب مندفعاً إلى الخارج تضج أعماقي بصخب مرعب: تتداخل الكائنات... إلى أين؟ ماذا أنا؟ توقفت. كيف قطعت كل هذه المسافة؟ إلى أين؟ الناس تسعى متزاحمة في كل اتجاه، تعرف الاتجاه. أعود؟ كيف وبأية قدمين؟ بأي وجه وكيان؟ هكذا الجحيم؟ لم يكن إلا بهذا القرب؟ هل رآني أحد؟ المقصود هل كان طرق على الباب؟ الحاج مهدي مثلا كان الطارق؟ ومن يكون غيره؟ ليس هناك غيره. خرجت مندفعاً تملؤني المطارق والضجيج والصخب، دون أن أنتبه إن كان هناك طارق واقف بجانب الباب أو أمامه، أهي النهاية؟ وهي ماذا فعلت؟ ماذا جرى لها؟ يكون الآن قد قتلها، قطعها إرباً إرباً؟ الناس الآن مزدحمون على الباب. جمعهم ملأ الدار، وجمع آخر يتزايد يملأ الشارع، ماذا؟ الحاج مهدي قتل زوجته؟ لماذا؟ وجدها تخونه؟ مع من؟ اللعنة على الضجة المتزايدة في مركز الدماغ ولهيب النار في الجوف. أليست هي النهاية؟ فطومة الآن واقفة بجلالها تشرح بعبارات واضحة للحاج مهدي وقاحة فلذة كبده أحمد معها، عليها. تروي قصة يوسف وزليخة فريدة في بابها. يستمع، يقف. كأنه بخير، كأنه غير منفعل، يخفي اضطرام ما بداخله على فلذة كبده، ينتظر عودته، ولا بد من العودة. لا بد. بأية قدمين، بأي وجه، وكيان؟ أليست هذه هي النهاية؟ أحمد الآن يقف جامداً أمام الحاج مهدي، لا حاجة إلى الكلام، كل قد عرف دوره، استسلم لمصيره، الحاج مهدي متأبط سكينة عيد الأضحى، يلمح بريقها في الخفاء، جرب كفاءتها قبل ذلك، بأن حز بسنها على ظفره، كما يفعل عادة قبل الذبح، وجدها لا بأس... محتفظة بمضائها. ينظر

حواليه، إلى السقف قليلاً كأنه يتملى شيئاً، فجأة ينزل بحد السكين على نحر أحمد، يغرزه إلى الأعماق حتى يطل رأسه من الظهر... اللعنة على الضجيج الصاخب في مركز الرأس... الحاج مهدي يستل سكينة من النحر، يرفع كيان أحمد الدامي من شعر الرأس بيسراه، كأنه يقيمه ثم يضرب العنق بحد السكين من اليسار إلى اليمين ضربة بتار تفصل الرأس عن الجسد... أحمد وفطومة زليخان واقفين كالعاريين أما ثيابهما قدت من قبل ومن دبر ومن كل جانب. أخزاكما الله أيها المجرمان. الشيطان نفسه يعجز عن فعلكما. ما جزاؤكما؟ ماذا تظنان أني فاعل بكما؟ أقتلكما؟ لا. أكثر من ذلك، وأقل من ذلك. يظل يدور بينهما. يطيل أمد عذابهما، ثم ينادي أحمد فيقبل عليه مرتجفاً خائفاً. ودون أن يكلمه يناوله سكينة العيد، ويأمره بكلمة: اقتلها. يتقدم أحمد كالمنوم يدفع السكين الطويل أمامه. يتقدم. لا تتحرك فطومة. يتقدم، رأس السكين عند البطن. فوق السرة، لا تتحرك، الدم ينبجس من الثوب فوق الحزام... حد السكين ينغرز تدريجياً، الخرق يتسع والدم يتكاثر متقاطراً يتدفق... يغيب السكين الطويل حتى النصل. تسقط أخيراً. يسحب أحمد النصل بأمر. يمده نحو الحاج مهدي وفي لمح البرق تطير رأس أحمد. اليوسفان القديسان واقفان. الحاج مهدي يقف مستغفراً... ابنتي يا فطومتي ويا فلذة الكبد احمد سامحاني، إني ظلمتكما سامحاني على سوء ظني. لا بد من العودة. اللعنة على الضجة. الناس مزدحمون يملون الدار والشارع. ماذا حدث؟ لا شيء. الحاج مهدي قتل زوجته. وجدها وابنه عاريين ملتحمين. قتلهما معا وقتل نفسه اللعنة على الضجة. المجرمان ماتا في الحين أما الزوج المخدوع والوالد المفجوع، فلا يزال به رمق. اللعنة على الرؤية والسماع وضجة الدماغ. لا بد من العودة. كيف قطعت كل هذه المسافة؟! لا بد من العودة لابد. لا بد.

أعود. الأرض تميد بي عند موطئ كل قدم وأنا أعود. كيف ألقاهم؟ ما

أول مشهد سيواجهني؟ تجمع الناس أم بريق السكين؟ كيف يظهر ذلك على وجهي؟ ما ملامحي؟ عند كل خطوة يتضخم التهيب والجزع. هل أستطيع مواصلة الطريق؟ مع ذلك عدت! عرفت ذلك من باب الدار، لطخة اللون الأخضر والرقم 17 وضوء المصباح الذي يسْطع من الحانوت الركني للحاج مهدي، تلمع أوانيه النحاسية الضخمة أمامه، لا تجمع في الخارج. الضجة داخل رأسي.والمأساة داخل الدار. الحاج مهدي لا يتوعدني ولا ينتظرني بسكينة العيد ولم يقتل فطومة، بل قتل نفسه، وترك الحانوت ملكاً مشاعاً مضاءاً مفتوحاً؛ توقفت عند عتبة الدار أتسمع. لا حس. لا صوت من الداخل عدا داخلي الهادر. الدار ميتة من الداخل. الموت لا صوت له ولا حس. خطوة. تجاوزت الباب، خطوة ثانية ثالثة. لفني صمت الموت برودة القبر وظلامه. دفعت الباب الفاصل. لا صوت. فطومة تواجهني تهرع إليّ. أين كنت؟. ماذا فعلت؟ أين ذهبت؟ تحركني من كتفي عبثاً. أنتظر أن تقول لي ما حدث وكيف وما سيحدث؟ كيف.بماذا قتلت الحاج مهدي وكان المنتظر أن يقتلها هو؟ تهزني تحركني. اسمع، كن عاقلاً، اسمع أيها الأحمق. ستخرب علينا الدنيا إذا لم تتعقل. كيف تخرج في تلك الهيئة؟! لو رآك الحاج مهدي ماذا كان يظن وماذا يفعل؟ اسمع وكن عاقلاً. سيعود بعد قليل للعشاء. كن عاقلاً. انس كل شيء. لا تظهر شيئاً، اذهب اغسل وجهك، رتب حالك وكن طبيعياً هادئاً. أمسك كتابك واشتغل كعادتك. لا تخرب الدار عليّ وعليك وعلى والدك؟ أتسمع؟ اسمع. اسمع. بسمعت. لا أستطيع أن أتحرك، ارتفع صمت الموت عني وعما حولي، لم أعد أسمعه، غابت الضجة من داخلي والأزيز وانطفأ البركان. حل الجمود الأبله.

❑ ❑ ❑

لعلي كنت أقرأ. على كل حال كان بين يدي لا شك كتاب أو دفتر.

سمعته يدخل. خطواته تضرب في أذني. خشخشة الورق الملفوف سمعتها قوية في أذني وهو يسلمها مشتريات العشاء في صحن الدار. جاءني صوتها خافتاً جداً متضخم الخفوت، لا يلتقطه غير سمع مرهق كسمعي، كانت تتكلم من داخلي في داخلي، لم أسمع بأذني بل بكل جارحة في بالمسام ورؤوس الشعر. لأتحرك نحو غرفته. انتهيت. تخبره الآن بما شاءت وتأتي نهايتي أكيدة محسوبة، لا تفزعني النهاية، رؤيتة هي الفزع الكبر. كيف هو الآن وكيف سيكون، عيناه، لحيته، قبضة يده الغليظة، رأسه؟ أشعر أني لم أر أبي أبداً. لم أره ولا أستطيع أن أتصور الآن ملامحه، كيف تكون عيناي أمامه؟ كيف أهتز أرتعش؟ ساد هدوء قاتل، هدوء ما قبل العاصفة الكاسحة، لعلها تخبره بهمس يعز عن كل إرهاف. طبعاً. أنا أكبر أحمق ومخدوع في العالمين. كيف لم أعرف أنها كانت تحت رحمتي عندما كنت خارج الدار. كان بإمكاني أن أتوجه إليه في الحانوت وأخبره، فيكون لي السبق، أعترف بذنبي وذنبها، على الأقل أخفف من خيانتي له وأنا ابنه، لا. كان من الممكن أن أعترف بذنبها هي فقط، وأبرئ نفسي، يوسف!؟ نعم. يوسف الصديق. وكانت تقدر ذلك وتنتظر أن أفعله وتخافه. الآن لم أخبره بشيء، ولم أنهض لاستقباله. بل إني أتخفى عنه ولا أستطيع مواجهته، والقياد بيدها هي الآن، تخبره بما تشاء بالصورة التي تشاء، وتكون سباقة وشريفة ويوسفة قديسة! هل فات الوقت حقاً لأخبره؟ أقوم وأصرخ بكل قوتي! إنها تكذب عليك، كانت البادئة كانت الظالمة كانت زليخة؟! لا يزال متسع لأفعل ذلك. بالتأكيد ويجب حتماً. ربما لم تخبره بعد، أو على الأقل لم تنته من إخباره. لا يمكن أن يعتقد أنني أخبره الآن، لمجرد أني سمعتها تقوم بذلك. بل سيعتقد ذلك حتماً. انتهيت. ليتني أنتهي.

ـ أحمد.

انتفضت. يدعوني، ذعرت، ارتبكت ودرت حولي مرات أبحث عن ماذا؟

ـ أحمد.

توجهت لا أدري كيف؟ لكنني أدري حقاً أن فكرة واحدة كانت هي الخاطر الوحيد الذي يملؤني ويغزوني مرات مع كل خطوة من مسافة الغرفة للغرفة، إذن تنقصني شجاعة التنفيذ. ووصلت أخيراً عتبة الغرفة كالمخدّر المسطول، قالت بصوت ضعيف:

ـ ادخل تتعش.

لعلها تشجعني، كانت قبالة الباب. لا تفوتني الصفرة التي تجلل وجهها رغم أثر الزينة. أحسست بي أجلس بجانبه، لم أرفع بصري ولا أستطيع مواجهته. المائدة المستديرة القصيرة يتوسطها طبق سمك مقلي ورؤوس فلفل أخضر، تحيط به قطع الخبز الأسمر. كان قد بدأ يتناول، وأمرني أن أفعل دون أن يلتفت:

ـ كل أنت.

مددت يدي كالمخدَّر. انتبه إلى أنني بعيد عن المائدة، أمرني بأن أجلس قبالته، فعلت دون أن أرى أو أسمع.فطومة كان لها عذرها الأكبر. غبطتها كثيراً على حالها، الوحم يمنعها من الأكل وهو يعرف ويوافق، بل هي لا تتحمل أن ترى مشهد الأكل. هو يعرف ذلك ويوافق وأنا أيضا أعرف... ومع ذلك مدت يدها، التقطت بضعة رؤوس فلفل أخضر وقامت لتحتفظ بها لنفسها. أكلت زيتوناً أسود. وهو يعرف ويوافق وأنا أيضاً أعرف وأوافق، لكن يجب أن آكل. لا عذر لي، ليت لي عشر معشار عذرها. مددت يدي مرة ومرة. أحسست بعد مرات، أن اللقم تتزايد في شدقي، أمضغها بعضاً على بعض، ولكن قوة البلع منعدمة. آونة بعد أخرى كنت أهتز كالمقرور، حاولت أن أسيطر على ذلك. فشلت أصبحت الهزة نظاماً رتيباً، انتبه إليّ، الهزة الرتيبة الغريبة، بلعت دفعة واحدة قال: مالك؟ ماذا قلت؟ لمحة لا تقدر، التقت عيناي بعينيه وهما تعودان

إلى المائدة، رأيت فيهما بياضاً، ولا شيء أكثر، أفضل أن يهوي علي ليريحني من البلع. الهزة تذوب شيئاً فشيئاً، أنتظر عودتها لأستعد لها، لكنها بدأت تتلكأ وتماطل. عالجها بنظراته. فطومة الآن ترقب الموقف متكئة على مبعدة منا: لا شك أنها مفتحة العينين على أقصى سعتهما. وهذا يزيد من غصتي، اللقم تتراكم في شدقي، أجاهد للبلع فلا أجد إلا مقاومة معاكسة.

ـ كل. مالك أنت؟!

بلعت، هزة وشهقة في آن واحد. تلاحقت الشهقات، أحس بنظراته تتفحصني عاجزة عن أن تعالج حالي، جاء بكأس ماء، قال: اشرب. امتلأ شدقي بالماء. مع ذلك بلعت وأخذ الماء طريقه... إلى أن انفجر كل شيء في رجعات قيء مندفعة مفاجئة ولم أعد أذكر شيئاً.

❑ ❑ ❑

قال الرواي... في أقصى حدود كغاشي شمالاً، ترتفع سلسلة قمم وعرة تتخللها وديان جافة، وفجاج ضيقة، عرفت بمناجم الملح المتوافرة فيها على شكل آبار وأنفاق عمودية وأفقية حفرتها أظافر الإنسان قبل أن يعرف الفأس والرفش... ولم يكن لرقعة كغاشي هذه شأن لولا وجود مناجم الملح هذه في ذلك العهد السحيق، حتى أن اسم الرقعة نفسها مشتق من الملح أو منسوب إليه كما مر بنا.

قال... كانت فجاجاً ضيقة، وودياناً جافة، تعبرها كل حين، في صفوف طويلة سلاسل من بني آدم، حافية الأقدام أو كالحافية، عارية الأجسام أو كالعارية، ترسف في الأغلال، تتقدمها، وتسير خلفها بنفس النظام، كوكبة من الحراس الأشداء على بغال قوية، وكانت قوافل الراسفين في الأغلال تمثل جموع السجناء البائسين، من الذين تكتب عليهم الجريمة أو يعتبرون من مرتكبيها،

تمضي قوافلهم تحت الحراسة والقيود حتى يسلموا إلى حراس المناجم...

قال... كانت فجاجاً ضيقة ووديانا جافة تعبرها أيضاً كل يوم صباح مساء في اتجاه معاكس لقوافل السجناء، قوافل الحمير والبغال المحملة بأثقال الملح منحدرة إلى القلب كغاشي، حيث يوزع بنظام وحساب دقيق، وتحمله قوافل أخرى إلى بقاع المعمور المختلفة، بما فيها التراجان أنفسهم... في عالم لم يكن في ذلك الوقت السحيق، يعرف منجماً للملح أو مصدراً غير هذه الرقعة السعيدة. وكان ذلك سبباً في كثير من الغارات والحروب التي شنت على كغاشي، ومن أشهرها حروب الملح التي مر ذكرها.

قال... وكان لوظيفة «صاحب الملح» شأن عظيم في بلاد كغاشي، وهو منصب كبير يخول لصاحبه حضور كافة المجالس العليا والمشاركة في تدبير أمور البلاد، فقد كانت كغاشي بلد الملح الوحيد المعروف إذ ذاك، تصدر للمعمور بأسره ما يطيب طعامه. ومن ثم لم يكن يتولى هذا المنصب إلا ذو حنكة ودهاء، لا يكاد يضاهي سلطته في كغاشي كلها أحد. وكان يلي ذلك في الأهمية منصب «صاحب العصا» وهو منصب هام أيضاً، يخول لصاحبه حضور كافة المجالس العليا والمشاركة في تسيير البلاد، يتحكم صاحبه في المحاكم والسجون وسن القوانين، وبصفة عامة كل ما يمس القضاء. ويعتبر هذا المنصب مكملاً لمنصب صاحب الملح، فلا قيام لأحدهما بدون الآخر إلا إذا اجتمعا لواحد. ذلك أن مناجم الملح، تحتاج إلى الأيدي، وهذه لا تتيسر إلا عن طريق السجون، أي عن طريق المحاكم والقوانين التي تصدر أحكامها على المتهمين، فيقادون مجرمين سجناء مباشرة، لاستخراج الملح. وهناك منصب صاحب السيف وهو قائد الجيش... وتوجد مناصب أخرى عديدة ولكنها تنفيذية كرئيس المناجم وغيره.

قال... وقد اجتمع لشهراموش عظيم كغاشي في عصره المجيد وعزه التليد ثلاثة رجال لا أصلح منهم لتولية أهم المناصب: وهم شيهوك صاحب الملح، وهمشير صاحب العصا وقد مر الكلام على أهمية وظيفتيهما. أما الثالث للمنصب الثالث فهو زاهور... مرَّوض الوحوش، الذي كانت مهمته العناية بالحيوانات المفترسة وما إليها وترويضها.

قال... ولم تكن مهمة ترويض الوحوش، ترفيهية فحسب، بل إنها بالإضافة إلى ذلك مهمة رسمية وطنية، نظراً لما كان يعقد من مناسبات كبرى ومهرجانات، تتركز الفرجة فيها على المشاهد الغريبة التي تؤديها مختلف الحيوانات نتيجة الترويض ولا سيما المفترسة منها أو السامة.

قال... وكانت حدائق شهراموش حافلة بأنواع تلك الحيوانات التي يباهي بها عظماء المعمور.

قال... وكان منصب مرّوض الوحوش يضمن إلى ذلك مهمة الجلاد الذي ينفذ فصل الرؤوس عن أجسادها، عندما تدعو الضرورة إلى القيام بذلك في المشاهد الرسمية، وأمام الملأ، وكان ذلك يحدث بالذات بالنسبة للأعداء الشخصيين لشهراموش، أو من يعتبرون خطراً عليه، فمثل هؤلاء، لم يكن من المحتمل في حقهم أن يقضوا حياتهم في مناجم الملح، بل ينهي أمرهم مباشرة على يد زاهور ويقدمون فريسة لوحوشه.

قال الراوي... جلس شهراموش كعادته على سريره المذهب، تحمله ست قوائم دقيقة الصنع تمثل كل منهما حيواناً مفترساً منبطحاً مكشراً، وقد نصب السرير على مرتفع سبع درجات في بهو فسيح مستطيل ترتفع في وسط قاعته قبة هرمية الشكل، تتراقص فيها ألوان المعادن النفيسة المذابة، وأشكال الحيوانات الغريبة المنقوشة، وتتدلى منها المصابيح الزجاجية بمختلف الأحجام والأشكال.

قال... وقف علية القوم بين يدي شهراموش، في صفين على يمين ويسار المجلس، يتقدمهم شيهوك صاحب الملح بقامته القصيرة وجسمه المكتنز، وهو يتحدث بصوت مرتفع كله اعتزاز بما تحقق على يديه من مداخيل الملح لذلك الحول، حتى لقد ذكر في حديثه أن حصيلة ما جمعه من الذهب مائة ألف ألف «دوز»[2]. ومن الفضة ألف ألف ألف. ومن العاج سبعون ألف «قارو»[3] ومن خشب الصندل مائة وخمسون ألف... من الأنبوس... ومن أنواع العطور الجيدة والنادرة... ومن الحرير... ومن... ومن...

قال... وإن لمتعجب أن يتعجب من تجميع هذه المواد النفيسة دون المال المتعارف عليه، مع أن تجارة الملح لم تكن تجري بالمقايضة بل بالمال؟ وسبب ذلك كان من جملة ما يفخر به شيهوك ويعتز في خطابه في هذا المجلس، فقد رأى من حسن تدبيره، إصدار أوامره للقوافل المتجهة إلى الجهات الأربع من المعمور، بأن يستبدلوا مال كل بلد يبيعونه الملح، بمواد نفيسة في عين المكان، سواء كانت معادن نفيسة مسكوكة أم غيرها. ذلك أن صاحب الملح في كغاشي لاحظ أن المال يدعو إلى صرفه بالإضافة إلى صعوبة الحفاظ عليه، وإلى ما يدعو أحيانا من تقيد التعامل بعملة ما، مع عين البلد الذي يستعملها عند صرفها... وهكذا فكر واهتدى إلى هذه الطريقة الجديدة التي أعجب بها علية القوم وعظيمهم بالذات لأكثر من سبب، من ذلك أنها ولدت للقوم تجارة داخلية جديدة، وفتحت أسواقاً وآفاقاً، فالمواد النفيسة أصبحت بدورها تشكل تجارة في الأسواق جديدة خلقت خلقاً، وأدت إلى رواج تجاري هام في كغاشي.

قال... وبعد عرض هذا الجانب عرج شيهوك على عدد القوافل التي يملكونها، والتي تنتقل بالملح وتنقلها، وهي فيما قال أصبحت تزيد عن مائة

(2) وزن عندهم يقارب الرطل.

(3) وزن عندهم يقارب القنطار والربع.

وعشرين ألف وحدة[4]. كما أن عدد المجرمين العاملين بمناجم الملح، أصبح يناهز ثلاثمائة ألف شخص... والحاجة تدعو إلى المزيد منهم إلى حدود مضاعفة العدد لرفع الإنتاج، ولاحظ شيهوك أن الإنتاج في مناجم الملح يعرف ثباتاً منذ ستة شهور، ويخشى أن يبدأ في التنازل بينما الطلب يزداد...

قال... وكان شيهوك ماهراً بليغاً وحاذقاً في تنظيم أفكاره وعرضها، والعناية بالشاذة والفاذة، دقيقاً في الإحصاء والحساب وأساليب البيع والشراء... فلما أنهى عرضه قال مخاطباً عظيم كغاشي:

ـ والآن أيها العظيم، هذه محصلاتنا.

وأومأ شيهوك إلى زاهور مرّوض الوحوش، الذي تقدم خطوات إلى الأمام، حتى برز على من في المجلس، وظهرت قامته الفارغة، وجذعه وأطرافه الضخمة، يستر ما بين سرته وركبتيه بقطعة من جلد فهد مرقط، ويتقاطع على صدره ووسطه أحزمة جلدية غليظة تلمع عليها قطع نحاسية مستديرة، وتشد على عضدية وساعديه مثل ذلك، قال... كان زاهو ببشرته البرونزية، وكيانه الضخم المتكامل، وخطوات الاعتداد، والسوط الملوي الذي لا يفارقه صورة جيدة لمثال القوة الجسدية.

قال... تقدم زاهور وصفق، وانفتح باب كبير في أقصى البهو، وبدأت تدخل منه متتالية في نظام فيلة وفهود وأسود ونمور... واحداً واحداً تحمل على ظهورها أمتعة وصناديق وسلالاً مما كان شيهوك يعد أمام المجلس منذ برهة. وكلما اقترب أحد هذه الوحوش من أولى درجات سرير شهراموش، أصدر زاهور أمره إليه بفرقعة السوط والصوت، فيثني الوحش قوائمه وينحني تحية، بينما يتقدم شيهوك ـ في حماية زاهور ـ ليأخذ عينة من الحمولة ويعرضها على

(4) الوحدة عشرة دواب من بغال وجمال.

أنظار شهراموش وعلية القوم، شارحاً نوعها ومقدارها وكيفية الحفاظ عليها في المخازن.

❑ ❑ ❑

حديقة مردوخ. لم أكن أعلم أن بها أشجاراً مثمرة رغم أني ترددت عليها مراراً. عنب وتفاح وإجاص وبرتقال... فصل غريب تجتمع فيه الفواكه وكل البهجة والفرحة. أنغام الطير صداحة، عيون ماء ملون مفتحة. عرائش طبيعية ظليلة من دوالي علت فروعها ثم التوت وتشابكت، وتدلت فواكهها متنوعة شهية، بكل الألوان والأطعمة والأحجام. الحاج مهدي في لباس حريري أخضر مطرز الحواشي بالقصب، أمي زهروية في بياض... جالسان تحت العريش الظليل يقطفان العنب والرمان والخوخ... ثماراً دانية، يجري أمام مجلسهما جداول ماء لجيني رقراق، يتسع ويتضخم، وتتسامى منه أبخرة... يتصاعد ويتضخم يستحيل خريره شخيراً ثقيلاً وماؤه الرقراق كتلة حامية سائلة من حميم البراكين، يجرني في تياره البطيء المتأني يحرقني ويخنقني، ويكتم أنفاسي بروائحه الكريهة، يمر أمام العريش الظليل بمجلس زهروية والحاج مهدي، لا يتأثران بشيء من ذلك. منعمان يأكلان ويشربان من قطوفهما، يتحدثان ويضحكان من بهجتهما... هنيئاً مريئاً، أناديهما وأنا على مقربة شبرين منهما، يسوقني تيار الحميم المتأني، فلا يسمعان، لا يريان ولا يسمعان، كأنما حاجر سميك شفاف ومعتم يحجبهما، ويحجبني عنهما. أستغيث وأناديهما دون جدوى، يبتعد بي التيار البطيء عن مجلسهما ويبدأ مجراه في الإسراع. أدور في فورة سرعته، ولكني دائماً منساب في اتجاه مجراه. أختنق في أعماقه دون أن أموت أو أحيا.

ألسنة اللهيب تترامى داخلي، لا يمكن أن أفيق، لا يمكن أن أنام، لا أجوع ولا أعطش. النار في الفراش، الشوك في الغطاء على كل جنب. أطفئ

النور، أبرد أسخن. أخفي رأسي تحت الغطاء أخرجه. أتنفس أمتنع عن التنفس. أشعل النور مرة أخرى، ومرة أخرى أطفئه وأشعله لأقرأ، أقرأ الزبانية تتقافز على الحروف، تظهر وتختفي بين السطور، لا أدري ماذا أقرأ ولا أي كتاب أو دفتر في يدي. أطفئ تشتعل النار. الراحة لا راحة. هوس اليقظة والحلم. أفيق لأبكي. شيء حاد مكتنز أشعر أنه ينضغط في حنجرتي، لا يصعد ولا يهبط، ينحصر كرة صغيرة صلبة حادة، ولا يستطيع أن يخنقني نهائياً أو يحررني، لماذا لم يأخذوني إلى الشرطة من سنوات أو إلى الخيرية الجهنمية التي كان يفزعني بها؟ أعض على يدي، أعض على الغطاء. أضرب جبهتي مراراً بكفي، بقوة لا تميت شيئاً ولا تحيي شيئاً، أبكي وأنتحب، أقاوم إلا يسمعني أحد. لكن يفتح الباب وأسمع صوت الحاج مهدي:

ـ أحمد، أشعل الضوء.

أشعل، أجلس في الفراش متحفزاً. لا مجال لإخفاء شيء، وجهي ينبئ بحالي، يقترب مني وأشعر بها خلفه دون أن أراها يسألني: مالك؟

يزداد الضغط الحاد على حنجرتي من الداخل بشيء ثاقب مكتنز، نهرني:

ـ أحمد. مالك؟ قل مالك؟

يأتي منها جواب أسمعه دون أن أراها:

ـ قلت لك...

يضع يده على كتفي، يضمني إليه. قالت له إني بلا شك اشتقت إلى أمي وإخوتي، هذا واقع ولكن... كنت أنتفض بشكل جنوني أغالب البكاء والنحيب لأغرق في البكاء والنحيب. أعارض الضغط بضغط أشعر بأنه يتضاعف ويضعف، ويصدر بكائي اهتزازاً جنونياً ونحيباً. يمكنني أن أعود إلى

أمي. سمعته يقول ذلك. أنا أعقل أبنائه سمعت ذلك أيضاً. انفجرت ولا سبيل إلى التوقف. اهتز، بدأت أنتف شعر رأسي وازداد انتحاباً، شعرت به مجمداً، شعرت بها ترشني بالماء... لعلي بدأت أهدأ، حين حسم الأمر.

ـ يا الله. قم اجمع حوائجك.

دخل بي على أمي. ارتاعت لحالي. عبد الله يفاجأ في موقف يعلم أنه لا يسر الحاج مهدي. لكن أبي لا يعبأ بشيء. محمد لم يرجع بعد، والحاج مهدي لا يسأل عنه ولا عن أي شيء، زهروية تسألني وتسأله مباشرة، يرد عليها مباشرة. لا أسمع شيئاً، فأنا لست هنا، ولن أنام ولن أفيق. لن أحيا ولن أموت.

❑ ❑ ❑

مشهد

(شهراموش على سريره المعتاد. أمامه يجلس أصحاب المناصب إلى اليمين على المقاعد وثيرة واطئة، إلى يساره يجلس علية القوم من كبار الأعيان والتجار ورؤساء القوافل يبدو شهراموش مكدر المزاج).

ـ **شهراموش**: (موجهاً كلامه إلى الجميع): اعلموا أن الناصح شيهوك صاحب الملح قد صارحني بما آل إليه إنتاج الملح من تناقص مستمر، وتعلمون أن عظمة كغاشي قائمة على هذا الإنتاج وامتلاك سوقه امتلاكاً مطلقاً، وتعلمون أن لنا التزامات مع عظماء المعمور، لتلبية احتياجاتهم للملح، وقد كانت حروب الملح التي خضنا غمارها عقداً من الزمان ناتجة عن الطمع في الاستيلاء على مناجمنا، بعد أن عجزنا عن تلبية احتياجات البعض، بسبب قلة الإنتاج أو بسبب امتناعنا عن بيع ملحنا لبعض العظماء، فما كان التراجان في حربهم لنا إلا مدفوعين ومتواطئين متحالفين مع الطامعين في مناجمنا... لا أريد أن أعيد عليكم تفاصيل حرب تعرفونها وتعرفون ما حزناه فيها من نصر، وما دفعناه من

ثمن... ولكنني أريد أن أعرف بالضبط وبكل التفاصيل، سبب نقص الإنتاج لنصل إلى معالجته. فليتكلم كل منكم بما عنده دون مواربه أو تلكؤ.

ـ **رئيس القوافل** (متهيباً): إذا أذنتم لي أيها العظيم...

ـ **شهراموش** (يقاطعه في تذمر): أذنت لك ولغيرك فقل ما عندك.

ـ **رئيس القوافل** (متشجعاً): أيها العظيم... ليس الإنتاج وحده هو الآفة أعني ليس المشكل في الكم بل في النوع أيضا.

ـ **شهراموش** (مستعجلاً ومتعجباً): أفصح.

ـ **رئيس القوافل**: أيها العظيم لقد ذكر لي بعض رجال القوافل أن أجساماً غريبة حية كالديدان والنمل وغيرها، أصبح ملحنا ينغل بها، وهي إلى ذلك كله تقرض الأكياس والتلاليس طيلة مسافة ومدة السفر، بحيث تضيع أحمال كثيرة وثروة هائلة من مقادير الملح، بالإضافة إلى نتانة الملح التي ترجع إلى الأجسام الغريبة الحية وغيرها، فقد وجدنا بالفحص أن النتانة تفوح من ملحنا ووجدنا قطعاً متنوعة من بقايا أجسام حية تركزت فيها النتانة... وهذا يؤذي إلى نفور من بضاعتنا.

ـ **شهراموش** (دهشا): نتانة في الملح! هذا غريب.

ـ **رئيس القوافل**: صدقت أيها العظيم.

ـ **شهراموش** (للجميع) ما رأيكم فيما تسمعون؟

ـ **رئيس المناجم** (يتقدم نصف خطوة بما يبرزه): أيها العظيم... إننا قد انتبهنا إلى العفونة التي يتحدث عنها رئيس القوافل، وعرفنا مصدرها الوحيد، المحتمل، وقد اتخذنا بعض ما يلزم للحد منها والقضاء عليها.

ـ **شهراموش**: فيم تفسرون ذلك؟

ـ **رئيس المناجم**: السبب الوحيد المحتمل للعفونة وسائر الأجسام الغريبة هو أجسام بعض المجرمين الذين يمرضون ويموتون في أعماق المناجم. ويتهاون المجرمون الآخرين في التبليغ بأمرهم وإخراج جثثهم إلى السطح، فتبقى أجسادهم لتحلل في المناجم، يضاف إلى ذلك ما اكتشفنا آثاره من أن بعض المجرمين فيما يبدو، عندما يصعدون بعد انتهاء يومهم في الأغوار يمارسون صيد بعض الأرانب، وسرقة الشياه، رغم الحراسة المشددة، ويدخلون بها المناجم لافتراسها هناك. فتتبقى من ذلك بقايا تفسد وتشيع النتانة... وهناك أيها العظيم فضلات هؤلاء المجرمين الذين لا يتورعون عن إتيانها في الأملاح رغم العقاب المسلط عليهم مقابل ذلك... على كل، فلم يبق بعد الآن خوف من كل هذا بفضل تعليمات الناصح صاحب الملح.

(يتأخر رئيس المناجم مستأذناً بإيماءة في العودة إلى مكانه... ويتقدم من صف اليمين صاحب الملح، شيهوك خطوتين نحو سرير العظيم).

ـ **شيهوك**: الأمر بسيط أيها العظيم، فبالإضافة إلى مضاعفة الحراسة، أمرت بخلق «مشمسات» وهي متسع من سهل الأرض، يبعد شيئاً ما عن جبال المناجم. يعرض فيه الإنتاج للشمس طيلة أسبوع ثم يغربل هناك قبل وسقه. وهو عمل سهل التحقيق سيعيد إلى إنتاجنا جودته ويطهره من النتانة، ولكن...

ـ **شهراموش**: (وقد بدا مستبشراً يتتبع عرض شيهوك). ولكن ماذا؟ قل.

ـ **شيهوك**: (بأناة)، يتطلب منا خلق هذه المشمسات، البحث عما بين ألف إلى خمسة آلاف مجرم إضافي للعمل في كل مشمسة حسب أهميتها... ولكن هناك مشكل رفع الإنتاج الذي يحتاج بدوره إلى أعداد كبيرة من المجرمين في الوقت الحاضر...(يتوقف عن الكلام ويومئ إلى رئيس المناجم).

ـ **رئيس المناجم** (يتقدم): إن الأمراض تهدد إنتاجنا أيها العظيم، فالمجرمون يتساقطون يوماً بعد يوم وتتناقص أعدادهم عند الرواح إذا غدوا وإذا أصبحوا...

لقد تفشى فيهم ما يشبه الوباء، ومن ثم يجب الكف عن تغذية المناجم الحالية بمجرمين جدد، بل من الضروري فتح مناجم جديدة لهؤلاء يمكنها بالتدريج أن تكتمل إلى أن تعوض الإنتاج كله.

ـ **شيهوك** (باعتزاز ظاهر): إحصائياً أيها العظيم. يتبين أن استمرار الحال على ما هي عليه سيؤدي إلى انقراض مجرمي المناجم الحالية خلال عامين تقريباً...

أقول إحصائيا أما عملياً فيمكن أن ينقرضوا خلال ستة أشهر إذا سارت وتيرة الإصابات على ما هي عليه.

ـ **صاحب العصا** (يتقدم وهو يعدل طوق بذلته بحيث يبدو الرسم المذهب للعصا والميزان في منتصف صدره تماماً): أريد أن أقول -إذا سمحتم أيها العظيمـ أن من الصعب التفكير بوضع اليد على حوالي ثلاث مائة ألف شخص خلال عامين فقط، بالإضافة إلى ما تتطلبه المشمسات الجديدة من مجرمين... أقول يصعب ذلك لما وصله ثمن الخبز حالياً في الأسواق مع قلته... فأغلبية المجرمين الذين نغذي بهم المناجم هم من المزارع، فبقدر ما ندفع بأعداد منهم إلى مناجمنا، تقل أعداد العاملين في المزارع ويرتفع ثمن الخبز... وبالإضافة إلى ذلك فقد وجدت أن القبض على واحد من هؤلاء كمجرم يكلف تماماً، ما يكلفه المجرم العامل في المنجم طيلة سنتين، ذلك أن القبض على مجرم يسبب خسارة أولية بسبب الفوضى التي يثيرها عند القبض عليه، وبسبب الظروف التي يجب خلقها قبل ذلك، كتوجيه التهمة إليه ثم محاكمته بعد ذلك... فهذا كله مكلف، ولاسيما إذا احتاج الأمر إلى مئات الآلاف.... صحيح أن الشخص بمجرد ما يصبح مجرماً، يصبح كله ربحاً في المناجم، ولكن حساب ما تكلفه ثلاثمائة ألف قبل وصولها للمناجم، وبوجه خاص ما تسببه من فراغ في المزارع، يجعل من الأفضل التفكير بطرق أخرى. أقل تكلفة.

ـ **شهراموش**: (بعد تأمل وفي شيء من الضيق): هل هناك طريقة أخرى؟

ـ **شيهوك**: إذا تجاوزنا طريقة العلاج الطبي لمجرمي المناجم، نظراً لكلفتها وعدم نجاعتها في حالة الوباء أو ما يشبهه، فتبقى هناك طريقة اقتصادية بنسبة النصف.

ـ **شهراموش**: قل ما هي؟

ـ **شيهوك**: إننا نحتاج الآن إلى معدل ما بين أربعمائة إلى ستمائة مجرم يومياً، لمدة عامين، لنستطيع تعويض المناجم الحالية بمن فيها، لكن إذا كان المجرمون من القادرين على الإنتاج حقاً، لا من الشيوخ والمرضى أو الضعاف، فيمكن أن نكتفي بنصف العدد، وربما بالثلث منه... ومعنى ذلك أن اختيار المجرمين يجب أن يكون مدروساً بدقة.

ـ **صاحب العصا** (وقد أدرك ما في كلام شيهوك من تعويض): إن صاحب الملح ـ إذا فهمت مقالته ـ يستصغر القبض على عشرات المجرمين يومياً. فيطلب المئات ويشترط أن يكونوا من الشباب القادرين الأقوياء... ولكن، ليكن في علمه أن الناس قد يعتقدون أننا على خطإ في توجيه تهمة الإجرام، ما دمنا نقبض على الأشخاص بطريقة كالصدفة، من كل الأعمار ومن الجنسين أحياناً... ولكن عندما تصبح العملية مسلطة على الشباب القوي القادر فقط... فماذا يقولون؟ وهل يبقى الخطأ أو الاجتهاد عذرنا؟!

ـ **شيهوك**: إذا كان صاحب العصا يعير كلام الناس بعض الاهتمام، فإنهم لابد يعلمون كل شيء، سواء تغيرت الطريقة أم استمرت كما هي... ومن وجهة أخرى، فإن عنصر العمل في المزارع لا أهمية له، فالمال المتحصل من أثمان الملح، كفيل بتغطية النقص في المزروعات.

ـ **صاحب العصا** (يهم بأن يتكلم...)

ـ **شهراموش** (يومئ إليه بالسكوت): لا أريد أن تنصرف المناقشات بينكم إلى غير وجهتها... ولا شك عندي في إخلاصكم جميعاً. واجتهاد كل منكم في القيام بمأموريته خير قيام... فلنتكلم بهدوء كامل، ولنلخص المشكلة في أنها ضرورة العثور على كيفية نقبض بها على أكبر عدد ممكن من القادرين على العمل، بتهمة الإجرام، دون أن يثير ذلك ريبة أوشكاً، أو على الأقل دون أن يزيد في الريبة والشك أو يبالغ، مع اعتبار ضرورة استمرار العمل في المزارع، وخدمة الأرض في حدها الأدنى على الأقل. حتى لا تسود مجاعة مطلقة. هذه هي المشكلة وهذه هي الصعوبة. فلنبحث عن حل هادئ.

❑ ❑ ❑

تخيلت الحاج مهدي وقد شعر ببعض الضيق من جراء ما وقع لولده أحمد، قطعاً لحد الآن لم تخبره فطومة بشيء، وقطعاً يكون أحمد فلذة من كبده، أما الضيق والكدر الذي أتخيل أنه أصابه من جراء حالة ابنه، فيخالط أسبابه أن هذا الولد إذن رغم كل شيء، لم يستطع أن يتحمل فراق أمه وإخوته. وأكثر من ذلك أنه تحمل ذلك وكتمه طويلاً حتى انفجر رغماً عنه، ما دام هذا هو التفسير الوحيد. وأتخيله مع ذلك يجد العزاء من هذا الكرب الخفيف في جنته الوارفة الظلال: فطومة، وقد انحازت إلى ركن خفي حكمته الشهيرة إن كيدهن عظيم. أتخيله الآن مكثراً من تلبية طلباتها، بعد أن غاب عنها من كان على كل حال، مؤنساً لها كلما عاد من مدرسته، وفي انتظار المؤنس الجديد السعيد. أتخيله وقد لمح صفرة تخالط محيا فطومته، واكتئاباً يردهما إلى حالة الحمل، يحاول أن ينجدها بخبرته، وربما يسمح لها بالاتصال ببعض العارفات يختارهن لزيارتها ومساعدتها، أتخيله وقد ابتهج أيما ابتهاج وهي تخبره بأنها خارجة إلى الحمام، فذلك يعني عنده أنها خارجة من كآبتها، الحمام في ذهنه

معادل لغسل الهموم والكآبة والأحزان، وتجديد النفوس. وكلما كان يعود إلينا من الحمام في الأيام القديمة، ملفوفاً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه في الدفء، كان يمسح العرق عن وجهه المتورد المتوهج بالفوطة مردداً: الله الله. الحمام نعمة كبيرة. أتخيله أيضاً يعد نفسه للتمتع بنعمة في نعمة... أتخيله كثيراً على هذا النحو، ولا أدري لماذا وأنا في محنتي هذه. ولم أتخيله يطرق بابنا، يدخل علينا في الدار القديمة حوالي العشاء، ومحمد خارج المنزل كالعادة، كنت وعبد الله نطالع بحق، أو على الأقل عبد الله كان يفعل ذلك، وكنت أمسك في يدي شيئا يقرأ، وفكري في خيالاته. دخل علينا. سلم بصوت كالهمس، ترك بلغته عند باب الغرفة وجلس متأوها، لم أره يجلس عندنا هنا من مدة طويلة. لم أكن قادراً على تخيل ذلك. لعليَ كنت الوحيد القادر على توجس ما بنفسه من أول نظرة وأمي كالعادة لم تنتبه لشيء. عبد الله زاد انتباهاً لما يقرأ احتياطا من مفاجأة غارة، بينما كنت أتابع من أول وهلة ما يرتسم على وجه الحاج مهدي. وجه أبيض، بياض العينين الذي رأيته ذلت ليلة في لمحة بصر خاطفة. البياض اتسع الآن ليشمل الوجه كله واللحية. يتكئ على المخدة جنباً ثم على الحائط ظهراً. يرفع رجليه فوق السداري ثم يضع صفحتيهما على الأرض. كان يترنح بالنسبة لي. تجمدت. هذه حال أعيشها ولم أجتزها بعد. كنت بدوري أترنح. توجست خفية من كل حركة من جانبي قد تثير انتباهه. تمنيت أن لا ينتبه إلي، أو لو استطعت الخروج قبل أن ينفجر البركان، وتعصف براسي الصاعقة... تمنيت لو كنت حائطاً أو سداري أو ذرة جامدة... طال الموقف بقدر لا يحتمل... أخيراً تقول زهروية مأخوذة وبصوت ملهوف:

ـ مالك؟ مهدي مالك؟

لم يجب لكنه يترنح في عذابه، كيف يفضي بالأمر؟ كيف أتحمل وقع الأمر؟ ما أول كلمة يبدأ بها إفضاء سره؟ اعترتني دوخة وبدأت الأرض تميد بي

وحركة السقف والجدران في اضطراب...

ـ مهدي... قل مالك؟

اقتربتْ منه، وأخذت تهز كتفه وتتطلع لصفحة وجهه المبيضة، أذكر أن نظرته كانت متكسرة، لم ترتفع إلى أحد منا، وكان يهتز في غير استقرار...

ـ مهدي... تكلم!

بعد لأي قال:

ـ فطومة...

قالها بهمس وتثاقل. وعاد إلى جموده. أشعر بتلقائية زهروية تتوقف عند سماع الاسم. صدمة حقيقية تلقتها. تضخم الصخب في كياني وارتفعت الضجة وحركة الاضطراب ورغبة جامحة في القيء.

استعادت زهروية نفسها. تساءلت:

ـ مالها؟

ظل صامتاً، ليته يحيي أو يميت دفعة واحدة. كنت الأكثر عذاباً بتثاقله وتباطؤ حركاته.

ـ مهدي... مالها فط...؟

ـ غبرت!

كلمة واحدة لا غير. كنت مرهفاً جداً لا يمكن أن يغيب عني حديث المتعب الهامس، لم يقل قتلها أو قتلته! لم يقل سيقتلني أو أقتله! لم يقل أخبرته بشيء قال: «غبرت» فقط لا غير.

كيفاش؟ وعلاش وفين؟

لا يدري. غبرت والسلام. بالأمس أخذت عدتها للحمام، أخبرته

بذلك عند الفطور، تركها تعد أمرها. أعطاها ما يلزم من نقود وزيادة للجلاسة والطيابة... ولترفه عن نفسها بما تشتهيه النساء بعيد الحمام أو قبله. المهم أن تكون مرتاحة ولا تتعب في حمامها. لم تعد في الغداء. وهذا معقول. النساء يمكثن طويلا في الحمام... نصف نهار وأكثر... يتحملن الساخن ويجدن فرصة لتفريغ ما بهن من سجن الدور. لا بأس. لم تعد عصراً... هذا كثير ولكن لا بأس. وهجم الظلام. لا يمكن أن تقضي كل هذا الوقت في الحمام... النهار بطوله كثير جداً... فكيف تضيف الليل؟! أخذه القلق الحقيقي، مكروه محقق قد نزل، حتى لو كنت لا تزال في الحمام فهذا مكروه ولو أنه مخفف ومحتمل.

قصد أقرب حمام. وجده قد أعد للرجال منذ أكثر من ساعة، عندما أخلته النساء قبيل المغرب كما يقضي بذلك النظام، مع ذلك تجاوز حرجه ليسأل الجلاس إن لم تكن هناك امرأة لا تزال في الحمام!!! يا أخي ادخل تر بنفسك إخوانك الرجال كما ولدتهم أمهاتهم. قصد الحاج مهدي أن يسأل عن آخر امرأة غادرت الحمام، متى وكيف والى أين ذهبت؟! يا أخي، الجلاس ليس مفتش نساء! لا علينا. يريد الحاج مهدي أن يعرف منزل الجلاسة والطيابة ومولاة الصندوق... وكل النساء العاملات في الحمام ليسألهن عن امرأة جاءت إلى الحمام ولم تعد. ليست امرأة الحاج مهدي، ولكنها ضيفة وافدة لأول مرة، وقد تكون ضلت طريقها في العودة! طلب معقول. الله يستر. سر يا أخي ويا سيدي والله يبارك فيك طولا مع هذه الزنقة... في آخرها... لا. قبل آخر زنيقة صغيرة. الدار الأولى، الثانية، الثالثة أو الرابعة اسأل عن الحاجة ميمونة. عندما تخرج لك قل لها أرسلني ناصر... و... كان الحاج مهدي قد انفلت قبل أن يسمع بقية الرسالة أو يرد برحمة الوالدين على المفيد... لا الحاجة ميمونة، ولا للامبروكة، ولا حمامات الدنيا والآخرة، القريبة والبعيدة عندها خبر عن فطومة! انتصف الليل والحاج مهدي يعود محطماً إلى داره.قبيل وصوله خامره

شك، بدأ يتضخم أملاً في أنها قد تكون أتت في غيبته، معها المفتاح... متأخرة إلى هذا الوقت..؟ لا. المهم... عذر الغائب معه. المهم أن تكون بخير وأن تفسر غيبتها. حدثت تساؤلات غير مريحة وهو يسأل أصحاب الحمامات ونسوتها. لا يهم. الخطر ليس كبيراً. فهؤلاء ليسوا من أقرب معارف، وكان هو يدعي بأنها ليست امرأته، هل تكون عادت فعلاً!؟

فتح الباب بيد مرتعشة. الظلام يعم الداخل، لم تعد إذن. مكروه كبير محقق قد حدث حتى لو عادت بعد الآن... لو أمكن أن تعود... ولكن أبسط المحاكمات العقلية تقول إن امرأة ما، لا يمكن أن تتحرك في الشوارع بعد منتصف الليل! لكنه بالفعل لم ينتبه إلى أشياء كثيرة غير مرتبة في غرفتهما على غير العادة. أخذت معها أكثر من لوازم الحمام من اللباس والمتاع. معناه، وهل يخفي معناه؟ وهل يصدق؟ لا. السؤال الصاعق... هل يمكن أن يحدث هذا وللحاج مهدي بالذات؟ مع ذلك قضى الليل من أوله إلى نهايته... نهايته أصعب من بدايته. قضاه قائماً ومقرفصا متكئاً وسائراً، في صمت القبور وهذيان الجنون... المهم قضى الليل... انتهى الليل وهذه قوة احتمال، وبدأ النهار، باكراً ناصعاً فاضحاً. مع ذلك لاشيء يمنع من احتمالات واهية ضعيفة مع أن النهار ناصح فاضح.

يبدأ تجولاته من جديد عند مراكز الشرطة والمستشفيات. قد تكون في جناح للولادة، لا تلد امرأة في شهرها الثالث أو الرابع. لكن أشياء كثيرة قد تحدث ويسقط الجنين بتأثير الحمامات أو أي شيء آخر. مرة أخرى يتجول بين الحمامات. لاشيء. يعود به الظهر إلى الدار. بطولة أخرى أن يقضي النهار لآخر النهار الذي لم يبق فيه أمل، ويعود للدار وحيداً مع حاله. وبطولة أكثر أن يتوجه بعد العشاء إلى داره القديمة، وأن يظهر أمام أسرته تلك بالتحطم والانكسار ويعلن بؤسه.

ثارت حمية زهروية: مع ذلك يجب البحث من جديد في المستشفيات البعيدة، ومراكز الشرطة، من يدري؟ لم تظهر عليه مبالاة، كان جملة أجزاء محطمة من كيان ضخم، تريد أن تهبه الأمل؟ لم يبق ما يفيد. على كل فقد استسلم هو. هيأت له الشاي بسرعة رغم عزوفه عن ذلك وضعت أمامه كل شيء مهيأ. وخرجت تتصل وتسعى عند المعارف. أتريد أن تستعرض أريحيتها أم أنها تشفق عليه؟! لم يكن يبدو عليها تصنع. بماذا تشعر نحو المختفية؟ وهل ذات العداء أم أنها لا تريد لصاحبتها أن تفلت بما يبدو انتصاراً؟! وأي انتصار أكثر من أن تترك لها حطاماً، وتدخل عليها الخراب إلى قعر البيت بعد أن عرقت العظم؟ لو عثرت عليها، لو ظهرت فطومة من جديد، ماذا تفعل هي زهروية؟ على كل، كانت حالة كافية لإثارة الشفقة.

يوم ثان وثالث يمضيان في البحث بمساعي زهروية دون جدوى، فطومة غبرت والسلام.

❑ ❑ ❑

كبرياؤه فوق أن يحتمل. أصبحت فضيحة أيضا سخرية وتنكيتاً وجرحاً مقيماً. أن تهجره زوجة الفتية، فمع من ولماذا وكيف؟ أسئلة لا بد أنها دارت وتدور على الألسنة، وكل جواب تشف جديد يشيع النتانة. والناس كالكلاب تبحث عن النتانة. وتنبش في المزابل. وهل يستطيع أن يخرج للناس ويسعى بينهم بمثل ما كان، دون أن ينافقوه في تجاهل ليديروا ألسنتهم السريعة الحادة بما يكره، بمجرد أن يدير ظهره؟ إنهم في فترات انتقال الحوار من طرف إلى طرف، يستغلون فترة الانتقال فيما لو كان بينهم، ليتغامزوا عليه. وهبهم لم يفعلوا ذلك، ألا يضمرون له شفقة ما أكرهها إلى قلبه؟ لا مكن إذن أن يخرج ولا أن يعود لما كان فيه. احسبوه الآن من الحريم! احسبوني من الآن واحدة من النساء المحجبات. الحاج مهدي انتهى، والعالم الآن عليَّ حرام، دبروا شؤونكم

واتركوني لأمري. تبكي زهروية لكلامه بكاء مراً كالصامت. أهكذا يا حاج مهدي يؤول أمرك؟ تدفن نفسك حياً أمامي ولا أستطيع دفعاً للمكروه عنك، أنا المجرمة، لم أنتبه لنمو الأفعى بجانبي، وهي تترعرع وتكتنز سماً. أنا المجرمة في حقك يا حاج مهدي، حميتني وحميت أولادي، ألبستنا وأطعمتنا أحسن اللباس والطعام في أوقات الشدة والرخاء، كنت دائماً رجلاً عظيماً ورب أسرة يحتذى. ماذا أستطيع لك الآن وأنت تدفن نفسك حياً أمامي..؟

زهروية الآن تؤمن أكثر من إيمان الحاج مهدي قديماً بأن كيدهن عظيم. كأنها ليست منهن أو كأنهن ينحصرن في فطومة!.

❑ ❑ ❑

حبس الحاج مهدي نفسه. سجن اختياري. حلف بالأيمان ألا يخرج للناس، وحلفه مقدس. إذا كان له من دين ثقيل على زهروية تشعر به رازحاً عليها كالإثم العظيم، فعليها أن تساعده ليفي بيمينه.

خرجت بنا، محمد وأنا إلى دار فطومة لاستعادة الأثاث، دخلنا بالبخور والتعاويذ، بخرنا الأثاث كله دفعاً للشر، أخرجناه ورتبناه في عربة كارو، وعدنا به إلى دارنا. أدركت بالفعل من خلال انهمار أسئلة الناس علينا، وعبارات الإشفاق على والدي، بل والتحامل عليه، مقدار صدق تصوره، أو لعله أعادني بموقفه من الناس إلى مثل ذلك الشعور، كيف صار المسكين؟ والله ما يستحق؟ ذنوبك يا زهروية! صحيح جُن المسكين؟ ما لم أفهمه ساعتئذ، هو رفضه الانتقال إلى حي آخر والعملية غير مكلفة: كراء مقابل كراء ولا أكثر. القانون الصارم كان اليمين. حلف ألا يخرج ولن يتراجع.

❑ ❑ ❑

بعض أصدقائه حاولوا التخفيف بزيارته، لكنهم توقفوا عن ذلك بعد

خيبتهم الأولى. كان يرفض لقاءهم، وإذا حدث وأدخل عليه أحدهم يلزم الصمت. الصمت الصمت التام الكامل الذي لا يسمح بنفس يخرج. سي سليمان نفسه وهو الأقرب رفقة وسكناً، فشل، تجاوز عن إساءات زهروية إليه باعتباره ساعد في زواج أبي من فطومة.. تجاوز بالطبع، وزاره مرة وثانية وثالثة بدون جدوى. كان يبحث في الكيان المحطم أمامه عن هدب يتمسك به، عن خيط مثير أو محرك، لم يجد إلا الصمت، الصمت الذي لا يشي بنفس، أخيراً عزف سي سليمان واكتفى بأن يسأل من يجده من، في طريقه عن الحال... أحياناً يتوقف قبل أن يصعد لداره ويتقدم نحونا إلى الباب الفاصل، يطرق قليلاً ويسأل ثم يمضي...

❑ ❑ ❑

أخي محمد كان له رأي في الموضوع، سمعته يعلنه لزهروية، اسمعوا، إما الانتقال من هنا أو أفارقكم. سمعتها تنعته بالعقوق يحنث والده؟ توعدته بعذاب الدنيا والآخرة إن عاد لهذا الموضوع... مرة أخرى خرجت والدتي وأخي محمد إلى الحانوت، بحثاً عن شريك بنصيب محدد للحاج مهدي، النصيب لم يكن كافياً ولا منتظماً، والتعاويذ والطلبة والشوافات وضروب السحر خفية وعلناً، تنهب الدخل الضئيل. محمد ضاق بما يدفع من أجرته. أصبح يدفع كل شيء تقريباً ومطالب بما هو أكثر. إن تذمر فالسخط وغضب الله في الدنيا والآخرة يترصده من زهروية والحاج مهدي الصامت. لقد بدا الزمان نفسه متحالفاً مع زهروية، في مساعدة الحاج مهدي على الوفاء بيمينه. لم تمض أسابيع معدودة حتى هاجمت الأدواء والعلل ذلك الكيان الضخم. تهدل وترهل، شاخ واعتراه العجز الشامل بسرعة لا تصدق. لم يعد يتحرك لأبسط حاجاته إلا متكئاً على الحائط أو معتمداً على أحد. وأصبح مألوفاً أن تدعمه زهروية في حركته بهيكلها النحيف، وتدخل معه المرحاض وتمكث إلى النهاية. أي سر في هذا

العجز السريع لا تجدي فيه نفعاً، أعمدة الأبخرة المستمرة المتصاعدة بروائحها المتنافرة الزكية الكريمة ولا جماعات المطببين والمعالجين بالسائل والجاف، الحلو والمر... وتمائم بالحرير، بخيوط الصوف الأسود الأصيل والزعفران...؟! عجز شامل متزايد عجز عنه كل وصف ودواء.

❑ ❑ ❑

المفارقة العظمى أن عجز الحاج مهدي لم يوازه عجز في السلطة والأمر. لا. بقدر ما تضخم العجز تضخمت السلطة، وضاقت بنا حرية الحركة، لم يعد لسانه بحاجة ليأمر، فزهروية أمره، أبوكم مريض. هاتوا... اجروا... أجلبوا... ماء ساخن. لا، أقل سخونة. بارد وبارد جداً. برتقال في عز الصيف يقوي القلب. ومشمش في عز الشتاء يعالج الكلي، والزعفران الأصيل من عطارية بن شماس اليهودي في الملاح القديم، وكبد الجمل من سوق السبيت على الكيلومتر خمسة وثلاثين، وقشور الرمان من سانية بنمسيك، وفلوس يا محمد... فلوسك كلها... أنت عندك كم أب؟ واحد؟ ها هو على الفراش! ما نفع الفلوس بعده وأمام عذابه؟ لم يدخر الأبناء؟ ما في سلالتنا مساخيط، كونوا أولاد الرضى، الله يرضي عليكم. تحسبونها سائبة والحاج مهدي مريض؟ زهروية فيها مائة حاج مهدي، وقادرة على التشمير عن ساعديها وتخرج لتشتغل من أجله، تبيع العمر كله من أجله، تقلع أسنانها من أجله. تحمله من ذا الكتف إلى الآخر. أهكذا الأولاد والبر؟! ألم يربكم وينشئكم ويكسكم ويشبعكم؟! لو كنتم بنات ما كان العقوق. لو كنت بنتاً يا محمد، أكنت تبخل علينا وتعد فرنكاتك وترميها في وجه أمك؟ لو يعلم أبوك بما تفعل... يموت هماً وحزناً؟ حتى عبد الله أصبح يهز كتفيه على أمه، أقول له وليدي، أبوك محتاج إلى تبخيرة أو خضرة... يدفن رأسه في كتاب! وما نفع الكتاب والقراءة كلها بعد الحاج مهدي؟! الصغير احمد، الله يصلحه، هو وحده، لا يزال طائعاً مهدياً، يقوم بالليل والنهار...

الله يرضى عليه... اسمعوا، الحاج مهدي حي في تمام العقل والقوة، وزهروية حية فيها قوة وإرادة مائة حاج مهدي المعلوم، والله العظيم إما أن تستقيموا وتطيعوا وإلا فزهروية تعرف ما تعامكم به... مساخيط. ما ولدت زهروية غير المسخوطين... ليتها أنجبت بناتاً!

❑ ❑ ❑

لم يستشر محمد أحداً. فكر واحتمل، ثم فكر ولم يعد يحتمل، ولم يعد للدار. ليلة. ليلتان... بحثنا عنه عند معلمة النجار في المعمل، قالوا لنا غاب عن عمله. أخذ كل فلوسه، ودّعهم وأخبر معلمه أنه مسافر لشغل آخر ومعه زوجته! تزوج؟ نعم. أكد المعلم ذلك أو على الأقل ذاك ما أخبره به محمد. عبد الله على أبواب البكالوريا. رسب. كان مقرراً بنفسه أن يرسب: أخبرني بذلك لأنه كان يبحث عن عمل أو وظيفة، جاءه الجواب بالقبول وهو في منتصف الامتحان، فاستجاب له. تسلم عمله بشركة كبرى لمواد البناء متمرناً على المحاسبة، لم يكن من اعتراض على قرار عبد الله. القرار في واقعة كان للحاج مهدي وزهروية أو عبرها. وكان معقولا ومطابقاً لإرادة الجميع. الاعتراض وقع على مكان الوظيفة، وما تقتضيه من ابتعاد عبد الله، خوفاً من أن يستقل ويغيب كما استقل وغاب محمد قبله. الاعتراض كان من زهروية بلسان الحاج مهدي، ولكن الوقت غير موات، ولا شيء يمكن فعله. لكن يا وليدي يا عبد الله يا ولد الرضى لا تنسنا. أبوك في حالته. وكلنا كما ترى أدوية وطعام وملبس... وأخوك الصغير الله يرضى عليه، ما زال يدرس وإن شاء الله يكمل... الله يرضى عليكم كلكم، حتى محمد الغائب الله يرضى عليه ويهديه... ويرجع.

❑ ❑ ❑

لا أدري أية قوة أصبحت في كياني الضعيف، ولا مصدرها، إلا أن يكون الحقد الذي لا يبقى ولا يذر. أول عراك ينشب بيني وبين أخي محمد. تذوب

سنوات العمر الفارقة بيننا، أو تنحاز سنواته إلى جانبي بما تمثل من قوة الجسد والفعل والمناورة والصراع. أجد نفسي جاثماً فوقه أكتم أنفاسه، أضغط على حنجرته بكلتا يدي. باب الغرفة مفتوح لكن زهروية تصرخ ولا تستطيع أن تدخل أو تتدخل، الحاج مهدي أيضاً أشعر به يتحرك عند الباب، لكنه لا يدخل ولا يتدخل، لا بأمر ولا بنهي، وأشعر به مبتهجاً بانتصاري له على محمد الذي أساء إليه، وسبب له الغم والكدر... يشجعني هذا الشعور على أن أزداد ضغطاً على رقبة محمد، حتى لأحس بها تلتوي، وبملمس فقراتها العظيمة تحت قبضة أصابعي، أشعر باختناق محمد يخنقني، وألمه يدق رقبتي، فأستغيث، أستغيث وأفيق مطوي الرقبة.

❑ ❑ ❑

قال الراوي... كان الجانب الخلفي الغربي لجبال مناجم الملح، يمثل منحدرات صخرية وعرة تنبت في سفوحها أعشاب وشجيرات متوحشة، أغلبها من طبيعة شوكية.وفي هذه الطبيعة دائمة المزيج من خضرة الشجيرات والأعشاب الشوكية وقحالة الصخور السوداء المسننة، كان الحكيم روزباه يعيش منعزلاً معتكفاً، لا يعكر صفو هدوئه إلا زواره، وهم قليل من طالبي صلاحه ونصحه، أو من بعض الرعاة الذين يمرون عليه بقطعانهم فيتقاسم وإياهم الطعام. وكان أقرب هؤلاء إليه يدعى مرقادو وهو أحد رعاة قطعان شهراموش. وقد طالت العشرة بين الشخصين رغم فارق السن، وضربت بينهما أسباب الألفة... كانا جالسين في كوخ الحكيم روزباه، وقد ضم مرقادو ساقية بعصا ممسكاً طرفيها بيده، في جلسة الرعاة المعتادة التي تجعله مستريحاً ومتأهباً، عند أول بادرة من نباح أو غيره تشي بخطر الذئاب، أما روزباه فقد كان متربعاً يرنو إلى الفضاء الممتد أمامه كأنه يتلو في كتاب، تتوسطهما صرة خبز يحملها مرقادو معه كلما عرج على صاحبه، لقد بدا كل منهما منهمكاً في التفكير،

كل يتلو كتاباً مختلفاً عن الآخر، ولكن شيئاً ما كان يشعرهما، لو عبرا عنه، بأنهما يشتركان في التفكير في موضوع واحد ذي شعب تتوازى وتتقاطع. يسأل مرقادو نفسه: لم ينقاد القطيع لأول مبادرة منه؟ ما أساس تجمعه إذن؟ ولم لا يحتمل التفرق؟ وهل يمكن التمييز بالنظر إلى لحى الماعز بين من كان سيداً أو مسوداً قبل المسخ[5]؟ وما سر الفحولة التي تجعل الأقوى هو الوحيد الذي يقفز وحده فوق كل إناث القطيع... كل القطيع عرس له، كل ليلة، كل لحظة، ولا زمن للقطيع إلا مشيئته. لم لا يجتمع فحلان في قطيع واحد أو عدة فحول، إلا وضاق كل بالآخر وقام الحرب والنطاح...؟!

ومضى تفكير الحكيم روزباه في طريق آخر: ما الذي يدفع البشر إلى الشر والصراع؟ لو تجاذبوا إلى الخير والعدل لما كان منهم مجرم ولا مظلوم، ما الذي يجعل بعض الشر يطغى على بعض، وبعضهم يخضع لبعض، ما الذي ينزع من قلوبهم بذرة الحب، فتمتص الدماء وتزهق الأرواح بين الآباء والأقرباء والأصدقاء... ما الذي يجعل الإنسان عاشق القيم ومبدعها، يتنكر لكل القيم، طمعاً في سلطة زائفة أو مال زائل؟ ما الذي يجعل الخلل يتسرب إلى محاكمة العقل الرصين، فيقبل بديل الشر عن بديل الخير والعدل...؟

قال الراوي... وضج بأفكارهما الصمت، حتى أصبحا وكأنهما يتسامعان، فإذا بكل منهما يلتفت سائلا صاحبه ماذا يقول؟ حينئذ اقتنع الحكيم روزباه بأن الوقت قد حان لتحقيق ما يراوده من أفكار، وليسر بها إلى أعز أصدقائه طالباً مساعدته في ذلك. وكان مرقادو عند حسن ظن الحكيم، متفقاً معه اتفاقاً كاملاً على خطته.

---

(5) حسب عقيدة مؤداها أن الماعز أصلا من بني آدم ولكنه مسح إلى هذه الصورة جزاء شره، وبقيت اللحية دليلا على العهد السابق...

قال الراوي. ولم يمض أسبوع على ذلك اليوم، حتى كان الحكيم روزباه منهمكاً في تهذيب أجمل وأظرف فتاة في كغاشي كلها، بوصفها جارية اشتراها مرقادو من سوق الجواري، بأمر صاحبه الحكيم، باذلاً في الحصول عليها مبلغ ألفين وسبعمائة بلك[6]، وهو يساوي على الأقل خمسة أضعاف الثمن العادي لأحسن جارية. وكان سبب ارتفاع ثمنها أن مرقادو قد وجدها بالفعل تستوفي كافة الموصفات التي طلبها روزباه الحكيم، ولكنها في نفس الوقت قد أعجب بها أحد سماسرة شيهوك، فحميت المزايدة بينه وبين مرقادو المتخفي في زي تاجر عابر بالمدينة، وهكذا ارتفع ثمن هذه الجارية التي كانت فتاة مجهولة إذ ذاك، وظلت كذلك حتى عرفت فيما بعد باسم الأميرة بيروز، واشتهرت به على ألسنة الناس وفي كتب المؤرخين، وذلك ما سيأتي بيانه في حينه.

قال الراوي... كان الحكيم روزباه قد اهتدى بعد التفكير الطويل إلى أن قضية العدل والسلطة في كغاشي يجب أن تعالج من جذورها. وفكر بأن سطوة شهراموش وجبروته ليست وحدها كل ما يقف عائقاً أمام العدل، فحتى لو اختفى بكيفية ما عن الحكم، فإن تربة كغاشي لن تسمح بأن يتولى الحكم إلا مثله أو أسوا منه. ومن هنا كانت لحكيم روزباه خطة هادئة طويلة النفس، لتصحيح أوضاع الإنسانية في بلده أولاً، ثم في باقي المعمور كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى..

قال الراوي... وهكذا أوعز الحكيم إلى صاحبه مرقادو أن يطلق شائعة في حاشية شهراموش والأوساط المقربة أليه بأن هناك في كغاشي، من يزعم انه لا يقع تحت سلطة أحد، حتى العظيم شهراموش نفسه، وأنه يتحدى أياً كان ليثبت ذلك بالبرهان والعيان،وكان بالطبع أن أحضر الحكيم روزباه، باعتباره صاحب تلك الدعوى لبرهن على دعواه، ويلقي مصيره.

❑ ❑ ❑

---

(6) عملة ذهبية في ذلك العصر.

وفي عبد الله بالعقد. إرسالياته النقدية منتظمة من أول شهر، لعله يبعث بأكثر ما يحصل عليه، تبخيرة بن شماس وشواف أولاد سيدي بنعلي... أغوار لا قيعان لها، مهما يصب فيها من رصيد، والعجز مستمر، وتترى أعراضه كل يوم بصنف أشد.

❑ ❑ ❑

كل شيء يتعب حتى صبر زهروية واحتمالها، يزداد كيان الحاج مهدي تثاقلاً. تتعب زهروية من يقليبه وتحريكه. لا يعبر لسانها عن التعب. لكن مظهرها وسخطها على الأولاد، على الدنيا التي لم ترزقها بنات، يبين عن ذلك. لم أستطع أن أكون بنتاً، رغم تطوعي لكل شيء وطاعتي. لم أكن مرضياً. غسلت الأواني كنست، نظفت الجلاس من قاذورات الحاج مهدي... حتى العجين جربته... مع ذلك لم أكن مرضياً. ثمة أعمال لا تحسنها إلا البنات فيما يبدو، حتى الأحاديث لمن كان في مثل حال زهروية، يبدو أن البنات وحدهن يحسنها أو يكن أهلا لسماعها. لا بد إذن من نجدة، هكذا حضرت عائشة بنت الخالة لتعيش معنا وتساعد. راتب عبد الله منتظم، العجز المتزايد في الكيان المتهالك منتظم. دراستي منتظمة. لم أكن من المبرزين، لكن كنت أتقدم في خط وسط طبيعي ومضبوط تقريباً، لا تغلب فيه مادة على أخرى بطريقة حيرت المدرسين. أذكر ملاحظاتهم علي في الرياضيات والعلوم. توجيهي علمي، وكان من المنتظر أن أبرز في المواد العلمية، لكني كنت وسطاً في كل المواد تقريباً. كرروا ملاحظاتهم. الوسط لا يكفي في العلوم. متوسط لكن يجب بذل جهود أكبر في العلميات، الواقع أنني لم أكن قادراً على تخصيص جهد أكبر لمادة دون غيرها. لا لأنني أحب الآداب أو أكره العلوم. لا بل فقط لأني كنت أشعر بثقل متوازن لكل المواد على نفسي، حتى الثانوية منها والتي لا اعتبار لها في الامتحان تقريباً. الدروس جميعها بالنسبة لي أوامر يجب تنفيذها... ودائماً

نفس الملاحظات عقب كل نتيجة. المعدل لا يكفي. مدرسو الأدبيات أيضاً كانوا حائرين في أمري وغير راضين. لعلها عملة نادرة أن يجدوا تلميذاً مثلي منتظم المعدل في الأدبيات، مستنتجين أنني لو توجهت إلى الأدبي لكنت مبرزاً. لا يعرفون أن الخطة مرسومة في أعماقي. واعتقادي أنني لو كنت في شعبة أدبية ما كنت لأحصل على غير هذه النتيجة، رغم كل شيء. المهم: حلت فرحة البكالوريا بذات المتوسط العتيد، الذي ما كان مرضياً في الرياضيات والعلوم ولا في الآداب.

ضحك الحاج مهدي في فراشه، ومد يده إلي متهجياً كلماته، وأنا جنبه: أنت عاقل، أعقل أولادي وأحسنهم أنا فرحان بك. أحس بشبابي وقوتي فيك. الحاج مهدي فرحان بي، زهروية مبتهجة أيضاً، تصب لنا الشاي، بنت الخالة أيضاً، الكل مبتهج فرح بي. جلسة ابتهاج بسيطة، لم نعشها منذ سنوات، ضحكة الحاج مهدي بالذات لم أرها أو أسمعها من قبل. لا أدري متى تساقطت أسنانه كلها تقريباً، كنت أقرأ في خطوط وجهه أشياء كثيرة غامضة وقد برزت ثنايا شفتيه الغليظتين مطبقتين إلى الأمام، واختلط شعر لحيته القصيرة بشاربه. كان بين الحين والآخر، يرفع يداً ثقيلة يعدل بها عمامته المختلة، باستمرار فوق الطاقية. ما زال يجاملني مبدياً فرحته بنجاحي. وأنت تعوض الكل... عقوق محمد الذي لم يظهر له أثر... وغياب عبد الله، الله يرضى عليه. أنت الكل يا أحمد، تملأ الدار وتعمرها... كنت مطرقاً، أحس بكلماته المتأنية أوامر يتحفز في داخلي شيء لتنفيذها في الحال، إن اقتضى الأمر. ومهما تكن.

قالت زهروية:

ـ عنْق بّاك. بس يديه وراسه.

أخذت اليدين. قبلتهما. وقبلت الرأس، وعانقته. تحرك ليضمني أيضاً، انبعثت من تحت الفراش رائحة رطوبة عفنة.

❑ ❑ ❑

جملة رفاق ممن نجحوا مثلي طرقوا الباب يدعونني للخروج، نتم الفرحة. جاملتهم واعتذرت. في داخلي شعور غامض متوجس يملؤني. رجفة تراودني بين الحين والحين كأن الفرحة شيء لا أطيقه، أو حمل يرزح تحته كياني الضعيف، أو كأني أنتظر في كل لحظة أن يحدث شيء مزلزل يذهب بكل شيء في وفيما حولي... على كل حال، وجدت عزائي في أن التزم الجدية والاتزان، والتمسك بالرصانة، مظهراً لقوة محمودة يجب الحرص عليها. هكذا قضيت ليلة نجاحي في البكالوريا مع الحاج مهدي وزهروية، نترسم خطوط المستقبل بالرمز حيناً وبالتصريح حيناً آخر.

❑ ❑ ❑

مشهد

(علية قوم كغاشي في قاعة البهو الكبير الذي مر وصفه، يجلسون مصطفين على الجانبين يتوسط القاعة سرير شهراموش المذهب. يظهر البابان المتقابلان للقاعة قرب مجلس شهراموش، يفتح الأيسر منهما، ويظهر منه زاهور مروض الوحوش، يقف لحظة، ثم يفرقع بسوطه ويتقدم متنحياً جانباً، يظهر خلفه من نفس الباب أسدان يتقدمان بهدوء، ليأخذ كل منهما مكانه عند سافل الدرجات المؤدية إلى سرير شهراموش، يقفان قليلا ثم يفرقع سوط زاهور، فيقعي الأسدان ككلبين أليفين، بعد لحظات يعلن مقدم العظيم، ويدخل شهراموش فيقف له الجميع محيين، بما فيهم الأسدان، يجلس شهراموش، يومئ الجميع بالجلوس ويفرقع زاهور بسوطه فيجلس الجميع حتى الأسدين).

- **شهراموش** (مشيراً إلى حراسة): أدخلوا ذاك الدعي! (يظهر الحكيم روزباه بين حارسين يسلمانه إلى الزاهور الذي يسير به إلى حيث يجب أن يقف على مبعدة من الأسدين).

ـ **شهراموش** (يحدق قليلاً في هيئة روزباه. في دهشة من وقاره وهيبته): تقدم أيها العجوز من أنت؟ وما اسمك؟

ـ **روزباه** (يتقدم خطوة إلى الأمام بهدوء): اسمي روزباه، عابد معتكف.

ـ **شهراموش**: مع من تعيش؟ هلل لك زوجة أو أولاد؟.

ـ روزباه: إذا لم ينبت الغيث فليصقل حصى الأرض وليمسح أدران الخلائق!

ـ **شهراموش**: (كالمتجاوز عن غموض الجواب): هل لك ممتلكات؟.

ـ **روزباه**: مملوك ربه لا يملك شيئاً.

ـ **شهراموش** (في حركة من يغالب تضايقه) لنخرج من هذه المتاهات... بلغنا عنك أيها العجوز، أنك تصرح علناً بخروجك عن سلطتنا، أو أن لا سلطة لأحد عليك... قل ولا تكذب.

ـ **روزباه**: (في ثبات) إنما يكذب من يرجو أو يخاف، وما أنا بواحد منهما.

ـ **شهراموش**: تكلم إذن بدون مراوغات ولا غموض.

ـ **روزباه**: نعم، ولا.

ـ **شهراموش**: أفصح أيها الشيخ.

ـ **روزباه**: قلت ذلك صدقاً بغير لساني وعن غير شخصي.

ـ **شهراموش**: أفصح... مرة أخرى.

ـ **روزباه**: علمي بالأمر حرم به لساني، وموضوعه لا يخصني.

ـ **شهراموش**: (متحفز في هيئة المتلهف أكثر مما هو في هيئة الغاضب): أفصح بسرعة وإيجاز.

ـ **روزباه:** بيروز بنت السماء هي التي قالت ذلك

ـ **شهراموش:** من؟

ـ **روزباه:** أميرة سماوية نزلت بها رعدة في جبلي، وظهرت متخفية في زي راعية، رأيتها مراراً مع راعيك مرقادو، وقد قالت ذلك، عندما سمعت مرقادو يتحدث عن خوفه وخوف الناس منك وخضوعهم لك.

ـ **شهراموش:** (متعجباً) تتحدث عن أنثى؟!

ـ **روزباه:** نعم إنها ما تزال فتاة.

ـ **شهراموش:** (متأملاً) مرقادو أيضاً يعلم؟ (يرفع وجهه إلى الحكيم): أعد علي ما قالت تلك...؟

ـ **روزباه:** تقول إنها سماوية، ولا يمكن لسماوي أن يخضع لرضي، وأن بلاد الأرض لا حدود لها كفضاءات السماء، فهي ليست في أرض أحد، ومن ثم لا سلطة لأحد عليها.

ـ **شهراموش:** (يوقف روزباه عن الحديث بإشارة منه): أريدها... وهاتوا الراعي أولاً، ولا يغادرنا هذا الشيخ حتى نتأكد من قالته وقصده.

قال الراوي... ومثل مرقادو مرتعشاً في مجلس شهراموش، وإن كان مطمئناً إلى خطة صاحبه الحكيم، فأجاب عن لهفة شهراموش بما سبق أن تهيأ له من قبل، ولم تحل عشية ذلك اليوم، حتى كانت الأميرة بيروز تحت الحراسة في طريقها إلى شهراموش.

قال الراوي... ولم تكن بيروز هذه سوى الجارية الجميلة التي اقتناها مرقادو بمشورة صاحبه، وقد ثقفها الحكيم بما يتفق وأهدافه، كما أعلمها بتفاصيل خطته، وحاجته إلى مساعدتها وربما إلى تضحيتها، وكانت ذكية طموحة، فوافقت.

❑ ❑ ❑

قال الراوي...وعقد مجلس عظيم ضم أصحاب المناصب وأعيان كغاشي وعلماءها، تصدره شهراموش في مجلسه العتيد، ولم يكد يستقر به الجلوس حتى طلب إحضار السماوية المدعية والشيخ العجوز روزباه والراعي مرقادو.

قال... كان الكل يتطلع بلهفة إلى ما سيحدث، وزاد من تطلعهم ولهفتهم علمهم بأن شهراموش لم يكن يطيق النساء كما سيأتي بيان ذلك، لدرجة أن قصره لم يكن يحتوي على امرأة واحدة، أو فتاة على ما فيه من كثرة الخدم والحشم، وكان الناس قد عرفوا ذلك من عظيمهم وألفوه، فلم يكن يجري بمحضره حديث عن النساء. ومن ثم كان عجيباً حقاً أن يعقد مجلس رسمي لشهراموش، تحضره امرأة بل من أجل امرأة.

قال... ولكن الفضل يرجع إلى خطة الحكيم روزباه الذي شوقه شهراموش إلى الأميرة السماوية على حد تعبيره، وجعله يرجئ غضبه عليها إلى حين الاستماع إليها... قال... ولم يكن بعيداً أن شهراموش، ربما كان في باطنه قد تخوف من المكانة الحقيقية للأميرة، فقد تكون سماوية بالفعل، ولها سلطة ما، وإلا فلماذا تخاطر بنفسها وتجر عليها هذا البلاءَ، وهي لا بد تعلم عنه ما تعلم؟! قال... ولم يكن بعيداً أيضاً أن شهراموش فيما بينه وبين نفسه، يخامره بعض الشك في سماويته هو، عندما تسمح له الظروف بالتفكير في أمره خفية على الأقل، رغم أن تكرر الاعتقاد بذلك منه ومن غيره، جعله أصلاً متأصلاً.

قال... أما ما كان من الأميرة بيروز، فقد كانت تعلم عظيم ما هي مقبلة عليه، ولكن ثقتها بمربيها الحكيم، محررها وولي نعمتها، وإخلاصها له، وإيمانها بفكرته، كل ذلك جعلها تتحمل كل شيء وتتهيأ له في سبيل ذلك.

قال... قيدت الأميرة إلى مجلس شهراموش على ما وصفنا، ممن يحضر ذلك المجلس من أكابر وعلماء، وكان شهراموش متلهفاً للتعرف على أمر هذه المرأة، كما سبق ذكره.

قال... وأحضر الحكيم روزباه نفسه إلى هذا المجلس، فلما مثلت بيروز تمالكت نفسها، وأخفت اضطرابها من هذا الحفل الذي لم يسبق لها تصور مثيله، واطمأنت وهي ترى شيخها ومعلمها حاضراً فأدت التحية بالاحترام اللازم دون أن يأبه شهراموش بتوجيه كلمة إليها، وإنما أشار برأسه إلى الحكيم روزباه أن تكلم يا هذا.

قال... فتقدم روزباه نحو الأميرة بيروز وقال: «أي بنيتي، لقد سمعت منك كلاماً سيكون رأسي ثمناً له، وأنا عجوز مسكين، فتكلمي بالصدق، ففيه نجاتي ولعل فيه نجاتك أيضاً». قالت: «ليهدأ روعك أيها الشيخ، فما أنا بكاذبة، ولا خائفة، وما بي نية سوء وما مثلي من يخاف...».

قال... فكان لفصاحتها، وجرأتها وقوة بيانها، وثبات جنانها وصراحتها، وقع عظيم على القوم ولم ينبسوا، وقالوا في أنفسهم إنها لهالكة لا محالة. قال... رفعت بيروز رأسها إلى عظيم كغاشي، والتفتت إلى المجلس يمنة ويسرة وقالت: «اعلموا أنني لم أعرف لي أبا ولا أما، ولكنني عندما أدركت وجدت نفسي في قمة جبل... وفي الحين برز لي راع طيب، قال إنه رآني انزل من بين البرق والرعد، فاحتفى بي، وأكرمني وقد عشت أتفاهم مع الفراشات والأزهار والطيور والنحل والنمل، وكل ما خلق الله من حي أو جماد، أعرف سر كل ذلك من حيث لا أدري ولا يدري أحد، وكان ذلك الراعي المسكين وهو الذي ترونه هنا في المجلس يمر بيَ بين الحين والحين، فيؤانسني ويناولني من زاده. وإنه ليشهد بأن حاجتي إلى الزاد كانت قليلة، فالكسرة والجرعة كانت تكفيني أياماً دون أن أشعر بجوع أو عطش. ولا أذكر أنني عانيت تعباً أو مرضاً، ولا خوفاً أو طمعاً. وقد علمت من الراعي مرقادو الشيء الكثير عن هذا البلد الذي يسمى كغاشي وعن غيره من البلاد، ومن ذلك ما ذكره لي من أن الناس هنا وهناك يخاف بعضهم بعضاً، وأنهم طبقات، أرزاق بعضهم بأيدي بعض،

وأن لا استثناء لهذه القاعدة عند بني الأرض، فحتى أولو السلطة والأرزاق المتحكمون والمخيفون يخافون بدورهم من هم أعلى منهم، أو من آلهة أكبر يتصورونها أكثر تحكماً وبطشاً، أو من تقلبات الأيام والظروف... فيتضخم الخوف ويتكاثر أجناساً وأنواعاً، ويولد زيادة احتكار وتسلط وصراع... علمت كل هذا، وعلمت في نفسي أنني بعيدة عنه بعداً مطلقاً، مفارقة لكل ذلك معارضة له، إذ لا يخامرني خوف أو طمع، ولا رهبة أو رغبة، ولا يمكن أن تكون لأحد علي سلطة، فأنا بذلك فوق السلطة والحكم والجوع والتعذيب، بل إنني أشعر بأن سلطتي لا حد لها على نفسي أولاً، لما سبق أن ذكرت من انعدام معاناتي لأي من مشاعركم الأرضية، وعلى الغير ثانياً، لأنني لا يمكن أن أتصور إلا أن سلطتي المطلقة على نفسي، هي في نفس الوقت منبع سلطتي على الغير، إذ هل من كائن مهما كان من بني الأرض يمكن أن يمارس علي أية سلطة إذا كنت لا أرغب ولا أرهب، لا أطمع ولا أجزع؟! وقد سمعت أن عظيم كغاشي نفسه يخيف الناس بقوته وبطشه فعلمت أنه أيضاً يخاف، بل يمكنني حسب ما هداني إليه التأمل والتفكير، أن أقول بالنسبة لأي زمان ومكان، إن الرغبة والطمع أصل الخوف، وأن خوف الحكام والمحكومين هو أصل خوف سائر الناس... وقلت في نفسي، لن يوجد إذن في كغاشي شخص سليم من الخوف حتى الحكيم روزباه، الذي تعرفت عليه فيما بعد، والذي كان أحرى الناس بألا يخاف... ولا أتحدث عن مرقادو الراعي المسكين ولا عن قطعانه، فهو وهذه القطعان تجسيد لكل ما يمكن لمنظومة الخوف الشامل أن تحققه في بني الأرض، من إنسان وحيوان على السواء...» قال... كانت الأميرة بيروز تتكلم بثبات ورباطة جأش لا نظير لها. فلما أتمت كلامها، التفتت نحو روزباه الحكيم الذي كانت علامات الرضى والارتياح تشع من عينيه، وقالت: هل هذا روعك الآن أيها الشيخ العجوز؟ هل هذا ما حدثتك به أم هناك شيء أخفيته؟

إذا كان الخوف لم يذهب ببقية حجاك، فاشهد بما علمت.

قال... كان القوم سكوتاً جامدين كأن على رؤوسهم الطير، حتى شهراموش نفسه لم يحرك ساكناً، ولكن لم يكن خافياً على أحد، أنه يدير في رأسه فكرة إعدام هذه المرأة حالما ينتهي كلامها على أقصى تقدير، وأنه إن كان يتردد، فتردده بدون شك، إنما يدور حول طريقة إعدامها ومن معها من أتباعها وأصدقائها... أما الحكيم روزباه فقد تحرك عندما وجهت إليه الأميرة الخطاب، وبدأ كلامه متصنعاً التردد والتلعثم، وقال: بعد استئذان عظيم كغاشي في الكلام: أتوجه إليك يا ابنتي، لقد نطقت بالصدق، وجئت بما سبق أن أخبرتني به، وأخبرت به عنك، على أحسن وجه من الصراحة والوضوح. فاعتقت روحي إذ نجيتني من تهمة الكذب عليك، وعلى عظيمنا، وهي تهمة ما كنت لأرضى أن يتوج بها شيبي وتكون ختام حياتي... وإذا سمح لي بالاسترسال في هذا الحديث، فإني أقول بأنكِ صدقت فيما وصفتني به من الخوف الذي يعتريني، رغم سني وحكمتي وانصرافي عن متاع الدنيا... فما كان إفشائي لسرك أولاً، ولا كان رجائي إليك لتقولي الحقيقة ثانياً، بمحضر هذا المجلس الموقر، إلا تجسيداً لخوفي من شيء غير واضح في ذهني تمام الوضوح، قد يكون الخوف من الموت أحد جوانبه، أو الخوف من الحاكم أو غير ذلك. وأشهد الآن أنني بقدر ما عرفت من علمك، بقدر ما أعرف الآن من حلقك، وبقدر ما أشعر في أعماقي أن أخزى المخزيات لمثلي، أن يستشعر الخوف كيفما كان جنسه ونوعه عند أول امتحان يعرض له. وقد قررت وشعرت بأنني قادر على إثبات ما قررته، ألا أخاف شيئاً، وأن أقول ما أراه حقاً وصواباً مهما كانت العواقب، أقول يا بنية إن مجيئك الغامض إلى بلدنا هو تدبير خير كبير يراد لهذا البلد، إذا عرفنا كيف نستفيد منه.

قال... ثم توقف الحكيم عن الكلام قليلاً، ورنا إلى المجلس المطبق على

صمته، واستأنف قائلاً: إن هذا جوهر ما أشعر به، ولي نظر مفصل في الموضوع، أرجو أن يصادف الصواب وسأبوح به عندما يحين الوقت المناسب لذلك.

قال... لم يصدر عن القوم صوت، ولا ند حسُ. الكل صموت جامدون كالأموات في انتظار إشارة عظيمهم أو علامة تفتح الطريق، قال... واستطال الزمان بالقوم، حتى بدت ثوانيه دهوراً قبل أن يتحرك شهراموش، يخرج من تأمله مصدراً أمره بعودة مرقادو إلى قطعانه، وإبقاء الشيخ تحت الحراسة بأحد قصوره، حتى يرى رأيه.

❑ ❑ ❑

قال الراوي... وظل شهراموش يقلب الرأي على وجهه، ويستشير أعوانه وأصحابه، فمرة يرجح رأي القائلين باستئصال الشر من جذوره، والقضاء على هذه المدعية الوقحة وكل من ينتسب إليها، ومرة يبرز رأي بسجنها أو إبعادها. ولكن، ماذا لو صدق رأي الحكيم روزباه، وأمكن لعظماء آخرين، في بلاد أخرى، الانتفاع من وجودها بينهم، وماذا لو فرط فيها، وفاتته بالفعل فرصة الاستفادة من وجودها إذا كانت سماوية بالفعل، لخير كغاشي وعظيمها؟

قال... وقد يعجب المرء كما عجب لذلك أعوان شهراموش، من همه وتردده، بل وعجزه، غير المعهود عن الحسم والبطش، هو الذي بنى عزه ومجده على ذلك.

قال الراوي... والواقع أن ما يمكن أن يعتبر سبباً في أزمة شهراموش، هو أنه بالفعل كان أكبر معان للخوف رغم ظاهرة المخالف، ومن يدري؟ فقد يكون موقفه الغريب من النساء تعبيراً عن خوف غريب كذلك؟!

❑ ❑ ❑

يجب أن أجد وظيفة، هذا أساسي ومستحيل. وفيما عدا هذا أبحث

لنفسي عن أية دراسة مسائية تناسب ظروفي، الخطة تلقى أكبر الترحيب من الحاج مهدي وزهروية... وبنت الخالة... يكبرون في كائني الضعيف، هذا الفكر الجبار المتروي. تعثرت في الشهرين الأولين. خانات السجلات الإدارية تسكن في ذهني في الفراش، تنام معي وتفيق. اهتممت بأن أحقق إن كان مثلث سيري متساوي الساقين، من الدار إلى الإدارة، إلى المدرسة المسائية.

كل رفاقي من الباكالوريا انتقلوا إلى العاصمة لمتابعة الدراسة. لم أكن راغباً في اجتلاب أصدقاء جدد في دراستي المسائية الجديدة. كنت أشعر من أول يوم بأن الوقت جد ضيق. بأن لا وقت لي للأصدقاء. في الإدارة رفاق كلهم أقدم مني، ويجب أن أثبت مكانتي بتقصير مدة احتياجي إليهم في فترة تمريني. مرة، في مكتبنا نحن الثلاثة، أفقت على ضحكة مشتركة من حميد ومسعودي: (ارخف شويه على راسك) طوال ساعة وربع ظلا يراقبانني، فلم أرفع رأسي، أو أحرك بصري عن السجلات. من الدار، شعرت بأن المطالب التي علي قد ارتفعت إلى مستوى آخر. لم يعد مطلوباً مني أن أصبح بنتاً، ولا مجال لأن أحاول ذلك الآن. بنت الخالة عائشة، الله يبيض سعدها كفاية وفوق الكفاية. الآن، أنا رجل، موظف عاقل... هذا الكيان الهزيل، هو الآن رجل موظف عاقل جداً، براتب شهري يدفعه كاملاً أو كالكامل إلى زهروية، تقدمه بدورها إلى الحاج مهدي يقربه عيناً. هذا الولد كنز. نقرة صافية، ذهب خالص، ورجل، الله يحفظه ويرضى عليه.

الحاج مهدي بثاقب نظره كان يتوسم في مطلع الخير، ويتوقع أن أكون ما كنت وما سأكون.

عندما أحتاج بعض النقود القليلة التي لا مصرف لها عندي، إلا ثمن حافلة النقل وشطيرة ما بين الإدارة والمدرسة مساء، فان زهروية تدفع لي ذلك بابتهاج وسرور. كلنا لك يا ولدي، كل شيء منك وإليك.

عبد الله يزورنا بين الحين والآخر، في أوقات العطل خاصة، الحديث لا يدور عليه كثيراً منذ نجحت، وتوظفت، رغم أنه الله يرضى عليه، لا ينسى أهله، وما ينفك يرسل شهرياته، المثلث متساوي الساقين تقريباً متساوي الأضلاع تقريباً، وخطوي فيه منتظم مضبوط.

اخترت لدراستي المسائية مادة الرسم الميكانيكي، مدرستي كانت صناعية، أصلها فيما وراء البحر وفروعها في الوطن. كان مدرسي الأجنبي في الثانوية يلح كثيراً على أهمية مثل هذا التخصص، الذي لا نلتفت إليه كثيراً في بلدنا. دروس بالمراسلة وأخرى توضيحية وتطبيقية بالحضور المسائي. تعثرت في الشهور الأولى. يختلط في ذهني إيقاع السجلات الإدارية، وتقاطع الخطوط الهندسية في النقاط المركزية.

❑ ❑ ❑

عائشة، يبيض سعدها عيننا ويدنا وقلبنا. الحاج مهدي ما خيب الله ظنه، رزق بنتاً من صلبه في آخر عجزه وحياته، وأكثر من بنت صلبه. ليقر عيناً بعائشة الغالية. وأين البنت التي تعمل عمل عائشة بهذا الرضى وهذه البسمة والحذق، وهذا التفاني والتحمل والإخلاص؟ باسم الله عليها، في يدها وفمها عسل. ولا تنطق إلا حلوا طيباً. وكل شيء لمسته، أصابته حلاوتها. الحاج مهدي لا ينام ولا يفيق دون أن يرسل عبارة. تطمئنه عليها وهي، عائشة المرضية المهدية، لا تغفل عنه طرفه عين، لا ترتاح ولا تفيق إلا على راحته ونظافته وأكله وفراشه. زهروية المسكينة البائسة أدركتها نعمة الله الشفيق الرحيم ببنت الأخت الحلال. الطيبات للطيبين كما يكرر الحاج مهدي. اسمع يا كبير العقل، يا أعز من ولد، هل تقبل أن تفرط في خيرنا لغيرنا؟ لا. وأنت العاقل، ألف لا. هذه بنت لا يستحقها على وجه الأرض غيرك. الطيبات للطيبين. النقرة للنقرة، والنحاس للنحاس. كل لمعدنه. عاقلة وزينة تبارك الله. قد وقامة. وبنتنا منا وإلينا. خالتك لن ترد لنا

طلباً، ولا تطمع في أكثر من ذلك. أنت ما عليك إلا القبول فقط، والباقي على زهروية والحاج مهدي، الله يمتعه بك وبذريتك الصالحة. خبيزة الوالدين كلها عندك، حزتها عن جدارة، مرضاتها لك غطاء وفراشاً. ونتمتع برؤية ذريتك... من يدري يا أعقل من ولد، من يدري؟ أبوك الحاج مهدي في آخر أيامه وعجزه. روحه متعلقة برؤية ذرية أولاده وأنت أعزهم عليه. حرقة الغائب محمد زادت ما به، جرحها القديم لا زال ينز... ثم عبد الله وغربته، وأنت الصغير والذخر الكبير، تداوي الجراح ببركة الرسول الكريم، وبنت خالتك عائشة تحبك. اسأل أمك زهروية تخبرك. هذه أمور لا تفهمها أنت، أمك زهروية عزيزتك زهروية تفهمها. وهل من أحد يحب الخير ويرجوه لولده أكثر من والديه؟ وهل يمكن أن يفكر عاقل بغير بنت خالته حشمة وحياء... وكل شيء؟ أم نفرط في خيرنا لغيرنا؟ الطيبات للطيبين. كلام الحاج مهدي ذهب. وافرض أننا لم نخطب عائشة وفرطنا في خيرنا؟ هل تبقى معنا وإلى الأبد هذه الدرة الغالية؟ الخطاب يا عزيزي يطرقون باب خالتك صباح مساء، كلما جاءت خالتك قالت جاءها خاطب، أمك العزيزة زهروية، المسكينة تبكي وتنوح على خالتك من أجل إبقاء عائشة معنا. يا أختي يا بنت أمي لمن تتركين أختك بدون عائشة؟ كيف تعيش زهروية بدونها؟ لو رزقني الله بنات ما احتجت لأحد.

الحمد والشكر لله على كل حال.يا بنت أمي ارحميني.. اتركي لي عائشة، انسيها. هذه ابنتي أنا. انسيها. تبكي خالتك، أمك الثانية العزيزة وتبكي زهروية، وتمضي الخالة وهي تدعو بالخير والتوفيق. يا عزيزتي، توفيقك كله ما كان منه وما يكون بحول الله، كله من دعائنا الصالح لك، وبفضل عائشة التي لا تنام ولا تفيق إلا باسمك، وعلى ذكرك، أمك زهروية تعرف الكثير من الأسرار.طول نهارها مع عائشة، وأنت غائب، طول نهارها وعائشة تسأل: يا خالتي، أحمد يحب هذا أم ذاك...؟ القهوة بالعطرية أم بالحليب...؟

الساخن أم البارد...؟ يا خالتي اعطيني قميص أحمد، أنظفه الأول يا خالتي ميعاد دخوله اقترب... ميعاد خروجه... يا خالتي.. أحمد.. أحمد... طول النهار. من هذه الناحية اطمئن يا أعز من ولد وأعقله. واطئن تماماً، فلا خوف أبداً. تحبك تحبك تحبك، وأنت من جهتك تحبها تحبها. لا بد أن تحبها وتحبك، ما شاء الله عليها، قمر قمر. لا يملك إلا أن يقع في حبها كل من رآها. بنات الحلال مثل عائشة ياقوتة نادرة في هذا الزمان، زمان الغش والكذب والفساد. بنات الغش والكذب والفساد. سرح عينك واحك بنفسك يا أعقل من وُلد، أبوك الحاج مهدي نفسه، وأنت تعرف الحاج مهدي، ماذا كانت عاقبة أمره لو لم يجد بنت الحلال الأولى أمك زهروية، وأولاد الحلال منها أمثالك؟ النساء غدر ومكر ودسيسة إلا القلة القليلة من بنات الحلال، والعاقل يعرف كيف يختار بعين العقل، وعين العارفين الناصحين، وخير البر عاجله، أبوك يرضي عليك وعليها، ومرضاة أمك إلى مرضاته، إن شاء الله بعونه تتزوجها وتصلح وتخلف منها ذرية صالحة، وعلى بركة الله يا عزيزنا، قم يقوم معك الفرح والربح والسعادة. قم باسم الله الرحمان الرحيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. الحمد لله رب العالمين.

❑ ❑ ❑

عين جديدة تتفتح على بنت الخالة، نفس الشيء من جانبها فيما أعتقد. أصبحت تتهرب من مقابلتي كأنها تحتجب. لا تظهر إلا عند الضرورة، لم يكن صعباً علي أن أدرك أنها خوطبت بمثل ما خوطبت به، عين جديدة مني تراقبها كلما غفلت. عين منها تراقبني أحياناً تلتقي عيوننا السارقة فتردها في الحين. زهروية بين الحين والآخر تناديها بحركة مسرحية مصطنعة لتناول شيئاً، أو تقوم بشيء بمحضري، تنجزه الأخرى بسرعة وتنصرف يتبعها دعاء أمي بالخير والبركات وتعداد حذقها، قبل أن تلتفت وتغمز لي مبتسمة. كرهت منها ذلك.

كانت تحيي في مخيلتي باستمرار ذكرى مقيتة لقوادة محترفة في درب البشير. حفل بسيط، العرس في قلوب الأحبة. عائشة منا وإلينا. كل شيء منا وإلينا، كلنا أصابع يد واحدة. الصداق لاحد لأقله ولا حد لأكثره. الفرحة الكبرى، فرحة العمر الأخيرة للحاج مهدي قعيد الفراش زهروية تولد من جديد، تقبل عبد الله وتقول العقبى لك قريباً بينت خالتك الأخرى. سطح الدار، فوق الفوق. ألف من قديم أن يشهد لعبة العرس، اجتمع فيه الأحبة تحت غطاء كالخباء، دعوت بعض زملائي في الدرب. من زملاء الإدارة لم يكن عندي غير حميد ومسعودي، رفيقي المكتب، سي سليمان بكيانه القصبي العتيد يشارك في خدمة الحاضرين، بعد أن جاء الزمان على الجراح القديمة بينه وبين زهروية على الأقل. كان بين الحين والآخر، يأسف على حال جاره وحميمه الحاج مهدي.

فرحة عادية جداً، بسيطة المظهر، لم أشعر أنها تمسني أو تكاد تعنيني. في تصوري أن الشيء الذي يمسني بعمق، يجب أن أتأمله طويلاً على مسافة مني، أتهيأ له، ربما أشقى من أجله وأتعب عليه، هنا كل شيء معد، مهيأ، العروس منا وإلينا، العريس كذلك... بعبارة زهروية والخالة والحاج مهدي: البنت بنتنا والولد ولدنا. الغرفة الثالثة التي خصصت لنا هي نفسها التي كنت أنام فيها وأجلس من قبل مع إخوتي قديماً جداً؟ ثم وحدي فيما بعد رحيل عبد الله ومحمد قبله. التغيير الوحيد الذي أدخل عليها، لا يزيد على إطار خشبي للسرير القديم، ومضربة مع ألحفة جديدة لنفس السداريات القديمة، ووسائد وزربية سباعية وخزانة بمرآة.

أول مشاعر التهيب الجديدة التي خامرتني في هذه الليلة، بدأت مع انصراف آخر المدعوين. وقد شرعت النساء تزغردن وتخلين دار العروسين، الأمر يهمني إذن، بدأ التهيب يغشاني. بين جدران أربعة، على بعد خطوات، تنتظرني فتاة مهيأة في أحسن زينة، هي منذ الآن امرأة أحمد. الحاج مهدي لفظ رغبته

في عباراته الخافتة، التي تنقلب مباشرة إلى أمر يطاع ولا يناقش، بأن يتم كل شيء بهدوء، وأن تختصر ضجة العرس إلى حدها الأدنى، حفاظاً على روح يبدو أنها خفت، وأصبحت قلقة في كيانه يخشى أن تطير لأي حادث يهزه أو يهزها.

حليمة امرأة السي سليمان الجديدة بحكم قربها ومكانتها، كانت وحدها آخر من كلمني بالتشجيع نيابة عن زهروية، التي كانت تدعوها الأصول لتختفي الآن، بقيت وحدي. انصرف الكل. الباب الخارجي للدار أغلق. لغط النسوة يتناهى من دارسي سليمان فوقنا. توقفت من الداخل قرب الباب الخارجي المغلق، ظهري إلى ظهره. أمامي الباب الداخلي الفاصل. ظللت متوقفاً لمدة طويلة بين البابين المغلقين، ظهري لظهر أحدهما ووجهي لوجه الآخر. لا بد للتوقف من نهاية. تقدمت خطوتين، ثلاثاً... اجتزت الباب الفاصل، دفعته خلفي بأناة وتوقفت من جديد، على يساري غرفة الحاج مهدي مغلقة ينم الضوء من شقوق بابها. في الوسط غرفة فارغة الآن، وعلى اليمين غرفة العرس مفتحة المصراعين، يسدل على بابها ستار وردي يشع الضوء من ورائه واهناً كذلك، وتفوح منها روائح العطر والأبخرة الزكية، يجب أن أتقدم. فعلت بترو، رفعت ستار الباب. ألقيت التحية. تقدمت خطوتي الأولى نحو صدر الغرفة، حين انتفضت رغماً عني. هزتني سعلة فطومة من الحاج المهدي كأنه وراء كتفي! توقفت مذعوراً والتفت، تمالكت نفسي، وعدت للباب. رفعت الستار أتطلع لما وراءه. لا أحد. أطلقت الستار وأغلقت الباب بالرتاج من الداخل. فعلاً، كانت سعلة الحاج مهدي تتناهى إلي مخترقة الجدران، تقدمت نحو عروسي. قبلتها قبلة الجبين. قمت أفتح المذياع بحثاً عن محطة مرحة، أغطي بها على استبداد سعلة الحاج مهدي بي. لم أنجح نسبياً في ذلك. ولم أنجح بتاتاً فيما يجب أن أنجح فيه تلك الليلة.

❑ ❑ ❑

طال بي الليل. طال بي الصبح. طال بي العذاب. حضوره القوي في نفسي يشتت كل شيء في آخر لحظة، يعود به إلى الصفر. لم تعد سعلته وحدها تضج في سمعي، بل حركاته القديمة والجديدة، كيانه الضخم وعنفوان القوة بالأمس يشير ويأمر، وهيكله المتهالك اليوم يسعل ويحمحم. قيل بي سحر، أو بها مثله، نوعوا الأبخرة والتعاويذ. ذهب الحياء عن زهروية، والخالة وحليمة. سي سليمان، ونسوة أخريات اختلطت علي وجوههن. لا حياء في الدين، يسألن عن حالات جد خاصة، جد صميمية، يفحصن بأيديهم وألسنتهم أجزاء منك تشتت فيك الرجولة والكبرياء، نوعوا الأبخرة والتعاويذ. جاء ولد سيدي بن علي الشواف بعظم كتف... أكد أنه (سحر ثقاف) اعترفت الخالة. نعم ثقاف لبنتها لكنها حلته منذ ليلتين، وهي مستعدة لإعادة حله أمام ولد سيدي بن علي مرة أخرى لتبرئ ذمتها. وفي الحين قامت تبخر عائشة، وتدمدم على رأسها بالأدعية وأسماء الأولياء والصالحين، من هذا البر وذاك البر. تركت العروس واقفة، وجاءت بكأس ماء نضحتها به من كل جانب... نضحت به الطريق أمامها ولسانها لا يكف عن الدمدمة. طلبت علبة كبريت جديدة ممتلئة لم تمس ذخيرتها بعد... أدخلت رأسها والعلبة تحت ثوب العروس، واختفت مدة، لا يدري أحد ماذا كانت تفعل أثناءها. لكن ولد سيدي بنعلي فيما يبدو كان عارفاً، وربما الأخريات أيضاً... يبدو في الظاهر من خلال حركاتها تحت الثوب أنها تقتلع شيئاً خاصاً من اللباس التحتي للعروس، قد يكون خيطاً... أو شعرة بطن... أخرجت رأسها أخيراً. قامت وعدت أشباراً على الأرض أمام العروس، ووضعت علبة الكبريت مغلقة ووقفت بجانب ابنتها، وأمسكت يدها ودعتها إلى أن تخطو فوق العلبة. بمجرد ما أنجز ذلك، اختطفت العلبة. أخرجت حقها الداخلي، وأفرغته من محتواه ممسكة بحُزيمته بأصابعها، ثم أشعلتها مرة واحدة، بجمرة من بخور العود القماري: ثم أطفأتها، ثم خرجت

تشتت خشبياتها في كل اتجاه مع التبخير والدعاء وعادت، في إحدى يديها الحُق الداخلي للعلبة، وفي اليد الأخرى غشاؤها.. عرضتها أما أنظار الجميع الشهود، أرتهما منفصلين ورمت أحدهما في الجمر حتى إذا تم احتراقه، رمت الثاني بعده ثم نهضت تنفض يدها كمن ينهي مسؤوليته.

الكرة الآن في الطرف الآخر. عند زهروية. ولد سيدي بن علي يؤكد أن العروس الآن خالية، بقدرة أسلافه من كل شوائب السحر والثقاف. الشائبة الآن في العريس، شعوري بالإنهاك لا حد له، وطنين الرأس والضجيج والرؤية المعتمة.. النهار ضحى أو جاوز ذلك. وليلنا لا تبدو له نهاية. أبخرة وتعاويذ، في أبخرة وتعاويذ.سيغلقون علي الباب لننفرد. قبل إغلاقه ظلت زهروية برهة إلى جانبي. ذكرت الحاج مهدي، وأنه سيموت هما وكمداً إذا عرف الحقيقة. لم يخبروه بعد ولا يجوز (بوك في ليلتنا كان راجل...) توقفت بعد ذلك. انتبهت إلى نفسها. ذهب الحياء، ويلها وويل الحاج مهدي، مني. لماذا ذكرته في هذه اللحظة بالذات؟ لتؤكد حضوره وتشجعني بالخوف منه، كأنها لا تعرف أن حضوره المستمر هو عذابي. مع ذلك شعرت من خلالها أنه يصدر إلي أمراً يجب أن يطاع بمجرد ما تغلق علي الباب.وللمرة الأولى جاءت نتيجة الأمر المباشر العتيد معكوسة مئة بالمائة. موت يعني موتاً. برودة الحديد لا أقل ولا أكثر.. نفضت أمري من كل محاولة إضافية بعد شدة الإرهاق. تركت الحاج مهدي يملؤني بحضوره القوي كما يشاء... ويدخل بها بدلا مني إذا أراد أن يريحني. وجدتني أفكر فيه، لو كان مكاني. من يجرؤ أو يقدر على عالمه؟ من يستطيع أن يفسد عليه ليلته أو يشتت فحولته؟ زهروية ما تزال تحمل لوحة منقوشة من ليلتها، تستحضرها معتزة به وبنفسها. ليلته مع فطومة كنت شاهدها بالأمس القريب، عالم يضج حوله من تحته ومن فوقه بالويل والثبور: زوجة سي سليمان القديمة إذ ذاك مغلقة عليها غرفتها كالقبر، كحاله هو الآن، ترغي وتزيد

في داخلها، يتناهى إليه سعالها وولولتها دون أدنى أثر فيه، وزهروية صدى صراخها يتجاوب في أرجاء الدار وخارجها... ونساء الدرب كلهن حولها، يرتفع لغطهن ويسترقن الأسماع إلى ما يمكن أن يحدث في غرفة الدخلة من مفاجآت... لم يحدث شيء. عمل الرجال أنجزه الرجال بهمة وثبات... وفي الصباح خرج الحاج مهدي بنفسه مشرقاً، ليقتني إفطار العروس بنفسه من شفنج، وحلويات مدهونة بالزبدة والعسل، وجوز ولوز وتمر وقهوة جاهزة بحليب.. عاد بذلك ودخل به على عروسه، كما دخل عليها بالطست والماء لتغسل وجهها وتوقظ حواسها.

حقاً لم أعد قادراً على أن أفكر بشيء حتى بالعروس الممددة جانبي، لا نائمة ولا يقظة في إرهاق غير ظاهر. ما أقدر عليه هو الشيء الوحيد الممكن: أن أترك حضور الحاج مهدي يرتع في مخيلتي كما يشاء ويحلو له، يمنع عني اليقظة والنوم، والراحة والتعب جميعاً.

❑ ❑ ❑

أسبوع قد اكتمل أو أوشك أن يكتمل. نصحني بعض الزملاء بالخمر، وبعضهم فضل الكيف. لم أكن قادراً على أن أجرب ذلك أو أقبله. وفضلت انتظار النتائج. أعرف الآن أن الحاج مهدي يعرف، ومن لا يعرف؟ لم أره ولا شعرت بالحاجة إلى ذلك. كان المنتظر أن أصبح في يومي الأول، مشرقاً منتعشاً فأتوجه إلى غرفته وأقبل رأسه ويديه وأعلن بغير لسان، بالخجل المحمود والتواضع والحياء، أنني منه، فحولتي من فحولته، حتى زهروية لم تلح علي في شيء من ذلك طيلة الأسبوع، كأنها تشعرني ضمناً بأن لا شيء قمت به يستحق ذلك الشرف. مشكلتي في جميع الأحوال كانت مع نفسي. كيف أمنع عني حضوره، دخوله معي الفراش بيني وبين عروسي؟

❑ ❑ ❑

كل شيء يصبح معتاداً مع الزمان، حتى حضور الغير في اللحظات الصميمية، عائشة الآن زوجتي، تتحرك بإرادتي، وأنا رجل موظف ورب أسرة. زاويتا المثلث المتساوي الساقين تعادلتا ككفتي ميزان، يحتل أحدهما الحاج مهدي وزهروية، ويحتل الأخرى أحمد وعائشة وخطوي بينهما، على قاعدتهما الأزلية، منتظم مضبوط.

كل يوم قبل أن أخرج، تكون عائشة قد صحت قبلي بكثير لإعداد فطوري. كل مساء أعود، فأجدها تنتظرني بالعشاء، حتى ولو تعشت زهروية والحاج مهدي، وسكنت حركتهما في الغرفة.

في الزوايا الثلاث. الإدارة والدراسة الليلية، والدار. تسير الأمور وفق المتوسط العتيد. الرئيس راض عن استماتتي في الواجب. أنهيت فترة التمرين وترسيمي في وظيفتي على الأبواب. فزت أيضاً بنجاحي في الدراسة الليلية وسأنتقل إلى السنة الثانية. وعائشة حبلى.

أراد الحاج مهدي أن يسميه مهدياً. حاج مهدي صغير في المهد بكيان أحمدي ضعيف. وضعته عائشة، وهرولت به زهروية في الحال للحاج مهدي الكبير يكحل به عينيه. حضر عبد الله مناسبة العقيقة وبارك أبوتي. وجدت زهروية فرصتها الذهبية لتستعجل عبد الله على خطبة ابنه الخالة الأخرى وهي أيضاً ما شاء الله عليها... زين... قد... وقامة وأصل والطيبات للطيبين... وتكتحل عيون الحاج مهدي وزهروية، بأولاد عبد الله اكتحالاً لا يعوض عن الغياب الأبدي للبكر محمد، أعاده الله سالماً. ولسبب لا أفهمه إذ ذاك، ولا تفهمه زهروية، يتملص عبد الله. ويجد في ضيق الوقت، وضرورة ارتباطات خاصة بشغله، ذريعة لتأجيل الموضوع والسفر في الحال.

❑ ❑ ❑

قال الراوي... أخيراً استقر رأي شهراموش على حل وسط ومؤقت، فأمر بامتحان الأميرة... وهكذا عقد مجلس اقتصر حضوره على أكابر العلماء من بعض رجال المناصب والمستشارين. وقد برزت بيروز في هذا المجلس كالمعهود فيها من ثبات وقوة وبلاغة، فأجابت عن كل ما عرض عليها من أسئلة ومشاكل تفوق علم زمانها، في شتى الموضوعات من علوم الفلك والبحار والزراعة والطب والدين والأدب والفن والتربية والسياسة... وفي كل هذه العلوم كانت لها الكلمة الأخيرة على علماء كغاشي وحكمائها ورجال الحكم فيها. فلما بدا ذلك واضحاً، كما بدت واضحة حيرة شهراموش الذي يبدو أنه كان يعول على نتائج هذا الامتحان، ليجد لنفسه عذراً في حرية التصرف بمصير الأميرة. طلب الحكيم روزباه الكلام، وكان صامتاً طوال هذا الامتحان فتناول الحديث شاكراً عظيم كغاشي على حلمه وصبره، ورجاحة عقله وسماحه له بالكلام بعد ذلك. ذكر روزباه أن لديه سؤالاً بسيطاً يريد أن يتوجه به إلى مجلس العلماء المحترمين بعدما سمعوا من الأميرة بيروز ما سمعوا، ورأوا منها ما رأوا. وصاغ سؤاله قائلاً: أريد منكم معشر العلماء الأجلاء أن تجيبوني بشرف وصراحة: هل ألفتم أن تجدوا في متعلم أو عالم مثلما وجدتم في هذه الأميرة؟ وهل لكم مأخذ على كمال خلقها، ورجاحة عقلها، وتمام علمها؟ إني أريد منكم جواباً صريحاً بلا خوف من أي شيء أو على شيء، أم أنكم ستخافون من إعلان الحق في موقف لم تخف فيه امرأة؟

قال... فلما وجه سؤاله هذا، وجم العلماء واحتاروا في أمرهم لعدم تأكدهم من اتجاه ورغبة شهراموش، ولم يزدهم تذكير روزباه لهم بالخوف وعاقبته إلا رهبة. وأدرك شهراموش الموقف فخرج عن صمته ناهراً إياهم في موطن يفضل فيه الصراحة، وإعلان الحقيقة ولا يرضى عنهما بديلاً، حينئذ اطمأن القوم وأعلنوا فرادى وجماعات، أنهم لم يسمعوا من هذه الأميرة إلا

علماً يضاهي ما عندهم ويفوقه، وأنها قد حازت الكمال خلقاً وعقلاً على نحو لم يعهدوه في بشر على الإطلاق، فكيف بامرأة؟

قال الراوي، لم يفاجأ شهراموش بأجوبة القوم، فقد كانت الحقيقة واضحة بنجاح الأميرة بيروز، ولعله أوشك أن يسلم بهذا النجاح، ويتخذ ما يستلزمه من قرار حين تقدم همشير صاحب العصا، وقال: إذا سمع عظيم كغاشي، فإن لي كلمة. فلما أذن له شهراموش، ذكر أنه مثل سائر من في المجلس، قد أخذ بعلم هذه الفتاة الغريبة، بيد أن متسعاً من السؤال لا يزال له ولبعض أصحابه، وأنه يريد أن يطرح أسئلة أخيرة على هذه الفتاة ليعرف جوابها عنها.

قال الراوي... وكان كل من همشير صاحب العصا، وشيهوك صاحب الملح، قد فكرا قبل عقد هذا المجلس وقلبا الأمور على وجوهها، في حالة نجاح الأميرة أو رسوبها في هذا الامتحان. فلقد كان هذان الرجلان ومن معهما يشعرون بخطر عليهم من كل ما يجد، وكانوا على علم بطباع شهراموش، متخذي العدة ليبقى كل شيء على حاله، ولتستمر الأمور كما هي، والآن وقد ظهر تجلي هذه الغريبة، فما عليهم إذن إلا أن ينفذوا الجزء المناسب من مخططهم لمواجهة الموقف. حتى لا تنفلت الأمور من أيديهم.

قال... تقدم صاحب العصا من بيروز، ونظر إليها باستهانة واضحة، وخاطبها: لقد سمعت من علمك، ولكن الأسئلة التي طُرحت عليك لا تساوي شيئاً بجانب علم آخر، ولهذا فإني سائلك إن كنت عالمة بل وسماوية كما تدعين، كم عدد نجوم السماء؟ قال... لم يكن السؤال منتظراً، ولا أحد يتصور به علماً. وحدقت الأنظار في موقف الأميرة التي ظلت متجلدة ثابتة، تفكر فيما عرض عليها. وقد أشفق عليها روزباه نفسه، لأنه لم يعلمها شيئاً من مثل هذا السؤال الذي يستحيل الجواب عنه. ومضت برهة والأميرة صامتة، واعتقد همشير أنها عاجزة عن الجواب، فظهرت عليه علامات الاعتزاز، ومضى يستحثها

بسخرية لا تخفى، فأجابت بتأن وتؤدة: لا تذهب بك الظنون حيث لا ينبغي يا صاحب العصا، فليس في سؤالك أية صعوبة وعلمي به كعلمي بغيره مما أجبت عنه سابقاً. فاعلم أن عدد النجوم في السماء، هو تماماً بقدر عدد شعرات راسك ووجهك.

بهت القوم، وبهت همشير بوجه خاص من هذا الجواب... ولكنه ما لبث أن بادر متمالكاً نفسه وموجهاً إليها الخطاب، أنه إنما يسألها عن عدد النجوم سؤالاً لا يحتمل تهرباً، في مقام لا يقبل مزحاً أو استخفافاً. أجابت بيروز بأنها لم تكن في وقت من الأوقات أكثر جداً، ولا أوفر احتراماً لمقام أو مقال منها الآن، في موقفها هذا. حينئذ خاطبها همشير متظاهراً بالهدوء: إذن فما عدد نجوم السماء أو إذا شئت فما عدد شعرات راسي ووجهي؟

أجابت بيروز بثقتها المعتادة:

ـ احلق، وعد بنفسك، لكن حذار من الغش.

قال الراوي... أظهر همشير امتعاضه واستخفافه، وقال متجهاً إلى شهراموش وكل من في المجلس لإثارتهم ضدها:

ـ صدق ظني بكل أسف. كنت أعتقد أن لهذه الدعية علماً أو طبيعة ما، تخالف بنات جنسها وغيرها من المحتالين والمدعين، فإذا هي لا تزيد عن جهلهم إلا قحة ووقاحة.

لم تخرج بيروز عن ثباتها وإنما قالت: لعل سائلي أجدر الناس باحترام هذا المجلس وحفظ لسانه من الألفاظ البذيئة... وها أناذري أدلي بتبرير جوابي للمجلس الموقر ليحكم بيننا... اعلم أنني لو أجبت عن سؤالك المتعلق بعدد النجوم، بأي رقم لما صدقتني، أو على الأقل لو فرضنا أننا معاً ـ أنت وأنا ـ عالمان بالجواب، لأمكن أن يقع الخلاف بيننا حول صحة علم أي منا. ودفعاً لكل

ذلك، أؤكد أن عدد النجوم في السماء متساو لشعر رأسك ولحيتك، ولنحتكم إلى ذي مروءة يحلق لك ويعد إذا كنت عاجزاً عن ذلك.

ثارت ثائرة همشير لهذا التحدي، وهذا الثبات، بل وللإهانة الكبيرة التي لحقته، ذلك أن حلق اللحية أو الرأس، كانت تعد أكبر مظهر للإذلال وهي لا تلحق إلا بأعداء شهراموش الشخصيين قبل إعدامهم، زيادة في التنكيل والتحقير، قال.. وكان أكبر ما يزيد من شعور همشير بالحرج قوة الحجة عند خصمه، وثقتها بنفسها، بل وإحساسه بأن أعداءه في المجلس وأصدقاءه على السواء، يتفرجون عليه في سرهم لهذا الموقف... ومن ثم أشار همشير إشارة أراد أن تكون أثر دلالة على سأمه من مجادلة فارغة، أكثر منها عن عجزه أو استسلامه؟ وخاطب بيروز:

ـ اعلمي أنك تلعبين بالنار، وأنت تركبين نفسك بنفسك هذا المركب الصعب، وخير لك أن تعترفي بتحايلك واحتيالك، وتطلبي عفو عظيمنا، وعطف هذا المجلس الموقر... واطلبي الإحسان إذا كانت الحاجة دافعك إلى هذا المأزق. فرغم ما أظهرت من وقاحة، فلن تعدمي أن تجدي من يساعدك.

ـ رددت بيروز بابتسامة ساخرة:

ـ أستسمح هذا المجلس الموقر في أن أقول لك وأنت صاحب العصا، أن تحتفظ بنصائحك لنفسك، وإذا كنت تعجز عن أن تناقش أو تسأل، فانصرف بدون مكابرة، واعترف بالفضل والعلم لأهله، وإن كنت أبعد الناس عن تقدير ذلك. قال همشير وكأنه لم يسمع منها شيئاً:

ـ فإني أسألك عن شيء آخر، أرجو أن يكون لك به علم مدقق وواضح، وجوابه لا يحتمل غموضاً ولا إبهاماً.

قالت:

ـ ما دمت تملك لساناً، وتستطيع كلاماً، فاسأل عما تريد.

قال:

ـ إنما أسألك عن مركز الكون أين هو؟ نقطة منتصفه أين توجد؟

قال الراوي صمتت بيروز لحظة مطرقة تتأمل، بينما كان همشير ينظر حوله مظهراً اعتزازه بامتلاء جعبته، كالمتأكد من أن خصمه لا بد واقعة في شراك أسئلته، ظلت بيروز صامتة، وهو يعيد عليها سؤاله بشتى الصيغ. وأخيراً تحركت بيروز أن تخرج عن صمتها، خطت خطوات معدودة منتظمة إلى الأمام، توقفت ثم خطت أخر منتظمات إلى اليمين، ثم إلى الأمام، فخطوة يساراً ثم وقفت منتصبة قويمة، وقالت:

ـ إنك يا صاحب العصا تسألني عن نقطة مركز الكون، ومنتصفه؟

قال: نعم قالت: فإني أطلب منك بكل احترام أن تقف مكاني وتضع قدميك محل قدمي بالضبط. قالت ذلك، وتنحت له عن مكانها، فتقدم ووقف حيث كانت. أخذت بيروز تدور حوله وتلاحظ وقفته، وطلبت منه بكل احترام أن يعدل من موطئ قدميه من هنا، ومن هناك، وأن يضمهما، ثم ظهر عليها الاطمئنان أخيراً، فوقفت وقالت شامخة الرأس: سألتني يا صاحب العصا عن مركز الكون، فاعلم أيها المحترم أنك في منتصف الكون، وأن قدميك تجتمعان في نقطة مركزه. ولا داعي لأن يخامرك أي شك في ذلك، إذ يمكنك التأكد منه بنفسك، وما عليك إلا أن تبدأ العد من هذهِ النقطة إلى الجهات الأربع!

اهتزت أطراف همشير لم يستطع أن يخفي غيضه وغضبه، ولا شك أن حرمة المكان وحدها منعته من أن يغمد سكينة في صدره الفتاة... وقد بدا خفياً طيف ابتسامة مكتومة على ملامح شهراموش، من حرج موقف صاحب العصا وهيئته في انفعاله، لكنه أظهر الصرامة، وأشار له بالرجوع إلى مكانه، فأدى

أطراف الأميرة في تعليقات لم تخف مقاصدها: إنه كما ترين سؤال بسيط جداً وساذج، تلقيناه من شيوخنا، كما تلقوه هم أيضاً عن شيوخهم، وقد استحضرته عرضاً لنفتتح به هذه الجلسة فأنا لست بعالم... كان واضحاً أنه بالإضافة إلى الأسلوب الساخر وتواضعه الكاذب، يريد التشويش على أفكار الأميرة فلا تركز في الجواب، ولكنها فطنت إلى ذلك فلم تأبه بتعليقاته حتى تهيأت للجواب.

وقالت: سؤالك بالفعل بسيط جداً، ورغم أنني لم أدرس هذا عن شيوخي، إذ ليس لي شيوخ ولم أعلم في مجلس، فقد هداني فكري إلى الجواب الصحيح. فاعلم أن هذا الكائن الغريب الذي تسأل عنه هو الإنسان، يمشي في صغره على أربع لأنه يحبو، ثم يكبر فيستقيم وينتصب على اثنتين في شبابه، ثم يشيخ ويضعف فيمشي على ثلاث منحنياً، كما يكون في خريف عمره.

قال... كان اهتداؤها للجواب صدمة بالنسبة لسائلها إن لم يكن بالنسبة للمجلس كله، فهذه الأسئلة لم تكن في الواقع بنت ساعتها، أو من ابتكار صاحب العصا أو صاحب الملح، بل صنعها لهما بعض المتضلعين في مسائل التعجيز والسفسطة والاحتيال، ومع ذلك أظهر شيهوك رباطة جأشه، كأنه كان بالفعل ينتظر الجواب لسهولة السؤال، وقال: جوابك مقبول عن سؤال بسيط يحتمل الكثير. أريد أن أنتقل بك الآن إلى المحسوس والمؤكد الذي لا جدال فيه، ليكون أهل المجلس علينا شهوداً في الخطأ والصواب، فإني أسالك عن مدخرات الدنيا من الأموال والمعادن النفيسة، إني أسألك عن خزينة كغاشي ومدخراتها.

استغرقت الأميرة في التفكير، فقد كان بادياً بأن السؤال فخ محكم، ولم يكن شيهوك بحاجة إلى التشويش على فكر بيروز، ليقينه بأنها لن تستطيع الجواب، أو ربما كان يقدر أنها حتى إن أجابت جواباً صحيحاً بقوة خارقة، فقد تكون ثم طريقة لإظهار خطئها، ومن ذلك أستأنف يعلق قائلاً: اعلمي

صاحب العصا التحية متهالكاً وعاد إلى مجلسه.

قال الراوي: تقدم شيهوك صاحب الملح (وهو شخص قصير القامة) مكتنز الجسم. تقدم باحترام وأدى التحية إلى عظيمه مستأذناً، ثم توجه إلى بيروز يختال في مشيته. حدق في الفتاة كثيراً ودار حولها، كأنه يتفحصها جسدياً قبل أن يختبرها علمياً وعقلياً، وكانت الفتاة رابطة الجأش ثابتة في مكانها، لا تعبأ بحركاته بل كانت على ثقة من نفسها ويقين، من أن حركاته تهدف إلى زعزعة تلك الثقة منها. ولكن هيهات. قال شيهوك: بعد تقديم الاحترام لعظيم كغاشي واستئذان مقامه... أقول لك أيتها الـ... فتاة... أنك أظهرت مهارة وحذقاً لحد الآن. ناظرك كبار علمائنا فاستطعت أن تقنعيهم بعلمك وذكائك، أو على الأقل أن تجيبيهم بما يبدو علماً وذكاء. بعد استئذان عظيمنا سأتوجه إليك ببعض أسئلة، وأنا لست عالماً ولا مشتغلاً بالعلم، بل إن أمور الحياة صرفتني... ولعلي نسيت ما تعلمته فلا بأس من أن استرجعه معك.

قال الراوي: لم يكن خبث شيهوك خافياً، فعبارات تواضعه كانت تقطر زعافاً وحقداً دفيناً، مما فطنت إليه بيروز في الحين، ولكنها أجابت بمثل تواضعه الظاهر ولطفه: لقد سمعت من صاحب الملح المحترم، مقالاً جميلاً إن لم يدل على علم، فهو يدل على أدب وذوق، وهما بشائر العلم، وفهمت منه تواضعاً ليس دون مكانة العلم. وعسى أن اهتدي إلى ما أفيد به أو أستفيد بخصوص سؤالك، فتفضل إنني مستمعة.

قال شيهوك وهو يمطط قامته:

فإني أسالك عن الكائن الذي يمشي على أربع صباحاً، وعلى اثنين ظهراً، وعلى ثلاثة مساء.

أطرقت بيروز تفكر، بينما شيهوك يديه خلف ظهره، وهو يتحرك متابعاً

أيتها الفتاة المدعية أنني ما لجأت إلى هذا السؤال، إلا لما سبق أن اعترضت به على زميلي المبجل، صاحب العصا، عندما قلت له إنك لو ذكرت رقماً عن عدد النجوم، لما صدقك أو لثار بينكما خلاف. فسؤالي إليك عن مدخرات البلد، يهدف إلى ضبط الجواب ليتبين الحق من الادعاء، واعلمي أيضاً أن بإمكانك إن عجزت، أن تتراجعي وتسلمي أمرك إلى عظيم كغاشي لينظر فيه، أما أنا وزملائي، وحتى علماؤنا فلسنا ضدك ولا نريد بك شراً...

قاطعته الأميرة: لا تتعب نفسك وأنصت إلي. ألست صاحب الملح، ومن بيده خزائن كغاشي؟

قال: نعم

قالت: أو لست أعلم الناس بما يحتويه؟

قال: نعم:

قالت أو لست قبل ذلك أعلم الناس بما تحتويه خزائنك؟

قال: نعم

قالت: فلكي يزول الغموض كما تريد ويظهر الحق من الزيف، فإنني في حاجة إلى عنصر ضروري لأعطيك الرقم الصحيح عن ممتلكات كغاشي.

قال: ما هو؟

قالت: أن أعلم بالضبط وعلى وجه اليقين، مقدار خزائنك الخاصة قبل انفضاض هذا المجلس!

قال الراوي.. ثارت ثائرة شيهوك ونعق كالغراب قائلاً: هذا تهرب من سؤال واضح، وجهل فاضح، لقد افتضح أمرك وظهر عجزك..

قاطعته الأميرة: مهلاً مهلاً، واستمع لما أقول، فأنا لا أتهرب بل إن تصميمك على معرفة الحقيقة، حقيقة علمي أو جهلي، هو ما حفزني إلى ذلك.

فأنا أرى ممتلكات كغاشي مختلطة بممتلكاتك...

صاح أن هذا كذب واعتداء على وقار المجلس. قالت: لتهدأ ثائرتك. أليس لك أجر سنوي تتقاضاه؟ فنحن نطرح مجموع ذلك من ممتلكاتك، ونضم الباقي لممتلكات كغاشي، أو إذا كانت لك أعمال أخرى تجارية أو فلاحية فسنحقق في أمرها أيضاً، ونحسب الأمر بدقة، فلماذا تتهرب كأنك مجرم أو مخطئ..؟ خرج شيهوك عن طوره وقال: لقد تعديت على مجلسنا، ولا أرى لك جزاء غير القتل بعد استئذان عظيمنا.

قال ذلك وتراجع إلى مكانه ثائراً منفعلاً، وكان الهمس قد سرى بين أعضاء المجلس لما وصل الموقف من احتداد. وقد فوجئ روزباه الحكيم، لما وصل إليه الأمر، وخاف على فتاته. أما مرقادو فأحس بكل شيء فيه تجمد، وفقد قدرة التماسك على الأرض فتسمر واستند إلى سارية قرب الباب. تحرك العظيم شهراموش فساد الصمت، وانقطع الهمس. اشتدت صرامة تقاسيمه بما يوحي بأنه منفعل يجادل لكي لا يظهر عليه ذلك. أهو غاضب؟ وعلى من؟ وقاحة الفتاة وجرأتها أم سلوك صاحب الملح؟.. أم ما يخفيه هذا السلوك وراءه؟ سرى تيار الخوف، في كل من في المجلس، أما الأميرة بيروز فقد ظلت متجلدة، وبينما الجميع ينتظر العظيم شهراموش، تقدم زاهور مروض الوحوش محيياً ومستأذناً في الكلام. فلما أذن له، تقدم نحو الفتاة بقامته الطويلة الضخمة نصف العارية، يداعب سوطه الطويل، وقال: عندي لك سؤال واحد سيكون فاصلاً بيننا وبينك؟ قالت سأستمع إليك ولي شرط.

قال: ما هو؟

قالت: أن يسمح لي العظيم شهراموش، بتوجيه سؤال واحد لك أو لغيرك في هذا المجلس أو أي مجلس آخر، وهو سؤال واحد مني يكون الأول والأخير، يأتي بعد كل أسئلتكم.

قال الراوي: أومأ شهراموش إيماءة الموافقة، دون أن تزايله ملامح الصرامة. قال: قال زاهور: سؤالي مختصر جداً، وحاسم فيما نحن فيه من ادعاءاتك. وعندما أعبر عنه فلن تسمعي مني كلمة تعليق أو تفسير، لأنه واضح بذاته، لا يتطلب تفسيراً ولا شرطاً، وما عليك إلا أن تفكري جيداً، على أن تعطي الجواب في الحال، وقبل انفضاض المجلس.

قاطعته الأميرة: لا عليك من هذا الكلام الطويل. فاذكر سؤلك إني سامعه واعية قال: فمتى تموتين؟

أطرقت تفكر، لكنها لم تطل، ورفعت صوتها مبتسمة قائلة: سؤال مختصر حقاً وغريب. ولم يجب زاهور. كان في أوج قسوته، ويده تداعب مقبض سيفه.

قالت: ومع ذلك أجيب بوضوح وباختصار، إني أعلم أنني أموت على وجه اليقين قبل قاتلي الأول بثلاثة أيام، وقبل الثاني بأربعين يوماً!

اندهش زاهور للجواب: ماذا تقولين؟ أجابت أقول ما تسمع: أموت قبل قاتلي الأول بثلاثة أيام، وقبل الثاني بأربعين يوماً.

تساءل:

وهل يقتلك اثنان؟ قالت: نعم الأول يأمر والثاني ينفذ. صاح زاهور ويده على قبضة سيفه: كذب. تدجيل. سنرى. لكنه توقف بحركة من شهراموش الذي نهض مؤذناً بانفضاض المجلس، معطياً أمره بالاحتفاظ بالفتاة والحكيم، حتى يرى رأيه.

❑ ❑ ❑

أحداث كثيرة تصدرت هذا العام. أكملت ثلاثة شهادات في الرسم الميكانيكي! ابننا الثاني يسميه الحاج مهدي محمداً على بركة الله، تيمناً بالرسول

الكريم، وإحياءلذكرى البكر الغائب، انتقال الحاج مهدي إلى رحمه الله الفسيحة، وظهور الغائب محمد في آخر لحظات الوعي والاحتضار من حياة والده، عائداً من بلد ما وراء البحر بصدفة غريبة، وفي الميعاد الضروري المضبوط. جنازة جمعت الشمل بشكل غريب. محمد بسيارة جديدة وبلا زوجة ولا أطفال. قال: إنه طلقها في الشهر الثاني من سفرهما إلى ما وراء البحر. وهمس لي ولعبد الله أن هناك لا داعي للزواج، زوجتك إذا كانت من البلد، تفقد طبيعتها بمجرد وصولها، وتفقد سيطرتك عليها، والإخوان هناك كثرة يجعلون منك قواداً أصيلاً بسرعة لا تصدق، ولك أن تختار. محمد مقتنع بأن موقعه يجب أن يكون بحيث يتفرج على الآخرين، وحاجاته الأساسية مقضية عند بنات الروم حسب تعبيره. ما وراء البحر حرية في كل شيء للمرأة والرجل للخير والشر. بل يختل بك الميزان قبل أن تندمج. وإذا تم هذا فعش حراً. لا يفكر بالزواج إلا عندما يعود، ولا يفكر بأن يعود. يداعبني قائلاً: يا جدنا الصغير، أبا الأولاد، ورب الأسرة ووارث السر وحائز أمجاد الحاج مهدي الكبير. لقد تغير بشكل لا يصدق. مغري في وصفه للحياة وأحكامه عليها، عميق ظريف في مقارناته، من أية مدرسة تخرج بل أية جامعة؟ حتى لو كان مخطئاً وكيف الجزم: لما قاومت الاستماع إليه والإعجاب به. خلق آخر عطوف ومبتسم ومشع للحكمة. حتى زهروية لا تملك إلا أن تنصت إليه مبهورة مستنكرة بدون شك. لكن داخلها لا يخلو من إعجاب ورغبة في مزيد من الاستماع والتقصي. بدون حشمة يحدثنا بما يخجلها ويثير ذلك الكائن المخادع الثاوي في باطني. بصراحة وحزم قاوم مشروع زهروية، لزواج عبد الله من بنت الخالة الأخرى. ماذا تحسبين؟ قطيع غنم وأرانب؟ كل شيء منا وإلينا!؟ يكفي رأس الأسرة شيخنا وجدنا الكبير! اتركي عبد الله وشأنه يصطاد رزقه بيده كما ومتى يشاء. حتى عبد الله بدا مرتاحاً مبتسماً لا ينبس، مظهراً رضاه التام عن دفاع محاميه الكبير.

❑ ❑ ❑

المثلث يتسع بي الآن، تضطرب أبعاده بعض الشيء في انتظار أن يتشكل من جديد. أمامي بعض اختبارات. قبل ذلك يجب أن أذكر أنني ارتقيت أو على وشك ترقية هامة في إدارتي... لكن أمامي اختيارات: فترة تمرين طويلة خارج مدينتي، في المصالح التابعة لإدارتي قصد الاطلاع والتكوين العملي، أرجع بعدها بالترقية الجديدة، أو فترة تمرين قصيرة لنصف سنة فيما وراء البحر، استحققتها بشهاداتي الثلاث وموافقة رؤسائي، بل وتشجيع ومساعدة منهم. وعند العودة من الخارج ترقية أكبر. يمكنني أن أختار. اخترت الأسهل والأنسب لي: التمرين مدة سنة أو سنتين خارج مدينتي،؟ بالتنقل بين مدن أخرى، لا يمكنني اصطحاب أسرتي. زهروية لا تقبل ذلك، كما لا تقبل أن أرحل لتمرين أقصر فيما وراء البحر. وكيف تطيق فراق مهديها الصغير ومحمدها الأصغر وفلذة الكبد عائشة؟ وكيف تبقى وحيدة في الغرف الثلاث؟ أيمكن أن تضيف فراقاً إلى فراق عبد الله ومحمد الأكبر؟ كنت مقتنعاً بهذه الحجج قبل أن أسمعها، لذلك لم أطرح الفكرة للنقاش. ولا بد من رحيلي بمفردي إلى مقر التمرين الجديد، وترددي أسبوعياً أو نحو ذلك على أسرتي في الدار البيضاء.

❑ ❑ ❑

(زبل الخارج ولا هنا) كلهم رددوا على سمعي ذلك، باستثناء زهروية التي كانت محايدة في الظاهر على الأقل. كلهم رأو أنني يجب أن أفوز بالفرصة السانحة للتمرين فيما وراء البحر.. أعود بعدها مهندساً مساعداً ثم أصعد.. بدل محنة تمرين (هنا) الطويل المتعب أفْني بعده نفسي في مرتبة مفاوض شرفي، أو مرشد زائرين بقسم العلاقات الخارجية. زبل الخارج أحسن من تمر بلادنا. لم أجد في الرغبة..

أحياناً أهمس بيني وبين نفسي أن الرغبة موجودة، أشعر بها أمنية وطموحاً، لكن لا أفكر بأنها يجب أن تنفذ من جانبي على الأقل.

❑ ❑ ❑

أردت أن أسميها رجاء. لأول مرة شعرت بأنني يجب أن أطلق اسما أَخْتَاره بنفسي. عائشة وافقت بفرح، كأنها تسجل لأول مرة حماستي لموضوع كهذا. كانت وليدتنا بالفعل جميلة، كما بدت لنا بل رائعة مكتنزة. زهروية اعترضت، ليس الاسم مألوفا عندنا، لو كان الحاج مهدي حياً لسماها على جدته. لم لا نطلق عليها اسم جدتك أنت؟ ومن تكون رجاء هذه؟ اتقد وعيي فجأة انتبهت إلى دلالة الاسم عندي، فسحبت اقتراحي، أو على الأقل سحبت حماستي له، عائشة وحدها ظلت متحمسة تدافع عنه إلى أن أوعزت لها أن تتوقف، وتترك زهروية لحالها. زهروية أيضاً غيرت فكرتها بعض الشيء. تذكرت أنها أول مولودة أنثى لنا، يجب أن يكون اسمها فاطمة.

خلال سنة ونصف، تنقلت بين أربعة مراكز، أتعرف على سير المؤسسات التابعة لإدارتنا، وباشرت مهمتي في الأقسام التقنية تحت الإشراف حيناً، وباستقلال حيناً آخر مرشداً للوفود والشخصيات الزائرة من داخل البلاد وخارجها، تعرفت على كثير من رؤساء الأقسام والمصالح وموظفيها. في البداية كنت أتردد على أسرتي كل أسبوع. لكن بعد ذلك ضاع التنظيم. جربت في فترة التمرين هذه، كيف يكون الزمن مملاً تقيلاً. أمثالي يحاربون ذلك بالشراب والسهرات. انتبهت إلى أنني الوحيد الذي يشذ عنهم.

قلت لجملة من الأصدقاء المغرين: (لا يجوز.. ثم أنا متزوج وأب) ضحكوا، كأنك المتزوج الوحيد والأب الوحيد في الكون. فلسفة بسيطة لا يمكن أن أدعي أني أفهمها. الجمال في الدنيا كثير. البنات أصناف وألوان، والمسرات لا حد لها. كل يصيب منها حسب قدرته وإمكاناته. ولماذا الحرمان؟ الحق أني لم أكن أشعر بالحرمان رغم احتجاجهم ضد هذا الإنكار. لا أشعر بالحرمان. الزمان الفارغ بعد الشغل، والأيام القصيرة التي لا أزور فيها أسرتي، هي الثقل الرازح. قالوا: جرب واحكم. جربت. رفضت أن أشرب، لكن

جلسة البنات كانت شيئاً جديداً في حياتي. سهرة ضاحكة عابثة.قدموني إلى عزيزة ضاحكين: هذا واحد متزوج، جلسة هانئة، وكانت عزيزة لطيفة معي، رغم أنها لاحظت على تحرجي مرة أو مرتين مما أزعجني، ثم وكأنها أدركت ذلك، تركتني لطبيعتي دون تساؤل. ذكروا في الغد أنها أصدرت حكمها علي. نجحت في أن أثبت لها أني متزوج وبأكثر من واحدة. لم أكرر بعدها التجربة. وتركوني لشأني.

❑ ❑ ❑

أنهيت فترة التمرين، اجتزت اختبارها بنجاح. كان من حظي الميمون كما يقول مسعودي وحميد، أن ملائكة الجنة أحاطت بي، الاختبار عملي محض. وكان من نصيبي مرافقة وفد أجنبي خليط من كهول وفتيان وفتيات، لإطلاعهم على نشاط مؤسستنا وجودة إنتاجها وحسن معاملتها والطواف بهم على عدة مراكز... حصلنا بعدها مباشرة على عقود ممتازة. الأسئلة التي ظللت أسمعها، تدور حول استفادتي الشخصية من تلك الجولة مع الوفد الأجنبي، يقصدون بذلك الفتيات الأجنبيات. ذكرت لهم بعض مغامراتي مع ثلاث منهن... كانوا يشجعونني ويهنئون، أخيراً صرحت لهم الحقيقة، أني أعبث بهم إذ لم أحاول شيئاً من ذلك.

❑ ❑ ❑

الشغل في العلاقات الخارجية وما فيه من إرشاد واستقبال، موسمي تقريباً. فرغم أن أساس العلاقات تجاري محض، فأغلب الزوار يفضلون أن تتم زياراتهم في طقس سياحي مناسب، بل نحن بدورنا نشجع على ذلك، وفيما عدا هذا، فالعلاقات قائمة على الردود الكتابية. مرافقة الزائرين امتياز معنوي ومادي. مصاريف الجيب والتنقل عدا تعويضات أخرى عن المسؤولية كل ذلك امتياز. أصبحت الآن مستقراً رغم التنقل العابر في الجهات المتقطعة. طرحت

مشروع الانتقال إلى مسكن آخر. زهروية رفضت أن تنتقل. دار الحاج مهدي يجب أن تظل عامرة. سي سليمان غادر الدار الفوقية، عندما كنت في فترة التمرين بالإقليم، وسكنها مكتر جديد. قالت زهروية: ما دمت مبيتاً مشروعك منذ مدة، فإن الأفضل أن نحتفظ بالدار الفوقية فارغة حتى تعود... لو أنك أخبرت بذلك... أما الآن... لم تكن تبدي مقاومة فيما فهمت بقدر ما أبدت من أسف. انتقلت إلى شقة جديدة من ثلاث غرف في منتصف الطريق بين دارنا القديمة والإدارة، يمكن أن أقطع المسافة راجلاً، إذ كان لدي متسع من الوقت. زهروية استمرت في دارها. وزياراتنا لها مستمرة. أحياناً تحتفظ بمهدي الصغير أو محمد عندها أياماً، أما فاطمة فكانت لا تحتمل فراق أمها بعد.

❑ ❑ ❑

رسائل شخصية كثيرة تصلني من أجانب من الجنسين، ومن مختلف الأعمار والمستويات، من مسؤولين عن الإنتاج والصناعة تؤكد صداقتهم وامتنانهم... كنت حريصاً على الإجابة في الحال. بعضهم كان يدعوني للزيارة، ودائماً أجيب معبراً عن رغبتي الصادقة في تنفيذها، وأعتذر عن ذلك في الحال، إلى أن تواتي الفرصة... قال مسعودي إن من يراني منهمكاً دائماً في الردود، متسلماً للرسائل الشخصية يعتبرني كازانوفا أو دونجوان.

❑ ❑ ❑

(أشهد بشرفي مصرحاً بأنني لست ملاّكاً، ولا مشتركاً في ملك بأية كيفية من الكيفيات..) ظللت أحملق في سطور التعهد بالشرف منزعجاً، قبل أن أطوي الملف كله وأضعه جانباً، بعد لحظة أقبل علي مسعودي يسأل عن الملف، كان قد انتقل منذ عهد قريب إلى مصلحة موازية بقسم الحسابات، وكلف بمهمة تكوين طلبات الموظفين الراغبين في قطع أرضية لبناء مساكن خاصة، أجبته باهتمام بأني لم أنته منه بعد. ألح علي لأن الفترة محددة، ولم يبق إلا يوم

لآخر أجل، تلكأت مع ذلك. لم يفهم ذلك وسألني باستعجال إن كنت حقاً لا أرغب في اقتناء مسكن خاص بالتسهيلات الإدارية المعروضة. رددت بالإيجاب. ولكن... لكن ماذا؟ أريته ورقة التعهد بالشرف. شرحت له أنني بكيفية ما، أعتبر ملاكاً أو مشتركاً في ملك. إني وارث الحاج مهدي في الدار القديمة... ضحك عميقاً وطويلاً ثم قال: وقعْ التعهد. ترددت ولكنه أصر، وأثارني تهكمه، فوقعت. أخذ مني الملف. وقال ما رأيك بسي ريحاني؟ الاسم معروف بيننا، يعتبر جد غنّي، أراني ملفه بين يديه، وتوقيع التعهد بعدم الملكية أو الاشتراك فيها بأية كيفية... مع إثبات الإعفاء من الضرائب العقارية!

أصبحت عائشة أكثر مرحاً في شقتنا الجديدة. عجيب، كأنها خلقت من جديد، وأظهرت أنها امرأة بالفعل وربة بيت قادرة، شيء ما، كان يحجب عني رؤيتها من قبل، كنت أجد كل شيء مهيئاً، لكنه كان يبدو لي بعين المألوف، أما الآن فترتيبها للمائدة وحرصها على العناية بمظهري، وعنايتها بنفسها: شيء لافت للنظر، أظهرت كفاءتها في تسيير شؤون المنزل وتدبير المصاريف، جودة واقتصاداً، لم تكن بيننا مشاكل، ولا يتصور أن تحدث. كل منا مقتنع منذ التقينا بأن الآخر مصيره. منسجمان حتى قبل أن نولد فيما خيل إلي. من قبل، لم يكن هناك ما يدعوني للحديث معها فيما عدا الضروريات.

الآن نقضي وقتاً كبيراً في التحدث عن شؤون الأولاد وشؤوننا أيضاً. وضعت تخطيطاً أوليا لدارنا المنتظرة. لها ملاحظات هامة. لا ترى للقبو ضرورة، فكرتها تتلخص في أن ما يبذل من جهد يجب أن يعلو فوق الأرض، لا تحتها. شبر فوق، خير من عشرة أمثاله تحت؛ الخلاف الوحيد الذي بدا بيننا كان حول الأولاد. بدت عائشة قاسية عليهم، شديدة الصرامة معهم في نظري، كنت أتمزق ألماً عندما أستشعر ابتئاس مهدي أو محمد أو فاطمة الصغرى، عندما ينهرون. مجرد شعور، لكنه كان يشقيني لدرجة أفقد معها شهيتي للنوم والطعام.

أخيراً أدركت أنني يجب أن أتدخل. قلت لها المبدأ المطلق: لا تنهريهم، أو تردي لهم طلباً أبداً. أبداً وبصفة نهائية. تلكأتْ كأنها تريد أن تفهم وتعارض. كررت أبداً أبداً، أبداً، وافقتْ، ولا يخالجني شك في أنها لم تقتنع.

تساءلتُ مراراً إن كنت أستحق الانتساب إلى الحاج مهدي، لا في معاملتي لأطفالي فحسب، لكن أيضاً في معاملتي لعائشة. دخلي كله بين يديها تعالج به أمورها كما تشاء. كانت أول من بادر بالبحث عن مدرسة مناسبة لمهدي. راجعتني في الكُتّاب بالنسبة لمحمد. قفزت مذعوراً، ثم استرددت أنفاسي رافضاً. قلت: اتركيه يلعب. يجب أن يلعب.

❑ ❑ ❑

الكرة والدراجة الصغيرة والدمية والقطة البلاستيكية بكرتها الهاربة أبداً... عالم مختلط يسرني الدخول فيه بمجرد عودتي من الشغل. أشعر بتضايق عائشة من بعض ذلك، لكنني حدثتها.

ـ عائشة؟

ـ نعم.

ـ نحن زوجان ولنا مسؤولية واحدة.

ـ نعم.

ـ وثقتي فيك بلا حدود.

ـ لماذا؟

ـ هل تثقين بي كذلك؟ (أغمضت عيني عن طيف معبس للحاج مهدي وزهروية)

ـ نعم. نعم. لماذا؟

أفصحت لها عن رجائي في ألا تكذبني في أمر الصغار. وألا تقسو عليهم أبداً. أبداً أبداً. استغربت ووافقت، أحسست ببقية في نفسي مع ذلك. مددت لها يدي مفتحا أصابعي! تشابكت أصابعنا أقسمنا معاً على المبدأ. ارتحت.

❑ ❑ ❑

ميكي يسكن في التلفزيون؟ أجبت بالنفي. وأين يسكن؟ قلت إنه يسكن في بيته، أدركت الورطة فاستدركت بأنني لا أعرف.

وكيف يجيء للتلفزيون، أجبت بأن صورته هي التي تظهره، إذن ميكي الذي نراه ليس حقيقة وإنما هو صورة؟ صححت بأنها صور كثيرة تتحرك. لكنه يأكل، ويتكلم ويكتب؟ قلت إنها صورة تتحرك. ولماذا لا تتحرك الآن نهاراً؟ قلت لأننا أطفأنا الجهاز، طلب مني أن أفتحه. قلت إننا لن نرى شيئاً مع ذلك، لأن المكلفين لا يهيئون لنا في هذا الوقت. لم يبد عليه اقتناع. لكنه صمت وانصرف... بعد قليل. سمعنا شخشخة. هرعنا وجدناه جامداً أمام ثغرة غطت شاشة الجهاز بينما فردة حذاء مستقرة في جوفه. أراد أن يتحقق من أن ميكي لا ينام في جوف الجهاز فعلاً. أخذته بين يدي أزيل عنه الفزع. وأحميه مسبقاً من تدخل محتمل لأمه.

❑ ❑ ❑

كأننا في فلاة صخرية نصطاد كلاباً أو ذئاباً. فلاة، ولكن الشعور كشعورنا ونحن في البيت. وضعنا الطعوم، قطع أحجار مطلية بطبقة من أكل شهي. فجأة يصبح معنا رجل غريب الهيأة، له لحية سوداء كثة مهملة، تختلط بشعر رأسه الطويل الأشعث... ثياب رثة، حالة تدل على أن صاحبها شريد أو طريد، لم ينعم براحة أو أكل من مدة طويلة، وأنه قادر على أن يلحق الشر بمن لا ينجده بأكل، أصبحت معنا في الموقف ابنتي الصغرى فاطمة، وقد زادت

سنوات. أطلب منها تقديم الطعام للرجل، تعطيه إحدى الأحجار التي هيأناها طعماً لصيدنا. أشعر بأنها يجب أن تعطيه شيئاً آخر لأنه سيكتشف الخدعة... قبل أن أكلمها يكون الرجل قد كشط الطبقة الشهية بأسنانه، واكتشف أن ما تحتها حجر، خاطر يغمرني. رغم كل شيء كنت أنتظر أن يأكل الحجر أيضاً، أهدئه وأطلب منها أن تسرع وتحضر له الطعام. يتبرم الرجل لأنه لا يستطيع صبراً. تغيب فاطمة وصوتي وراءها يستعجل، الرجل يتبرم. التفت حولي باحثاً عن أي شيء يؤكل، أجعله يتلهى به ريثما تعود فاطمة. لا أجد شيئاً. أجد بصلا معروكاً في مرق قديم، أدفعه له متوجساً، يخطف مني الإناء يأكل بوحشية غريبة وشخيره يتردد...!

❑ ❑ ❑

الشطرنج لعبة لا أتقنها، أخذت مبادئ بسيطة جداً لألقنها لمهدي الصغير. أعجب بدور الأحمق والفرس. شاشية الأحمق، وعرف الفرس كانا مثار تعليقاته في البداية، ثم انتقل تركيزه على نوعية حركتهما داخل الرقعة. نسيت أيضاً مبادئ اللعبة البسيطة، وبدأت أحرك بيادقي بتناقض كما يفعل هو. أدركنا معاً أن غياب مسطرة يجعل اللعبة مملة، وبلا هدف. اعترفت له بجهلي ووعدته بأن أتعلم وأعلمه. ماذا نفعل؟ عائشة جالسة إلى آلة الخياطة في غرفة أخرى. محمد وفاطمة نائمان. ظهيرة اليوم عطلة. بدأنا نتحدث. جربت معه لعبة التخيل. ماذا تريد أن تكون في المستقبل؟ ببراءة أجاب: شرطي أو جندي! وتساءل إن كان الجندي والشرطي شيئاً واحداً. فزعت للمفاجأة، لم أهتم في الحين للإجابة عن تساؤله. لعله لحظ فزعي فتساءل إن كان أخطأ. أخطأت؟ لا. أوضحت له أن سؤالي لا يرتبط بخطإ أو صواب، لأنه يحتمل كل جواب. كنت قد استعدت طمأنينتي. سألته فيم اختياره؟ تردد. ثم ركز على الأزرار المذهبة الصفراء والخيوط الملونة المدلاة. أدرت الموضوع. هو حُرّ في اختياره.

لكن هناك اختيارات أخرى، ربما تكون أحسن تشبث بأن أذكر له بعض هذه الاختيارات. أحسست بأني أصرفه إلى جد لا أريده له. قلت يجب أن تعرف بنفسك. وستعرف مع الأيام.

قال الراوي... انعقد المجلس مرة أخرى: حضره كبار علماء وأعيان كغاشي وعلى رأسهم صاحب الملح، وصاحب العصا ومروض الوحوش. ومثلث بيروز في نفس هيئتها السابقة، ثابتة واثقة، على يمينها في طرف المجلس يقف الحكيم روزباه في مثل ثقتها واطمئنانها. لا جديد إلا طيف انبساط وهدوء غير معتاد يلوح على شهراموش. أشار شهراموش إلى بيروز لتتكلم فأدت له التحية وقالت: أشكر لعظيم كغاشي صنيعه عندما أتاح لي أن أكون أول المتحدثين في مجلسه الموقر هذا، وأرجوا أن يعلم أنني لا أملك شيئاً أقوله، إلا ما كنت قد طلبته من إتاحة الفرصة لألقي سؤالاً أو بضعة أسئلة، على العلماء والأعيان وحاملي المسؤولية في كغاشي. فإذا أذن لي فإني مستعدة لإلقاء سؤالي.

أشار شهراموش بالموافقة، فالتفتت بيروز إلى من في المجلس وأجالت نظرها في الحضور، وقالت: ليعلم كرام من في هذا المجلس، أن العلم بحر بلا ساحل، لا حد له ولا قعر، وإذا كنت قد أظهرت في مجلسكم ما أظهرت من علم، فذلك لا يبطرني أو يدفعني إلى الغرور. وقد علمت عن بلد في أقاصي الدنيا غرباً، أنهم يطلقون على العلماء لفظاً معناه الطلبة،[7] وهذا ما أريد بيانه، وهو أن العالم يجب أن يتحلى بفضيلة التواضع والإخلاص للحقيقة، ويتجنب الخوف والطمع لتنفتح له الأبواب والعلم الحقيقي. وسؤالي إليكم بسيط غير موجه لأحد بالذات، فأنا لا أشعر بأن أحداً خصمي هنا، وإنما نحن في مناظرة

(7) قال الراوي من خلال بحثنا عن البلد المقصود تبدي لنا أنه يعتني إحدى بلاد المورو وما جاورها.

لا يستحي فيها من يجهل، ولا يتكبر فيها من يعرف، سؤالي إليكم عن الغائب الحاضر ما هو أو ما هما؟ فما هو الغائب الحاضر في علمكم أيها السادة؟.

قال: لم تكن لبيروز مشكلة مع علماء كغاشي ممن في المجلس، لأنهم كانوا قد حكموا بتفوقها منذ اختبارهم الأول لها، وكانوا ينتظرون أن يعجزوا عن حل ما تعرضه عليهم. لقد اقتنع بعضهم بأنها من طبيعة غير بشرية فمثل علمها لا يجتمع لبشر... ومن ثم كان أول المتصدين هو همشير صاحب العصا، الذي قال: ما في هذا السؤال مشكلة فهو معروف واضح، فالغائب الحاضر هو ما يرضي عظيمنا لأن كل ما يرضيه يحضر، ولو كان غائباً، ولو كان متخيلاً... في البر أو البحر. قال: لم تتحرك الأميرة لهذا الجواب، بل تبسمت ابتسامة واضحة السخرية، وظلت صامتة تجيل نظرها في المجلس، فتقدم شيهوك صاحب الملح وقال: ما قال زميلي صاحب العصا هو عين الصواب، وإذا كان يحتاج إلى إضافة أو توضيح، فإني أقول بأن الغائب الحاضر هو عظيمنا نفسه فهو معنا حيث كنا، حتى على البعد. ومفهوم أن القلوب إذا ارتبطت واتصلت أسبابها، لم يعد فراق المسافات دالاً على افتراقها، فهي على بعدها غائبة وحاضرة... قال.. وأفاض شيهوك في هذا المعنى من جوابه، حتى إذا انتهى ظلتْ بيروز باسمهة صامتة، تنظر إلى من في المجلس في انتظار المزيد، دلالة على أنها غير مقتنعة... وأخيراً عندما لم تسمع جواباً قالت:

إني قد سمعت جوابين من شخصين محترمين، ولكن احترام العلم والحقيقة فوق كل احترام. الجواب الأول ساذج، والثاني متحذلق، هما معاً متملقان محابيان يريدان أن يسترا الجهل بالخديعة والحيلة، أو يسخرا المناسبة العلمية الشريفة لأغراضهما الخاصة. فهما جوابان لا علاقة لهما بالعلم. إن هذين المحترمين يعتقدان أنهما يقدمان خدمة إلى عظيم كغاشي بمثل هذا التملق، الذي لا يتكفلان له حتى بالمناسبة أو بالمقام، وذلك خوفاً وطمعاً، وكل من لم يتجاوز

به علمه أو مقامه مرتبة الخوف والطمع، فهو مهما ادعى أو تظاهر بالقوة أو العلم أو السلطة، ضعيف، رعديد في باطنه وحقيقته. وأنه لمن العجيب أن يتبين لي الآن كيف أن كبار الرجال، ومن تخافهم الناس، وتطمع فيما عندهم من مال أو جاه أو سلطة، هم أساساً كبار في الخوف والطمع... لا أطيل عليكم، فإذا لم يكن من مجيب آخر عن سؤالي، وبعد استئذان عظيم كغاشي فإني على استعداد لأعطي الجواب الصحيح.

قال: كانت علامات الارتياح غير المعتادة تزداد اتساعاً وعمقاً على محيا شهراموش، وهو ما لم يشاهد عليه إلا في حالات معدودة من انتصاره على أعدائه في الحروب، أو في بعض معارك الوحوش الضارية التي كان ينظمها فرجة له ولحاشيته المقربة. أشار شهراموش مؤذناً لها بالحديث، فقالت: سألتكم عن الحاضر والغائب؟ ما هو أو ما هما؟ السؤال عنهما بالمفرد والمثنى لأنهما قد يكونان متباينين أو مؤتلفين، وقد يكون الواحد منهما هو نفسه، وغيره في نفس الوقت. لنقل إن الحاضر هو متاع الدنيا والشهوات والرغبات والأطماع والمخاوف والأحاسيس الممتعة اللذيذة، وكل ما يشيده الإنسان بضعفه وتقاعسه، وإذلال إنسانيته، ليكن هذا هو الحاضر الذي نعرفه في أنفسنا كل يوم وكل لحظة، فما هو الغائب؟ إنه الموت الذي لا نتذكره إلا كطيف عابر دون أن نتعمق معناه أو يهز دخائلنا.. الموت غائب عنا لأنه نهاية ما نحن فيه، ونحن فيما نحن فيه ولسنا في موت، وهكذا يكون الحاضر والغائب هما ملذات الدنيا من جهة والموت من جهة ثانية... ولكن لننظر بعين أعمق إلى حقيقة الأمر، أليست ملذات الدنيا ومتاعها قريبة النهاية مهما طالت مدتها؟ وأنها فانية؟ أما الموت فهو السيد الغائب في النهاية، وهو الذي ينتصر على كل ما عداه، وهنا يكون الغائب هو متاع الدنيا وملذاتها رغم حضوره، أما الحاضر الحقيقي فهو الموت رغم غيابه. وهكذا يكون الغائب هو متاع الدنيا الحاضر الذي سيغيب،

والحاضر هو الموت الغائب الذي سيحضر. والإنسان العاقل هو الذي يستفيد من الحاضر والغائب، للغائب الحاضر من حياته لموته، ومن راهنه لمستقبله. قال: دهش القوم من جوابها، وعمق تحليلها بما فيهم الحكيم روزباه نفسه، وظهرت علامات الرضى واضحة على شهراموش، حتى أنه تزحزح من مكانه أكثر من مرة كالطرب لما سمع، بينما عادته في مجالس الدولة أن يظل صلباً جامداً مهما طالت وتعقدت. قال... أخيراً قام شهراموش من مجلسه، واقترب من الأميرة مبتسماً ونظر إليها ملياً، ثم أمر بأن تعود إلى قصره مكرمة، وكذلك صاحبها الحكيم روزباه.

قال الراوي: كان أمراً عجيباً موقف شهراموش من الأميرة بيروز في المجلس الأخير. ولكن العجيب يزول إذا علمنا أن الحكيم روزباه قد طلب مقابلة شهراموش على انفراد في قصره قبل ذلك المجلس، وتحدث إليه دون علم أحد. حدثه في موضوع الأميرة بيروز بما لين قلبه. قال له: يا عظيم كغاشي إن أمامك فرصة نادرة لتوطيد عزك ومجدك بوجود هذه الأميرة. فهي إن كانت مجرد أنثى بشرية مع مالها من رجاحة عقل، وجرأة قلب، وعلم وبيان، لم يؤذك أن تكون إلى جانبك وتضمها إليك، أما إن كانت من طبيعة سماوية كما يظهر ذلك، فكونها معك وإلى جانبك خير من كونها ضدك أو عليك. فالرأي السديد أيها العظيم أن تحافظ عليها، وتحفظها، وتجعلها تحت رعايتك، فتأمن شرها إن كانت شراً، ويتأكد خيرها إن كانت خيراً... قال الراوي: ولم يكن مثل هذا الكلام ليصدر إلا عن أحد اثنين إذاك، هما روزباه الحكيم وبيروز تلميذته العاقلة المخلصة. ولم يكن أحد غيرهما ليتجرأ بهذا الكلام أو مثله في موضوع ومعنى قد لا يوافقان هوى شهراموش، لمعرفة الناس بأن ما يغضب عظيمهم يخرجه عن طوره، ولخوفهم من قسوته وبطشه.

قال... ولم يترك روزباه طريقة في الحديث إلا سلكها في التأثير على

شهراموش، والسيطرة على دواخله، فطوراً كان يلمح بالإغراء والترغيب، وطوراً يلمح إلى الأخطار التي تهدده ويثير فيه المخاوف. وأحياناً يستخدم أسلوب المصلحة والمنفعة السياسية... وكان وهو الحكيم عليماً بما يحدثه كلامه في نفس سامعه، وإن لم يظهر هذا الأخير اقتناعاً. بل اكتفى بأن صرف الحكيم في غير شدة، دون أن يحسم بشيء. ولكن نتيجة ذلك، كانت واضحة، عندما ظهر شهراموش في المجلس بمعالم ارتياح لا تخفي إزاء الأميرة بيروز، ومعالم ابتسام لها، أو عندما أوصى في النهاية بأن تظل تحت رعايته في أحد قصوره.

❑ ❑ ❑

نومي هادئ عميق. شهيتي للأكل قوية. فكري مركز على كل شيء ومتفتح للاكتشاف. صفاء ذهني ما كنت أقدر أنه موجود أو يمكن أن يوجد بالنسبة لي على الأقل، وفيما كنت فيه من محنة... صفاء كنت محروماً منه، وأدرك الآن فقط معنى ذلك الحرمان. أكل هذا في نعمة الحبس؟ وكيف لي أن أتصور ذلك قبل الآن، وكيف يتصور ذلك؟ أول وجه قابلني من وراء القضبان كان وجه عائشة. قلت سابقاً إنها امرأة. وأقول الآن إن عليها جلالاً فوق قيمة المرأة والرجل معاً. فوق قيمة الإنسان العادي. ذكرتْ كيف تقضي يومها مع الأولاد، واستقبال الزائرين، واتصالها بالمحامي والمحكمة... هالة من التعب والشحوب الخفيف تزيدها روعة، كأنها كانت تقتضي هذه المسافة الفاصلة بيني وبينها لأكتشفها. سألتْ عن نومي وأكلي عن فراشي ووسادتي. أجملت وقلت (مرتاح)، واستدركتُ أطلب منها ألا تسألني مثل هذا السؤال بل تستنتجه من مظهري. كانت موافقة على نفس الاستنتاج، تريد فقط أن تتأكد من أنه ليس ظاهرة معكوسة. طمأنتها. أخبرتها بفحص طبيب السجن لي وتقريره الإيجابي عن حالتي. عافية تامة لا تشكو من أي شيء. أخبرتني عن أخي محمد. بلغتْها كما بلغتني رسالة منه وهو قادم. بعث بمبلغ من المال

للأولاد. أخبر أنه يتكفل بهم. عبد الله يزور الأسرة ويزورني كل أسبوع. لا علي من شيء، يجب أن أهتم بنفسي فقط. عبد الله ومحمد لا شاغل لهما غير الأسرة. زهروية انتقلت من دار الحاج مهدي إلى شقتنا مع الأولاد. سألتُ عن الأولاد، هل يلعبون؟ طمأنتني عائشة. أضافت مبتسمة أن زهروية الآن تلعب معهم، ربما أكثر مما كنت أفعل. اكتشفتْ أخيراً أنها طفلة أكثر منهم.حل محمد بالوطن وجاء لزيارتي مع عبد الله: لا تحفل بشيء خارج عالمك، ولا تحمل هماً للأولاد. قلت لهما لست مهتماً والبركة فيهما. لا بركة ولا يحزنون... من الآن فصاعداً لا تقل أولادي.. الأولاد أولادنا... وأنت أصغرنا وتبقى أصغرنا. طلبت أن يزورني الأولاد... لّمحتُ لشغب فاطمة الصغرى بقبلة. كانت تتحرك في كل اتجاه. طلبت من عائشة أن تسحبها قليلاً وتتركني مع مهدي ومحمد الصغير. سألت مهدي عن دراسته ولعبه. أجابني بصدق أنه سعيد.

طلبت منه أن يسألني قال عن ماذا لماذا؟ قلت عن وضعي في السجن وكل ما يخطر ببالك. تردد قليلاً ثم بدأ ينطلق. شرحت له أنني هنا في السجن لأنني متهم بالاعتداء على موظف وهو يؤدي واجبه.. وعلى شرطي ومحاولة ارتشاء... وأشياء أخرى... تساءل إن كانت التُهم صحيحة. أجبت بأنني في الحقيقة لا أدري... فقد تكون صدرت عن خطإ أشياء شعرت بها، وأخرى لم أشعر بها، وغيرها لا أدري ما أقول فيه؟ قلت مثلاً إنني أشعر شعوراً حقيقياً بصحة واقعتي مع الشرطي، لا كاعتداء طبعاً. تساءل لماذا؟ أخبرته أن الشرطي كان السابق بالاعتداء علي. تساءل إن كان الشرطي شريراً؟ قلت لا. ولكنه عندما يعتدي على كرامتي، فيجب أن أرد عليه كما أراد على أي آخر غيره. تساءل إن كنت إذ ذاك مسلحاً برشاش حقاً؟ أخبرته بأنني لا أدري بالضبط، وقد تردد ذلك كثيراً على سمعي منذ القبض علي. ولعل ذلك حصل من شدة انفعالي، أو لم يحصل، على كل لم أقتل أحداً. سألني إن كنت تعرضت للضرب... قلت

نعم في البداية. تألمت..؟ نعم. بكيت؟ لا. لماذا؟ فكرت ملياً ثم ذكرته بأننا عندما نلعب معاً، كان أحدنا أحياناً يصاب فيتألم ولكن لا يجوز أن يبكي. وأنه الآن يلعب مع رفاقه أو إخوته فلا يجوز أن يبكي حتى وإن تألم. سألني عن النتيجة، عندما يرد مثلي على كرامته. أيكون السجن معقولاً؟ أفهمته بأن هذا من اختصاص رجال القانون، كالقضاة والمحامين وغيرهم. سألني بالنسبة لي إن لم يكن من الأفضل أن يكون في المستقبل من رجال القانون هؤلاء؟ قلت له إن هذا شأنه، ويمكنه أيضاً أن يكون شرطياً إذا شاء. ففي كل ميدان يمكنك أن تكون شريراً أو خيراً. لحظت فتوره، ارتعاش شفتيه وتوقفه. لحظت أنه ينظر خلفي خلسة... التفت، كان شرطي السجن قد دخل القاعة وبدأ يتحرك، أدركت معنى حركة مهدي. إنه ما زال يخشى علي من أحوالي القديمة، من خوفي وكراهيتي للشرطة... طمأنته. وفي الحين ناديت الشرطي الحارس، وتبادلت معه بعض عبارات التحية والتفكه، وطلبت منه سيجارة أشعلها لي. أشرت إلى مهدي ومحمد الصغير أقدمهما له من وراء القضبان: «وليا العهد» غمز لهما ضاحكاً وقال:... الله يصلح.. وابتعد. سألني مهدي إن كنت قد بدأت أدخن. قلت. قليلاً. وأضفت أنني قد أشرب أيضاً.

عادت عائشة لتسحب الولدين وهي تحمل فاطمة. قلت لها على مسمع، اشتري لمن يشاء منهم كسوة بأزرار صفراء... التقت نظرتي بنظرة مهدي... تفاهمنا.

❑ ❑ ❑

الزيارة الوحيدة التي أثارت كآبتي وكدرت بعض هدوئي في السجن كانت من رجاء. منهارة كانت ويائسة. لماذا؟ قالت إنها تخاف ألا أحتمل، لماذا؟ تجاهلت الدائرة المغلقة لأسئلتي، واجهتها بأفكارها بصراحة. تخشى أن أيأس وأنتحر: أو يعاودني الداء. ألف لا. الحياة الآن أحب إلي. منظار جديد على

بصيرتي. دم جديد في عروقي وكيان جديد. لو كنت أعلم أن السجن يصنع كل هذه المعجزات لدخلته منذ زمان. لا خوف. نومي هادئ. لاشيء من كوابيسي المعتادة، أكلي هادئ. مشاريعي للمستقبل واضحة بعد سنوات السجن، مهما تطل. قالت والحب؟ ذكرت لي أن من يحب لا بد أن يقاسي إذا كان حبيبه في السجن. قالت (هناك من يحبك) وقرأت الكثير على محياها الكئيب. مرة أخرى أواجهها بأفكارها. أعلم الآن أنها لا تقدر حقاً قيمة ما صرحت به. فعلاً، إن من يحب يقاسي من أجل حبيبه السجين، أكثر مما يعاني السجين ذاته. صحيح. لكن أين السجن وأين السجين؟ أحس أنني لم أكن حراً في لحظة من حياتي مثلما أنا الآن. أتساءل وأنا أقابل أياً من زواري، تفصل بيننا القضبان، عمن يوجد داخلها ومن يوجد خارجها؟ أين الرحابة وأين الضيق؟ أين يهرب الناس حتى من أفكارهم، فيغلفونها ويحرفون. وأين يواجهونها ويعبرون بها وعنها حقيقة. وفعلاً؟ قلت لها: قولي إنك تحبينني. تعلمي ألا تخافي من شيء، لا من ذاتك ولا من غيرك. أنا أيضاً أحبك، تحسين بهذا وهذا يكفي. قلت لها إنك تحت شعور الحب والواجب، جئت تعلنين حبك بطريقة (ما رواء القضبان)، مقدرة أن تهبيني دفقة الصمود والتحمل، حتى تمر السنوات الطوال بسلام أو أقضي وأنا على أمل. لا يمكن إلا أن أشكرك. أقول لك إن الحب له هذا المفعول حقاً. وقد أداه بالنسبة لي دون حاجة إلى أن يدعمه واجب ثقيل. رجاء، أحبك. لكن لا تنتظريني أبداً. حرري الحب من الواجب. تحرري. إذا كان لا بد من قيد، قيدي الواجب بالحب بالحرية، غلفيه بذلك من فوق ومن تحت. وشديه من كل جانب برباط الحب الحرية. قلبي هنا منفتح على اللانهاية، على الصغار: مهدي ومحمد وفاطمة. وعلى أناس مما وراء البحر. وعلى عبد الله ومحمد. على زهروية والحاج مهدي الكبير، على عائشة وعليك بالذات يا رجاء... على كل الأطفال العالم... وعلى اللعب... انتبهت إلى أنها كانت قد

انصرفت، وأنني أتمم أفكاري لنفسي، لم تسمع مني بقية الحديث. لعلها فهمت سياقه وتوقعت نهايته، إن كان بالفعل مقدراً له أن ينتهي. عدت لنفسي شعرت لأول مرة، في السجن بكآبة وهمّ. وواجهت الموقف: ما هذا الشعور؟ ولماذا؟ لأني أشعر بعذابها بأفكارها في السجن الكبير، وإذن المقولة صادقة، صحيحة بطرفيها. من يتعذب؟ ومن أجل من؟ وأينا السجين؟

❑ ❑ ❑

كتب... كتب. ابعثوا لي أوراقاً وأقلاماً بكل الأحجام والألوان وأعطوني كتباً. همتي للقراءة والعمل لا تفوقها همة. تخوف يغمرني بأن سنوات السجن لن تكفي لإنجاز مشاريعي، أعمالي. لا أريد أن أضيع لحظة واحدة عند خروجي في وضع أي تصميم أو خطة. بل أبدأ في التنفيذ مباشرة. تعرفت عليه في السجن، وكيف كان من الممكن أن أتعرف عليه خارجه وأنا من كنت وما كنت؟. السدراوي مهندس معماري، في قضية سياسية وعدني بأن يخبرني بتفاصيلها، طيلة ما سنقضي من سنوات سوياً، لدينا متسع، أما الآن فليس لدينا وقت لنضيعه، فلننصرف للعمل أطلعني على مشاريعه. تصاميم لأبنية وأحياء ومدن وطرقات وقناطر... في منتهى البساطة والروعة. شروحه عليها، تصوراته لها كاملة جاهزة بحركة ساكنيها، بل حتى بأطراف من أحاديثهم المعتادة المتبادلة على الشرفات، وملتقيات السلاليم والمداخل. وبتحايا الصباح والمساء ومواقع مرافقهم عندما يفتحون النوافذ. بمساقط الضوء على وجوههم، وهم يطالعون الصحف جماعات أو يناقشون في جلسات أيام العطل. أعجبت بمبدأ انطلاقه من مباني اليوم، ومساوئ هندستها التي لا تسهل اتصالا ولا تواصلاً بقدر ما تعوقه. كان يشرح لي كيف أن مبانيه قائمة على أساس آخر مخالف تماماً وطبيعي تماماً. بأبسط حركة من حركات القاطن داخل أو خارج مسكنه، يجد نفسه مباشرة أو عن طريق البصر أو الصوت أو الحركة، يتصل بغيره ويتواصل معه.

المداخل والنوافذ والزوايا والمرافق كلها تعمل لنفس الغاية... وجدتني أخمن لماذا يسرع ويمن علي بتفاصيل قضيته، ويقطع كل حديث خارج مشاريعه. قلت له بأني أعرف سبب ذلك، تساءل عما أعنيه. شرحت له أنه يخشى أن تخرج به السياسة فجأة من السجن، كما دخلت به إليه فجأة، ولا يكون قد أكمل ما يريد. لم يكن في البداية مبالياً بما أقول، ولكني ما كدت أنهي كلامه، حتى توقف عن الرسم. وأخذ يحك جبهته بالقلم تارة، ويضعه تارة أخرى، وقال:

ـ ممكن. جائز جداً. لكن...

ـ لكن ماذا؟

تريث كأنه يريد التأكد مما سيقول وأردف:

ـ شيء آخر جائز أيضاً.

ـ هو؟

ـ الموت... الموت أيضاً يقطع المشاريع.

❑ ❑ ❑

أخذت فكرة جيدة عن نشاطه وتطوره لعمله، بل ومذهبه في الرسم المعماري أيضاً: الوظيفة. البساطة، الجمال... كان لا ينفك يفيض في شرح مبادئه هذه، ويوضح كيف أنه يمكن أن يستغني عن مبدإ الجمال بالبساطة لأنهما متلازمان عنده. إلا أنه يصر عليهما معاً ليستطيع الدفاع عن مشاريعه ضد اعتراضات الاقتصاديين والمقاولين وإقناعهم بلغة يفهمونها، فالبساطة تتضمن بالإضافة إلى الجمال، كلفة تقل بعشرين مرة عن الكلفة المعتادة...

ـ ملاحظاتي؟

أكد سؤاله: نعم قل ملاحظاتك. لا بد أن لك ملاحظات وأنت أيضاً مهندس ميكانيكي رسام، أنت أيضاً معماري في ميدان آخر.

تذكرت كيف أنه نفر من تخصصي في الرسم الميكانيكي منذ ذكرته له. قال عنه إنه جاف. ذكرته بأن نفس الفكرة كنت أحملها عن تخصصه. ما زال يسألني عن ملاحظاتي. تصفحت وأعدت... مرت التصاميم أمامي، أقلب صفحاتها العريضة صفحة صفحة متأملا. وقلت بدون حماسة إن فيها عيباً أساسياً..

ـ وهو؟

ـ اللعب... الأطفال.

ذكرت له أن كل شيء في تصاميمه هو من كبار وإلى الكبار. المنازل والحدائق والطرقات والقناطر. كل شيء جد، وملاعب الأطفال؟ مراجيحهم؟ مستودعات حاجياتهم؟ مسارحهم ومعاملهم.. رملهم، والوحل العجين الذي يلطخون به جدران وواجهات الدور في أصباغها المصطنعة، والأحجار التي يرمونها فيكسرون زجاج النوافذ المعتم، ويخلقون ضجة الحياة...؟

نظر إليّ مأخوذاً. وطفق بصره ينتقل بين وجهي وصفحات رسومه وهو، يقلبها واحدة واحدة، كأنه يبحث فيها عن صورة مطابقة لنسختي.

عندك حق عندك.. غداً ترى.

وانصرف عني شارداً إلى رسومه يتمتم، في الغد، أي بعد أكثر من شهر. بعد عمل وإجهاد ما بين رسم وتمزيق كثير، عجت أحياؤها بحركة الأطفال، وأجهزة اللعب، أبنية مكعبة ومخرمة وأهرام، وأنواع من مراجيح دوارة، ملاعب ومعاجن طين ونافورات مياه، صخور كبيرة وأحجار بكل الأشكال والأحجام... بائعو الحلويات، حراس ومرشدون ببذل شرطية مقلوبة كثيرة الألوان فاقعة كألبسة البهلوانات.. كبار يتناقشون أو يلعبون بدورهم مع الصغار.. جيران يتشاجرون عن عبث الأطفال وسخافاتهم ويتصالحون.

❑ ❑ ❑

كل يوم، كل لحظة، رقعة جديدة تضاف تزيد العالم حولي اتساعاً. كتب وأوراق هي كل ما أريد، غبت في تصاميم السدراوي، ووجدتني أتعلم هندسته المعمارية بسهولة لم أكن أتصورها. ضاق بنا النهار لشدة المشاريع. بدأنا نطلب من الحراس أن يسمحوا لنا بالعمل بصفة استثنائية في الممر بعد العشاء، وبعد أن يكون علينا أن نفترق كل إلى جناحه وزنزانته. جربنا هذا النوع من العمل بضعة ليال، لكننا وجدنا التعب أكثر من المردود بلا طاولة ولا أدوات كافية، وبعد السعي الطويل للحصول على إذن بذلك.. اضطررنا إلى أن ننظم أعمالنا بأن يخصص النهار القصير التنفيذ فحسب، أما التصورات والتفكير فمجالها الليل الطويل، عندما ننصرف للنوم ويخلو كل منا إلى نفسه يمارسها بمفرده في الظلام. سلكت طريقة منتظمة أيضاً في استدعاء أفكاري، ومتابعتها وتثبيتها في الذهن بشحذ الخيال: أن أنطلق مما أنجزناه طيلة النهار، أراجعه في ذهني وأسير معه على امتداده... اكتشفت أن العملية ليست ميكانيكية بالدرجة التي كنت أتصور. ومع ذلك كانت النتائج مشجعة. في مدة سنة ونصف تقريباً، استطعنا أن نعدل التصاميم ثلاث مرات تعديلات جوهرية. نعتقد الآن أننا نسير في الطريق الصحيح. وسنة واحدة على الأكثر، تكفي الآن لإنجاز كل تصاميمنا إنجازاً نهائياً. ولأول مرة سمحنا لأنفسنا بعطلة نهاية الأسبوع. كانت أمسية سينمائية تخلينا عنها كالعادة، ولكننا بدلا من ذلك، دعونا بعض الأصدقاء لحفلة بسيطة في أقصى ركن بإحدى الممرات. تحدث السدراوي عن المشروع، وسلم في نفس الوقت تصاميم تفصيلية لبعض المنازل والأحياء إلى الحاضرين الذين طلبوا ذلك. تناولنا حلويات وشربنا قوة وشايا. أجبنا عن الأسئلة واستمعنا إلى ملاحظاتهم، ثم اختلط الحديث بيننا والنكت، واقترح أحدهم أن نستمع إلى مصطفى لكرد في بعض حكاياته الساحرة. رحب الجميع، وصفقوا، فوجئنا بالشعبية التي يتمتع بها هذا الزميل. بالفعل بدأ الأسلوب الشعبي الساحر يجد طريقه إلى

نفوسنا، متغلغلاً في الأعماق، منظوماً تارة أو مسجوعاً ومرسلاً تارة أخرى، تتلون لهجة وتنغيماته مع الأحداث المدلهمة تتقاذف الفتى بدر الزمان، يغيب في خضمها محطمة قلبه وإيمانه وجسمه. لا يكاد يطفو إلا لتغمره من جديد... وفي لحظات اليأس الكئيبة، يكتشف الفتى أن كائناً ينمو شيئاً فشيئاً في داخله، تغذية الأرزاء والبلايا. إنه يولد من جديد. يموت الموت وييأس اليأس، ويولد الفتى من أتون تغريبته رائعاً عميقاً في حبه، في إيمانه، في جسمه..

كل زمان عنده بـدْرُه — اللي يـضويه ويـعـمّـرُوا

ما همّو اللي ضـرّوا — هـذا حـال الزعـمـا

كل بدر عنـدو زمـانُه — كل قـول عـنـدو مكانُـه

اللي غبْرُوا لابد يبَـانو — دايرين في الفلك علاما...

في نهاية السهرة الممتعة الساحرة وقبل أن نفترق، عبرنا السدراوي وأنا، عن رغبة واحدة في نفس الوقت. الآن أصبح عملنا سهلاً. علينا فقط أن ننسخ الأصول. عملية آلية تقريباً. لقد فزنا. لم يداهمنا الموت ولا الإفراج. فلنخصص وقتاً يتعرف فيه كل منا على تفاصيل قضية الآخر. اتفقنا.

❑ ❑ ❑

وجدتني عاجزاً عن فراق السدراوي بعد الحفل البسيط. ابتهاج يغمرني. ولا تزال نصف ساعة أمامنا نقضيها معاً. كررت إعجابي بشعبية مصطفى لكرد بين السجناء، وسحر حديثه وأسفت لذوينا خارج السجن. هل يتصورون هذا المرح والصفا وهذه الشاعرية؟ راهنت على أن في جلدة مصطفى لكرد شاعرية حقيقية ثاوية يجهلها هو نفسه، ولا يمكن أن توجد خارج الأسوار...

قطع السدراوي خواطري معلناً خوفه علي من روح الشعر هذه. صارحته بأن مشاريعنا نفسها ليست إلا شعراً... ووجدتني أتحمس لفكرة خطرت في

الحال: الشعر إيقاع ونغم وانسجام كالهندسة والحساب. لا تناقض بينهما.

ـ مهلاً: صاحبك بالعكس من ذلك.

ـ من؟

ـ مصطفاك لكرد.

ـ يعني؟

ـ آلة حاسبة من النوع الممتاز.

لم أعهد في نفسي من قبل مطاردة المعلومات المتعلقة بالغير، ولكني الآن ألح لأعرف ماذا يعني السدراوي بكل ذلك، وما تصوره النهائي عن مصطفى لكرد. حدثني عن نهاية الحساب التي أدخلت مصطفى لكرد للسجن بالقدر المضبوط الذي توقعه لنفسه، وبالتصميم الذي رسمه حرفياً. فبعد سنة ونصف ينهي عقوبته، ويغادر السجن ليعيش بقية حياته مسروراً سعيداً كما يقدر، وكما خطط، لا يهدد مشروعه إلا الموت الذي يهدد جميع الناس. فأين الشعر في كل هذا؟ أفحمت ولكنني لم أقتنع. لا يمكن لتلك القدرة أن تموت على هذا النحو. وهذا السحر الذي يحكيه على أنه من محفوظاته التلقائية، هذه الحكايات التي لا تنسب لغير روح الشعر، كيف تموت؟ يمكنها أن تغفو تحت دوائر الأرقام، وتكمن لعدم الاستعمال، ولكنها لا يمكن أن تكون سراباً مطلقاً. شغفت بمصطفى لكرد، واقترحت على السدراوي أن نستعين به في مراجعة مشاريعنا من ناحيتها الحسابية على الأقل، فمشاريعنا تخدمه كما يمكنه أن يخدمنا، رد السدراوي بحسم أنه لا يصلح. لماذا؟ لأنه حسب لنفسه. حسب وانتهى، وأنهى نفسه.

❑ ❑ ❑

عزيزي أحمد

....

(... مشروع العودة الآن ناضج في ذهني، خاصة بعد تجربتي الأخيرة مع جانيت، بدا لي أخيراً أنني كل شيء ولست شيئاً في نفس الآن. لا بد أن أعود، ولكن بم أعود؟ لا أعني المال وليست مشكلتي فيه، وكفايتي متوافرة منه. العودة بالنسبة لي يجب أن تكون شفاء نهائياً من الهجرة. ولو عدت لما تحملت أن أكون مجرد صفر إلى اليسار...).

أخوك محمد

ب.. في 1977/11/3

❑ ❑ ❑

قال الراوي: آن الأوان لنتحدث عن قصة شهراموش مع النساء كما وعدنا بذلك.. إن لمتعجب أن يتعجب من أمر شهراموش في موضوع النساء وكيف أنه لا يحتمل حديثاً يتعلق بهن، وكيف أنه لم يعرف عنه معاشرة امرأة أو الطمع في معاشرتها. قال... كان ألذ شيء إلى قلب شهراموش، مشاهد اقتتال الوحوش وافتراس بعضها لبعض بعد تجويعها وإطلاق بعضها على بعض في حلبات ومعتركات خاصة، نظمت بحيث يجلس شهراموش وحاشيته في أعلاها يشرفون على صراعها الضاري حتى النهاية. كانت فرجات من هذا النوع تنظم مرات متعددة في الأسبوع وكلما أشار شهراموش بذلك. ومن ثم كانت أهمية منصب زاهور مروض الوحوش. فقد كان من الواجب أن تكون الوحوش مروضة ومجوعة، أو بالإجمال معدة للاعتراك والاقتتال، بمجرد ما يريد شهراموش ذلك؛ بالإضافة إلى ذلك، كان من الواجب أن تكون متنوعة بحيث تستجيب لرغبة شهراموش إذا طلب رؤية ضفادع أو ثعالب أو ثعابين

أو نمور أو غيرها. ولم يكن من المألوف، ولم يحدث قط ـ على الأقل مع زاهور ـ أن طلب شهراموش اقتتال حيوانات معينة لم تكن مهيأة، أو لم تكن في الحوزة، بل إن زاهور كان من التمرس والإخلاص لمهنته، والتفاني فيها، أنه كان بعد استجابته لرغبة شهراموش، يعرض عليه عروضاً إضافية لحيوانات، ربما لم تخطر له على بال فتضيف إليه مزيداً من المتعة والمسرة. وكانت بعض العروض تتضمن اقتتالا غير متكافئ طبعاً، بين بعض بني آدم، وبعض الوحوش. أو بالأحرى تتضمن افتراس الوحوش لبني آدم من المغضوب عليهم، والذين آثر شهراموش، أو اجتهد زاهور للقضاء عليهم بهذه الطريقة. قال الراوي: ومثل هذه المشاهد الآدمية في الواقع كانت قليلة، ولا تدخل كثير مسرة على شهراموش بالذات رغم قسوته. كانت مشاهد اقتتال الحيوانات فيما بينها، وافتراس بعضها ممتعة له، لأنه يرى أنها في ذلك متكافئة ومن ثم ضراوة الصراع. ولذلك كان يشترط على زاهور، تعويض الحيوانات المقتتلة لنفس الظروف المهيئة لذلك من تجويع وغيره.وأحياناً إذا أمكن ذلك أن تكون متساوية في السن أو اكتمال أدوات الاقتتال من أظافر وأنياب وغيرها. فكلما تكافأت الفرص طال أمد الفرجة، واشتدت ضراوتها وهو أمر وجد شهراموش أنه لا يتوافر إذا عرض أمامه شخص بشري بائس مع أسد جائع... وأكثر من ذلك كان من مهمة زاهور تبعاً لرغبة شهراموش أن يفرض للاقتتال والصراع وحوشاً من جنس واحد، إذ يجب تبعاً لذلك أن يقتتل أسدان أو نمران أو ثعبانان... أو ضبعان إلى أن يأتي أحدهما على الآخر فيفترسه أو يموتا معاً. ومن هنا كانت أهمية مسؤولية زاهور مرة أخرى. ففضيلة الترويض بما تصل إليه من طاعة الوحوش لسوط زاهور وصوته، يجب أن تصل أيضاً بالوحش إلى أن يأكل لحم بني جنسه. وذلك عن طريق تجويع منظم، وعرض لحم بني جنسه عليه. ذلك أن كثيراً من الحيوانات تعاف لحوم بني جنسها، إذا لم تكن مضطرة إلى ذلك، وبعضها يعاف ذلك ولو كان

مضطراً كان ترويض زاهور يتضمن تشجيع الحيوانات بروائح وطعوم بني جنسها قبل العروض. من ذلك تطييبها بمختلف الابتكارات، وتقديمها لها في ظروف مريحة ومشهية، مع علامة تدل على جنسها الحيواني، والاقتصار على كمية قليلة تكفي باستمرار لتفتح شهية الحيوان للأكل. قال الراوي: وكان من المنتظر لولا هذا الترويض، أن يفتتح العرض أمام شهراموش بظهور أي حيوانين مفترسين جائعين من نفس الجنس، وبدلاً من أن يقتتلا، يحتك أحدهما بالآخر ويقعيان، أو يتمددان من الجوع كتفاً إلى كتف أو جنباً إلى جنب، بحيث لا يشعر أي منهما بأن الخطر عليه من الآخر، أو أن إشباع جوعه يتطلب قتل الآخر. وكان نجاح زاهور ساحقاً باهراً، فلم يكن يفتح القفص عن أي حيوانين حتى يندفعا مباشرة كل اتجاه الآخر، في ضراوة كأي عدوين لدودين. على أن زاهور كان بالمرصاد محتاطاً ومهيأ لوسائل الحث والتحريض لاستخدامها، إذا ما وقع من الوحشين تردد أو تراخ في البدء، أو أثناء الاقتتال. فكان يكفي لمثل هذه الحال، أن يرمي إليهما بشيء قليل مما تشبعا بريحه وطعمه، فيذكي فيها روح الاقتتال.

قال الراوي: لمتعجب أن يتعجب من المتعة البالغة، والإقبال المستمر الذي يجده شهراموش في نفسه على هذه العروض، بدل مجالس الأنس والطرب والنساء وغيرها من الملذات التي ينصرف إليها أمثاله. قال: لم يكن شهراموش يعرف متعة غير هذه العروض أو محاربة أعدائه. ولم يكن لإحدى هاتين المتعتين أن تتنافى مع الأخرى، فحتى أثناء الحروب كانت متعته، والعامل المجدد لنشاطه، ينحصر في مشاهد اقتتال الوحوش أثناء فترات الراحة العابرة ليلاً أو نهاراً.

قال: لمتعجب أن يتعجب حقاً من هذا الانحراف، وخاصة إذا ارتبط في نفس الشخص بانصراف كلي عن النساء، بل بكراهية لمجرد ذكرهن في مجلسه

أو الحديث عنهن بحضوره، لدرجة أنه سن كثيراً من القوانين التي من شأنها أن تجعل النساء على هامش الحياة اليومية الجارية، بحيث لا تكاد المرأة ترى في كغاشي إلا في ظروف جد خاصة، أو معروضة للبيع في سوق النخاسة...

قال الراوي: ولقد بلغ من تأصل هذه الطبيعة في شهراموش أنها حجبت عنه أن يحافظ على استمرار عظمته بنسل يأتي به عن طريق معاشرة امرأة ما. وكأنه لا يفكر في ذلك. والواقع أن شهراموش في كراهيته للنساء قد يعود إلى خبرة قاسية، مر بها في صغره، ولم يكن يعرفها إلا قلة من الناس ولا يستطيع أحد تداولها سراً أو جهراً. فقد كان والد شهراموش قائداً لفرقة عسكرية، في جيش كغاشي، وكان كما يبدو له في ذكريات الطفولة، شاباً وسيماً ممتلئاً صحة وعافية وحبا لزوجته الشابة الجميلة. فتح شهراموش عينيه على أبوين شابين جميلين، ولم تكن هناك حرب تستدعي غياب القائد الشاب، فكان البيت هادئاً منعماً، بدفء العاطفة المتبادلة بين الزوجين، يذكيه ترعرع طفلهما بصحة وعافية... ولم يشعر الطفل قط بغير هذا الحب والود المتبادل منذ وعى ذلك وهو في السادسة من عمره، حين أفاق مذعوراً من نومه ذات يوم، على أصوات مزعجة. أفاق ليرى والده بلباسه الرسمي شاهراً سيفاً مضرجاً بدماء شبحين عاريين أحدهما كان رجلاً لا يعرفه، والثاني كان أمه. واختفى الأب دون أن يغمد سيفه الدامي... اختفى وغاب إلى الأبد، لا يعرف أحد عنه شيئاً...

قال... تلك هي الصورة التي ظلت منقوشة في ذاكرة شهراموش، تطغى على كل ما عداها، كلما عرض له الحديث عن امرأة... وتعرجت السبل بشهراموش منذ ذلك الحين، مما لا مجال لذكره حتى أصبح فيما بعد، عظيم كغاشي.

❑ ❑ ❑

رأيت الصغار الثلاثة مهدي ومحمد وفاطمة كالواجمين، متحلقين حول لعبة مهجورة. يقولون إنني نسيتهم، أفقت مذعوراً. منذ سنتين لم أر حلماً مزعجاً. أهي عودة إلى حالي الأولى؟ لا يمكن أن أنساكم. أنتم في كل مشاريعنا. أيضيق بي عالمي الفسيح؟ مرة أخرى عدت إلى النوم، أرغمت نفسي، أغمضت عيني وبدأت أحبس أنفاسي لأرتخي بالإيقاع الرتيب، رأيت رجاء من بين القضبان تمد إلى جواز السفر. تقول تعال نمض بعيداً. رجاء... لا يمكن. سحنتها حزينة كئيبة تقول إنها ستنتظر. رجاء. لا تنتظري رجوتك في ذلك من سنتين... تزوجي وأنجبي، ولا تكفي عن حبي إذا كان ذلك في اتجاه عواطفك... لا ترغمي نفسك على شيء، واتركي الأمور عادية بقدر الإمكان... تحكمنا هو الذي يشعرنا بالتناقض.. فتنشأ المحنة. ليلة مهمومة قضيتها. نهضت الصبح بمزاج يعود لسنوات ما قبل السجن. ها قد عادت محنتي من جديد، بعد أن تيقنت أنها غابت إلى الأبد. وأنها كانت سحابة عابرة في سنوات الوهم، أينقلب الوضع، وتصبح سنوات السجن هي الوهم؟ لا أحتمل. هذا لا يمكن. سلمت على السدراوي بفتور. انتبه أيضا إلى حالي. سألني. لم أرد وأنا أتناول فطوري. كنت أنتظر أن يلح عليّ أكثر، في معرفة حالي لأحدثه، لكنه غرق في الصمت وقام قبلي. تريثت أفكر في أنني سألحق به بعد حين ليبدأ قصته. بأي مزاج سأستمع إليه أو أتابعه. وبأي مزاج سأحكي له قصتي؟

لحقت به في الورشة، لم أجد أمامه أوراقاً عريضة طويلة، كأوراق التصميمات. وجدته يكتب في أوراق عادية. قدرت هذا من قبل، فسيكون في مزاج رائق ليبدأ قصته. قلت له إنني لم أنم جيداً للمرة الأولى منذ.. نظر إلي كأنه لم يسمع وعاد يتأمل ويكتب. توقف بعد لحظة وأخبرني بأنه هو أيضاً لم ينم جيداً. لقد انتبه بعد سهاد طويل إلى شيء هام (تصحيح نظرية تناسب قدرة احتمال الأعمدة المائلة، مع انفراج زاوية مضلع الارتكاز) وهو أمل كان يراوده

من أيام دراسته ثم تغافل عنه. ما الذي جاء بهذا الافتراض القديم الآن بالذات؟ أيكون السدراوي قد شعر بمثل ما أنا فيه، فأنقذ نفسه بهذا الافتراض العتيد؟ أسئلة اختلطت في ذهني، مع سوء المزاج من أثر السهاد المضني، جعلتني أتوقع لحالي بؤساً لا مثيل له، وردة إلى عالمي القديم. لم أكن قادراً على التركيز فيما سمعت. ولم يكن السدراوي أيضاً قادراً فيما يبدو على الشرح والإسهاب، ارتد عني بسرعة إلى كناشه. كان يطارد أطراف الافتراض، كأنه خائف من أن يفلت منه... توقفت بجانبه لحظة أراقب قلمه المتردد في معالجة الأرقام والرموز، تركته عائداً إلى نفسي. في طريقي إلى زنزانتي جربت أن أعابث بعض الحراس المسلحين بكلمات فكاهة كالعادة. لمجرد أن أتأكد أن حالي لا تزال عادية كما ألفتها هنا منذ سنتين... لم أجد لذلك طعما. وجدت الكلمات تصدر عني باردة والردود أكثر. أشد من ذلك، أقوى من كل ذلك، أن رجفة خفيفة راودتني وأنا أمر قرب الحارس المسلح. يجب أن أعترف الآن بأنني أنحدر متراجعاً نحو عالمي القديم. لأعترف بذلك بصفة نهائية. مستحيل. يستحيل، شيء من الانتحار أهون من هذه العودة. ولعلي مع ذلك أعزي نفسي بمجرد تعزية باستحالة العودة، المؤكد أن مزاجي كسول مكدر لا يقدر على متابعة حركة ذبابة في زنزانته. بدوا لي في أول الأمر يلعبون لعبة مرحة يمسك فيها كل طرف بيد الآخر، ويتحركون في دائرة، ربما كانوا ينشدون شيئاً لم أتبينه على البعد. وبدأ المشهد يتغير شيئاً فشيئاً، أصبحت كل من رجاء وعائشة متقابلتين، تمسك كل منهما بيد أحد الأولاد تتجاذبان في حركة متعاكسة قوية. الأولاد بينهما يستغيثون. شيء لم أتبينه على البعد. أحاول أن أتحرك نحو الدائرة ألبي الاستغاثة، فلا أستطيع، شيء يقعد بي. ثقل ماء ورصاص يشد ركبتي. الاستغاثة تتضخم داخلي... فجأة يستوي الحاج مهدي قائماً قرب الدائرة إحدى ذراعيه على كتف زهروية والأخرى على كتف فطومة.. يترك امرأتيه

ويتقدم خطوات نحو الدائرة، نحو مركز الجذب.. يجرد سكّينة العيد الطويلة اللامعة، يرفعها ليقطع حركة التجاذب مع منتصفها، بقطع الأيدي المتجاذبة، السكينة مرفوعة.. أصيح.. السكين تهوي، أصيحُ.. أصيح.. أحس بضربة السكين في صدري.. الحارس يهزني من ذراعي يوقظني ينبهني إلى أنني أهذي وأصيح في نومي.. أمسح العرق عن وجهي بكم القميص. يناولني سيجارة ويشعل مثلها. اسأله عن الساعة. الواحدة صباحا. تنتهي السيجارة والحديث القصير. يتركني ويخرج. يغلق الزنزانة، ويطفئ الضوء من الخارج أغرق في الظلام أغرق تحت الغطاء ويغرقون فيه معي، أراهم الآن أحياء يتحركون أمامي بين جلدة العين وبؤبئها في الإغماض، متحلقين حول دمية مهجورة، متذمرين من أنني نسيتهم، الحاج مهدي في فراشه، في الغرفة المجاورة، يسعل بين الحين والحين في جوفي، فأرتجف ويضيع اطمئناني واستعدادي لفراش ليلة العرس. تقول فطومة كن رجلاً، وانس ما حدث. يدخل الحاج مهدي لاهثاً. يفاجئنا في الفراش عاريين، يخفي وجهه من خجله من المشهد. لا يريد إحراجنا، لا أستشعر حرجاً لأنني أمارس حقي في الزوجية. جاءنا بهدية العرس. يحضرها إلينا ويرمينا بها، ونحن في الفراش ثم يولي منصرفاً راضياً، عن فحولة ابنه ووارث سره، وعن فطومة بالذات. هديته إلينا دمية تفحصها فطومة ونحن ضاحكان مبتهجان متشابكا الأذرع في دفء الفراش... أقول أسميها. أفضل أن نسميها فاطمة، تيمناً بالبنت البكر. يطل علينا وجه الحاج مهدي مرة أخرى، رأسه فقط من وراء الستار يقول: سّموه مهديّ. لست نائماً، لست يقظاً، ولا حياً ولا ميتاً... إنهم يتحركون أمامي أحياء، ألمسهم بيدي وأسمعهم وأراهم بكل جارحة مني. أسألهم فيجيبون ويسألونني فأجيب.

❑ ❑ ❑

قال الراوي: ظلت الأميرة بيروز، في قصر خاص تحت الرعاية والحراس

بأمر من شهراموش، ولو كان الأمر يتعلق بأي رجل آخر غير شهراموش لأمكن القول إن قلبه بدا يميل نحوها. لكن ما هو معروف من كراهية عظيم كغاشي للنساء، يجعل المراقب لسلوكه يحتاط ولا يتسرع في الحكم. ومع ذلك فإن جزءاً من خطة الحكيم روزباه قد بدأ يتحقق. فما هي ذي الأميرة بيروز لم تعدم منذ الجلسة الأولى، بل ها هي ذي منعمة في قصر من قصور شهراموش، وقد تأكد نجاحها واثقة بعلمها. وها هو ذا للحكيم روزباه نفسه منعم (لولا زهده في متاع الدنيا) بالقرب من الأميرة، وقد استمع شهراموش إليه على انفراد أكثر من مرة، وآمن بصلاحه ونصحه وإن لم يعلن ذلك رسمياً. ولم تكن هذه التحولات خافية على روزباه، لأنه كان ينتظرها، ولكنه لم يكن متعجلا، فقد كان يعتقد أن التحول السريع لا تؤتمن عواقبه.

قال الراوي: ومضت شهور كالدهور على الأميرة بيروز، قبل أن تأتيها أول دعوة إلى حضرة شهراموش على انفراد في قصره. كانت واثقة من نجاحها، وكانت تعلم من روزباه أن شهراموش يقلب النظر في أمرها، وان الصبر كفيل بإبلاغهما المراد.

قال الراوي: تهيأت الأميرة بيروز في أحسن منظر وأبهاه لقلب بشر، وسارت يحملها أربعة خدم على سرير نصبت عليه ستائر من غلائل حريرية شفافة يحف بموكبها الحراس. وفتحت لها الأبواب السرية، والسرادق التي تصل بين قصور شهراموش. ولم تمش ساعة حتى وجدت نفسها في حضرة شهراموش، فأدت إليه التحية باحترام، وهش لها وابتسم، وأشار عليها لتجلس بالقرب منه. وقد مدت أمامه مائدة أكل لم يمسها بعد. فدعاها لمشاركته... قال... وأظهرت بيروز من الكياسة وحسن التصرف، وأدب المعاملة، ما يفوق الوصف. وزاد ذلك رجاحه عقلها، وحسن حديثها وطرائفها، حتى إن شهراموش لم يكف عن الضحك والابتسام. بل قال لها بصريح العبارة، إنه

لم يضحك أو يبتهج، ولا أكل بشهية كما فعل تلك الليلة. وانصرفت بيروز بعد العشاء تحدثه بحكايات ومسليات، وأخبار تنتقل بين موضوعاتها كالفراشة بين الزهور، فازداد شهراموش إعجابا بها، واستأنس بقربها كثيراً، ولم تمض أيام حتى أصبح لا يطيق الخلوة إلى نفسه بدونها، فأمر بتخصيص جناح لها في قصره بالذات، ليسهل وصولها إليه كلما أراد ذلك.

قال الراوي: ثم حدث النبأ العظيم وأعلن في الناس: (أن عظيم كغاشي سيتزوج الأميرة بيروز بنت السماء) وكان عرسا عظيماً لا يرى نظيره حتى فيالحلم. ولأول مرة في تاريخ كغاشي، ينعم بالفرح حتى عمال مناجم الملح بيوم راحة في حياتهم وبأكل جيد. فلقد أمر شهراموش بإطعام كل جائع في كغاشي وإراحة كل متعب[8] . قال الراوي: وكان أشد الناس فرحاً بكل ذلك روزباه الحكيم ومرقادو الراعي. وهما يريان خطتهما تتوج بالزواج السعيد، وإن كان الحكيم يرى الطريق ما يزال طويلاً وشاقاً. كان الحكيم يرى أن إصلاح كغاشي وإزاحة المظالم، يتطلب تغييراً في ذهنيه القائمين عليها، وعلى رأسهم شهراموش نفسه الذي يجب البدء به لمكانته وشذوذه. وذلك بإعادة تطبيعه بما يجب أن يكون عليه الإنسان... وقد قامت بيروز بدورها خير قيام. فطيلة شهور اتصالها بشهراموش، تدرجت به إلى حب الفنون وخاصة الموسيقى والشعر، وجعلته يأنس الخمر وكان ينفر منها لاقترانها عنده بالنساء، وموقفه منهن كان معلوماً.. كما أنه شغف بأخبار التاريخ، وحكايات التسلية، ومواقع الأفلاك وحركتها، وعلم البحار والرحلات وتقسيم الكون.. إلى آخر ما كنت تعرفه بيروز وتتقنه، حتى فتن بها شهراموش. وعاودته الطبيعة البشرية التي تنكر لها طويلاً. فأعلن رغبته في الزواج وكان ما كان... وكانت أوامر شهراموش، بالإحسان إلى عامة كغاشي بمناسبة زواجه، تدل على الانقلاب العظيم الذي وقع له. قال...

(8) يقال في رواية أخرى، إن أمر شهراموش لم ينفد فيما يخص عمال المناجم. وسيأتي بيان دلك.

كان الحكيم روزباه يعلم أن إعادة الطبيعة البشرية إلى شهراموش، وإخراجه من شذوذه، يجب أن ينتهي إلى ما هو أكثر. إلى أن ينجب من بيروز غلاماً يتكلف روباه بتربيته على ما يراه صالحاً، ليكون من بعد، عظيماً صالحاً لكغاشي، تزول في عهده آخر المظالم، ويعم العدل والرخاء، لينتشر نمط الحكم العادل في المعمور كله بدون حرب، ويعم السلام والوئام بين بني البشر. قال... ولم يكن الحكيم روزباه واثقاً بأن التغيير في ذهنية شهراموش سيكون مطلقاً. أو يحقق كل أهدافه، لأنه كان يدرك تلك الآثار العميقة التي تركتها التنشئة التي مر بها شهراموش، والتي لا يمكن تجاوزها إلا في حدود، وبصعوبة. كما كان يعرف أن هناك أصحاب المصالح من ذوي المناصب، الذين لن يتركوا الأمور تسير في هذا الاتجاه بسهولة. ولكنه كان يعول على ذرية شهراموش من بيروز، التي سيمكنه أن ينشئها التنشئة التي يريد، فيجنبها الخوف والطمع والشهوة وما إليها...

❑ ❑ ❑

قال الراوي: كان الأمر كما خمن الحكيم. فإن جماعة أصحاب المناصب والمصالح وعلى رأسهم همشير وشيهوك، تنبهوا إلى الخطر، وشعروا بالتغيير الذي بدأ يطرأ على شهراموش، ولكنهم في الواقع فوجئوا بعمق ما وصل إليه ذلك، وخاصة الزواج. وقد بدأوا في خطتهم المضادة، ومن ذلك أن شيهوك فيما يقال، لم ينفذ أوامر شهراموش فيما يخص إطعام عمال الملح وإعطائهم يوم راحة بمناسبة عرسه. فقد كان شيهوك ومن معه، يرون في هذا خطراً كبيراً وانقلاباً خطيراً، كان كفيلاً بالقضاء على مصالحهم ومناصبهم، التي يرون فيها مناصب كغاشي كلها. فرأوا أن عمال الملح إذا تذوقوا الراحة وليوم كامل، وكذلك الطعام الجيد، فسيتعلمون طرقاً في الغش والمساومة، زيادة على ما يعرفون من ذلك. ولذلك يروى عن البعض أن يوم الراحة والإطعام الذي أمر

به شهراموش، كان على عمال الملح يوم عذاب، دفن فيها مئات منهم أحياء أمام أنظار الآخرين. بدعوى قلة إنتاجيتهم وتظاهرهم بالمرض، أو مرضهم فعلاً. والمقصود بذلك كما تقول الرواية: أن يفهم عمال الملح أن المرض الحقيقي أو التظاهر به سببان، عندما يؤديان إلى قلة المردودية، والجزاء على ذلك هو الدفن. ويقال أيضاً إن الشائعات أطلقت في صفوف العمال، بأن كل ذلك كان بأمر شهراموش في يوم عرسه، لأنه يريد ابتداء من يوم زواجه ارتفاعا مطرداً في إنتاج الملح، ليبني من دخله قصراً من الماس الأخضر الأندر لأميرته.

قال... تغير الكثير من سلوك شهراموش. فمجالسه أصبحت أكثر أنساً، يجتمع فيها الفنانون والأدباء والعلماء. ويدعو إليها كبار أصحاب المناصب، الذين كان الكثير منهم يخفي رأيه الحقيقي، ويظهر ابتهاجه بها. وأكثر ما هال الطغمة القديمة، وارتاعت له، أن شهراموش لم يعد مشغوفاً بمشاهد اقتتال الوحوش، وافتراس بعضها للبعض. فأصبحت عروض ذلك تقل حتى أصبحت نادرة، وتقلص بذلك دور زاهور في الظاهر على الأقل، وإن ظل على عنايته بوحوشه وحيواناته.

ومن أهم التغييرات أن الحكيم روزباه أصبح يحضر كل المجالس الرسمية لشهراموش، بجانب كبار أصحاب المناصب، مع أنه لم يعين في منصب خاص. قال.. كان روزباه يقوم بدور الناصح والمرشد، وقد امتلك ثقة شهراموش، كما امتلكتها الأميرة بيروز، لما أدخلته من سعادة حقيقية على شهراموش منذ تعرف عليها، وخاصة بعد زواجه بها وحملها منه.

ولم تزد الأيام الحكيم روزباه إلا مكانة في مجالس شهراموش، لصواب ما كان يشير به في كل الأمور، حتى أصبح لا يبرم أمر بدونه. وبطبيعة الحال، تحمل أصحاب المناصب ذلك على مضض، وأظهروا له خلاف ما يضمرون، لأنهم لم يستطيعوا غير ذلك، نظراً لسداد رأيه وحسن مشورته. ولعلهم دبروا

الكثير مما لم يأت بنتيجة، ولم يعلم به أحد. على أن الحكيم العارف ببواطن النفوس ونزواتها، كان متهيئاً لذلك ومنتظراً له، بل لعل عدم ظهور شيء من ذلك كان يحيره، لأنه يجعله يفكر بأنه ربما كان على خطإ في بعض تحليله وفهمه للنفس البشرية، التي نشئت على الانحراف.

❑ ❑ ❑

حَلَّ فيَّ عالمُه العجيب وسكينته. مصطفى لكرد عجيب وطريف. قال في نفسه ذاتَ يوم: الكرسي هو الكرسي. المكتب هو المكتب. النافذة نافذة بزجاجها المشقوق المعهود وستارتها القديمة.. حتى اللوحة الرديئة على يمين الداخل، ورفوف الوثائق، والسجادة المتآكلة تحت القدمين... كل شيء هو هو... كما كان ويكون.. لا يتغير إلا بالتقادم. قال مصطفى لكرد في نفسه بعبارات لا يسمعها ولا يعرفها إلا هو: (لا بد أنهم كانوا من طينة أخرى هؤلاء الذين عملوا قبله في هذا المكتب) حتى أنهوا الخدمة وانتقلوا أو استقالوا. نفس الأوراق بنفس الخانات.. تتغير الأرقام التي تملؤها. تتغير عواملها ومجاميعها... لكن الإطار هو هو.. ولا تفنى الأوراق رغم ما يملأ منها وما يتلف. فتكفي إشارة إلى الشاوش حسن، ليحضر منها أكواماً من المخزن. قال مصطفى لكرد: تمنيت أحياناً لمجرد العبث الفكري، أن يقول الشاوش حسن إنها انتهت.. نفدت... ويجب طبع كمية جديدة منها، أو بالأحرى طلبها من الإدارة المركزية. لم يحدث ذلك قط، ولا يمكن أن يحدث بعد أكثر من اثنتي عشرة سنة، ولم يعد مصطفى لكرد يفكر به، إن صح أنه يستطيع أن يفكر. إنه فقط يحسب. مئات الآلاف.. الملايين بالعشرات... أوراق مرصوفة ومصفوفة... أكياس القطع الفضية والنحاسية... إنه يحسُب ويحسب فقط ويجب أن تكون المادة المفكرة فيه قد تعطلت أو هذا شعوره. المقعد هو المقعد، النافذة هي النافذة بزجاجها المشقوق والستارة... والسجادة المتآكلة... منذ اثنتي عشرة

سنة. تساءل مرة كم أحرق من سيجارة...أي جسر يمكن أن يتكون بالتحامها ليوصله إلى أبعد كوكب عن الأرض؟ كم مرة وضع يده اليمنى على جبهته، طوال اثنتي عشرة سنة في عالم التقادم والسكون؟ كم؟ يضرب ويجمع حصيلة السنوات الطوال... أليست سخافة أن يكون المجموع شهوراً متصلة من مجرد وضع اليد على الجبهة، بحركة بسيطة عابرة؟ كم مرة تمخط وكم فترة ذلك...؟ أليس هو آلة حسابية، مجرد آلة حسابية؟ المقعد هو هو، والأوراق... لا بد أن جلد المقعد قد امتزج بالجلد الآدمي التي يجلس عليه... كان يحسب و يحسب فقط، متأكداً من أنه لا يفكر.. وبمجرد الحساب، وبدون تفكير كالعادة في العمليات الحسابية، وجد أن عليه أن يستمر هكذا لمسافة تسع سنوات وثلاثة شهور وسبعة أيام، وإحدى عشرة ساعة ونصف تقريباً (تساهل في الدقائق والثواني) ليصل إلى تقاعد نسبي. ويحتاج إلى ثلاثة عشرة و... لتقاعد أكمل. مجرد حساب بدون تفكير. سيتمتع إذ ذاك، بما بين الثلث وأربعة أخماس المرتب الحالي، مع إدخال ترقيات الامتياز التي يحظى بها دائماً... ودائماً بالحساب، وبدون تفكير، توصل إلى أنه سيتمتع بالهدوء والسكينة فرضاً، لفترة يتراوح متوسطها ما بين خمس وعشرة سنوات، إذ بالحساب أيضاً، لا بد للمرء أن يموت في الخامسة والستين حتى وإن ظل حياً...

أشعل السيجارة ووضع يده على جبهته، ظل يرمق أرقام مصيره المحسوب في عيونها المستديرة وارتخاءاتها ساعة من فراغ، وأمامه فنجان قهوة مركزة على الرصيف في ظليلة المقهى المعتاد، وسيجارة تحترق بين الأصابع، تحترق حتى أطفأها مصطفى لكرد، ورشف آخر ما في الفنجان، وقام سائراً. خطا خطوات توقف بعدها مركزاً بصره على اللوحة النحاسية اللماعة... ثم دلف إلى الداخل... صعد الدرجات النظيفة طرق... وجه مشرق وعبير عطر، وزينة، مرحبا الأستاذ هنا؟. طبعاً. من يريده؟ مصطفى لكرد، موضوع خاص.

المقعد أريكة فخمة متحركة. الستائر سماوية تنسدل على حوافيها خيوط حريرية مجدولة... جهاز التلفون محمول على ظهر جمل خزفي... سيجارة تمثل حقل زهرة ونحل... رفوف تملؤها مجلدات مذهبة، أريج راحة وعطر ونظام... بسمة تفتح الباب، وبسمة تستقبل في الداخل... قال الأستاذ المحامي تفضل.. يا أخي أهلاً.

جلس مصطفى لكرد على أريكة مقابل المحامي زميله القديم، عيناه تفرغان الفضول والدهشة، بنظرة ماسحة من نحل السجادة إلى ظهر الجمل.. إلى... أهلاً وسهلاً. شكراً.

يمتد نحوه حق السجائر محلى بالصدف الملون، وتلتهب بسمة الإشعال. مص السيجارة شاكراً ودخل الموضوع مباشرة. القضية ليست قضيته! في الواقع ليست قضية أحد! ولكن، لنقل إنها قضية صديق حميم لا داعي للبوح باسمه الآن. قضية سرقة. موظف اختلس أموالاً عمومية. الحجة؟ هو معترف بذلك عن طواعية وبدون تعقيدات. المبلغ؟ ما يكفي لشراء عمارة من خمس طوابق أو ثلاث فيلات... لنقل مائة مليون تقريباً... نعم. دفعة واحدة اختلسها. إغواء شيطاني، والنفس أمارة بالسوء.. التهمة ثابتة ولا أحد يفكر بإنكارها أو دفعها. وعلى كل حال لم يكتشفوه، بل هو الذي ذهب ليعترف من ذات نفسه. أعلن عن النقص الحاصل واعترف بجريمته.. المال بدده بطريقة عشوائية، وعلى كل حال لم يبق أثر لأي فلس.. كيف بدده؟ لنقل إنه القمار والخمر والنساء.. وما شئت من ذلك وغيره، المهم أنه لا فلس قد تبقى من المبلغ، والمعترف لا يملك شيئاً عدا رقبته ومعطفه... ليست له أية أملاك طبعاً، مهما كان نوعها. زوجته تملك عمارة من ست طوابق أو ثلاث فيلات ملكية شخصية شرعية. مسجلة حسب القوانين الجاري بها العمل، وربما أمكنها بسهولة أن تنقل بعض ما تملك إلى من يكبر من أبنائها من مصطفى لكرد، فهي حرة، ولكنها بالتأكيد لن تنقل

شيئاً إلى زوجها بالذات، فهي تعرف أنه متلاف حتى وإن اغتر الناس بمظهره. ولا سيما وقد أصبح مختلساً مجرماً. المهم ليس للمعترف أملاك ولا شبهها.. ولا علاقة له بأملاك زوجته، ولا تزر وازرة وزر أخرى... وكل شاة من رجلها تعلق كما يقول الجزارون.

البند الواضح في هذه الحال يقول.. يقول اختلاس أموال عمومية... مبلغ ثمانين مائة... مائة وعشرون.. في هذه الحال يقول البند الواضح المعلوم. عشرة سنوات سجنا نافذة طبعاً. يعني أقل من النسبي؟ وبالطبع أقل من العادي والأكمل. ولكن هذا مع ذلك كثير يجب أن يعتبر كثيراً. وإلا فيم المحامي وغيره؟ طبعاً طبعاً، ستتدخل ظروف التخفيف. الماضي الإداري، والوضعية الاجتماعية، ومهارة المحامي وأتعابه المرتفعة.... وإلا فيم يتفاوت المحامون غير الإخلاص والمهارة والمعلمية؟ خذ مثلاً الخلو من السوابق، هذا عنصر هام يجب أن يستغل لصالح الموكل، وكذلك حسن النية، ويقظة الضمير الحي التي جعلت المعترف يتوجه من ذاته للاعتراف... بالإجمال وبدون تفاصيل سر المهنة، يمكن النزول بالعقوبة إلى أدناها ست سنوات نافذة طبعاً.

الآلة الحاسبة تعالج ما بين عشرة وستة، لتعطي متوسطا حسابياً بعينين مستديرتين متماستين عمودياً... وبحياة هادئة تحت ظليلة إيراد جيد، سيمتد من خلف لخلف وإلى الأبد.

شكرا شكراً. القضية مربوحة مسبقاً ومشجعة. مضمونة وفي الجيب. شكراً شكراً أريج وبسمة تفتح الباب، بسمة تستقبل، وأخرى تودع.

❑ ❑ ❑

مشهد

مجلس أنس على شكل دائرة. شهراموش في صدر المجلس على سرير واطئ من الخشب الملمع. حوله أصحاب المناصب في مجالس قريبة من مستوى مجلسه. بجواره مباشرة على اليمين مجلس الحكيم روزباه. بالمقابل في نصف الدائرة الأخرى من المجلس جماعة المطربين والفنانين والشعراء والعلماء.

شهراموش (بهدوء وانبساط): أشكركم على هذا السمر الحلو الذي لا يمل أبداً، واعلموا أنني جد مسرور بتنوع فنونكم وإبداعاتكم، وأريد منكم أن تسهروا جميعاً على تكوين ناشئة مقتدرة كل في مجال فنه واختصاصه، وذلك بافتتاح دور لتعليم هذه الفنون لناشئتنا. وإني أصدر أمري من الآن، إلى صاحب الملح، لينفق على ذلك ما يستحقه... حتى تغدو كغاشي مثالا يحتذى... (يلتفت إلى روزباه كمن يستطلع رأيه).

روزباه (مؤيداً): هذا عين الحق أيها العظيم، فكغاشي، تستحق أن تكون قدوة في الاهتمام بأجيالنا وحسن تكوينهم. (إيماءة خاصة من همشير لزاهور).

زاهور: إذا أذن لي العظيم كغاشي فإني أتكلم.

شهراموش: ماذا عندك يا زاهور؟

زاهور: إن هناك فنوناً أخرى نخشى أن تنقرض من كغاشي، ويجب تشجيعها لتستمر.

شهراموش: وما هي هذه الفنون؟

زاهور: إن كغاشي كانت مضرب المثل في ترويض الوحوش الضارية أيها العظيم؟ وخادمك أفنى عمره ولا يزال، في ترويضها وتربيتها. ولكن بلدنا منذ مدة طويلة، لم يشهد حفلا من حفلاتها المشهورة المعهودة. وقد اشتاق الناس لرؤيتها ومشاهدة عظيمهم يشرفها بالحضور والتشجيع.

شهراموش: صحيح ما تقول يا زاهور. ولكن تلك العروض لا تأتينا بجديد نافع، ومرفه، إذا قيست بهذه المجالس، التي لا شك في أنك ستتذوقها في يوم ما، وتشغف بها.

همشير: إذا سمح لي عظيم كغاشي بالكلام. ففي علمي أن زاهور لم يرد أن يقلل من شأن هذه المجالس، في تنوعها وفائدتها وطرافتها. بل إنه فيما أعلم، يحمل كشفاً جديداً في فنه.

شهراموش: دعه يتكلم إذن. (ملتفتاً إلى زاهور) أفصح يا زاهور.

زاهور: نعم يا عظيم كغاشي. فقد حققت في فني ما أعتقد أنه فوق التصور، ويستحق أن يعرض، وهو يبرر ضرورة استمرار هذا الفن.

شهراموش: وما ذاك؟

زاهور: اعلم يا عظيم كغاشي أنني استطعت بعد جهود متواصلة، وطرق متنوعة أن أصل بالوحوش إلى افتراس فلذات أكبادها.

شهراموش: ماذا تقول؟

زاهور: نعم، أستطيع أن أنظم عرضاً يتجاوز افتراس الحيوان لبني جنسه، إلى افتراس فلذة كبده. فاللبؤة تفترس أشبالها، والقطط والفيران والذئاب... كلها وصلت بها إلى درجة افتراس فلذات أكبادها بسهولة تامة.

شهراموش: عجيب هذا. إنه ضد الطبيعة ذاتها.

شيهوك: (في حركة ولغة مدروسة): إنه فتح، كشف حقيقي يمكن لكغاشي أن تفخر به، وهو يدل على نجاعة التدريب، فلم يرد في أي أثر أو خبر من سلف، أن حيواناً يفترس فلذة كبده بسهولة أو صعوبة.

شهراموش (ملتفتاً نحو روزباه): هذا عجيب حقاً؟!

روزباه: نعم أيها العظيم، ولكن هناك ما هو أعجب وأحق، بالتشجيع والمشاهدة.

شهراموش: وما هو؟

روزباه: أن يأتلف العدوان اللدودان، ويعيشا في حب وسلام.

شهراموش: ماذا تقصد؟

روزباه: اسأل زاهور إن كان جرب أو يستطيع أن يجرب، وينتهي إلى نهاية جيدة، في جعل الحيوانات المتعادية أصلا، تتجاوب وتتعايش: القط بجانب الفأر، والذئب بجانب الحمل، والأسد بجانب الثور...؟

زاهور: مستحيل ولا يمكن.

روزباه (مبتسماً بهدوء): بل هو ممكن يا عزيزي زاهور. ليس سهلاً، ولكنه ممكن ويستحق أن يعرض، وهناك من يستطيع أن يقوم به.

زاهور (متضايقاً ويائساً): لست أنا على كل حال. روزباه: بل أنت أيضاً تستطيع ذلك يا بني، وتدريبك عليه يدخل في طبيعة هذا العمل ذاته... وسترى أنه ممكن... وأنه الأولى..

شهراموش: ومن يقوم بهذا العمل أيها الحكيم؟

روزباه: رجل بسيط. إنه مرقادو.

شهراموش: (متعجباً): مرقادو؟

روزباه: نعم. مرقادو راعي القطعان، ومنذ اليوم، إذا شئت أيها العظيم.

قال الراوي: وتم الانقلاب الهائل وفق الخطة المرسومة، فقد كلف مرقادو بهذا التدريب، وتحت أنظار زاهور نفسه الذي كان لا يصدق، والذي أمكنه أيظاً أن يتعلم ذلك. وانقلب صراع الحيوانات إلى هدوء وسلام، ولعب. وشوهدت عروض ترتع فيها دفعة واحدة حملان، وأسود، وذئاب، وقطط، وكلاب، وفئران. وأطفال بشرية. كان تأثير ذلك فوق الوصف في نفس شهراموش الذي بدأت إنسانيته الحق تنكشف عن أعماقها. ومس ذلك التأثير زاهور ذاته، الذي اطمأن إلى أن أحداً لا يطمح في أن ينزع منه منصباً، وأن لا خوف عليه من أحد، وأن بإمكانه فقط تطوير فنه نحو الأصلح. فسار في طريقه مع مرقادو، وكشف عن مبادرات هائلة في هذا الفن، بما كان له خبرة من طباع الحيوانات. وكان روزباه يراقب ذلك عن كثب، ويرى أن بالإمكان تنظيم العمل على المدى الطويل، ليشمل كافة الحيوانات والوحوش بحيث تكتسح بين الحين والآخر، مناطق محدودة في الغابة تحد وتطلق بها الحيوانات المدربة على التآلف شيئاً فشيئاً، فيضمن لها غذاؤها، ويزول عنها خوفها، حتى تنشأ عنها أجيال متآلفة متعايشة.

قال الراوي: أما ما كان من همشير وشيهوك وأمثالهما، فقد ذهب بهم الهلع كل مذهب، عندما رأوا انقلاب زاهور وحيواناته، وبدأوا يحتاطون في عملهم الخفي ليسبقوا الأحداث الرهيبة، التي تصوروا أنها تنتظرهم.

❑ ❑ ❑

....

(... عودتي أضحت أقرب مما كنت أظن أيضاً. سأكون بينكم بعد أشهر معدودات، وبصفة نهائية لا رجعة فيها. حلت مشكلتي واهتديت إلى مشروع، المشروع نزل من الغيب. أطاحت به الصدفة، ستعجب كما عجبت. لكن سبب العجب مختلف. عجبي من كوني لم أنتبه إلى مثل هذا من قبل، أما عجبك فسيكون من عدم التصديق بجديته. هل تفهم شيئاً في موضوع الضفادع؟ طبعا لا . المشروع يتلخص في إقامة مزارع للضفادع، مزارع برية ومائية. غريب؟ الضفادع في وطننا وفيرة ومتنوعة لدرجة الإزعاج، لكنها خاضعة في توالدها وتكاثرها للصدفة... وأنواع منها تنقرض، والبلد زاخر بما لا يصلح، مفتقر إلى ما يصلح. أذكر ما كنا نرى من أنواع الضفادع في الأنهار والبرك الراكدة والحقول، أتذكرها تتقافز في كل اتجاه ولا تغري بأكثر مما تغري به كرة تنس نطاطة أمام قدميك. أسواقها هنا نافقة مربحة بكل أشكالها وأحجامها. أذكر ما أتاحت لنا الصدف رؤيته منها في البلد، ونحن صبيان، منقطة بالأسود والأبيض، بالأصفر والبني، ذوات الأحجام الكبرى والبنية القاتمة المتوسطة، وصغيرات الأحجام المتناهية، العرائس الخضراء التي يروي أنها سر ما تكتسبه العذاري من طلاقة لسان مزغردة، أسواقها هنا نافقة مربحة جداً، واستعمالها رائج حسب أنواعها في الأطعمة والعلاج والمتاحف والمختبرات... وهناك سموم خاصة تستخلص من بعضها، يقال إنها تجرب في علاج البرص والسرطان... وجلدها وهي التي لا يعتقد أن لها جلوداً تتبقى، تستعمل على نطاق واسع في عمليات جراحية دقيقة، للتلحيم والترقيع، في المناطق ذات الحساسية الخاصة، كطبلات الأذن والجيوب الأنفية والشرايين الدقيقة في حالات التدرن. أيصح بعد هذا أن تظل الضفادع في بلدنا ترتع

بهناء فوضوي لا مبرر له؟ أليس استغلالها على أوسع نطاق عملية تطهيرية في نفس الوقت؟ لقد أخذت فكرة عامة عن الموضوع من الموسوعات العلمية، وأنا الآن بصدد تمرين عملي في إحدى المزارع سيستغرق بضعة شهور. وحين أعود إلى البلد. أعتقد أن مدة شهر واحد كافية لإعداد المزرعة وجمع الأنواع، بسبب الوفرة في الضفادع واليد العاملة القابلة لهذا النوع من العمل. وهذا سر السوق الذي أتميز به ولا يمكن أن أبوح به لأحد... تصور هنا أن كل شيء قابل للبيع والشراء. حتى الأفكار والأسرار، بل خاصة الأفكار والأسرار... ولقد عثرت بالصدفة على معلومات حول نوع من الضفادع البورية النادرة في العالم، متوافرة في بلدنا. وهي نادرة بالنظر إلى سمومها الملطفة ـ وصف علمي دقيق لا دخل للذاتية والبلاغة فيه ـ ومن حيث قدرتها على القفز الضفدعي، وقيمته ووظائفه، يكفي أن تعلم أن ثم ممرنين مختصين بذلك. أي أن هناك مهنة قائمة بذاتها تتلخص في تمرين الضفادع على القفز.

شيء آخر اكتشفته، وهو دعوى عرضها أحد الممرنين في إحدى محاضراته، تتلخص في أن شكل الضفدعة هو أكثر الأشكال مرونة وخصوبة تطورية، بمعنى آخر أنه أكثر الأشكال قابلية ليكون نقطة انطلاق مالا حصر له من الأنواع الحية. أليس عجيباً فيما لو صحت برهنة هذا البيولوجي ونبوءته، أن تؤول الإنسانية إلى ضفادع في سلم التطور والارتقاء؟!

... هل أزيدك تفصيلاً في الموضوع؟ لا. بل لقد أفصحت دون أن أشعر... المهم أن أعود، وحينئذ سترون... والى اللقاء.

أخوك محمد في 1978/03/10

❑ ❑ ❑

أيركبني الهم؟ شغلت بأمر مصطفى لكرد. هذه الآلة الحاسبة التي لا تخطئ، أو التي لم تخطئ حتى الآن، يخيل إليّ أنني أعرفه من قديم، وأنني عاصرت تطور أفكاره، منذ بذورها الأولى في ذهنه، دون أن أنتبه أو ينتبه. ما العمل؟ كيف أنقذه، كيف أنبهه إلى المصير وأخيفه منه؟ كيف أنزع عنه قابليته للمصير المحسوب؟ لا، لم أعرف مصطفى لكرد بالذات. لكنني عرفت صنود مسعودي. أرى مسعودي في مصطفى لكرد بوضوح. سيحل به نفس المصير فكيف لم أفهم؟ كيف لم أترجم أحاديث مسعودي وتلميحاته، إلى مشروع محسوب، مبيت، يحسب لنفسه وينهي نفسه؟ قد ينجح مثل ما نجح لكرد.. ولكن أي نجاح؟ أصغر من لكرد بكثير، وقد يضيف حساباً إلى حساب فيقبر إلى الأبد.

أراه أمامي بكمشة الفاتورات تلك، ينبهني إلى قيمة التوقيع، يحدثني عن أبواب الربح، وعن التجارة واكتشافاته في قسم الحسابات. من يدري؟ قد يكون أمهر من مصطفى لكرد ولا يدخل السجن قط، لكني أحبه فيه إخلاصه ووفاءه لي. ويجر معه حميد المنصاع المنساق الواثق. لا أخسرهما معاً، رغم أني لا أريد لحلمي القديم أن يصدق، ولكنه صدق بالفعل: أراه واقفا مجسداً في مصطفى لكرد. لأكتب رسالة. أخذت القلم والورقة يجب أن أنهي الرسالة بسرعة قبل إطفاء الضوء، وأبعثها صباحاً إلى الصديق مسعودي. ماذا أقول وكيف أنبهه؟ كيف أرمز وألمح؟ ليته يزورني، يجب أن أكتب أي شيء. عزيزي مسعودي... لا أريد أن أفقدك ولا أن تفقد نفسك. عزيزي مسعودي انتبه لنفسك ولا تغتر. أعرف مصيرك. كف عن الحساب. تعلم الشعر إن استطعت أو الموسيقى، واترك عنك الحساب. قد تموت في السجن، ولا تدرك أن تتمتع بما خططت له.. وهبك أنهيت العقوبة وخرجت فهل تدري ما سيبقى منك بعدها؟ مصطفى لكرد لم يخطئ ولكنك لن تكون إياه بالضبط. أحس بالفعل

منذ الآن بأنك مخطئ، وانك لن تنجح. أذكر كلامك معي وأندم لأنني لم أفهمك إذ ذاك لأوقفك وأنبهك. ولكن من أين لي أن أفهم إذ ذاك وأنا من كنت؟ ليتني أخبرتك بحلمي عنك، وعن حميد عندما تبديتما لي مصفدين تغادران الإدارة تحت الحراسة إلى المحنة والعذاب. اسمع كلامي وافهم ونفذ وأطع. لا أستطيع أن أشرح لك أكثر، ولكنك ثاقب النظر، وإلا ما كنت تتقن لعبة الحساب. أدرك نفسك. أدركني فيك قبل فوات الأوان. ولن تجد حميماً ـ مثلما وجدت في السدراوي ـ يشركك في فرحه وهمه... لن تسمع إلا أنك حسبت لنفسك وأضعت نفسك. عزيزي... عزيزي. أي كلام هذا؟ مزقت الورقة، ثم أحرقتها ولم أكتب شيئاً.

لم أنسها. ولا يمكن أن أنساها. لكني أعرف أن ذكراها غابت عني مدة. طول غيابها السبب.. وانشغالي بمشاريع السجن مع السدراوي سبب آخر. من يدري؟ ربما كنت مرتاحاً من غيابها. حضورها كان يملؤني أسئلة. لم أكن أعرف مكانها في قلبي أو حياتي، لا. بل كنت أقاوم. ما جدوى أن أربطها بي هذا الربط الغامض اليائس؟ لن أقول ذلك عن عائشة، فهذه زوجة وأم أولاد، ووحيدة مصير... لن أقوله عن فطومة فذلك عذاب قديم. لكن، أقوله عنها وحدها، عن رجاء. وها هي ذي تزورني في السجن بعد غياب أحد عشر شهراً، رأيتها من وراء القضبان، يخيل إلي أنها اكتنزت، واكتسب وجهها بعض استدارة وإشراق متردد، فرحت بها، لكن لم أستطع أن أفرد لها حديثاً خاصاً أمام ثلة الأقارب الزوار، عائشة وعبد الله وحميد.... لم أنتبه لهذا الأخير، فزحمة الزوار أمام القضبان كانت تجعله واقفاً وراء رجاء، حتى إذا حانت فرصة أصبح معها جنباً إلى جنب، فوجئت به. أول شيء بادرته به كان سؤالاً عن مسعودي. قال إنه لا يدري، كيف؟ سجن؟ انفلتت مني الأسئلة بعفوية فيما يبدو، لدرجة تضاحك لها حميد، وأخبرني أنه انتقل منذ مدة إلى مصلحة جهوية، فلم يعد على اتصال بمسعودي.

تساءلت:

ـ نقلوك؟

ـ لا. لا قالها متضاحكاً مرحاً، وأردف:

ـ نقلني الحب.

وأشار إلى رجاء ممسكاً بيدها. انتبهت في الحين إلى خاتمي الزواج في أصبعهما وإلى اكتناز بطن رجاء... هنأتهما من كل قلبي رغم شعور غامض بكدر باطني.

قال حميد مرحاً:

ـ النساء قوامات كما ترى... انتقلت رجاء فنقلتني معها.

قلت بلا روية إنها أنقذته. أمن ولم يفهم قصدي. مال كأنه يضمها، رأيت وجهها مشرقاً بابتسامة أعرفها. وسألت عن أخبار مسعودي. نفى أن يكون له علم، ولكنه طمأنني إلى أنه قد يكون غارقاً في أعماله التجارية.

ـ ... وقسم الحسابات؟

ـ طبعاً... ولن ينقله حب.

سألتها عن وحيدها سعيد. أطرت ذاكرتي، طمأنتني مسرورة بالسؤال. وأخبرتني أنه قد دخل المدرسة.

عزيزي أحمد

(... ستظل الضفادع تملأ البلد بعيونها وقفزاتها المرعبة المرتعبة... تركت المشروع في الوقت الحاضر على الأقل... ولترتع الضفادع مؤقتاً على الأقل أيضاً. هناك أكثر من طريقة لتطهير البلد منها واستغلالها... وهناك غيرها أكثر من مشروع مغر ومربح. اكتشفت أني لا أملك قابلية التعامل الطويل مع الضفادع.

تأكدت من ذلك في المرحلة الأخيرة من تمريني بإحدى المزارع النموذجية. تذكر أني أكثر أترابي خوفاً منها رغم عدوانيتي إزاءها. ويبدو أن أثر ذلك لم يزُل تماماً؟ ولكني أدرك كذلك أن خوفي منها، ليس هو السبب في تركي للمشروع. بل كراهيتها. تصور أنني لم أستطع النوم ساعة واحدة مستمرة، ونقيقها يملأ السمع رغم الزجاج الثخين الحاجز. وعيونها تملأ الرؤية في اليقظة والنوم، واسعة مستديرة بلا أجفان، وأحياناً بأجنحة الخفافيش تلطم وجهك في الأحلام. تنفسها مقيت، مقيت، مقيت. مقعية على مؤخراتها كتأهب الكلاب الضارية، وأسفلها الأملس من الحلقوم إلى أسفل البطن، يهتز برتابة التنفس كأنها تلهث باستمرار. أكرهها جد الكراهية، وأمقتها جد المقت، لخبثها ونذالتها. تمسكها بيدك متلطفاً لتعالج منها شيئاً، فتتبول بنتانة لا تحتمل على كفك أو تتغوط، لا يهمني فعل الطبيعة هنا من جانبها، ولا الاحتيال والتوسل بالقفاز وغيره من جانبي للامساك بها، يهمني المبدأ. مبدأ الخبث... انعدام الإحساس بالكرامة. يمكن أن نحترم حنشاً، ففي أقصى حالات إحراجه يهاجم أو يفر أو يتلوى مقاوماً، أما هذه العيون الكريهة، فلا تقاوم، ولكنها تفرز عليك قذارتها... ربما كنا حكماء جداً في صغرنا، في موقفنا العابث والعدواني إزاءها.. لم أعد أفكر في العودة الآن على الأقل، ولن أفكر فيها قبل التأكد مما سأعود به...)

أخوك محمد في 1978/5/2

❑ ❑ ❑

عدت إلى خاطري الغريب أتفحصه. لن يكون مبعثه إلا رؤية رجاء صحبة حميد بعد الغيبة الطويلة. أليست نهاية سعيدة؟ أخيراً تجد مدفناً حقيقياً لجراح حياتها القديمة. إذا لم أخطئ فشعوري ارتياح، مهما يكن غير كامل الوضوح، مشهد اكتنازها الناشئ يبعث فيّ دفئاً وقشعريرة، أحس كأني أضغط على بطنها براحة الكف وثقل الصدر... أكاد أشعر بحركة الجنين الصغير تحت الضغط

الرقيق. المشاعر ليست غريبة عني بما يرافقها من متعة وارتعاب متنائي يتنامى كلما طال الموقف. يغرق وجهي في ابتسامتها، وأحس بانضغاط شفتيها النديتين تحت لمس شفتي. يلازمني الشعور بالمتعة والارتعاب، تماس الشفتين والصدر والبطن والراحتين على الكتفين، في وقفة لا يزداد فيها الضغط والتماس، وإنما يدور الشعور بالتسامي، يدوم ويدوم محافظاً على توازنه ومسافته، لا يزيد ولا ينقص.. لا يزداد الضغط ليولد غيبة الشفاه في الشفاه، ولا تحل الدوخة أو ترتفع براكين الدّوي وقصفات الرعد وأصوات النذير وعيون العذاب التي تستطيل خارج مخارجها. تقرع بلزوجتها الظهر والوجه والقلب، تلتقط الأنفاس والأحاسيس، تنقش الصورة والصوت ليوم عسير المشهد، ينبعث اليوم بعميق طعمه القديم نابضاً، إلا من الحرقة والعذاب، ومن صوت الحاج مهدي ومسوطته التي تركب في الجدران والبلاط والزوايا، آذانا وعيوناً غريبة غامضة، لا شك أن الموقف ينبعث بمثل ذلك في شعور فطومة. ولا بد أنها تهنأ اليوم، وتجد مدفئاً أبدياً لجراحها، كما تهنأ صنوها رجاء مع حميد. هنائي لا بد أن يكون انعكاساً لهنائها. من يدري؟ لعلها أنجبت سعيداً كما أنجبته رجاء، لعله يرقى درجات الدراسة، يلاعب القطط ويناور الأتراب، وألتقي به يوما فأحنو عليه دون أن يعرف أو أعرف... ممكن، عدت لشعوري الغريب الذي أثارته رجاء. مزيج هام من ذكرى فطومة وحب رجاء. حب؟ كان ذلك مجرد سؤال منذ علاقتي بها خارج السجن. وظل ذلك سؤالا من طبيعة إنكارية في الغالب من جانبي على الأقل. كنت أرى في عينيها مشروع حب طموحاً إلى آفاق تعوض ما فات، وتنبعث بها من جديد. الآن يوقد حميد الشعلة ولن تنطفئ. يجب ألا تنطفئ، أذكر أني قلت لها ونحن على مقعدينا في المقهى المقابل للإدارة: الحب استعباد، إنه في علاقة الرجل بالمرأة كرأس المال في الاقتصاد... وجودهما يقتضي استغلال طرف للآخر. نظرت إلي باندهاش. كنت حرياً

بأن أدهش بدوري من نفسي أيضاً. الفكرة طارئة غريبة إلا أن تكون مختمرة في الأعماق من زمان. وجدت متعة في أن أفصل وأفيض في فكرتي، لعلي كنت أناور لكي توقف مشروعها، إن كان لها مشروع حب يتعلق بي. أو أنني اتخذت موقفاً ساذجاً. كانت تتعذب وأنا أفيض في تقليب فكرتي من جميع الجهات... ولم تنبس. لكنها تركتني أهذي وقامت منصرفة بلا استئذان ولا داع. الآن تجد مدفناً لجراحها. والآن ينبعث الموقف بكافة أحاسيسه: مشهد اكتنازها الناشئ، والتغير الذي أعطى لوجهها بعض استدارته، ملمس الدفء على البطن والشفتين يحيي وقفة اللقاء الأزلي بيني وبين فطومة، بعملية حلول غريبة؟ لا يتخلف عن مشاعر المشهد إلا حدة الحرقة والعذاب... لو يتركني الموقف... لو تتركني تلك المشاعر والأحاسيس... أعمل جاهداً لطردها، لكنها تلازم وتلح، وأكاد أوقن بأنني أجد في معاناتي لها متعة لا تنكر.

❑ ❑ ❑

عزيزي أحمد:

(.. وأخيراً ينفتح شراعي الآن على ريح تدفعني صوب شطآن أمريكا اللاتينية، لصيد اللآلىء صحبة آفاق جاب القارات الخمس، مشروعي الآن نحو الشواطئ البعيدة يبدو ساحراً خلاباً متسلطاً لا أستطيع منه فكاكاً، يحمل معنى الكرامة والمغامرة. يبدو أن كل شيء ثمين يرقد في الأعماق، ويتطلب حفراً أو غوصاً، وأن سطح البسيط لا يحتمل سوى القذارات والنذالات، لست متشائماً ولست في هجرتي الجديدة ناسياً للبلد. البلد يا أخي في القلب والسمع والبصر. والعودة الآن بعيدة ولكنها حتمية عندما أستحقها ويستحقها البلد نفسه. وإذ ذاك يرسو عليكم مركبي، محملاً بما هو ثمين وكريم.. ويكون مشروعي كبيراً كريماً ربما يتجسد في مزارع للآلئ والأصداف النفيسة... لست مجرد متحمس متخيل.. لا.. فصيد اللآلئ مؤسسة قائمة في الشواطئ التي أقصدها، والغوص

جار فعلاً وما أنا إلا ملتحق.. ممكن، وعندما أعود، وبالصورة التي لن أرضى العودة إلا بها، فسترى صدق كلامي..).

أخوك محمد في 1979/1/16

❑ ❑ ❑

قال الراوي: كان طموح الحكيم روزباه يرمي إلى إنقاذ كغاشي من كغاشي نفسها. ولم يكن يؤمن بجدوى الجيوش والمناعة الحربية. ولكن كان يهمه أن ينتصر على النفوس البشرية، ويهاجمها من موطنها، ليطهرها مما يغمرها من الأطماع والمخاوف والتنافس على السلطة ومتاع الدنيا. لم يكن ضد ملذات الحياة، ولكن ضد استعباد اللذات للإنسان. وكانت خطته تقتضي بأن يبدأ من النشء، فيخلق نمطاً من العظماء لنمط من الأجيال، يتحلى فيه الجميع بالانتصار على نفسه، لا بالتطبع والتظاهر، ولكن بالحق والصدق والباطن.

قال الراوي: ورزق شهراموش من بيروز غلاماً سنياً أطلقوا عليه اسم «كابيكدوهار» ومعناها الحرفي بالعربي: بدر الأزمان السابقة واللاحقة، أو باختصار وبتقريب «سيد الخلود»، وكان ينادى على سبيل التصرف والتلطف «كابدهير» بما يؤول معه معناه إلى «بدر زمانة» وكان مولده بشيراً بسير خطة الحكيم روزباه في طريقها المرسوم، فكان من الممكن أن تعاكسه الظروف فتلد بيروز بنتاً. ومع رأيه الخاص في طبيعة البنات والنساء، والتي لم يكن يرى فيها ما يستلزم تفضيلاً اجتماعياً لأحد الجنسين على الآخر، إلا ما رسمته الطبيعة الجسمية للبشر من فروق لوظائف معينة، تخص كلا من الجنسين على حدة، فإن مولد بنت من بيروز لو حدث بدل مولد الغلام، لأثار أمام خطته صعوبات مؤقتة على الأقل... قال.. وكان من فضل تأثير مشورة روزباه على شهراموش، بحكم مكانته التي احتلها عنده، أن أصبحت النساء كالرجال في كثير من أمور الحياة. أصبح من حقهن أن يظهرن في الأسواق والشوارع والمناسبات،

ويشتركن في كثير من الأعمال... وإذا كان بيع الجواري والخدم منهن، قد استمر على حاله في أسواق النخاسة فقد كن في ذلك على قدم المساواة مع الرجال الرقيق... ولم يكن روزباه غافلاً عن هذا الوضع المنافي للإنسانية، ولكنه كان ينتظر له مرحلة أخرى.

وُكل أمر الأمير الصغير «بدر الزمان» إلى روزباه، لتربيته تحت رعاية بيروز في سنتيه الأوليين، وكان التفاهم تاماً بينهما. فقد عمل روزباه على ألا يتعرض بدر زمانه للأصوات المرتفعة المزعجة في شهوره الأولى أياً كان مصدرها، لأن ذلك من مولدات الارتعاش فالخوف، وألا ينال فوق كفايته من الغذاء، ولا يطعم إلا بعد أن أن يطلب ذلك، حتى لا تتفتح شهواته وأطماعه كثيراً. وألا يؤخذ بين الأحضان كثيراً، حتى لا يتواكل...

ووضع له ابتداء من سنته الأولى برنامجاً متنوعاً، يشمل تناول أشكال متنوعة في أحجامها وألوانها، وما يصدر عنها من أصوات موسيقية بسيطة مؤنسة... ولم يجعله في هذا النمط من التنشئة معزولاً، بل ضم إليه جماعة أطفال ذكوراً وإناثاً، من مختلف طبقات كغاشي، ممن هم في مثل سنه يتلقون معه نفس التنشئة... وبدأ في تعليمهم الألعاب الجماعية من السنة الثانية، واهتم في تنشئته للمجموعة بالخروج إلى الطبيعة وتربية الحيوانات ومعاشرتها، ورعاية النبات والتجول في الشوارع والأسواق والاتصال بالناس، والتمرين على الموسيقى والغناء، وحفظ الأشعار والمطالعة، وألغى من تكوينهم تاريخ الحروب، والصراعات والتقلبات السياسية، والتنافس الاقتصادي، باعتبار ذلك حوادث شاذة في تاريخ البشرية، وانحرافات يمكن دراستها في مرحلة البلوغ بعين فاحصة ناقدة ومفلسفة، تنظر إليها من مستوى أعلى.

قال الراوي: كان هذا العمل الهائل الذي لا حصر له ولا حدود، يسير بموازاة عمل مرقادو وزاهور، في تنشئه الوحوش والحيوانات الضارية، على

النمط الجديد. وكان الأطفال يعاشرون تلك الحيوانات ولا يشعرون نحوها بأي خوف، مهما كانت ثعابين أو نموراً أو قططاً... وكان شهراموش مذهولا مما يرى من نتائج، فالأطفال ومنهم بدر زمانه لم يظهر عليهم طيلة ست سنوات أي مرض جسمي أو نفسي، ولم يعرف عن أحد منهم أنه رأى حتى مجرد أحلام مزعجة، أو أفاق مذعوراً، وقد ينام بعضهم وبجانبه تحت الغطاء أو بجانب السرير وحوشاً كاسرة أو زواحف مرعبة في العادة... ولم يظهر عليهم عدوان أو غيره من تصارع حقيقي على أي شيء مما يتصارع عليه الأطفال ويتخاصمون فيه من الأشياء والممتعات، وحتى ذلك الصراع الذي تقتضيه ممارسة بعض الألعاب والذي يقف عند حدود اللعبة ولا يتعداها، لم يعرفوه، فقد كان التعاون والتحابب سائداً بين المجموعة حتى في اللعب.

قال الراوي: وقد اطمأن الحكيم روزباه إلى برنامجه، فكوّن معلمين حسب رؤيته وتصوره ذاك، وبدأوا يباشرون عمل التنشئة على هديه، كما قام مرقادو بمثل ذلك في ميدانهما. وكان الحكيم روزباه لا يزال مشغولا بأمر عظيم ما زال يثقله بهم رازح. سيأتي بيانه في حينه.

قال الراوي: واستطاع روزباه أن يظهر بإذن من شهراموش، ينظم بمقتضاه مواسم سنوية، يتبارى فيها الآباء والأمهات بتقديم أبناء نشئوا على السلامة من المفاسد والانحرافات، أبرياء من الخوف والطمع... فكان الحكيم وأصحابه من المعلمين، ينظمون اختبارات لأولئك الأطفال، فإذا تأكدوا منهم، مُنح الآباء جوائز هامة متنوعة تقديراً لجهودهم وتشجيعاً لهم. كما صدر قانون بعدم المعاقبة البدنية للأطفال. ومنع تخويفهم... واعتبر ذلك جريمة في حق المواطنة، يعاقب عليها بسحب الأطفال من آبائهم ووضعهم في رعاية خاصة.

❑ ❑ ❑

قال الراوي: أشرنا إلى أن الحكيم روزباه، كان يعاني من هم رازح، رغم ما أحرزته خطته من نجاح في ميادين شتى، ولم نشرح ذلك، وقد أتى أوانه. فاعلم أن موضوع ذلك الهم المقيم، هو حال مناجم الملح وعمالها. حقاً أن الأحوال قد تحسنت كثيراً، وتغيرت بعض الأوضاع هناك عما كانت عليه... فلقد تقرر أن يكون عمال المناجم من المجرمين الحقيقيين لا ممن تلفق لهم التهم تلفيقاً، ليساقوا إليها قسراً وظلماً. كما تقرر تخصيص أجر يومي لغير هؤلاء، وتقرر تبعاً لذلك، أن يكون العمل بمناجم الملح تابعاً لإرادة الناس لا تكليفاً أو حبساً، وبذلك ازداد الاهتمام بالفلاحة والزراعة التي أوشكت أن تبور...

قال الراوي: رغم كل ذلك، كان روزباه مهموماً بما هو أعظم. فمناجم الملح مصدر ثروة كغاشي. وكل بلاد المعمور تستورد منها تلك البضاعة. وكان عالماً بأن أوامر شهراموش وإصلاحاته لا تنفذ إلا جزئياً. فلم يكن مطمئناً إلى حسن تعرف صاحب العصا أو صاحب الملح...وكان همه أن يجد حلا جذرياً للمشكل. وكانت التقارير الرسمية الواردة على شهراموش غير موضوعية، وتبالغ لغرض مقصود في وصف المخاطر التي تحدق بكغاشي نتيجة الانخفاض المستمر لإنتاج الملح، بسبب تناقص عمال المناجم، وتخاذل الباقي منهم بسبب التنظيمات الجديدة التي أفسدتهم (حسب تلك التقارير). وبالإضافة إلى ذلك كانت التقارير تهول عن قصد أيضاً، في تقرير الخطر الخارجي الذي تتعرض له كغاشي، من جراء هذا الانخفاض في الإنتاج. فالدول المعادية لها وحتى الصديقة، والتي تستورد منها تلك المادة، أصبحت تتهيأ لغزوها والاستيلاء على المناجم، ما دامت لا تجد كفايتها من الملح في السوق، وهذا يهدد بتجديد حروب الملح السالفة، على صورة أشد وأسوأ...

قال الراوي كان الحكيم روزباه على علم بتضايق أصحاب المناصب والمصالح، وببعض ما يدبرون. ولكنه كان على علم ويقين، من أنهم يجدون

أساساً واقعياً يبنون عليه تحليلاتهم المغرضة من نقص في إنتاج الملح، ومن أخطار خارجية، رغم مبالغتهم، فهناك أساس موضوعي لكل ذلك ولا ينفع إلا الحل الجذري، لو وجد مثل ذلك الحل. ما الحل الذي يمكن أن يؤمن للمعمور كل حاجياته من الملح، ويؤمن في نفس الوقت سلامة كغاشي، وحياة أبنائها جميعا في عدالة وكرامة؟ تلك هي المشكلة.

يموت الموت، وييأس ويزدهر الأمل. لا بد أن يزدهر. ازدهر فعلا. هل أرمي ملابسي وأجري عارياً أطرق الزنازن، أعانق الحراس والجدران والبنادق الرشاشة وألغط صائحاً وجدتها... وجدتها... وجدتها؟ لو ملكت ذلك لفعلته. نظرت إلى ساعتي في الظلام على شعاع عقاربها. الخامسة وعشر صباحاً. نزعت عني الغطاء، رغبت في أن أدخن وأتحدث. تسمعت إلى خطوات الحارس في حركته الدائبة الرتيبة في الممر، لم ألتقط شيئاً. علمت أنه في موقفه قرب زنزانتي، قد أخذته إغفاءة. لم أرد إزعاجه، تحملت أفكاري لمدة ربع ساعة، قبل أن أسمع خطواته تتحرك... قمت للباب طرقته طرقاً خفيفاً من الداخل. فتحت الكوة الصغيرة وتسلل منها شعاع ضوء الممر. سألني ما بي، قلت له: صباح الخير. هات الوقيد وتعال ندخن. أغلق الطاقة فعم الظلام من جديد، قبل أن يفتح الباب ويعم الضوء.. سألني من جديد ما بي؟ قلت لاشيء. طار عني النوم، وأريد أن أدخن وأتحدث. مددت له علبة السجائر أخذ منها. وسحب علبة الوقيد من جيبه، وأشعل لي ثم له. كان ما يزال مستطلعاً، يريد أن يعرف ما بي حقيقة... ينتظر أن أكون مريضاً أو أشكو من شيء ما. كان قد أيقظني من هذياني المزعج عدة مرات، طيلة ليالي هذا الأسبوع. وعندما رفضت عرضه بأن أذهب إلى الطبيب، أخبرني بأنه مضطر إلى ذكر حالتي في تقريره خوفاً من المسؤولية... ولا شك أنه فعل. بدأنا ندخن، فتحت الترموس وصببت شيئاً من القهوة في كأسها المعدني. لم يخف علي أنني أبدو بخير، وأنني نمت الليلة بعمق،

لأنه كان يراقبني من طاقة الباب كل ساعة تقريباً، حسب الأوامر الصادرة إليه، وأن زيارة الطبيب التي كانت مقررة لي اليوم ستلغى، بعد أن يبلغ تقريره الجديد، إلا إذا كنت راغباً فيها. لم أكن أعلم أن زيارة الطبيب قد قررت بشأني، أشعلت سيجارة ثانية، وصببت مزيداً من القهوة، أخبرته أنني فعلا بخير، ولا رغبة لي في الطبيب، بل رغبتي الآن في إنشاء ورش جديد للعب الأطفال، هذا ما كان يسعدني أو أعتقد أنه كان يعذبني دون أن أشعر به، هذا سر ما تجدد من كوابيسي، وسر ما قد يذهب بها إلى الأبد، بدا عليه تعجب خفيف، سرعان ما زال عنه وهو يشاركني في أن من العجيب حقاً، أن يخلو مصنع السجن من ورش للعب الأطفال، مع أنها هامة ومدرة للربح. وأضاف إلى ذلك حكمة تذكرها من أحد أصدقائه التُجار، تتلخص في أن الأطفال هم أحسن الزبائن. لم ينس أن يسألني عن أعمالي المشتركة مع السدراوي. طمأنته إلى أنها عملياً قد انتهت... ثم نظر إلى ساعته. السادسة ونصف صباحاً. لم يبق على نهاية نوبته إلا نصف ساعة ويخلفه غيره. قام مودعاً. أغلق الباب. انطفأ الضوء. ساد الظلام إلا من اشتعال لفافة سيجارتي وعلى ضوئها، تابعت رحلة أفكاري السعيدة..

❑ ❑ ❑

السدراوي ما زال يبحث عن جوانب يمكن تصحيحها في افتراضه القديم. لم أكن بالطبع أستطيع أن أشاركه في شيء جد متخصص في نظري، انتشلته من بين براهينه لأقول له: صباح الخير، إني وجدتها. ما هي؟ القضية التي كانت سر محنتي. وذكرت له حبي للأطفال، حامي بهم، حلمي لهم. ذكرته بملاحظاتي الأولى على تصاميمه، وكيف أنها كانت تتعلق بالأطفال وكانت صائبة بشهادته. إنني مهندس ميكانيكي، وهذه مهارة يمكن استغلالها مباشرة في وضع مشاريع لعب للأطفال على مرحلتين: أولاهما تصور اللعب الممكنة ورسم تصاميمها، مواد تكوينها، وثانيتها صنع نماذج في فترة السجن ذاتها،

إذا أمكن تجهيز ورش خاص لذلك... بالفعل كانت فكرتي أننا عندما نصل إلى مرحلة التطبيق، نطلب من إدارة السجن تكوين ورش خاص بصنع لعب الأطفال. وبذلك نستفيد من فترة الحبس في قطع المراحل التجريبية للمشروع... كان السدراوي ينظر إلي مشدوهاً طيلة حديثي، كأنه يتهجى في وجهي حروفاً مكتوبة... انتهيت.

تساءل:

ـ انتهيت؟ قلت: نعم.

ـ ماذا تنتظر؟

لم أفهم قصده. أكد سؤاله:

ـ ماذا تنتظر لنبدأ؟

ذكرته بأنه مشغول في تصحيح نظرية الأعمدة المائلة، والانفراج ومضلع الارتكاز... طوى أوراقه وقال مرحاً:

ـ اسمعْ النظرية يمكن أن تنتظر سنة أو سنتين، كما انتظرت سبع سنوات منذ دراستي إلى اليوم... طرت فرحاً. لم أكن أنتظر أن يشاركني هم مشروعي وهو في هم نظريته. تأكدت الآن من صدق ما كان يكرر لي طيلة سنتين ونصف تقريباً، من أن مبدأه في الحياة عملي، مؤكداً لي على سبيل المزاح، أنه ربما بذلك يعوض من جانبه، على ركام ما عندنا من إنتاج نظري.

أوراق وأقلام بجميع الألوان والأحجام. أقلام وأوراق. من جديد تتكرر طلباتنا إلى العالم الخارجي: أوراق... أقلام... من جديد نعاني شعورنا القديم بأن النهار أقصر جداً من الليل، وأن علينا أن نسرع في وضع التصاميم قبل أن يجهز علينا موت أو إفراج. صنفنا اللعب حسب درجات تعقيدها وبساطتها الميكانيكية. وحسب المواد الأولية الغالبة في صنعها، وموضوعاتها،

ووظائفها، وسن أطفالها والمواسم السنوية، والمناطق الجغرافية المناسبة لها... نحتاج فقط إلى أوراق وأقلام والى مزيد من الوقت. حتى زيارات الأهل مرة أو مرتين في الأسبوع أصبحت تضايقنا، لا بما تستغرق من وقت فحسب. ولكن لأنها تدخل خللا في استمرارية الفكر والعمل. وكالعادة كنا نضحي بأيام الراحة الأسبوعية، والسهرات المشتركة الترفيهية، دون أدنى شعور بالأسف. تسعة شهور كانت كافية لإعداد التصاميم ومراجعتها، بل ولوضع جرد بأسبقيات أصناف اللعب بعضها على بعض في التنفيذ، كتبنا بالمشروع إلى إدارة السجن طالبين تجهيز ورش خاص بلعب الأطفال، وظللنا على الجمر ننتظر. جاء الجواب بالرفض. مشروع الورش معقول، لكنه باهظ التكاليف، يتطلب خبرة عمال غير متوافرة. كنا ننتظر هذا الرفض، لنصل إلى اقتراح آخر يقضي بتنفيذ مشروع الورش على مراحل، تبدأ الأولى بتخصيص جزء من نشاط كل ورش من مصنع السجن حسب تخصصه، في النجارة أو النسيج أو الخياطة... لصنع بعض أجزاء اللعب، والنماذج الممكنة منها. على أن يتم تجميع كل ذلك في ورش واحد مختص. كانت خطة الاقتراح الثاني كخطته الأولى من وحي السدراوي، وظللنا ننتظر الرد. كان من تقدير السدراوي أن هدفنا الحقيقي، يجب ألا يتضمنه الاقتراح الأول الذي غالباً ما يرفض لسبب أو غير سبب. وكنا بالفعل نفضل أن يكون ورشنا مجزّاً وموزعاً على كافة وأرجاء المصنع، ليمكن نشر الاهتمام بنشاطه. لكننا حسب رأي السدراوي لو اقترحنا ذلك منذ البداية لرفض. وظللنا ننتظر الرد. كان انتظارنا هذه المرة أكثر.. ثم جاءت الموافقة. وصدرت التعليمات إلى رئيس المصنع بذلك. اخترنا المجموعة الأولى من اللعب الأكثر بساطة... طبعنا نسخاً عديدة من تصاميمها، ووزعناها على الأوراش حسب اختصاصها. الآن، بدأت العجلة تدور.

لا أدري لماذا قد يجد الناس في مصطفى لكرد مجرد رجل عادي؟ صحيح

أنهم لا يعلمون بقضيته في تفاصيلها. لكن سلوكه اليومي حيثما كان أو قد يكون، وفي السجن على الخصوص، والنظرة التي يقدم بها الأشياء، من شأنها أن تسترعي الانتباه. أعرف لماذا لا يهتم به صديقي السدراوي، ولكنه بالنسبة لي كان عالماً خصباً طريفاً وقائماً بذاته. لم يكن لقائي بمصطفى لكرد يتم إلا نادراً، وفي فترات متقطعة، لكنني كنت أسأله وأسأل عنه. إنه يعمل المستحيل ليحافظ على قوته ونشاطه الجسماني حتى نهاية عقوبته. يخطط لحياته المقبلة ليجعلها متعاً ومسرات تنسي كل حرمان السجن وعذابه. تمارينه الرياضية مقدسة، رغم أنه يعترف بأنه لم يكن يزاولها إطلاقاً قبل السجن. انقطع عن التدخين بمجرد دخوله السجن، رغم أنه كان مدمناً عليه يشعل السيجارة من عقب أختها. وبدأ يشيع نظرياته في المحافظة على الصحة بين السجناء بالنظافة والرياضة والتغذية. وقد كون عدة مجموعات رياضية في السجن، يبدو أن سلطته نافذة في أهله خارج السجن، فهم يزودونه بالمؤونة ثلاث مرات في الأسبوع وبوجبات جيدة ومتنوعة. لقد أمضى سنوات قبلنا ومعنا في السجن. ولا تجد أحداً يحدثك عنه بأنه كريم، فهو لا يشرك معه في خيراته إلا من يتوصلون مثله بمثل ما عنده، وذلك يرجع طبعاً إلى أنه لا يريد أن يبني أجسام الآخرين على حساب جسمه. وهو لا ينكر ذلك ولا يخيفه. يقول ويكرر بأن أخطر ما يتعرض له السجين، وأكثره حدوثاً أن يفقد رجولته بعدم الاستعمال، أو بأي سبب آخر، وهو محتاط لكل ذلك. فقد اعترف بكل شيء تقريباً أثناء التحقيق معه، لكي لا يضطر أحد إلى إكراهه بدنياً، ومحافظة منه على سلامته. بل إنه تعاون بشكل إيجابي مع المحققين في إثبات كل شيء ضده، بعد أن سعى بمحض إرادته إلى الإعلان عن جريمته. وهو يدعو رفاقه في السجن إلى مزاولة وظائف رجولتهم بكيفية ما، باعتدال وانتظام حسب مراتبهم في مدة العقوبة... وما فتيء يعلن أن كل يوم من أيام حريته القادمة سيعادل سنة كاملة من سنوات السجن، ويعوض ما عانى

فيها من حرمان. وقد أعد للنساء مكانة خاصة في برنامجه من البدينة إلى النحيفة، والشقراء والسمراء والسوداء الفاحمة والخمرية أم الستة عشر ربيعاً والعشرين، إلى المكتهلة حتى العجوز... ولن يتناول وجباته إلا ضاحكاً معربداً، وعلى أنغام جوق أو مغن. أما السيارة فسيغيرها كل سنة، مع مسكن للمشتى وآخر للمصيف. وقد اشترط على أهله وزائريه ألا يأتوه بأي خبر سيئ من خارج السجن، وله في ذلك مثل عبقري يؤكد ويكرره، مؤداه أن وقع الضربة على السور العتيد مهما تبلغ متانته، وقوته، ومهما يبلغ وهن الضربة، فإنها لا بد أن تترك فيه أثراً يتعاظم بالتواتر والتكرار.

❑ ❑ ❑

مشهد

شهراموش في مجلس للدولة يحضره كبار أصحاب المناصب. يبدو عليه الوقار والهدوء مع التقدم في السن، تشع على محياه ملامح التدبر والتفكير، وقد غابت عنه علامات القسوة المعهودة. يجلس على حشية واطئة في نفس مستوى ما يجلس عليه القوم. على يمينه الحكيم روزباه، وعلى يساره شبل وحمل مقعيين يتلاحسان بين الحين والحين، أو يتلاعبان بقوائمهما بكامل الهدوء.

شهراموش (يرفع رأسه عن رقاق مكتوبة): أيها الناصح الحكيم ويا أصحاب المناصب. إن مجلسنا هذا ينعقد في ظروف خاصة تتطلب التدبر، وتحمل المسؤولية، بما عهدناه في أنفسنا جميعاً من تحملها. آخر ما عندي من تقارير (يشير إلى الرقاق)، مرفوعة من أصحاب الملح، والعصا، والسيف، تتلخص على التوالي في انخفاض مستمر لنتاج الملح، وخلل في النظام العام، وفي انضباط عامة الناس، وعمال المناجم، وأخيراً في استعدادات عسكرية لغزونا، من قبل من كانوا أعداءنا التقليديين من بلاد التراجان، بالإضافة إلى

بلاد الرهبوت، والفلنج، الذي لم نعادهم أبداً، بل كنا نعتبرهم أصدقاءنا... وكل ذلك طمعاً منهم في ملحنا. هذه التقارير... وأنتم تعلمون، أننا منذ سرنا في طريقنا الجديد، بحكمة هذا الناصح (يشير إلى روزباه)، وبمساعدتكم، بعثنا بهدايا كثيرة، تتمثل في مقادير من الملح بدون مقابل، وبنفائس أخرى إلى أصدقائنا، والى من كانوا أعداءنا بالأمس على السواء، بالإضافة إلى عملنا المستمر للاستجابات إلى طلبات الجميع لسد حاجياتهم الكاملة من الملح بقدر الإمكان... فما الرأي أيها الناصحون؟

صاحب السيف (وهو قائد الجيش، يتقدم بعد فترة صمت طويلة، بكامل درعه وسلاحه): إن جيش كغاشي أيها العظيم قوي كما عهدته، مستعد لغزو العداة في بلادهم مهما كانوا، وهو تواق إلى تجديد انتصاراته في حروب ملح جديدة، على غرار ما حققه في حروب الملح القديمة بقيادتكم. إن الاستعدادات لغزونا قائمة مؤكدة، والرأي ألا ننتظر الهجوم، بل نكون المهاجمين.

صاحب العصا: إنني مع هذا الرأي. فطريق التوادد لا يجدي مع أعدائنا، وهو سبب طمعهم فينا.

صاحب الملح: وهو رأيي أيضاً، ولكنني لا أعرف كيف نهاجم كل هؤلاء الأعداء المتكالبين علينا، من كل الجهات؟

صاحب السيف: لن نهاجم جميعاً، بل نهاجم التراجان وحدهم في المرحلة الأولى فهم أعداؤنا التقليديون في الماضي، وقد حققنا عليهم انتصارات لا زال جنودنا يذكرونها ويتوقون لأمجادها. وسننتصر عليهم من جديد، وهذا يكفي لإدخال الرعب في باقي الأعداء فيسارعون إلى مهادنتنا. أما نحن فيجب ألا نهادن، بل نختار الأضعف فالأضعف لحربه، حتى نسيطر على بلادهم جميعاً، ولا ننزح عنها حتى لا يتكرر الطمع فينا.

صاحب العصا: أنا أيضاً من هذا الرأي، لكن كيف نجمع الأقوات للجيش من الناس، وهم يتذمرون بدون مبرر إلاّ رأفة الأنظمة الجديدة بهم، وهي التي حررتهم من الخدمات والجبايات وكثير من الالتزامات القديمة. لدرجة النيابة عنهم في رعاية أبنائهم وتربيتهم، وهكذا تفرغوا للشغب؟

صاحب الملح: الرأي في جميع الأحوال، أن ننظر من جديد في قوانين جديدة، تعيد إرسال المجرمين والمشاغبين وما أكثرهم اليوم، إلى مناجم الملح، لأننا حتى لو انتصرنا على جميع أعدائنا، لتعين علينا دائماً سد حاجيات الجميع من الملح، وهذا يتطلب تزويد المناجم بمئات الآلاف من العمال، بعد أن أوشكت أن تفرغ، ومن يدري فقد تكون هذه الإجراءات كافية لوقايتنا من خوض الحرب، إذا عرف الأعداء أننا عدنا كما كنا لإنتاج الملح، وعدنا أيضاً إلى قوانيننا القديمة التي كانت مصدر قوتنا...

صاحب السيف: لسنا إذن على خلاف... يجب أن نعمل على جميع الواجهات وبوسائل مختلفة لهدف واحد، وهو مجد كغاشي وعظمتها.

شهراموش (مهموماً مستنتجاً وهو يمر بيده على ظهر الشبل والحمل): تجمعون إذن على ضرورة الحرب والقتل من جديد!؟ ترون العودة إلى إجبار الناس على حياة الأغوار المظلمة المالحة وموتها. وفرض الجبايات والخدمات، وهجر الحقول والمتاجر!؟

صاحب العصا: مؤقتاً، ريثما ننتصر أيها العظيم.

صاحب المالح: نعم مؤقتاً.

صاحب السيف: نحن مجبرون على ذلك، ولا خلاص لنا بدونه.

شهراموش (مهموماً ساهماً كأنه يحدث نفسه): أما من طريقة أخرى؟ ألا تشكون في تقاريركم واستنتاجاتكم؟

صاحب العصا: الاحتياط ضروري، فلو فرضنا أن هناك بعض المبالغة والتقدير لكان ذلك من حسن الاحتياط المحمود، ولما دعا ذلك أبداً إلى التراخي والتواكل.

شهراموش: صدقتم أيها السادة نحن مجبرون على هذا الحل الكريه مؤقتاً!

مراقادو: والكريه في هذا الحل أيها العظيم أننا خاسرون مسبقاً!

شهراموش: كيف ذلك؟

مراقادو: لأننا نبدأ ونبادر بنزع سلاحنا.

شهراموش: أفصح.

مراقادو: سلاحنا الجديد هو التوادد والتعاون.. فإذا خرجنا عنه ودخلنا مع أعدائنا حرباً بسلاحهم، فقد خسرنا قيمنا قبل أن نحاربهم، فهم المنتصرون، سواء هزمناهم أو هزمونا بالسيف؟ والأولى بنا أن نصمد على ما نحن عليه، ونحدد المشكل الحقيقي لنجد له الحل المناسب؟

صاحب الملح: المشكل واضح: رفع إنتاج الملح. وهذا يتطلب بشراً بمئات الآلاف ونظاماً صارماً في العمل.. و..

صاحب السيف: والحرب حل وقائي للحد من أطماع أعدائنا.

صاحب العصا: وفرض الخدمات ضروري، لتنشيط الإنتاج وأسواق الملح.

زاهور: (بهدوء وقد أصبح وديعاً) لم يبق من صورة الماضي، إلا أن نعود لعروض الاقتتال والافتراس الوحشي... لا. لا بد من حل آخر.

روزباه: إهدأوا أيها السادة. القضية عويصة تتطلب حلاً نهائيا لا زال مجهولاً. نحن أمام حلول مؤقتة، لمواجهة استعدادات غيرنا لغزونا المزعوم.

ولمواجهة رفع إنتاج الملح. وإذا ما سألنا لماذا يستعد الغير لغزونا؟ كان الجواب لطمعهم وحاجتهم إلى ملحنا ولانخفاض إنتاجنا. إذن مؤقتا كيف نرفع الإنتاج، ولا نعود إلى ظلم أهالينا بفرض الواجبات المضنية المميتة عليهم؟ لقد ألهمني جوابكم بالحل.

شهراموش: قل أيها الحكيم.

روزباه: نكون وفوداً إلى من يستعدون لغزونا، وأرشح على رأسها مراقادو وزاهور، وتكون المهمة تطمينهم أولاً، وطلب العمال منهم لرفع الإنتاج في مناجمنا. وهكذا يطمئنون إلينا. فعمالهم سيعملون عندنا بأجر، بحرية، مثل من يرضون بذلك من عمالنا، فيرتفع الإنتاج دون أن نفرض العمل في المناجم، على من لا يريد ذلك أهالينا، أو أهالي غيرنا، ودون أن نهمل مزارعنا، أو متاجرنا، وبذلك نتجنب الحرب.

شهراموش (مستبشراً): إنه رأي صائب فما ترون؟

مرقادو وزاهور (بصوت واحد): نعم الرأي.

روزباه: (كالساهم في أفق المجلس): لكنه مجرد حل مؤقت.

❑ ❑ ❑

قال الراوي: وكان ذلك آخر مجلس ظهر فيه روزباه الحكيم. بل كانت تلك آخر مرة على الإطلاق شاهده فيها عامة الناس. وسيأتي بيان ذلك في حينه.

(الزهرات) أحدث أحياء المدينة وأجملها. بل مدينة مستقلة بذاتها. بنايات من ثلاث طوابق، هلالية، ونصف دائرية، متدرجة السطوح على شكل قمم تغري بالقفز والتسلق. تتوسطها ملاعب تحيط بها أغراس متنوعة. من طابق ما، كان وجه زهروية يطل، متكئة بمرفقيها على إفريز النافذة، تراقب

حركة الأطفال في الملاعب وبينهم أحفادها. داخل الشقة، كانت عائشة ترتب أطباقاً من الحلوى والمشروبات في أماكنها تساعدها فطومة. عندما دخلت ببعض المشتريات، وجدتهما قد انتهتا تقريباً من ترتيب كل شيء. المناسبة السعيدة كانت كبيرة، غير محددة، تشمل عدة أحداث: خبر سار مما وراء البحر عن أخي محمد، ترقية هامة لعبد الله مع انتقال نهائي إلى مدينة، نجاح الصغار: مهدي على أبواب الابتدائية، ومحمد على أبواب المدرسة، وفاطمة في الروض... هناك أيضاً مناسبة الإفراج عني، وتسلم المساكن الجديدة.... وظهور فطومة، كأنها ولدت من جديد، بالحال التي كانت عليها قبل زواجها من المرحوم الحاج مهدي الكبير وما تلا ذلك من هموم... باختصار كانت مناسبة كل شيء بهيج.
ما كدت أدخل واسلم، حتى نادت زهروية أطفالها ليصعدوا، وتبادلت في نفس الوقت أحاديث رد ومجاملة مع بعض الجيران من الشرفات. لم تمض لحظة حتى دخل الصغار بضجيجهم ومعهم ثلة من رفاقهم دعوهم للحفل البهيج. أول شيء فعلته، أني طلبت منهم التريث حتى يحضر بقية المدعوين، وأثناء الانتظار، بدأت أمضي معهم الوقت ببعض الأناشيد المشتركة. أخيراً دخلت ومعها السدراوي وابنهما، أقصد ابن رجاء من زواجها الأول. نسيت أن أقول إن المناسبة أيضاً تشمل زواجهما. فلقد أحبها السدراوي من حديثي عنها. وتهيأت له رؤيتها في بعض زياراتها لنا في السجن، وشجعته على ذلك دون أن أخفي عنه شيئا من مشاعرنا القديمة البريئة المتبادلة. كان قد عرفني بما فيه الكفاية طيلة مشاريع السجن وسنواته، فلم يتردد. سادت البهجة. اختلطت فيها الضحكات بالأغاني والتصفيقات، انخرط في الحفل بعض الجيران نساء ورجالاً. لم يحتاجوا لأية دعوة. الشقة تتسع بقدر ما يتزايد عدد الحضور، تتمدد بقابلية لا نهائية كأنها من مادة مطاطية. لست أدري ما الذي جعلني في هذه اللحظة أتذكر حفلتنا البسيطة في إحدى سهرات السجن، عندما كنا قد أنهينا تصاميم مشروع

«الزهرات»، وأتذكر بالذات ملامح مصطفى لكرد، وهو يسرد علينا تغريبة بدر زمانة في آلامها ونهايتها السعيدة. أحسست برغبة داخلية ملحة، في أن أسمع صوته يحكي من جديد تلك المغربات بلسانه الساحر. ولكن كيف؟ وقد تركته خلفي هناك في السجن... فجأة كأنما قرأ السدراوي أفكاري، أو كان يفكر بنفس الشيء فيقول لي: أتذكر صديقنا ذاك الذي... ويخبرني أنه التقى بمصطفى لكرد في مدخل البناية، وأنه من جيراننا سكان الزهرات، بل وأنه من سكان بنايتنا هذه بالذات، وأنه سيحضر الحفل أيضا. فجأة أيضا يدخل مصطفى لكرد وزوجته وابناه..: نتعانق تغني، نأكل ونشرب، نصفق للمناسبة السعيدة.... إذن أصبحت اللحظة مناسبة هذا اللقاء أيضاً، ويمكن أن تشمل كل الماضي، وما يأتي به الحاضر والمستقبل، ورغم أنها حفلة لا يمكن أن تنتهي، فقد تحينت فرصة وقلت: الآن أيها الأعزاء صغاراً وكباراً ورجالاً ونساء، جاء وقت المفاجأة. وبدأنا نوزع الهدايا على الحاضرين، وهي جملة لعب مختلفة من إنتاج مشروعنا المشترك، وظهرت بين أصناف اللعب وأصحابها مفارقات زادت الحفل بهجة ومرحاً: مثلا زهروية كان من نصيبها «كناوي» راقص بطبله وعرفه. وبين كل فترة رقص وأخرى، كان يتوقف لينحني بطريقة فكاهية تظهر عورته... محمد الصغير كان نصيبه نملة متربعة في أذن فيل ضخم، ومن هناك تتحكم في حركته، وبين الحين والآخر، تبرز للجمهور تعلن عن وجودها بحركة هزلية لتعود إلى تربعها. أنا شخصياً كان نصيبي دمية بعدة وجوه ملونة، تتغير سحنتها بمجرد لمس بشرة وجهها. أو لثم شفتيها بقبلة... كان الدور لمهدي كي يتسلم مني هديته. قبل أن أقدم له اللعبة، أردت أن أزيد من شوقه، قلت له:

ـ ماذا تتمنى أن تجد؟

ـ سمكة مشوية بلا عظم بين رغيفين!

عرفت أنه يتهرب. ألححت عليه. نظر إلى حجم العلبة يستكنهها، أو

يحاول يطابق بين رغبته وبينها. أخيراً قال كمن استسلم بعد إجهاد: كرة ومضرب.

ناولته العلبة. فتحها وارتمى علي معانقاً فرحاً: رقعة شطرنج، يصدر عن كل بيدق منها صوت خاص، حسب موقعه من ظفر أو حرج...

أيقظني باب الزنزانة يفتح. الحارس يعلن أنني مطلوب في قاعة الزيارات، كنت أنتظر هذه اللحظة في يوم زيارات كهذا. عدلت هندامي، وحملت عدة علب كرتونية مختومة بخاتم إدارة السجن وترخيصها، وسرت خلف الحارس أشعر تحت إبطي بالكناوي يهتز رقصاً في علبته، وبالحصان يصهل وهو يقفز مربعات الرقعة، والأحمق يدندن غير منتبه ولا عابئ بما يترصد به من خطر في النقلة القادمة... ضغطت على العلب كأني أطلب منها أن تكتم سرها تحتفظ لمحتوياتها بسحر المفاجأة، حين يكتشفها أصحابي من الصغار والكبار.

❑ ❑ ❑

كأني أعرفه في العمق وإن لم أتعرف عليه جيداً كما أراه أمامي. كوجه الحاج مهدي، بل بالذات إلا أنه حليق، ولم يثر ذلك فيّ أي استغراب. كان يداعب طائراً صغيراً أنيقاً، منمقاً بألوان لا يسعف التعبير عنها. يمد يده باحتياط من فتحة القفص، يمسك بالطائر بعناية، يدنيه من وجهه، يظل برهة يتأمله، ثم يمر بخده على ريشه الناعم. يدنيه من وجهه، يظل برهة يتأمله، ثم يمر بخده على ريشه الناعم. يتسع القفص ليشمل الطائر وصاحبه، فيصبحان داخله ينعم كل منهما برفقة الآخر. والرجل مستمر في تلمس الريش الناعم بخده. القفص سرير، وخد الرجل يمر بلطف على بطن امرأة يظهر أنها في بداية الحمل. إن الرجل وإن كان هو الحاج مهدي إلا أنه سي سليمان، وإن المرأة الراقدة وإن كانت فطومة، إلا أنها حليمة زوجة سي سليمان، مع أني لم أر ملامح وجهها.

سي سليمان في غاية الانبساط بعودة الدقيق الرقيق، لا ينقص من صورته في ذهني إلا غياب التناقض العتيد، الذي كان يمثله كيانه الهزيل إلى هيكل المرحومة زوجته الأولى. حليمته كما أراها الآن ممددة إلى مداعباته في استسلام، وجه صبي يفيض إشراقاً وزينة. سي سليمان في غاية الارتياح والانبساط إلى حليمته والى طبيعته... يمر بخده على بطنها يتسمع ويتتبع حركة الجنين الناشئ ونبضه. أخيراً سيصبح سي سليمان أباً. بعد التعب والنصب، والصدمة تلو الصدمة، والاغتسال بسبع موجات بحرية عند الفجر، وعاصفة الدخان والبخور، وتدلك الجسم من قمة الرأس إلى أخمص القدم بالدهون الدسمة الكريهة، طرداً للجن والشياطين التي سكنت ثنايا هذا الجسم المنهوك النحيل. أخيراً وبعد فسخ السحر عن حليمته أيضاً، أكثر من عملية معقدة، ها هو ذا راض عن نفسه، وزوجته وعما أنفق على الطائر الأنيق في القفص الذهبي الجميل، الذي لا يتسع لغيرهما وما ينجبان...

مشهد متكامل الرضا والهدوء والطمأنينة. فجأة تدفعه حليمة عنها بعيدا وترميه بقوة لا تصدق. تنهض عارية متنمرة تكشف عن مخالبها الطويلة، تدخل كلتا يديها في أسفلها، تخرج الوليد الجنين كتلة دماء، يصطبغ الكون كله بلون الدماء... ثم ترميه على وجه سي سليمان. تصيح فيه: لن يكون أبداً لن يكون. الجنين ليس لك. العقم فيك العقم بك، العقم منك. العقم إليك. العقم... أفقت مذعوراً يتقاطر جسمي عرقاً.

❑ ❑ ❑

عرفنا مصطفى لكرد قرابة سنتين، سمعناه أثناءها وسمعنا عنه. الآن يحتفل بقرب الإفراج عنه. فلقد أنهى سنوات العقوبة المحددة بالتمام والكمال كما يقول، وكما كان يقدر، وبعد أسبوع تفتح البوابة عنه وتغلق دونه. لقد بدأ عده العكسي ومنذ اليوم، فكل يوم يمر لن يعود عليه وهو في السجن. هيأ

حفلاً شيقاً، عيداً غنياً بما لذ وطاب من مأكول ومشروب، وقد بدا ذلك أقل ابتهاجاً مما كان ينتظر من مثله. أبدى له هذه الملاحظة أكثر من واحد، فكان جوابه أنه يعز عليه مفارقة صحبه، بعد العشرة الطويلة. لعله صادق في ذلك. لعله في الواقع في غاية الابتهاج، ولعل تحفظه في إظهار ذلك يرجع إلى مراعاة شعور الآخرين... مهما يكن فقد كان حريصاً على أن يترك في الجميع سيرته ونصيحته، في الحفاظ على الصحة والرجولة، وكان متطوعاً لقضاء ما يلزم الآخرين من مآرب خارج السجن، واعداً بأن يظل على اتصال بهم عن طريق الكتابة.

كنت والسدراوي قد استجبنا لدعوة مصطفى لكرد مجاملة، بل إن صديقي استجاب على مضض بعد إلحاحي عليه، ولم يكن سبب ذلك ليخفى عليّ... لذلك لم نبق لآخر الحفل، ولم أتمتع لآخر مرة من مصطفى لكرد بتغريبه بدر الزمان أو بدر زمانه كما يسميها، والتي لابد أن يعيد حكايتها مستجيباً للرغبات، مضيفاً إليها ومبدعاً فيها.

❑ ❑ ❑

من كان يتصور أن السور العتيد الصلد يقع بضربة واحدة وينهد، وأن الخلل الشامل يعتري منظومة الآلة الدقيقة الرهيبة فتتوقف دفعة واحدة وتتفتت؟ لم أصدق، فمهما تكن الضربة فهي واحدة وأولى، والسور هو ما هو،... والحساب والدقة والمنظومة هي ما هي... لم اصدق ولكنه حدث الآن، وسيمضي ويصبح مما يروى، أو هو مضى فعلا وأصبح تاريخاً جديداً، إن وجد له الراوي الأصيل كمصطفى لكرد.

بالضبط بعد يوم وأربع عشرة ساعة من حفل وداع مصطفى لكرد... بالضبط قبل أربعة أيام وعشر ساعات من الإفراج عنه، وجد الرجل ملوي

الرقبة، معلقاً إلى قضبان نافذة المراحيض في مصنع السجن! الخلل الذي اعترى... والبلل الذي تسرب، كان نبأ من خارج السجن. نبأ قديماً اختفى عنه عمداً وعملاً بنصيحته وأمره: إن امرأته بما تملك من عمارة مال... قد ظفرت بالطلاق... وأنها زوجة آخر منذ زمن غير يسير.

❑ ❑ ❑

قال الراوي: اتسعت حدائق قصور شهراموش، واتصلت بها غابات وأحراش غرست خصيصاً، وثبتت كأنها غابات طبيعية كثيفة، تظهر بينها حيناً بعد آخر، بحيرات ومرتفعات صخرية جرداء، أو ترابية معشوشبة ومشجرة... وكانت وحوش وحيوانات مرقادو وزاهور المختلفة، ترتع فيها كما تشاء عوضاً عن الأقفاص وغرف الحجر، كانت هذه الغابات والحدائق، تمثل جزءاً أساسياً من مدرسة الطبيعية التي ينشأ فيها بدر زمانة وأترابه، الذين كانوا جميعاً من ذكور وإناث يحملون لقب الإمارة، لا لأنهم بالفعل انحدروا كلهم من أسر عظماء، أو حتى أغنياء، بل إنهم كانوا قد اختيروا عن قصد ليمثلوا طبقات كغاشي كلها، من فلاحين وأجراء وذوي مناصب وأغنياء وتجار وصيادي سمك... فلقب الإمارة كان مجرد تشريف لهم، وتأكيد للمساواة بينهم في كل شيء، لدرجة أن لا أحد منهم يشعر بأنه أمير أو حقير[9] وكان يطلق عليهم جميعاً أمراء المائة، لأنهم حوالي ذلك في العدد، أخذ نصفهم منذ مواليدهم، لأنهم وافقوا مولد بدر الزمان، وألحق الباقي بهم، ممن يقاربوهم في السن بعد ذلك، وبعد التأكد من آباءهم قد أحسنوا تنشئتهم حسب مبادئ الحكيم روباه، كالخلو من مظاهر الخوف، والطمع، والغيرة، وبعد أن نال آباؤهم أرفع جوائز التشجيع على ذلك. وكان أمراء المائة يتعلمون على علماء وأدباء ومربين مهرة،

---

(9) يقال في رواية أخرى إنهم جميعا كانوا يحملون اسم بدر الزمان، زيادة في المساواة.

من مختلف الميادين، وعلى صناع وحرفيين من أحذق ما عرفه العصر من فلاحين ونجارين وحدادين... بالإضافة إلى الفنانين من مختلف الفنون... وكانت الأميرة بيروز نفسها، من المشرفات على الأميرات من المجموعة، فيما يجب أن تنفرد به الإناث عن الذكور، كما كان مرقادو وزاهور، من جملة معلميهم فيما يخص تربية الحيوانات ورعايتها وترويضها على التآلف والتعايش.

قال الراوي: ولم يكن في حياة أمراء المائة فاصل بين قراءة وصناعة وزراعة... فكانوا يعيشون ويتعلمون بين المزارع والحدائق والغابات وأوراش الصناعة،.. وكانوا يصنعون كل شيء بأنفسهم بإرشاد معلميهم وهم في سن الثامنة تقريبا. وإلى هذه السن لم يظهر على أحد منهم حسد أو غيرة أو طمع أو خوف. حتى إن شيئاً غير عادي لم يدون في السجلات الخاصة بتنشئتهم، إلا تلك الحادثة التي رواها زاهور فيما بعد، وضاع سجلها مع سائر السجلات. رواها كالتالي: كان بدر الزمان في بعض نزهاته وجولاته، يخلو إلى الأميرة ميكاري، وهي من جملة من نشأ معه منذ مولده. كانت مثله تقارب التاسعة، تجمع بينهما آصرة قرض الشعر، فقد كانا كلما اختليا بنفسيهما، تباريا في قرضه على البديهة في مختلف الموضوعات... وقد دهشت الأميرة ميكاري، واحتارت عندما وجدت بدر الزمان جامداً، على غير عادته، ودعته إلى نزهة في الأحراش، لتفقد الحيوانات، فاعتذر لغير سبب مقنع، وظهر لها مهموماً، تقاسيم وجهه بدت لها معبسة، وملامحه باهتة. انصرفت عنه ولكنها لم تستطع أن تسكت على مكنونها، فأفضت به إلى الأميرة الكبيرة بيروز. ولكن بيروز بدورها رغم إلحاحها، لم تفلح في إخراج بدر الزمان عن حاله، أو بوحه لها بما يشغله. فأرسلت إلى الحكيم روزباه نفسه، الذي استطاع أن يعرف السر. والرواية كما ذكرها زاهور فيما بعد، أن بدر الزمان عثر في ثنايا فراشه على رقعة موجهة إليه تقول له (إن ميكاري لا تحبه، بل تحب غيره من أمراء المائة،

وأنها من أصل وضيع لا تستحق حبه...) فوجد بدر الزمان نفسه في حيرة وارتباك: لماذا لا تحبه ميكاري؟ أو على الأصح، لماذا تظهر له أنها تحبه إذا كانت لا تحبه، وما معنى ذلك؟ وهل هو ممكن؟ وما معنى أنها من أصل وضيع؟ أو على الأصح ما علاقة ذلك بالحب؟ إنه يعرف أن الوضاعة هنا، قد يكون المقصود بها الفقر. وهو يعرف وجود الفقر والغنى في كغاشي وفي العالم، ورأى من ذلك بنفسه في جولاته واتصاله بالناس، ولكنه لا يؤمن بعدالة هذا الواقع، ولا يفهم كيف يرتبط الفقر أو المرتبة الاجتماعية، بالحب فتجعل الشخص يستحقه أو لا يستحقه؟ وكانت المشكلة الأعوص هي مصدر تلك الرقعة؟ ومقصود صاحبها؟ ولماذا لم يعلن عن نفسه، ويذكر له ذلك وجها لوجه؟

قال الراوي:.. أما الحكيم روزباه فقد أدرك ما وراء هذه الواقعة من مؤامرة تدبر ضد الجيل الذي ينشئه، وخمن أنها صادرة عن زمرة أصحاب المناصب والمصالح، لإثارة الدوافع الأولية في أمراء المائة، وحفزهم على الحسد والكذب والصراع... مثلما كان مروض الوحوش يقوم به قديماً، لإثارة قابلية وحوشه للاقتتال والافتراس... وسأل روزباه بدر الزمانة عدة أسئلة بعد إطلالة على هذه الرقعة، سأله عن مشاعره نحو ميكاري، ونحو من يقول إنها لا تحبه ليعرف إن كان قد تكون في نفسه حقد أو خوف أو رغبة في الانتقام. فكان جواب بدر الزمان أنه لا يشعر بغير الحيرة، والارتباك والرغبة في التأمل والفهم. حينئذ أعلن الحكيم لبدر الزمان أن تلك الواقعة، لم تكن إلا مادة اختبارية، وأنه نجح في الاختبار، وطلب منه أن ينساها.

قال الراوي: ولم يفت روزباه في ذلك الحين، أن يغتنم الفرصة ليبصر بدر الزمان، بما يجري خارج عالم أمراء المائة، من دسائس ومؤمرات. هدفها الأمراء أنفسهم، وكل أنصار روزباه وشهراموش نفسه.

قال الراوي: ومنذ تلك الحادثة زاد روزباه من يقظته، ونبه شهراموش إلى ضرورة مزيد من الاحتياط لحماية أمراء المائة ومن يرعاهم.

❑ ❑ ❑

قال الراوي: اتجه الأمير بدر الزمان والأميرة ميكاري نحو الأحراش، يحملان قفافاً صغيرة مملوءة حبوباً، وقوتاً متنوعاً يحيون به أصدقاءهما من حيوانات الغابة ووحوشها. نثرا حول البحيرة الكبيرة حبوباً، وسرعان ما تجمعت حولهما حمائم وصقور وعصافير زاهية الألوان، تنقر الحب جنباً إلى جنب، ويقفز بعضها فوق بعض في منظر بهيج. وجلس الأميران على حافة البحيرة، ورنوا ببراءة إلى صورتهما المرتسمة على سطح الماء الصافي الهادئ، وهما جنباً إلى جنب، وقد تماس خداهما في حنان... وتحرك نحوهما من الطرف الآخر، ثعبان البحيرة العظيم، يسبح بتؤدة وهو يحمل على ظهره رفيقته الضفدعة المبرقشة. فرميا إليهما بشيء من البيض المقشر.. ثم قاما وتابعا جولتهما بين الأدغال الملتفة.. أشرف الأميران من خلال أجمة كثيفة على مرعى فسيح معشوشب، وأوشكا أن يخطوا نحوه، حين تناهى إليهما أنين مؤلم. تسمعا قليلاً، ثم اتجها صوبه يزيحان الأغصان من طريقهما، وهو يتزايد في سمعهما... أنين يتقوى كلما اقتربا منه. وأزاحا بعض الأغصان ليجدا نفسيهما مباشرة أمام اللبؤة الصغيرة نيرا، يحيط بها في شبه دائرة، بضع ذئاب وثعالب وماعز وضأن، ينتصب بينهما الأسد الضخم جيكان. أدرك الأميران الموقف. كانت نيرا تعاني المخاض في تجربتها الأولى مع الوضع. لقد وجداها في موسم التناسل، وقد استسلمت لجيكان وهي جد صغيرة. وها هي ذي تعاني صعوبات في الوضع وآلام المخاض. أسرعت ميكاري، والتقطت عوداً وضعته بين فكي نيرا لتطبق عليه، وبدأت تربت عليها. في هذه الأثناء كان بدر زمانه قد أشعل ناراً صغيرة، ثم تعاون مع ميكاري ليقربا نيرا من دفئها، وبدأت ميكاري تسخن

كفيها على النار وتمر بهما على بطن نيرا، في حركات لولبية متوازنة، واللبؤة تئن أنيناً عميقاً مؤلماً... وأخيراً أطل رأس شبل، فبدأ بدر زمانه يتسلمه ويساعده على الخروج... بل شبلان ذكر وأنثى، وضعهما أمام نيرا تلحسهما... تقدمت ميكاري من ماعزه، وضع بدر زمانه كفيه تحت ضرعها، وطفقت ميكاري تحلبها في كفيه... وهكذا قدما أول غذاء لنيرا، حتى ارتوت ثم تركاها لشبلها، وامتطيا ضخم الأسود جيكان وانطلقا على ظهره في مرح.

❑ ❑ ❑

رجاء نقطة بيضاء غامضة في حياتي. تعارفنا ومنذ ذلك اليوم أصبحت أفيق باسمها وأنام، أفاجئ نفسي متسائلاً: هل أحبها؟ التحقت بجانبي في مصلحة التوجيه والعلاقات الخارجية. من المفروض أنها مساعدة لي، وأنني رئيسها، لكنني أعرف إني لا أستطيع أن أكون إلا زميلا أو صديقاً لكل من يعمل معي. أول رحلة قمنا بها في نطاق الشغل كانت مرافقة وفد أجنبي صناعي مختلط الجنسين، شباباً وكهولاً يناهز عددهم الخمسين. لم تكن المباني الخاصة لتكفي لإيوائهم فخصصت للمتزوجين منهم، وأنزلنا الباقي بغرف مستقلة في الفندق. كنت ورجاء نتعاون أثناء الزيارة على الشرح والإرشاد، كل منا على رأس فريق منهم. أبنا مساء إلى الفندق تناولنا العشاء، وتركنا الزائرين أحراراً، المدينة صغيرة. رغب البعض في قضاء سهرة بالخارج، لكنهم ما لبثوا بجولة واحدة، أن أحاطوا بكل شيء ورجعوا مقتنعين بأن الفندق أحسن ما في المنطقة. فاصطفوا على إفريز البار. كنت ورجاء على طاولة نتحدث في أمور إدارية، كانت تريد تنمية خبراتها وكنت أفرغ ما في جعبتي من معلومات، تنقطع الموضوعات بيننا لكن شيئاً ما يجعلها تنبعث من جديد من طرفي أو من طرف رجاء. شاب من المجموعة الزائرة ألماني أو أمريكي، يتقدم نحونا ببعض تهيب. كأسه في يده. يسألنا عن شيء، معلومات عادية جداً تتعلق بالمدينة الصغيرة. تجيبه رجاء،

وأضيف شيئاً لما قالت. لا ينصرف الشاب، لكنه يدعو رجاء لشرب شيء معه أو معهم... شعرت بأنها فوجئت بالطلب. نظرت إليّ. لا أدري ماذا قرأت في وجهي، واعتذرت بأدب. عدنا للحديث. جف الشاي والعضير، وبدأنا نطلب قهوة في آخر الليل. ليلة كاملة بتمامها إلى إشراق الشمس ونحن نتحدث، قلبنا كل صفحة في حياتنا، وقرأنا كل سطر، بل قرأنا بعض الفصول أكثر من مرة. في الثانية والعشرين. مطلقة بطفل، خرجت به في الشهر الخامس، الألم يرتسم باستمرار على سحنتها السمراء طول الليلة، كنت أقاطعها بين الحين والحين: ألا نغير الموضوع؟ كانت ترد بأنها تفضل أن تتحدث عن همومها، أن تفرغ ما بها علي، ليس لها عون. قالت إنها لم تتحدث لأحد بمثل هذا من قبل. علاقات العمل والصحبة العابرة لا تتيح ذلك، كنت أيضاً بدوري ولأول مرة في حياتي أجرب أن أتحدث عن همومي. شجعتني بمبادرتها. وجدتها في أثناء حديثي، تعرض علي تغيير الموضوع. قلت لا. أريد أن أفرغ شيئاً ما بي. همسنا وحده كان يسري في هدأة الكون والمصابيح الخافتة. شعور يشملنا بأننا وحدنا في جزيرة أو رقعة معزولة لا ترسم على الخرائط. الفندق برمته غارق في سكون النيام، شلال ضوء خافت يعمنا في الصالون الأرضي الفسيح، حتى غالبه إشراق الصباح.

كنا فوق التعب والسهر، طلبنا قهوة، رشفنا منها، صعدنا لغرفتينا نستعد لليوم. وبعد دقائق كنا على مائدة الإفطار. كنا قد أتينا في اليوم الأول لزيارتنا على كل المرافق الصناعية الداخلية، وعلينا اليوم أن نقوم بجولة خارجية سريعة، تعطي للزوار نظرة على منطقة المؤسسات الصناعية بكاملها، وامتدادها الطبيعي في مشاريع التوسيع المقبلة، بعد ساعتين كانت حافلتنا تقطع طريق العودة مخترقة وديان وسهول المنطقة. أحاديث الزائرين مختلفة في هرج. بين الحين والحين يلقي أحدهم سؤالا حول جمال المنطقة وطبيعتها السياحية. كنت أجيب بما

أعرف معتذراً بنقص معلوماتي في هذا الموضوع. في أول مقعد قرب السائق، كان مكبر الصوت في يدي، مستعداً لينشر أية معلومات بين الزائرين أتطوع بها طوال ساعات الطريق. بيد أن استعماله كان نادراً من جانبي، إلا عندما نعبر قرية أو مدينة، فأنطق اسمها باختصار، وبأقل درجة من ارتفاع الصوت أو هكذا خيل غلي. لم أكن أشعر بأي تعب أو حاجة للنوم، لكني لم أكن نشيطاً. رجاء بجانبي على المقعد. تركت رأسها يميل على كتفي وأغلقت. حرصت على ألا أتحرك، ألا أزعجها.

❑ ❑ ❑

كثيراً ما سألت نفسي هل هو الحب؟ الألفة ضاربة بيننا. أحاديثنا أثناء العمل... في الرحلات المشتركة... في الأوقات القليلة التي نتناول فيها قهوة أو شاياً في مقهى الإدارة.. لا نترك مجالا إلا مجال الحب. كنت راضياً بذلك. أشعر بالأمان. وكلما سألتني عن شأن من شؤون أولادي ازددت ارتياحاً. ولأمر ما بدأ موضوع الأولاد يأخذ من أحاديثنا أكبر الوقت. أحكي لها عن مهدي ومحمد، تسمع وتسأل. تسألني عن فاطمة الصغرى أقول إنها تشبهها وأنها بالنسبة لي تسمى رجاء... أصبحت تعرف الكثير عن أولادي، عاداتهم ومشاكلهم و يمكنها مثلي تماماً أن تتنبأ بتصرفاتهم... قدرت مراراً بيني وبين نفسي، أنني لو أطلقت رجاء على ابنتي، لكان ذلك خير هدية أقدمها لنفسي ولرجاء... كنت أتألم كثيراً، كلما تذكرت كيف أنني لم أتمسك باقتراحي إذ ذاك، فقد طفا الاسم على شفتي بعفوية غريبة، ولكنني بمجرد ما وعيت دلالته، تركت فرصة الانتصار لزهروية، رغم ما أبدته زوجتي نفسها من إعجاب بالاسم. لم تكن رجاء تزور أسرتها، حيث طفلها سعيد عند أمها إلا نادراً، رغم عطل الأسبوع ومسافة أقل من ساعتين بالقطار. كانت لا تطيق أن يكرروا عليها من جديد أن تراجع زوجها، أو أن يستنكروا عليها انفرادها بالرأي، في موضوع تعتقد أنه

يخصها وحدها. ومن ثم شعرت بها كأنها تعوض عن أمومتها المحرومة بأخبار أولادي، وبمشاركتي في اهتماماتهم، كانت متفقة معي على أن الأولاد، يجب أن يتركوا التعبير عن ذواتهم. تسايرني في سلوكي المتسامح معهم، لكنها لم تكن تخفي خشيتها من أن ينشأوا مدللين عابثين. لم أكن أشاطرها الرأي الأخير.

❑ ❑ ❑

أكثر من مرة استأذنت في أن أنصرف، ثم توقفت وعدت لحديث رجاء. مضى علينا أكثر من ساعة في المقهى المقابل للإدارة بعد خروجنا من العمل. جفت القهوة في كأسينا، وأكثر من مرة تهيأت لأودعها، رغبتها كانت واضحة في إطالة الجلسة ورغبتي أكثر. سايرتها. تقطعت أطراف الحديث مراراً وربطناها من جديد. فترات صمت بيننا تطول كأنها تؤكد أن الموضوعات استهلكت، ويجب أن نبدأ صفحة جديدة. كلما طال الصمت، أحسست برجفة في القلب، وفراغ في الذات، أهتز لهما وأبحث عن أي موضوع بطريقة عشوائية. أسألها عن مسعودي وحميد. تعرفهما، أصف لها كيف أن أمرهما تغير بمجرد التحاقهما بقسم الحسابات. لغتهما أصبحت غريبة، تسألني. كيف؟ يلاحقني سؤالها كيف؟ سؤال جاد كأنها لا تعلم أني أصطنع موضوعاً للحديث اصطناعا؟ ولكني أيضاً في أعماقي جاد، إنهما يتحدثان كثيراً عن العمل الحر... ويبدو أنهما يجربان بعض الأعمال الخاصة.

نظرت إلي تستزيد، تريد أن تستخلص شيئاً محدداً دون جدوى. لعلها تكتشف أخيراً أن الموضوع عائم لا دلالة له. يسود الصمت. تعاودني الرهبة. أنبهها إلى النوع الجديد الذي بدأ يسود في تصميم السيارات... أردد ما أعرفه عن أشكال سيارات تشبه كائنات حية كأنها مستوحاة منها... ضفادع... سلاحف... تعاودني رهبة الصمت. أكرر رأيي في المذكرة الإدارية الأخيرة التي تنبه إلى ضرورة الالتزام بأوقات الدخول والخروج... تقاطعني فجأة بالوقوف

للذهاب. سئمت بلا شك لعبة اصطياد الموضوعات. أسفت عما سببته لي من ضياع وقت. هي ضائعة الوقت والوجود فلم تضيعني معها؟! كانت تعبر بمرارة عميقة. قلت دون أن أدري، أنني مثلها ضائع الوجود. احتجت على قولي. نهرتني. كنا قد اقتربنا في اتجاه في محطة الحافلات، عرضت عليها أن تأخذ تاكسي. رفضت أن أصحبها وطريقانا متعاكسان. تركتها تصعد ودلفت إلى جانبها دون أن أترك لها فرصة. نزلنا. يجب أن أودعها بسرعة. كانت حريصة على ذلك. كنت أيضاً حريصاً وغير حريص ... يملؤني تهيب وارتعاب من أن أطيل المكوث معها... ومن أن أتركها وحدها. مم أخشى وعلام؟ لا أدري بالتحديد. مني ومنها علي وعليها. من كل شيء على كل شيء. عندما مدت لي يدها للوداع، على عتبة باب العمارة، شعرت أنني أسلمها إلى عدو مجهول. شعور بالإثم ظل يلاحقني طيلة طريق العودة. قالت عندما نهرتني واحتجت، إنني لا يمكن أن أكون ضائع الوجود وأنا ملتحم بأسرتي الصغيرة المتماسكة، أغدق على أفرادها عطفي وحناني، وأتلقى منهم أضعاف ذلك، أحيا بهم ويحيون بي، قدرت بجد ما وراء كلامها، وما تعاني منه كأنني مكانها.

❏ ❏ ❏

أستطيع أن أقول أنني أعيش عذاباً بقرب رجاء وعذاباً بالبعد عنها، للمرة الألف أفاجئ نفسي متسائلاً أهو الحب؟ وإلا... فماذا يكون؟ وكيف يكون الحب؟ يخيل إليّ أنني أقرأ في عينيها نفس السؤال وربما نفس الجواب. أي جواب؟ أتحسس معالم عذابي، أجدها في عجزي عن أن أقول لها إنني أحبك، وأن أطلب منها نفس الشيء، وأن أستطيع فعل شيء محدد بعد أن أقول ذلك أو تقول لي مثله. أخشى من لساني أن ينزلق، ومن حركاتي أن تطيش، فليتنا نكف عن لقاء المقهى وطريق منزلها بعد العمل. بل ليتنا نكف عن لقاء العمل ذاته. ومع ذلك فوجئت واستنكرت عندما امتنعت عن صحبتي للمقهى، وقررت

حذف الطريق أيضاً، لم تشرح، لكنها قدرت أنني أدرك. نعم، أدرك وأريد ذلك ولا أريده. ومع ذلك جاءتني في هيئة عروس مبتهجة! الباب موصد علينا في غرفة يبدو أنها خصصت لليلتنا هذه. تقدمت نحوي متئدة مبتسمة مفتحة الذراعين. في نصف طريقها، في منتصف طريقها إلي، مدت يدها، أزاحت عن رأسها تاج العرس وارتمت علي فتشابكنا بالعناق والقبل... حتى ضجت من حولنا الجدران والأبواب... الطرق المتضخم العالي يوشك أن يقتلع الباب ويهد الحيطان. لا مفر. والطرق يشتد والضجة... وجاءتني في صورة أخرى، نفس الغرفة تقريباً أو نفس الشعور بأنها نفس الغرفة، كانت في الركن على سرير منخفض، مغطاة في مرضها. لم أكن أراها. لكني كنت أعرف أنها هي، وكنت أتحسر على حالها. أريد أن آتيها بأنجع الدواء، وأجود المأكول، وأصدق الحب... أريد أن تقوم وتخطو على قدميها، لكن شيئا يحجز إرادتي، فلا أتحرك للدواء، ولا للأكل ولا للحب، وأظل أرمقها فقط. أعرف أنها هي المريضة تحت الغطاء. ولكني لا أراها، تدخل عائشة فجأة بالدواء، وزهروية بالأكل، وأعلم من لسان حالهما، أنهما تقولان لي، وأنت؟ لم يبق إلا أنت، أعطها الحب لتشفى وتنهض. أتحرك نحو فراشها، أنحني عليها لأطبع على وجنتها قبلة محمومة صادقة، ألمس خدها بشفتي، أشعر بالشوك يلسعها من موقع القبلة، وتنبعث من الفراش، رائحة عفونة رطبة، وصوت منهوك لرجل مريض يظهر أنه يعرفني وأعرفه، يقول ممتناً «الله يرضي عليك. الله يرضى عليك». يعتريني ارتعاب. التفت خلفي إلى زهروية وعائشة. أجدهما تبتسمان بخبث... وهيكل الحاج مهدي ممدد يحتضر... علناً حضرت، في هيئتها المعتادة التي أعرفها عليها في المكتب... والمدير ذاته حضر أيضاً في هيئة ليست بهيئته المألوفة، لكنني أعرفه وأجده مألوفاً. رفع يده. سدد سبابته نحوي يشير إليّ بقوة ويقول: «إذا لم تتزوجها فلست ابناً لي!».

❑ ❑ ❑

توالت علي أيام أصبح فيها تعباً مكدوداً. نوم متقطع مذعور. بدأت أشعر بمتعة لا مزيد عليها أيام العطل، أقضي يومي بكامله أحياناً مستيقظاً ممدداً في الفراش. أنادي الأولاد حولي وألاعبهم فوق السرير. تضيق عائشة بذلك. لأول مرة رأيتها تخرج عن هدوئها تقول وكأنها تنتهرني: «إذا كنت مريضاً فيجب أن تتوجه للطبيب حالا» لم أعلق على كلامها، كنت أعلم أنني لست مريضاً ولست سليماً. لو كانت تستطيع أن تفهم، ولو كنت أستطيع أن أعبر، لقلت لها إني أوجد في وسط ما، معدل وهمي، بين الصحة والمرض.

صباح اثنين غادرت الفراش متوجهاً إلى الإدارة. في منتصف الطريق اعتراني تثاقل لا يكاد يقهر. رغبة جارفة في أن أعود إلى فراشي، أقاوم الرغبة لأنني لست مريضاً بالمعنى الصحيح، ومع ذلك أجدها تتعاظم. كنت قد مكثت في فراشي من ظهر السبت. عائشة صادقة بدون شك، فيما قالت من أن الفراش يعلم الكسل، اقتنعت بأنني مجرد كسول متكاسل، مع ذلك، تجاوزت باب الإدارة ذهاباً وإياباً دون أن أدخل. لا أستطيع أن أدخل. ملأت خاطري ذكرى مقاومة مماثلة للدخول، خبرتها يوما وأنا أجاهد ما بي عبثاً، لألج مركزاً للشرطة. أخيراً مر بي أحدهم، تساءل عن علة وقوفي... جرني من يدي ودخلنا دون أن أنبس بحرف.

❑ ❑ ❑

المكان يوحي بأنه محكمة وإدارة مألوفة. على منبر كالبار تصطف عدة برتقالات تمثل رؤوس القضاة. يدان قويتان تمسكانني من الخلف. رجاء منفوشة الشعر، منثورة الأطراف، اختلطت في وجهها الأصابع، تنهض لاعنة تسب وتشتم وتشير نحوي بأصبع العداء، اعتديت عليها بلا سبب، انتهكت حرمتها، هتكت عرضها بوحشية. تتقدم نحوي وأنا عاري الوجه ممسوك من الوراء... قدم بحذاء لماع أسود، وكتفان تلمع عليهما أزرار صفراء في بقعة زرقاء...

وتتقد نجوم أمام ناظري بفعل صفعتين مفاجئتين مترادفتين وأنز بولا...

أفقت. وجدت فراشي مبللاً بالفعل. لم أنكر أمري على عائشة، ولم يعترني أي خجل من تبلل الفراش، وقد عجبت من نفسي فيما بعد، كيف وجدت الأمر طبيعياً. بدا القلق على عائشة، وتشبثت بأن أعرض نفسي على طبيب. هونت عليها الأمر وفسرته ببرودة عادية، تكون قد تسربت إلى مسالكي البولية، ووعدتها بأن أعرض نفسي على الطبيب إذا تكرر ذلك. لم يتكرر الأمر ومع ذلك توجهت إلى الطبيب... أقرب طبيب إلي... مشطور الإرادة بين تيار يدفع وتيار يقاوم. قلت له باختصار إنني أريد عطلة مرضية لمدة أسبوع...

كنت يومذاك قد تسلمت مذكرة تنبئ بأن وفداً أجنبياً هاماً، سيحل بعد يومين وعلي أن أرافقه صحبة المساعدة رجاء، آثرت التمارض. عائشة تقوم كعادتها بكل ما يلزم، زارتنا زهروية بالصدفة كما ادعت، وأعتقد أن عائشة توجهت إليها وأعلمتها، بدت لي زهروية هلعة لكن استجابتي طمأنتها على حالي. قضت عندنا ليلتين لم تنفك أثناءها تنصحني بضرورة مغادرة الفراش. لكنني كنت أشعر بارتياح شبيه بالتخدير، وأنا ملفوف في الغطاء على السرير. شعور من الصعب مقاومته والتضحية به. ومن ثم أقنعت الجميع بأنني ما دمت في عطلة مرض، فيجب أن ألزم الفراش، تحسباً لما يمكن أن تقوم به الإدارة من فحص طبي مضاد، فتبعث لي بطبيبها الخاص. الحجة قانونية وعملية، أفحمت زهروية وعائشة، بل أقنعتني أنا أيضاً! ولا أدري لماذا لم أنتبه إليها قبل الآن، ولا كيف اهتديت إليها في هذه اللحظة بالذات؟ كلما أشرف موعد العطلة المرضية على الانتهاء، كلما زاد شعوري بالقلق، زارني عدة أصدقاء، كان من بينهم حميد ومسعودي. كرهت جداً هذه الزيارة. شعرت بكراهية تنمو إزاء عطلة المرض إذا كانت ستسبب لي زيارات. جلست معهم أكثر من ساعة. سألوني عن المرض أسئلة متنوعة. شكوت من آلام وهمية، واستعرضت أطباء

اختصاصيين. مسعودي قال: (لا طبيب ولا يحزنون... اخرج يا أخي، تنزه. سافر. غيّر الجو..) ليتهم يخرجون. يخرجون فقط لا غير، ويتركونني في الفراش! ذكر أحدهم صدفة أو عمداً زيارة الوفد الأجنبي الأخير، الذي كان مقدراً أن أرافقه، ارتعبت، كأن قوة تدفعني رغماً عني للتجول في مكان جريمة اقترفتها. طبعاً ذكروا رجاء، وأنها صاحبت الوفد مع مساعد آخر... بدأت أتململ بوضوح. ألسنتهم كالمشارط في هذا الموضوع بالذات.. وأظن أنني تأوهت بصوت مسموع انتبهوا له، فذكرت ألماً خاطفاً في الظهر...

لامتني عائشة على سلوكي وشعوري إزاء الأصدقاء الزائرين. نهرتها بعنف، اعتذرت عنه في الحين بأساليب متنوعة، جعلتها تهون علي وأنا مستمر في اعتذاراتي. تقول إنها امرأتي وعلي أن أنهرها. وكل زوج ينهر زوجته ثم هي أول مرة يحدث فيها ذلك بيننا... كانت كمن يغذي النار بالزيت، أحسست بذنبي الكبير إزاءها. مثلها لا يستحق الانتهار. مثلها يستحق أن يعبد من مثلي... هي الطيبة الطيعة المضحية، أحسست بذنبي إزاء الأولاد والإخوة، لماذا لا أكاتب محمداً ولا أزور أحداً يا الله؟ ذنبي إزاء زهروية أيضاً أكبر، لم لا أقصدها كل جمعة، أو كل يوم أتبرك بها... حتى قبر الوالد قد نسيته، لا أزوره ولا أترحم... ولا أتصدق عليه بقرآن أو إحسان، ولا أرش قبره بماء الزهر. ثقل كبير جثم فوق صدري، من كل جانب، عائشة ترد على كل ذلك بوقائع تريد أن تقنعني عن طريقها، بأنني وفي ودود... تحاول، لكنني أعرف محاولاتها، أعرف أنها تقوم بذلك شفقة علي ووفاء بواجبها... تريد سلامة زوجها، لها ولأولادها.. ولعلها في عمقها تعتقد أنني كما أقول، لا كما تريد، بل أنا متيقن من ذلك ومتيقن من أن حالي تتجاوز ما أقول... غلبتها على أمرها... صمتت فيها الحجج والمقاومة. توقفت عن صب الزيت على النار، وظلت النار تلتهمني مغذية نفسها بنفسها، تدفع ألسنتها اللاهبة نحو الأعالي، وتركز جمرها في

الأعماق... أخيراً انخرطت في بكاء مرير.

❑ ❑ ❑

فتح باب المكتب أطل مسعودي برأسه مبتسماً مرحاً، سلم وتراجع يهم بإغلاق الباب. لكنه تردد وتساءل إن كان بإمكانه أن يدخل. فهمت مزاحه الرائق خاصة بعد انتقاله إلى قسم الحسابات والتجهيز، بترقية لا بأس بها. سألت من جديد عن عمله. أظهر سروره، لكنه استدرك متحفظاً، في رأيه أن كل وظيفة مهما سمت وارتقت، لا يمكن أن تؤدي إلى العيش الكريم، أو الغنى المطلوب، الموظف دائماً أجير، لكن التجارة ميدان فسيح للكسب الحقيقي. لأكثر من مرة يكرر رأيه هذا، أعلم أنه سيتبعه بأن يؤكد أنه يتمنى، أن يجد طريقه إلى التجارة يوماً ما. لكنه لم يؤكد أمنيته، وإنما أخبرني بأنه بالفعل بدأ يمارس التجارة على مستوى بسيط وغير منظم، ولكنها مع ذلك مربحة بعض الشيء، كنت أستمع إليه بكسل أو إهمال، لاحظ ذلك وقال: لنرجع إلى المهم. كان يحمل ملفاً فتحه وعرضه أمامي، عدة فواتير. تساءلت. قال اقرأ، قرأت وأعدت. في أعلى الأوراق أسماء فنادق، وفي أسفلها بيانات بمصاريف للإقامة والمبيت. فهمت ولم أفهم. من التواريخ والمصدر، وبيانات أخرى متنوعة، هي فواتير زيارات بعض وفود رافقتها أو نظمت جولاتها... وعليها توقيعي. لكنها لم تعد من اختصاصي، بعد أن وقعت عليها لأصحابها في وقتها المناسب. كأنه أدرك حيرتي. طمأنني، أطلق ملفه وقال، بأن مبالغ كهذه... حرام والله حرام أن يتمتع بها أصحاب الفنادق والمطاعم وشركاتهم، التي لا تحتاج إلى مزيد من الثروة... وكل هذا بخط بسيط ملتوي اسمه احمد بن الحاج مهدي... ماذا يساوي التوقيع؟ هززت رأسي بلا مبالاة. الأمور هكذا. لا بد أن يتحمل أحدنا مسؤولية التوقيع... لم يغب عنه تجاهلي فهجم على الموضوع. التجارة تقول: لكل شيء ثمن. ولكل توقيع ثمن. هذا القانون والعرف من يوقع بهذا

الحياد؟ الملائكة قد تفعل وقد لا تفعل! وطفق يذكر وقائع سمعتها كالشائعات أو تخيلتها...

أحسست بالموضوع يثير توتري، طلبت منه أن يكف.. ولكنه تابع كالممسوس. التجارة تغني في بلدنا. وهناك شيء آخر أو أشياء كثيرة، تغني أيضاً: أثمان التوقيعات... التوقيعات على الفراغ.. تجارة العلاقات.

أنذرته. يجب أن يسكت أو يخرج.. وأكثر من ذلك أنذرته من نتائج هذا التفكير. صادق على رأيي أو أظهر أنه يصادق، وعاد يحدثني عن مشاريعه التجارية الصغرى.

❑ ❑ ❑

كلما مددت إجازة المرض.. كلما اقترب هذا التمديد من نهايته، زاد شعوري باستياء حالتي. راحتي في الفراش والغطاء. زهروية أصبحت لا تكاد تفارقنا. انتهت فترة النقاش والتساؤل، وعائشة لا يهمها أكثر من أن تلبي طلباتي. زهروية كفت عن نعيبها حول فراشي أن سيكون مصيري هو مصير الحاج مهدي. كنت أشعر أني صادق النية في أن أخرج من حالتي... أخرج للشارع والإدارة ولكن المانع كان أقوى. حتى ضوء الخارج أصبح يؤذيني ويقلق راحتي، نافذة الغرفة أضحت مغلقة باستمرار. لا أطيق الظلام، لكن نور المصباح يريحني. لم يكن يزعجني في الفراش إلا خاطر غامض بأنني هنا في حالة مؤقتة... في انتظار شيء أكره ما فيه أنه قد يجعلني أغادر الفراش. ذكرت الحلم لزهروية وعائشة. قلت لهما إنني رأيت ناراً عظيمة تلتهم الشقة بما فيها... نار تنبعث من بطني وفراشي وتلتهم كل شيء. أياد تلوح لي خلف اللهيب كأنها تريد انتشالي من النيران لكنها لا تصل... تعوذت زهروية بالله. وتلفتت حواليها. وقالت إن النار تعني (المخزن)... مصيبة... الله يلطف.. وافق ذلك ما في نفسي من شعور بأنني في حالة مؤقتة بانتظار شيء سيحدث،

أشعر بقدرتي على التحليل قوية أو أقوى. الثغرات في حياتي كثيرة، ولا يتعب أي محاكم نفسه في العثور عليها... وأنا لا أستطيع أن أنكرها ولا أتحمل كذبا أو إنكاراً... والشواهد ثابتة... وأخيراً تأتي علاقتي برجاء متوجة سلسلة الجنايات. وما الجناية؟ ما الجريمة؟ هل هي الفعل المادي بالضرورة؟ يجب أن يتسع القانون ـ وهو حتماً متسع ـ ليدرج الإساءات والنوايا الخبيثة في أحكام الجرائم. لماذا اعترضت طريق رجاء أنبش دفين حاضرها وماضيها، وأعمق فيه الجراح والآلام؟ قبل ذلك، اعترضت طريق فطومة بنفس الصورة، فقضيت على هنائها أولاً، ثم على وجودها وجنينها، وعلى الحاج مهدي الذي ما زال يردد في الحلم أن الله يرضي علي. ما الذي أدى به إلى نهايته مباشرة؟ إذا كان القانون قانوناً حقاً، فيجب أن يمتد إلي. لكن أنى له أن ينبش في الماضي ويكشف إذا لم أعترف. ولن أعترف لأنني يجب أن أبقى معذباً بذنوبي أطول وأعمق ما يمكن. علاقتي برجاء.. انتهاكي لحرمة سعادتها صك اتهام قوي راهن... إذا قبضوا علي فسأؤدي ثمن الماضي والمستقبل. لست خائفاً من أداء الثمن. على العكس من ذلك، أريد أن أؤديه بالطريقة العادلة التي تناسب أفعالي، وتكون في حجم قسوتها وقوتها. إذا قبضوا علي، فلن تتاح لي الفرصة. فهمتُ: خوفي إذن من الخروج ومن رموز الشرطة والحبس، هو إذن خوف ممن يعوقني عن أداء الثمن. وفهمت إذن لماذا كانت راحتي في الفراش وإغلاق النوافذ، حتى لا يشي أدنى شيء بوجودي. أنا إذن محافظ على شرفي، ولا أزال عادلاً ما دمت أعاقب نفسي بنفسي، وأجاهد حتى لا أفلت من العقاب بالوقوع تحت طائلة المحاكمة والقانون.. لو صببت هذه الأفكار في رأس زهروية أو عائشة ـ ماذا تقول؟ ستدافع عني وتدافع كما يقتضي دور الأم الحنون والزوج الوفية. فضلت إن أفضي إلى عائشة بسبب معقول.. أجهدت نفسي كي أعثر عليه.. تعبت واحترت في البداية طيلة أيام.. ثم اهتديت إليه فجأة بعد يأس، ولم أجد فيه

مجرد سبب مصطنع، بل كان واقعة مؤكدة في طريقها إلى أن تحدث، إن لم تكن حدثت فعلا.

طلبت من عائشة أن تفهمني وتحتفظ بالسر. أقسمت على ذلك. فذكرت لها التلاعب الحاصل بأموال الإدارة والاختلاسات والتزويرات التي يمارسها مسعودي وحميد، وعلاقتي البريئة بهما في الماضي والحاضر كأصدقاء، وكيف أن كل ذلك سيمسني حتماً... ومن ثم فابتعادي عن العمل الآن، وغيابي عن الإدارة يمكن أن ينجيني من الشبهات!

رسالة مما وراء البحر، وتذكرة سفر بالطائرة من أخي محمد، يدعوني إلى رحلة للخارج أتنفس فيها هواء جديداً. يحدثني عن الحرية والانطلاق.. يراهن على أنني أشفى بمجرد أن تطأ قدمي أرض الحرية. وقفت عائشة وزهروية إلى جانب الدعوة. قدم عبد الله أيضاً. فقد استلم رسالة تخبره بالموضوع وعليه أن يشجعني. لا بد إذن من سفري. وجدت عائشة فرصتها لتقول لي إن الفرصة سانحة، إن كنت حقاً أرغب في أن أفلت من شبكة البحث والتحري، وأبتعد عن مسرح الجنايات، وما قد يلحقني بسبب علاقتي بمسعودي وحميد. رغم اقتناعي بوجاهة العرض والحجة، لم أكن قادراً على مغادرة الفراش والخروج. لو كان خروجي إلى المطار مباشرة للبيت الرغبة، أو على الأقل أشعر بأنني كنت كفيلا بأن ألبيها، لكن ثم إجراءات كثيرة في إعداد الجواز مثلا (قلت ذلك لعائشة وحدها). عبد الله ومحمد يساعدان منذ مدة على مصاريف الأسرة. زهروية تتكفل بقضاء الحاجيات الخارجية. عائشة لا تفارقني ليلا ولا نهاراً. قلت لعائشة. قلت لها كالمستسلم إنني بالعربي الفصيح لا أستطيع أن أتحمل إجراءات السفر... قلت لها لو أن الطائرة تحط في الفراش، وتطير بي إلى ما وراء البحر، لما ترددت، ولكن إجراءات الجواز وبحث الشرطة والسلطة، والتردد هنا وهناك شيء فوق احتمالي... مستحيل... عبد الله ضد كل هذه الخزعبلات

حسب تعبيره... إنه لا يعاني معي عمق المانع كما تعانيه عائشة... يجب أن أسافر، يعني يجب أن أسافر والسلام. هذا رأيه. تدخلت عائشة لتقول: خلوه حتى يعملها من رأسه «عبد الله يستنكر: ومتى؟»

زهروية بنغمة أخرى:

ـ يا الله يا وليدي. الله يرضى عليك.

الحاج مهدي في الحلم:

ـ كن رجلاً وقم. الله يرضي عليك.

خاطر مبعثر من داخلي:

ـ ولم لا تكون لك إرادة الرجال، وتجاهد مواجهاً أعظم الأخطار (لو صحت) في سبيل جواز تكون بعده الفرحة والحرية والسعادة؟

إرادة متقاعسة مني تقول:

ـ إنما أنتم حسدة، أتركوه يستريح في فراشه مادام هذا يريحه، شفاؤه الفراش، والمريض أدرى بحاله، أم أنكم تستعجلون قيامه لتعود دابة الساقية إلى دورانها المعهود، تثمر رزقاً؟

في هذه الحال، يمكن لخبيث يعرف طواياكم، أن يعتمد كل أصناف المرض، ليظل طريح الفراش، ويستريح من دوران الساقية.

❑ ❑ ❑

تماماً، حدث كما كنت أتصوره من قبل. تماماً تماماً. وجدتني على بعد أمتار من باب الإدارة. أتردد بين أن أدخل أو أتجاوز. عادة عرفتها في نفسي منذ اعتلالي. تتعثر بي الخطى أمام مبنى الإدارة، لتقودني إلى الطبيب لتمديد الإجازة من جديد، أو العودة إلى الفراش، إن كانت لا تزال فيها بقية، لكن

الواقعة حدثت تماماً كما كنت أتصورها وأصورها لعائشة.أمام مبنى الإدارة وأنا على خطوات أتردد، توقفت الفاركونيت فجأة، ونزل منها شرطي تبعه ثان وثالث. وليت الأدبار. توقفت عند سارية كبيرة مختفياً بضخامتها. اتكأت عليها. وظللت بنصف إطلالة أرقب الموقف، لم يطل بي الأمر وإن طالت فعلا بي مشاعري. خرج رجال الشرطة يقودون أربعة أشخاص من داخل الإدارة، بينهم حميد ومسعودي مكبلين. هتفت بعائشة: ألم أقل لك؟ أيقظتني. وجدتها بجانبي على الفراش، يداي ممسكتان بحافة السرير، سألتني عما أزعجني، عما شاهدت. أنكرت. مسحت العرق المتصبب من وجهي ورقبتي، طلبت منها أن تترك المصباح مشتعلا. وأن تنام.

❑ ❑ ❑

اللعنة على الصغار والكبار... على العافية والمرض.. على الجرأة والخوف... اللعنة على مهدي الصغير. لأول مرة نهرته، وأظن أنني لمست خده بصفعة أحسست لها حرارة في كفي. ندمت عليها، وأنبت نفسي كثيراً. لكنه كان ظالماً. كان البادئ بالظلم، ولا يمكن أن يكون حديثه عفوياً. كان واعياً وله قصد معين. طلب مني حكاية، قال إنه سمع حكاية أعجبته من جدته زهروية... قال إنه تابع حكاية في كتيب مصور للأطفال أو في التلفاز، لا أدري بالضبط... لكنه تطوع بحكاية وطلب حكاية. ذهني كان مشتتاً رغم أنني كنت مرتاحاً لم أغادر فراشي منذ أيام. مع ذلك كان ذهني أبعد من أن ينسج حكاية مهما بلغت تفاهتها. أغريه بكل اللعب ليتركني، ليلاعب إخوته لكن عبثاً. يريد حكاية، قلت له إنني مثله أريد حكاية. تطوع ليحكي، ليكون البادئ... البادئ بالظلم، لا بد أنه كان محضراً نفسه، واعياً لما يفعل، أو كان يغامر من أجل اكتشاف شيء ما. تطوع، قال: «كانت بسبس قطة جميلة منقطة بالأسود والأبيض، لها ثلاثة أولاد تحبهم كثيراً. وكانت تخاف من الخروج خوفاً شديداً. وتفضل

أن تظل مستريحة..!» صفعته قبل أن أعي ما أفعل، نهرته بعد ذلك، شعرت بأنني لا أعرف كيف أبرر له موقفي، قد يكون متخابثاً واعياً لما يقول، وقد لا يكون، أشفعت ذلك باعتذاري... ربما بالغت في الاعتذار، لكنني لم أصل إلى حالة ترضيني بعد ذلك. تساءلت عائشة عن السبب، لم أشرح لها، ولا شك أنه سيخبرها بالأمر. سخطت على كل شيء، اللعنة على كل شيء حولي، ما كنت أنتظر ولا أتمنى يوماً أرفع فيه يدي على أحد من أولادي. ارتعبت من نفسي من عدة وجوه، كأني اكتشفت الحاج مهدي بلحمه ثاوياً ينتظر فرصة الظهور... كأني وجدت نفسي عارياً رغم كل الأغطية أمام الصغار، فكيف الحال بالكبار...؟ أكثر من ذلك، شعرت كأنني عار أمام نفسي بالذات... ناديت وطلبت منها أن تعد لي أدوات الحلاقة وماء دافئاً. سأخرج لإنهاء أمر الجواز... يد من وراء البحر تلوح لي بمنديل أبيض... أخضر... يجب أن أتنفس هواء نقياً. تأملت تذكرة السفر، ورنوت إلى الطائر الأبيض المحلق في الأجواء، يعبر عالم السجن المتكاثف، في خط مستقيم.

❑ ❑ ❑

قال الراوي: في ليلة صيف مقمرة، وعلى إحدى شرفات قصر شهراموش المطلة على الحدائق والأحراش الممتدة إلى مالا نهاية، وحيث يعم مملكة الإنسان والحيوان أمن وسلام شامل، انعقد مجلس خصوصي محدود، ضم شهراموش والأميرة الكبيرة بيروز، وبعض الأطفال من أمراء المائة على رأسهم الأمير بدر الزمان. دار الحديث هادئاً ناعماً. سأل شهراموش الحاضرين من أمراء المائة عن بعض ما يتعلمون. ناقشهم، واستمع إلى محفوظاتهم وإبداعاتهم في الأدب والموسيقى ومختلف الحرف والصنائع، كان شهراموش في غاية السرور مما يرى، شفيت نفسه من كل أنانية حتى أنانية الأبوة. فقد فرح بتقدم أطفاله كما لو كان أباً لهم جميعاً على قدم المساواة ذكوراً وإناثاً... وقد شفيت نفسه فبل ذلك من

أسقام وعلل أخرى كثيرة. وبعد العشاء مباشرة، صرف الأطفال لنومهم، وبعد استئذان بيروز في الانصراف، ظل روزباه الحكيم رأساً لرأس مع شهراموش، كان هذا اللقاء بعد أسبوع من أحد مجالس الدولة الهامة التي عرضت فيها تقارير أصحاب المناصب، حول الأخطار التي تهدد كغاشي... وقد توجه كل من مرقادو وزاهور على رأس وفود، إلى بلدان التراجان والرهبوت والفلنجة لتوطيد الروابط بأحسن السبل والوسائل كما مر...

قال... كانت فرصة للرجلين لكي يفضي كل منهما للآخر، بما لا يزال يقض مضجعه من هموم أو وساوس، تحدث شهراموش لحكيمه عن همومه المتعلقة بمطامع أصحاب المناصب ومكائدهم، ومعاكستهم الخفية التي يعرفها ويتغاضى عنها، والرامية إلى عرقلة مفعول كل القوانين العادلة في كغاشي، وتعجب من السر الذي يجعل راعياً بسيطاً كمرقادو، ومروضاً للوحوش مثل زاهور، يستجيبان بطواعية لسبيل الفضيلة والخير، وينأى عن ذلك أصحاب المناصب وغيرهم من أهل النظر والعلم، وكيف أن الزمان لا يزيدهم إلا تمادياً في التلبس بالشرور، والتخفي عليها، وإظهار ما يخالف نواياهم. أبان شهراموش عن هاجسه في أن يتم إصلاح الأحوال، وسيادة الفضائل في عهده، حتى يطمئن لجهوده، وأنه لا يود أن يسلك سبيل القتل في تثبيت الفضائل، لأن ذلك لن يزيد إلا في تأصيل النفاق والتستر على الشر، حتى تأتي فرصة انفجاره ليعم بلاؤه... وأنه لولا التجلد، ولولا تجربته الخاصة في هذا الطريق، وما يراه من نتائج في جيل المستقبل من أمراء المائة، وحيوانات مرقادو وزاهور. ليئس من الطبيعة البشرية، وما أسهل العودة إلى قديمه لو استسلم لليأس.

قال الراوي... كان روزباه يشاطر شهراموش كل آرائه، إلا أنه كان حصناً حصيناً ضد اليأس والشك. وقد وجد الفرصة ليفشي بسره الأكبر إلى صاحبه. قال روزباه الحكيم:

اعلم يا صديقي، أنني منذ سنوات، قد جندت بعض تلاميذي وأصدقائي، للبحث عن حل لإنتاج الملح بطريق اصطناعي بمزج بعض المركبات الرخيصة، وقد حصلنا على نتائج، لكنها غير مرضية لحد الآن، لأن العناصر المتفاعلة مكلفة أكثر بكثير من العمل في المناجم... فلو فرضنا أننا نجحنا في هذا السبيل، لحررنا كغاشي والعالم كله، بأن نجعل الملح مشاعاً بأرخص تكلفة، ويعود كل الناس إلى حقولهم، وتغيب إلى غير رجعة تلك التهديدات المستمرة بحروب الملح وما يرتبط بها من مصالح...

قال... سر شهراموش سروراً عظيماً بما سمع، ودهش لتأخر صديقه الحكيم في إخباره بهذه الجهود قبل الآن، وكان تأخر روزباه في إخبار شهراموش بمشروعه، وإخفائه لحد الآن تبرره دواع عديدة، منها أن المشروع لم يصل إلى نتيجة مرضية لحد ذلك الوقت، فكان روزباه يدخر بشارة خير يفاجئ بها صديقه، ومنها خوفه من ذيوع السر قبل الأوان بطريقة ما، فتعمل الدسائس على إفشاله.

قال الراوي... اتفق الرجلان على تقدير خطورة المشروع وضرورته. وأبدى روزباه رغبته في أن يتفرغ له بصفة نهائية. فيختفي عن الأنظار بعلة أنه عاد ليعتكف في جبله كما كان قديماً، بينما طلب من شهراموش أن يساعده بالأموال اللازمة لبناء وتجهيز مخزن[10] تحت الأرض، لإجراء أبحاث وتجارب مكثفة لإنجاز المشروع.

قال الراوي... منذ تلك الليلة لم تقع عين أحد على روزباه، فقد اختفى دون أن يعلم أحد على وجه الأرض غير شهراموش، سبب ذلك.

وكان جماعة العاملين معه في المخزن، قاطنين به متفرغين له: ولم يكن

(10) المقصود: مختبر أو ما يشبهه.

أحد يعلم بمكان المخزن غير شهراموش. فحتى بناته وأحفاده اختيروا من ذوي الثقة وممن بإمكانهم أن يستمروا في العمل بالمخزن وخدمة العاملين به، وكان على هؤلاء تدبير تموين المخزن من المواد الغذائية والعلمية وغيرها، كلما احتاج إلى ذلك بكل حيطة وحذر. وكان شهراموش يتوجه إلى المخزن بين الحين والآخر، لتفقد الأعمال، والاستئناس بصديقه الحكيم. قال... وكان شهراموش يعود بعد كل زيارة أكثر تفاؤلا وابتهاجا، من نتائج الأبحاث المبشرة بقرب الفرج.

❑ ❑ ❑

قال الراوي...

كانت زيارات شهراموش للمخزن عادية، لا تثير تساؤلا لدى العاملين به أو لدى الحكيم روزباه، بيد أنها الآن أثارت أكثر من تساؤل عند روزباه بالذات. فملامح شهراموش غير العادية، ولم يمر على زيارته الأخيرة أكثر من يومين أو ثلاثة. لم يرد روزباه مع ذلك أن يبادر صديقه بإظهار تعجبه من زيارته، بل رحب به كالعادة، وانتظر أن يفصح بذاته عما في نفسه.

قال... ولم يطل الأمر، فما كاد شهراموش يستقر في مجلس بغرفة روزباه التي ينفردان فيها بالمخزن، حتى بدأ حديثه:

قال الراوي... خرج الأمير بدر الزمان والأميرة ميكاري في جولة لهما في الأحراش كعادتهما... تناشدا الأشعار وغنيا... تفقدا حيواناتها وداعبا كلا منها حسب حالته، وتوقفا يستريحان في مكانهما المألوف، عند حافة البحيرة الكبيرة يتمتعان بمنظر أسماكها العجيبة ذات الأشكال والألوان العديدة... وبينما هما كذلك إذ تناهى إليهما صوت غريب يهن مرة ويشتد أخرى. حاولا أن يتبينا طبيعته. لم يكن عواء ولا زئيراً، لم يكن أنينا ولا غناء.. لم يكن

صوتاً مألوفاً في طبيعته ولا في معناه... قاما واتجها نحو أحراش الطرف الآخر للبحيرة، نحو مصدر الصوت.. كان الصوت يخفت ليشتد ويشتد ليخفت... تتبعا مصدره فترة وهما يسيران نحوه. تبينا أنه يتحرك متباعداً عنهما وربما يتوقف ليتحرك. أسرعا كثيراً، ولكن الوضع لم يتغير: نفس الصوت على نفس البعد تقريباً... لم ييأسا مع ذلك وضاعفا من سرعتهما بين الأحراش... وإذا بهما يهاجمان... دببة؟ أسود؟ قرود؟.. لم يتبينا شيئاً... فوجئا وذهلا عن نفسيهما في غمرة المفاجأة... عملت المخالب في جسميهما، وارتسمت في نظراتهما المذعورة أشباح ذوات فراء كثيفة بعدوانية ووحشية لا تصدق. أما ما تقدحه العيون من شرر وما تتقاطر به الأنياب من شهوة الافتراس، فقد غابا له عن الوجود... ولم يفيقا إلا وهما على سريرين متجاورين في القصر، تحيط بهما قلوب هلعة، الأميرة الكبيرة بيروز، وشهراموش وزملاؤهما... كانت الحمى والكوابيس تأخذ بخناقهما، يفيقان ليغيبا من جديد... وكانت تلك أول تجربة لهما مع الخوف وما شئت من حمى وأحلام مزعجة... ومع معاناة العدوان، فجسماهما في حالة يرثى لها من آثار المخالب الوحشية... قال... كان غياب الأميرين قد طال أكثر من المعتاد عندما توجه فريق من زملائهما في أثرهما بالقناديل، وعلى رأسهما زاهور المروض... وكان طريق نزهتهما المعتاد معروفاً، إلا أن مسالكهما اليوم كانت غير عادية، فلم يعثروا عليهما إلا بعد جهد جهيد، مرميين على الأرض يئنان من جراحهما... قال... عادوا بالأميرين محمولين بينما استمر زاهور في بحثه وراء الوحوش الغادرة...

وما كاد الخبر يسري في القصور، حتى هبت بيروز في هلع، وأقبل الأطباء... أما شهراموش فكان المشكل أكبر من أن يفهمه.. لم يحدث مثل هذا للأمير، ولا لغيره وهم الذين حبوا ودرجوا بين حيوانات زاهور، فيكف وهم فتيان؟ أيكون إهمالاً من زاهور ومرقادو أم إخفاقاً؟ وأي حيوان يفعل هذا؟

ولماذا لم يفترسهما؟ أسئلة لا حصر لها في جميع الأذهان وكان شهراموش يسأل بين الحين والآخر عن زاهور فلا يجده، لأنه لم يعد بعد... بينما مرقادو مبعوث في مهمة... وأخيراً عاد زاهور يلهث، وقبل أن يستقر في مكانه، ذكر ما وقع، فلقد تابع زاهور طريقه في البحث بمساعدة ما اجتمع حوله من حيوانات... وانتهى فجأة ليجد مشهداً غريباً: كنجان ضخم الأسود، يربض فوق شخص وقد صرعهما معا أكثر من سهم.... وكان الشخص المجهول يرتدي فوق ثيابه فرواً في أعلاه قناع رأس بملامح لا تنسب لأي حيوان معروف، وفي أطرافه مخالب قوية، وكان من السهل تفسير المشهد كما فهمه زاهور... فقد سمع كنجان استغاثة الأميرين، أو كان قريباً منهما، فأسرع وفاجأ المهاجمين الذين كانوا جماعة، متخفين بأشكال حيوانات غريبة، ففروا، وتبعهم كنجان ولعله حاصر أحدهم على الأقل ثم هجم عليه، دون أن يؤذيه. عندما رأى منه حركة مريبة، فأناخ عليه بجسمه الضخم ليشل حركته... وعندما رأى الآخرون ما حدث، سددوا سهامهم نحو كنجان فأصابوه في عدة مقاتل، وأصابوا صاحبهم أيضاً ربما عن عمد، بعد أن رأوه تحت هيكل كنجان الضخم، حتى لا يفشى السر.

قال... أنهى شهراموش حديثه واستغرق الصديقان في تفكير عميق. كان واضحاً أن الحادثة مؤامرة ليس من أهدافها النيل من بدر الزمان بالذات بالاعتداء عليه أو اختطافه... ولكن الهدف الحقيقي الواضح لها هو الأعمق... لقد أفسد الأسد كنجان الخطة كلها، عندما هاجم المعتدين، وساعد بالدليل الذي لا يدحض على فضح خطتهم، كان المهاجمون يهدفون إلى تصوير الاعتداء على الأميرين على أنه اعتداء من حيوانات الغابة، وبالتالي على أنه فشل لعمل زاهور ومرقادو... فشل لمشروع الحكيم برمته، وتأليب شهراموش عليه.. وارتداده عن العمل كله عندما يرى النتيجة في فلذة كبده بالذات...

ولو بقي أسير كنجان حياً، لعرف المعتدين الحقيقيون والمخططون، أما والأمر غير ذلك فلا ترى غير الشكوك...

قال شهراموش: إنهم يعملون بسرعة ولن يتوقفوا... لم يجب روزباه، ولكن ملامحه كانت مؤيدة لاستنتاج شهراموش. قام الصديقان، سار روزباه مرافق شهراموش نحو مدخل المخزن ليودعه. وعند الباب وضع شهراموش يده على كتف روزباه بابتسام:

اعلم يا صديقي أنني لم أحمل معي ذلك الخبر السيئ وحده، بل عندي لك بعض البشائر: وفودنا كلها عادت ناجحة في مساعيها. فلا حرب على المدى القريب على الأقل، وقد قبلت أغلب البلدان أن ترسل لنا عمالا لمناجمنا.

ظهر البشر على محيا روزباه. وقال، هذا جميل، ولعله مما أذكى النيران في جوف الأعداء فخرجوا بخطتهم تلك، وسيخرجون بغيرها.

أومأ شهراموش موافقاً، ومد يده لصاحبه مودعاً حين قال روزباه: وعندي لك بشرى أيضاً، فلم يبق إلا قليل على إتمام الكشف العظيم، قليل جدا...

❑ ❑ ❑

أخطو متثاقلاً، ثقل الرصاص يشدني إلى الأرض وملء ركبتي كتلة ماء. أتحرك متثاقلاً ضد رغبة جامحة في التراجع، صورة قطة مرقطة تدفعني، واللعنة على اليد والرجل والصغار والكبار.. الهواء في كثافة ماء بركة راكدة. أدافع وفي كل ركن إحساس بالمغامرة، انتفضت على صوت يسأل كم الساعة؟ نظر إلي الرجل مبهوتاً من انتفاضتي، تمالكت نفسي وأجبته، فاندفع في اتجاهه يردد سبحانك اللهم... على مبعدة أمتار معدودات من المقاطعة، توقفت ألتقط أفكاري.... على الباب الحديدي الكبير، بدا لي الحارس المسلح يقطع مسافة

العرض جيئة وذهاباً. حمالة رشاشة على كتفه، يتأبط الموت، ويده على المقبض قرب الزناد. الناس في دخول وخروج لا يعبأون بالموتِ الرابض في جوف الرشاش. استطعت أن أضحك في أعماقي من فكرة الموت هذه، أحسست بالفعل بأنني أتحسس وأستطيع أن أتقدم. قرب الباب، خففت خطوي ورنوت بنظرة جانبية إلى الفوهة المظلمة الصغيرة، والحارس لا يعبأ بما يحمل، قلت في نفسي... لو يخطئ وينسى نفسه فيضغط على الزناد.... فيمتد لسان الفوهة رفيعا سريعاً ملعلعاً. واستدركت، أنهم بلا شك اتخذوا احتياطات مناسبة، حتى لا يؤذي أي نسيان إلى خروج الرصاص دون قصد. تخطيت الباب والحارس يزرع المسافة يميناً وشمالاً. وجدتني في ساحة كبيرة عارية بعضها مبلط، وبعضها بتراب مدكوك، تتوسطها نجمة خماسية من العشب، وفي المركز منها ينتصف عمود يحمل العلم. شعرت بحساسيتي تنعدم، تستحيل إلى برودة لا مبالية، سألت عن المصلحة المختصة، وجهت إلى مكتب بابه إلى الساحة الكبيرة، يمتد أمامه صف من المنتظرين سالت:

ـ كل هذا؟

رد الرجل:

ـ الناس هنا من الفجر.

ولمح إلى مكتب آخر مواز حيث يمتد صف النساء. وقفت في آخر صف الرجال أنتظر دوري. طلب مني أحدهم وقيداً، اعتذرت. قال ما فائدة أمثالك؟ الرجل لا يخلو جيبه من وقيد وسكين! ثم استدرك أنه مجرد مازح، اعتذر وانصرف إلى غيري ضاحكاً. الصف لا يتحرك، لا ينقص، ولم تمض نصف ساعة، حتى امتد ورائي ذيل لا بأس به من المنتظرين. أحسست بتعب الوقوف في عضلات الساقين، وتعجبت لصبر من سبقوني منذ الفجر،

الزمان يمر ثقيلاً، وبرودة الأعصاب التي شعرت بها منذ ساعة تقريباً بدأت تزيلني، أدركت ذلك من كثرة تحريكي لموقف قدمي على الأرض، ولكثرة ما أتعبني وضع اليدين أحياناً في جيوب البنطلون، وأحياناً في المعطف.. شعرت بأن اليدين تضعان علي مشكلة: أين أضعهما؟ نَزَّ مِنَ كفيهما عرق بعث في نفسي اشمئزازاً. بحثت عن منديلي فلم أجده. مسحتهما بالثوب الداخلي لجيوب البنطلون. اللعنة على عائشة، كيف نسيت أن تضع في جيبي منديلاً، واللعنة على الكل، وكان بإمكاني أن أستمر في الفراش فكرت بأني يجب أن أرجع، ولا داعي لكل هذا، وقد أصبحت معذوراً، فها أندا قد جئت فعلاً، وتحملت المشقة، وهي هذا الانتظار الطويل، الذي ليس إلا مرحلة أولى بل أقل من مرحلة، وأبسط إجراء، بعد ذلك يتبعه الكثير في مراكز الشرطة، وغيرها. وتمنيت لو كان مهدي الصغير يراني حتى يتأكد من أنني بالفعل قد جئت وتخطيت باب الشقة وقطعت الشارع، والطريق، واجتزت الحارس المسلح، وأنني أستطيع أن أمر بالقرب منه مرة أخرى، وأتملى بهدوء فوهة الرشاش. غلبني التفكير بأن أحداً لن يصدق أنني فعلت ما فعلت. وقد تقرع سمعي حكاية كلب غير مرقط، أو ذئب بلا أنياب... ورف في مخيلتي طائر أبيض في أعالي الجو، يقطع عالم السحب الرحب في خط مستقيم. انتعشت قليلا بهذا الخاطر، وعدلت من وضع القدمين واليدين... لفظ يرتفع من مقدم الصف، قرب باب المكتب، مشاجرة أو شغب، مددت عنقي ورميت بصري، فلم أتبين شيئاً يذكر مع كثرة الرقاب الممتدة، والتي تتجاذبها رغبة في التحرك للاطلاع، ورغبة في حفظ مواقعها في الصف. غفلت عن ثقل الزمان لفترة وأنا أتابع اللغط بانتباه.. التعليمات تصلني متنقلة من أذن إلى أذن، ومن شفة إلى شفة: لماذا يتجاوزون الصف ويدخلون؟! «الرشوة، والتوجيهات أفسدت كل شيء..» ينقطع اللغط، ثم يرتفع، يبدو أن هناك من يحتج ويذكي نار المعركة.. ربما

بدأت الأيدي تتدخل... الحركة المتراجعة تسري في الصف حتى تدرك آخره. تقدمنا بعض الشيء، ويبدو أن النظام قد اختل في المقدمة أمام باب المكتب مباشرة، فأصبح عبارة عن مجمع متراكم يمتد منه الذنب الطويل، معلق يقول إن كل ذلك مفتعل من أجل أن تضيق بالأمر وتنصرف لسلوك طريق آخر، صوت يتساءل: وأي طريق؟ يرد عليه الأول: «يعني... كل واحد يفهم رأسه!» عبر أحدهم بأنه مستعد لكل شيء، فقط يريد أن يعرف لمن يدفع، لا ضير من الدفع إذا وجدت شهماً ينجدك ويقضي مرادك، من جديد يرتفع اللغط، وتدفعنا في الصف حركة متراجعة إلى الوراء.. وأخرى إلى الأمام. يبدو أن انفراط الصف في الرأس عند باب المكتب يخلق ضجة وحركة كلما جاء دور من يخرج أو يدخل... أخيراً ينتصب أمام الصف عون حارس بلباس رسمي مسلح بعصا قصيرة، أخذ ينظم بها الصف من جديد. دفعتنا بسبب ذلك حركة إلى الوراء، واستقام الرأس والذيل واحداً واحداً.. عدت أتململ في وقفتي أبحث للقدمين عن وضع الراحة، ولمشكلة اليدين عن حل في جيوب البنطلون أو المعطف. قال الحارس: «عشرين...» ودفع ذراعه بين صدري وظهر من هو أمامي، حاجزاً بين العشرين المحظوظة! الزيادة التي فوق العشرين عليها أن تنصرف وتعود غداً الصبح! بدأ اللغط يعلو من آخر الذيل. كنت الواحد والعشرين، بداية ما فوق العشرين بالضبط. ما معنى هذا؟ ذراع الحارس ما تزال قوية ممدودة تفصل صدري عن ظهر صاحبي الأمامي المحظوظ. شيء يتحرك في داخلي، وتصدر عني سعلة غريبة وحمحمة، كان ينظر إلى الخلف حيث اللغط وبعض السباب. لا أدري ماذا قلت أو فعلت، لكن شيئاً غريباً ينمو بداخلي لا أتبين إلا أنه غريب، التقت عينا الحارس بعيني، هممهمت بشيء لا أدري ما هو، أو لعلي لم أنبس، وأن ما بأعماقي من شيء غريب، كان يرتسم على ملامحي وفي عيني... المهم أنها كانت مجرد نظرة مني التقت بنظرة الحارس، وإذا هو يرفع ذراعه الحاجز

من أمامي، ويضعها على ظهرى حاجزاً بيني وبين من كان خلفي. أصبحت من العشرين أو على الأصح من الفئة المحظوظة التي لن تنصرف لتعود غداً الصبح، وجدتني أدرس المعاكسة والمراضاة التي سرت بيني وبين ظروفي.... وأنا أقلب فكرة أول نقطة وآخر نقطة في الخط، وكم نقطة تصنع الخط والنقطة السعيدة التي توجد داخل الخط ولو كانت آخر ما فيه، والتعيسة التي لا تدخل ضمنه ولو كانت مقدمة ما يخرج عنه.

انزاحت ذراع الحارس عني، حين أحسست بالضغط يخف عن ظهري والهواء يلمسني من خلف، لم التفت لكني كنت أشعر بالفضاء وراء ظهري، بعد أن أصبحتُ آخر نقطة في الذيل.. آخر محظوظ.. بدأنا نتقدم شبراً شبراً. ارتاح الحارس للوضع، النظام مستتب. ليس أمامي إلا عشرة.. ثمانية.. خمسة... ثلاثة.. واحد. فتحتُ الباب، توجهت إلى مكتب الموظف، كان منحنياً على أوراقه. انتظرت لحظة بدأت تطول، تنحنحت: قال:

ـ نعم؟

ـ مددت إليه الأوراق، لم يتحرك.

قال:

ـ انتهينا.

لم أفهم، ردد:

ـ انتهينا اليوم. غداً الصبح...

ـ مستحيل!

ـ شغلك.

كررت المستحيل، كرر أنني حر وذلك شأني. أما هو فقد أنجز القدر اللازم من شغله اليومي، بل تعداه بكثير، وأكثر من عشرين ملفاً عليه أن ينجزها

الآن ليوقعها الرؤساء. تعال غداً الصبح... مستحيل.. كم تحملت من أجل الخروج والمجيء والوصول... وهل أعود غداً لأبدأ من آخر الصف.... ذكر أنني يجب أن أتحمل الانتظار والصبر مثل الآخرين... اعتبرني جئت من توّي وقصدت المكتب... أخبرته بأنني قضيت ساعات في الانتظار، وأن الحارس يشهد على ذلك، وهو الذي سمح لي بالدخول، لم يصدقني وتمسك بأنه أنهى أكثر من نصاب يومه، فكرت بأن أخرج وأدعو الحارس ليشهد على صدقي، قال إن ذلك لا يعنيه، ولا يعنيه أمر الحارس، مستحيل... رجوته، وتردد في سمعي لغط الرشوة والوجهيات... أفسدت كل شيء، وتخيلت سلوكه لو أني حشرت في يده ورقة مالية. طبعاً لن أنفذ الفكرة، لكن امتناعه عن الرجاء أثارني، فكرتُ بأنني إذا رجعت خاوياً فلن أعود طيف طائر أبيض... وحكاية قطة مرقطة... وكلب... صدرت عني السعلة الغريبة من جديد. رأيت في وجهه لحية الحاج مهدي وعرفت أن السعلة الغريبة ليست غريبة. وضعت أمامه الأوراق وحاولت أن أنبسَ بشيء لا أدري ما هو؟ رماها على وجهي غاضباً. تناثرت الأوراق على الأرض وانتفض غاضباً يلعن، وأظنه شتم. على كل، فقد كانت حاله كلها شتائم بالملامح والحركات. قلت له إنني لن أخرج.. ربما رددت بشتيمة أو.. على كل حال فقد كانت ملامحي فيما يبدو رداً كافياً، حينئذ اعتبرني هددته... أو أهنته.. قام يفتح الباب... ينادي الحراس ويدفعني من كتفي... اشتبكنا وتلاطمنا بعشوائية، فك حراس العصي اشتباكنا.... رأيته يصلح من هيئته ويتوعد... ويأمر الحراس بالإبقاء عليّ ريثما تحضر (القوة). وقتذاك فقط، والحراس يمسكون بيدي أحسست برغبة قوية في أن أرتمي عليه وأخنقه. تصورت مؤامرة محبوكة الخيوط.... حتى الحارس الذي ساعدني بأن أكون آخر نقطة في الذيل، أنكر أن يكون له دخل في الموضوع... حضر القائد ولم يزد على أن رمى إلي نظرة جانبية وهو يقول كالمتسائل: هو ذا؟ كأنه

يعرفني. أمام باب المكتب، تجمهر الناس في الساحة يرقبون... حارس متطوع يدفعهم إلى الابتعاد عن باب المكتب، وترك فرصة لمرور المسؤولين، وجوه عدة تبدو عليها مصالح السلطة، خرجت من المكاتب المجاورة والعليا، تدخل تتساءل، وتظل ترقبني وهي تتحرك جيئة وذهاباً في سلوك تضامن ضمني مع صاحبهم... أخيراً أمر القائد الحراس بأن يخرجوا بي، جمع أحدهم أوراقي المتناثرة ودسها في جيب معطفي، ودفعوني بينهم. بدأت أخترق الساحة بموكبي المحروس، جماعة المتجمهرين في الساحة وجوههم مضببة حولي... همهمات تملأ سمعي تصورتها متضامنة معي، لست أدري لماذا ألح عليّ مشهد الطائر الأبيض يخترق السحب في أعالي الجو... شعوري بالمؤامرة يتعاظم. أقدام الحراس الثقيلة تدق الأرض الصلدة حولي، ونحن نقترب من الباب، وقد بدت الفاركونيت قبالته مباشرة، فاغرة فاها المزدوج المصراعين، وعلى جانبيه شرطيان مسلحان... يبدو جوفها غوراً مظلماً، ترتسم في نهايته النائية قفا الشرطي الجالس إلى عجلة القيادة، اختلطت الأصوات والصور في إحساسي... زد لأمك... هذي آخرتك. شبح الضابط يتقدم نحوي، زرقة في صفرة وحذاء أسود لماع... صدى صفعة وخيط بول ينز مني ورائحة عفونة.

وملأت نظري الجانبية فوهة الرشاش الصغيرة، يتأبطها حارس الباب، أحسست بمقاومة تثقل قدمي، وبيد تدفعني تشجعني بعنف، زد لأمك. هذي آخرتك. من يقول أطلقوه.... يصفعني ويقول سر في حالك: من!؟ وجه الحاج مهذي يواجهني موبخاً هذه هي أفعالك؟! تصدر عني سعلة غريبة. أخطو... مدفوعاً إلى الأمام نحو الأغوار. أجانب حارس باب الخروج... قدرة مجهولة أطارتني، طارت بي، قفزت بي واحتضنت الرشاش..! غاب النمل في لمح البصر... تشتت مذعوراً.. انبطحتْ حولي وأمامي على الأرض ذكور الجعلان برؤوس نعامات، لا تجد لها مدافن في الإسفلت، ظهورها السوداء إلى

السماء... أقف وحيداً، حتى حارس الباب الكبير لم يسعفه الخطو، وأسعفته بديهة المحارب، فانبطح على مقربة مني، تقهقرت إلى الداخل، وخطوت في الساحة. ابتلعت المكاتبُ ومنعطفات البناية كل الجموع...ألمح رؤوساً تطل من هنا وهناك.. وتتراجع... العيون تغادر محاجرها.. تستطيل وتتلوى تتابع خطوي.. فعلاً أخطو ملتفتاً هنا وهناك.. كل شيء يختفي في لمح البصر بمجرد التفاتي إليه.. فعلاً أخطو وحيداً في الساحة ملتفتاً.. تتناهى إليّ أصوات.. خذ بالك. تشجعني. اعرفْ من تضرب.. متضامنة معي..الله يرضي عليك.. تحمل معي الرشاش.. الرجل لا يخلو جيبه من وقيدة أو سكين أو رشاش... تحمل معي الرشاش وتساعد أصبعي المتردد في العثور على الزناد. أعطهم ما يستحقون.. ألتفت يميناً وشمالاً، تختفي الرؤوس ولكن الأصوات والأيدي والأنفاس تختلط بأنفاسي. احْم نفسك. لا تبق عارياً في الساحة، واعرفْ من ومتى وكيف.. تضرب؟... أعَي جيداً أنني أحتضن الرشاش، ملمسه المعدني بارد تحت أصابعي، أضغط وأضغطْ وأضغط.. ملء رؤيتي حقل فسيح، فضاء لا نهائي يجوبه طائر أبيض مطلق الجناحين، تترامى حوله سحب متكاتفة.

❑ ❑ ❑

ـ الاسم.

ـ أحمد بن الحاج مهدي.

ـ تاريخ الميلاد؟

ـ 45/5/5.

ـ المهنة؟

ـ موظف.

ـ الحالة المدنية؟

ـ متزوج وأب لثلاثة.

ـ السوابق؟

ـ لا شيء.

يتدافع تقرير الوقائع من تحت نظارتي الضابط الوسيم لتلمع نجومه الصفراء في سماء زرقاء لا تدفع في مسالكي بولاً ولا رعدة، رتبها عقل منطقي منظم من أول خطوة في يوم 45/5/5.. إلى أن فتحتُ عيني وعاد إليّ الوعي في جلسة التحقيق. ما كنت أتصور أنني أحمل مثل هذا التصميم والتخطيط وتبييت النية، وأنني كنت أعتمد على رفاق لي (ربما) مسجلين أيضاً، خانوا العهد لسبب من الأسباب، ولم يتدخلوا في لحظة الصفر، أو أن فشل خطتي دفعتهم إلى التراجع... إما أنني لا أعرف نفسي، وإما أنهم يتحدثون عن شخص آخر في بلد آخر وظروف أخرى، وعليّ أن أتفرج على الشريط. كنت بالفعل هادئاً كأي متفرج لا تمسه الأحداث بقد ما تمتعه... انتهى الضابط تلمع نجومه في سماء عالية زرقاء، لا ينز مني بول أو تعتريني رعدة، ومد إليّ المحضر والقلم لأوقع.

❑ ❑ ❑

ـ الاسم؟

ـ أحمد بن الحاج مهدي.

ـ تاريخ الميلاد؟

ـ 5ـ5ـ45.

ـ المهنة؟

ـ موظف.

ـ الحالة المدنية؟

ـ متزوج وأب لثلاثة.

ـ السوابق؟

ـ لا شيء.

من تسلسل الوقائع، يتبين أن قد كانت لي خطة لها أهداف، وتضم عناصر أخرى مشاكلة.

ـ أذكر أهدافك؟

ـ من ماذا؟

ـ وقائع التقرير.

ـ لا شيء.

ـ لماذا هجمت على موظف الجوازات؟

ـ أهانني.

ـ أهانك أم اعتقدت ذلك؟

ـ أهانني... وربما اعتقدت ذلك.

ـ وحارس الباب؟

ـ لا أدري.

ـ أهانك أيضاً؟

ـ لا أدري.

ـ كلمك؟

ـ لا.

ـ تعرفه؟

ـ لا.

ـ لماذا هجمت عليه؟

ـ لا أدري

ـ يجب أن تدري وتقول ما عندك.

ـ شعرت بالتهديد... ربما.

ـ هل هددك فعلاً مباشرة بحركة.. أو إشارة..؟

ـ لا أدري.. لكنني شعرت بالتهديد.. خفت..

ـ منه بالذات؟

ـ منه.. وربما من غيره.

ـ مثلاً؟

ـ ....

ـ تكلم. يجب أن تتكلم.

ـ ... الفاركونيت.. بابها المشرع على كهف مظلم.. أزرار صفراء في زرقتها.. حشد الشرطة..

❑ ❑ ❑

ـ منذ متى وأنت تهيئ الخطة؟

ـ أية خطة؟

ـ الوقائع ناطقة.

ـ لا أدري.. ربما ليست هناك خطة.

ـ لنقل إنها فكرة.. منذ متى خطرت ببالك.

ـ تلك اللحظة بلا شك..

ـ طبعا.. طبعاً.. لكن قبل ذلك؟

ـ لا أدري.

❑ ❑ ❑

ـ ماذا خطر ببالك قبل اختطاف السلاح؟

ـ ....

ـ تذكر وتكلم.

ـ ربما.. لاشيء.

ـ يجب أن تتذكر جيداً..وقل كل شيء.

ـ ربما.. طائر أبيض يخترق السحاب.

ـ فقط؟

ـ ربما حشود من ذكور الجعل ظهورها المحدبة..

ـ فقط؟

ـ... ربما أيضاً.. بطون ملساء لضفادع تعلو وتنخفض بفعل التنفس وعيونها...

ـ وماذا أيضاً؟

ـ ربما.. صورة قطة مرقطة.. و....

ـ و..؟

ـ لا شيء.

❑ ❑ ❑

ـ الاسم؟

ـ أحمد بن الحاج مهدي.

ـ تاريخ الميلاد؟

ـ 45/5/5.

ـ المهنة؟

ـ موظف.

ـ الحالة المدنية؟

ـ متزوج وأب لثلاثة.

ـ من هم شركاؤك؟

ـ لا أحد. لا أعرف.

ـ لن ينفع الإنكار.

ـ لا أحد.

ـ انظرْ هل تعرف أحداً من هذه الوجوه؟.

ـ لا.

ـ لم تفحصها بعد.

ـ ....

ـ قل.

ـ لا أعرف منهم أحداً.

ـ ما معنى وجودهم معك، في نفس الزمان والمكان ولطلب الجواز أيضاً؟

ـ لا أدري.

ـ بعضهم يعرفك.

ـ . . . .

ـ ألا يجوز أن يعرفك بعضهم؟

ـ يجوز

ـ من منهم؟

ـ لا أدري.

❑ ❑ ❑

ـ الاسم؟

ـ أحمد بن الحاج مهدي.

ـ تاريخ الميلاد؟

ـ 45/5/5.

ـ المهنة؟

ـ موظفْ.

ـ الحالة المدنية؟

ـ متزوج وأب لثلاثة.

ـ ماذا خطر ببالك وأنت تتشاجر مع موظف الجوازات؟

ـ لا أدري.

ـ تذكر.

ـ لا شيء.

ـ تذكر.

ـ ربما... صورة ملتح يسعل... رائحة عفونة... طائر أبيض....

ـ لم لم تنصرف عندما طلب منك ذلك؟

ـ لأنني... لا أدري، لأنني ربما... لا أستطيع الرجوع في الغد.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري.

ـ هل ثم سبب آخر؟

ـ كنت في عطلة.

ـ عطلة مرضية... كنت مريضاً بالفعل.

ـ ما المانع إذن من إمكان رجوعك في الغد؟

ـ لا أدري.. ربما لأنني مريض.

ـ وربما كنت تخشى فوات الفرصة.

ـ ربما.

ـ فرصة ماذا؟

ـ الجواز طبعاً.

ـ لماذا كنت مستعجلاً على الجواز؟

ـ قصد السفر لتغيير الجو..

ـ كنت إذن غير مرتاح في هذا الجو؟

ـ ربما.

ـ حدد.

ـ لا أدري.. كنت أشعر أنني مريض.

ـ تشعر بالمرض أم مريض بالفعل؟

ـ ...

ـ تكلم..

ـ أشعر بالمرض وربما مريض.. لا أدري.

ـ ماذا كنت تنتظر أن تجد فيما وراء البحر؟

ـ لا أدري.

ـ ألم تكن تنوي تغيير الجو؟

ـ ...

ـ إذن؟

ـ كنت أريد أن أتنفس.. أتنفس عن ذاتي مثلاً..

❑ ❑ ❑

ـ الاسم؟

ـ أحمد بن الحاج مهدي.

ـ تاريخ الميلاد؟

ـ 45/5/5.

ـ المهنة؟

ـ موظف.

ـ الحالة المدنية؟

ـ متزوج...

ـ السوابق؟

ـ لا شيء.

ـ ألم تفكر بأن الموظف يرتشي؟

ـ بلى.

ـ هل تتهمه بالرشوة؟

ـ لا.

ـ أليست هذه الفكرة سبب هجومك عليه؟

ـ ربما.

ـ هل سمعت أحداً يتحدث عن الرشوة؟

ـ نعم.

ـ أين؟

ـ في الصف.

ـ من؟

ـ لا أعرف؟

ـ هل كان الصوت صادراً من أمامك أم خلفك؟

ـ من كل جهة.

ـ انظر. هذه الوجوه وتذكر صاحب الصوت.

ـ لا أعرف.

ـ ألم تقل إذ ذاك شيئاً؟

ـ جهراً؟ لا.

ـ سراً؟

ـ في نفسي لعنت الرشوة والوجهيات والقطط والضفادع والأولاد..

ـ فقط؟

ـ . . .

ـ ألم تلعن الصف والانتظار؟

ـ ربما. . .

ـ إذن ربما لعنت القانون والنظام والشرطة؟

ـ لا أدري. . .

❑ ❑ ❑

قال الراوي.. الخبل ومنتهى التروي والتعقل، الجذب إلى درجة الجنون والرصانة ومنتهى ثبات الرأي، طيش الصبا ووهن الشيخوخة المكدودة.. كل شيء متناقض، وغير مفهوم ولا معقول، يصح أن ننعت به حالة الشيخ الحكيم روزباه في يومه هذا. طفل صغير غرير يقفز يضطرب مرحاً، بعد ظفره بمطلوب صبياني عزيز، منذ متى لم يمارس هذا الشيخ الوقور لعبة القفز والعناق والصراخ وحتى التكسير المقصود، ونتف شعر الرأس واللحية، ودك الأرض ورمي الأطراف في كل اتجاه..؟ يقهقه، يقفز على صدر هذا وذاك من أصدقائه في المخزن، يقبل هذه القارورة، ويرمي بتلك إلى الحائط، يرقص، يرقص ويدور... الكل يبتسم له في مجاراة وإشفاق حقيقي. هل جن أم هو على عتبة الجنون؟ ونادى أصحابه أخيراً... أن اتبعوني إلى العزيز الصديق شهراموش. وخرج يتبعه بعضهم خرج في غير حيطة معتادة ولا حذر... يهتف لقد وجدها.. وجدها أيها الناس، يا أهالي كغاشي... وجدتها، ووجدتها لكم، لنا، لكل الناس... جففوا.. نشفوا البحر! اجرفوا ملح البحر..! البحر..! وجففوا واجرفوا ما

شئتم... يا عالم، يا أرضٍ ويا سماء، البحر والملح والبحر..! أينَ هو؟ لا شك أنه قطع أزقة وشوارع.. أين هو؟ لا شك أنه تجاوز بوابات وحراساً.. أين هو؟ لا شك أنه أولغ في ردهات قصور عزيزه شهراموش، دون أن يوقفه الحراس. إنهم يعرفونه جيداً، ويعرفون قيمته ومكانته.. وكان يسمع خطوات صحبه تتبعه، وراءه، ولكنه يتنبه الآن إلى أنه لم يعد يسمع شيئاً منذ مدة.. ربما منذ بلغ بوابات القصور.. لعل الحراس منعوهم من الدخول أو أنهم تهيبوا... ولكن أين هو؟ هذه قاعة مجلس شهراموش مجلس الدولة العتيد.. أين هو؟ السرير الذهبي التقليدي الذي اختفى منذ سنوات، منذ انقلاب حال شهراموش إلى الفضيلة والتواضع... ها هو ذا السرير، يتصدر القاعة والأسدان الضاريان على جانبي مجلس العظيم شهراموش... السرير الذي هجره العظيم منذ التحول المشهود.. هناك حضور في المجلس على مسافة منه، تحت مستواه، تظهر عليهم سيماء الخنوع والتملق والخضوع، جو غريب تسوده السلطة بسيفها البتار، وعصاها الغليظة المعقودة الرأس على الأكتاف والأعماق... مسؤولين ورعية ولكن أين هو؟ لم يدرك بماذا كان يهتف، ولا متى صمت عن الهتاف. وآفاق من خبله وتعقله، ليعود إليه الوعي بعالم معكوس مقلوب.. هل جن حقاً أم العالم يضحك منه؟ إلى هذا الحد يفعل النصر والظفر فعلهما في الإنسان الضعيف، حتى ولو كان في جبروت عقل روزباه؟ أهي البساطة التي حل بها الكشف العظيم بعد الجهود المضنية والقلق والسنين الطوال؟ لا. لا يجوز لحكيم عاقل أن يفقد عقله في لحظة انفعال، في لحظة انتصار... ولا يجوز لعالم أن ينقلب على حكيم عاقل في لحظة عابرة، ليحل التعقل والهدوء... وأين هو؟ أين هو؟ أمام.. همشير على السرير المذهب.. عظيم العظماء همشير الأكبر!

قال الراوي... تقدم صاحب السيف، ملامح قديمة بوجه حديدي جديد، أدى التحية وقال يا عظيم العظماء الأكبر، لقد نجح رجالي أخيراً في

اكتشاف مكمن هذا العجوز في مخزن تحت الأرض، مع رهط من أصحابه وطغمة شهراموش الفاسدة، لقد دمرنا المخزن وأحرقناه عن آخره.. وأمسكنا بقية الجماعة في انتظار قرار عظمتكم السديد.. استوى همشير قليلاً في متكئه، وقال تكلم يا عجوز السوء لماذا كنت مختبئاً؟ لم تصدر عن روزباه نأمة. كان يتساءل متمتعاً: أين هو؟ أين العالم؟ أين عقله؟ أشار همشير، فتقدم صاحب السيف وأمسك بخناق روزباه: ألا تسمع؟ تكلم! كان روزباه غائباً في تساؤلاته، يتمتم لنفسه... تساءل همشير: ماذا يقول: أجاب صاحب السيف بأنه لا يتبين... لعله لا زال يردد ما كان يهتف في الطريق كالمخبول أن جففوا البحر.. اجرفوا الملح أو اشربوا البحر.. اجرفوا التراب.. أو شيء من هذا القبيل... قهقه همشير بعمق واقتضاب وقال: لقد كان مخبولاً من أصله، فلا عجب أن يطير صوابه لما يرى. خذوه في نزهة قصيرة فقد يعود إليه صوابه!

قال الراوي.. اقتادوا روزباه مكبلاً مثقلاً بالأغلال التي تجمع أطرافه الأربع.. إلى عنقه، لم ينتبه، إلى شيء حوله، إلى رفاقه في المخزن وهم مكبلون مثله في صف عند مدخل المجلس. لم ينتبه لشيء لأنه لم يعرف أين هو؟ ولكنه اضطر إلى أن ينتبه، وأن يعي في نزهته العجيبة تلك، مكبلاً بين الحراس مشفوعاً بالإهانة والمذلة. انتبه إلى ما حوله في الشوارع فرأى رؤوساً منكسة وعيوناً خابية، ومعالم رعب عميق طفا وانعكس على الملامح والوجوه، وبؤساً وكآبة. ما كانت طلائع موكبه تظهر على حي أو زقاق، حتى يسرع من يجد الفرصة من أصحاب الدكاكين إلى الإغلاق والفرار، يتسمر المارة على الجدران، يرمقون المشهد ببلاهة محتاطين متحفزين للاحتماء الأعزل بأيديهم من ضربة سوط أو إصابة عصا، أو لكزة رمح. أين عزة الآدمية، والتطلع وفضول الوعي؟ أين زينة النساء، بل أين وجههن وبسمة الأطفال؟ أين الألوان الزاهية وملابس الأعياد والتفاؤل ومشاريع الحياة المتجددة؟ عشر سنوات وأكثر من حياة كغاشي

وبنائها تذوب، تنسخ في طرفة عين، في أيام معدودات؛ عقد من سنوات الكد والإجهاد، والتخطيط والتنفيذ، من التحول الصالح الفاضل؛ عقود من التفكير والتأمل والنظر، تذهب مقابل يومين أو ثلاثة؟ أية معادلة هذه؟ بأي قانون؟ في مركز المدينة تجمع بعض الناس حول الساحة بالبلاهة التي أصبحت طابعاً جديداً... الساحة نفسها بلهاء بلا مشاعر، لا مجالس ولا طرب ولا غناء، لا شغب السكارى ولا طيش اليافعين، ولا إشارات العشاق على الشرفات.... البلاهة الجامدة تحملق في كل شيء بلا فهم ولا معنى، تتركز فيها صفوف الجنود المدججين بالسلاح متحفزين للقتل. وفي مركز الساحة مائدة فسيحة طويلة عريضة حافلة جداً، حافلة تتدلى عليها أعناق شهراموش ومرقادو وعشرات من أمراء الصغار ونساء... في كم قرن حدث هذا؟ وكيف يقدر الزمان؟ اضطر حراس روزباه أن يلكزوه مراراً برؤوس رماحهم ليتحرك، كان يتوقف ببلاهة يتفحص الوجوه الباهتة المعلقة، والأعناق المكسورة يتملاها، يقرأ ما عليها من تعابير مشدوهاً، لكزوه أكثر من مرة، تعثر وسقط أكثر من مرة.»سال دمه واستأنف سيره بلا إحساس يجر أغلاله. ماذا يرى؟ أغمض عينيه. وفي ظلمات إغماضه تفتحت الجدران والكهوف واتسعت البوابات. أصبح كل شيء شفافاً وانمحت فواصل الزمان والمكان ورأى... رأى قوافل الملح الطويلة محملة بأثقالها، تتحرك ببغالها بين جبال المناجم صفوفاً متوازية ذاهبة آيبة... رأي أعدال الملح على الدروب تنغل دوداً...ورأى أطرافا وقطع لحوم بشرية، تتخلل أكوام الملح في المشامس... رأى سنابك الخيل تدك الزهور، والحقول، تهدم المساكن الآمنة، تحرق المحاصيل، قبل أن تأخذ طريقها تقاد بين صفوفها المتوازية صفوف الأبرياء إلى مناجم الملح.... رأي المآتم في كل مدشر وقرية، ورأى الأطفال يكبرون بسرعة، لا يكادون يتوقفون عن بكاء آبائهم، حتى يقادون بدورهم مجرمين أبرياء، لرفع إنتاج الملح. رأي الآباء مسلحين بالمساوط

ـ لا. لكني كنت أخافه، وأحتاط لذلك.

❑ ❑ ❑

يحتاط! الاحتياط يفسر كثيراً من الأشياء. احتياط الصائد يجعله ينصب الفخ ويكمن برصاص وكلب ضار، ما أفلته الفخ، أردته الطلقة، وما أخطاته الطلقة، أجهزت عليه ضراوة الكلب، الفريسة نفسها تحتاط، تطل الفأرة مرات، قبل أن تبرز جزءاً وتظل في منتصف الجحر مدة كافية، وهي تتشمم الخطر حولها في الأرض والفضاء، قبل أن تبرز وتتجول محتفظة بخط الرجعة وراءها، احتياط يعارضه احتياط، ولا بد أن يخطئ الصائد ولو مرة... ولا بد أن يقع الأرنب، والفأرة ولو مرة... ينجح احتياط ويخفق احتياط... يخفق احتياط الحاج مهدي... والحاج مهدي ليس إلا رمزاً لجيل ومواطنة.... وينجح احتياط أحمد الصغير، وهو بدوره ليس إلا رمزاً لجيل ومواطنة. وأسرة الحاج مهدي كأسرة أحد أبنائه، كباقي الأسر ليست إلا رمزاً لمجتمع ما. كيف نفصل موقف الحاج مهدي في سياسة أهله، عن آرائه في التجارة عن نظريته في المواطنة، واعتناق الحقوق والواجبات؟

❑ ❑ ❑

خطر دائم على منظمات البشر، يكمن في نظرية تستحيل إلى ممارسة وتكرار، سرعان ما يغيب بهما الوعي... ولا يدرك الحاج مهدي أنه لولب في الميكانيكا الهائلة العامة... يغيب عنده الوعي بالمرجع ويسلك كأنه مستقل، حينئذ يحل الخلل المرئي المحسوس المجهول الأسباب! ارتباط وانفصال، شد جواداً إلى كل جهة من جهات العربة الأربع، وانتظر أن تتحرك، لا تجدي العزيمة وحسن النية.

ـ حكمك النهائي على الحاج مهدي؟

ـ رجل من جيله مات وانتهى.

ـ ما رأيك في مواطنته؟

ـ تتبع جيله.

ـ وأبوته؟

ـ كل شيء يتغير... القيم... المقاييس.

يفقد الحاج مهدي علاقته بالمرجع، عندما يصبح دون كيشوت، قدوة، يقول لك الحاج مهدي حينئذ، أنا أدري برسالتي، وأعلم بقدسيتها ومن ثم له أن يتصرف اعتماداً على قدرته ونباهته وحده، مستقلاً عن مرجعه. أأنت نبي أو مواطن سماوات؟ أعليك إصلاح الكون؟ وهكذا يضيع أكبر جهد مع حسن النية والغفلة فيأتي أقل مردود، أو يأتي معكوساً. ولو قلت لنفسك يا حاج مهدي: «أنا هنا. ابن هنا، أعمل من هنا لهناك» وبحثت من هنا لهناك فقط، لوجدت المرجع، وهكذا تبذل جهداً أقل رفقة من هم هنا، مهما تعددت الأطراف وتحركت، فلا يجوز أن تنفصل عن حركتها المركزية. تصور كائناً بشرياً عجيباً تتجه به إحدى أذنيه إلى ماضي والأخرى إلى المستقبل، عين إلى ما تحت الذقن، وأخرى في قنة الرأس... رجل إلى الأمام وأخرى إلى الوراء.... ماذا تنتظر منه؟ رغم أن التفسير الوضعي ليس في خدمة الأبوة والمواطنة، فنقيضه ليس في صالحها بالضرورة.

ـ لو جاءك مهديك الصغير بمسدس وحكاية؟

ـ ....

ـ ماذا تفعل؟

ـ ...

ـ هل تتخذ منه موقف الحاج مهدي منك؟

ـ لا أدري.

ـ وأنت، أب؟

ـ ربما تركت له أن يتصرف...

ـ كيف؟

ـ هو المسؤول، قد أشرح له ما يخفى عنه، لكنه المسؤول.

ـ وتصدق حكايته؟

ـ ربما. على كل لن أكذبه.

من يتحدث عن أبوة، يتحدث عن مواطنة، ومن يتحدث عن انحراف أو شذوذ يتحدث عن خيانة، الأمور مشدودة بعضها إلى رقاب بعض، ويجب أن تكون كذلك إلى الأبد، لتبقى البشرية بشرية. ولنفرض أننا بالفعل أمام حركة شاذة مرضية معزولة لا معنى لها، ولا علاقة لصاحبها، برفاقه في الشغل أو في الشارع أو المدرسة أو الأسرة.... حركة منقطعة الجذور، من شخص منقطع الجذور... مثل هذا الافتراض يضع أسئلة وافتراضات أخطر: لماذا الجواز في هذا الظرف بالذات؟ لماذا هذه الرغبة الملحاح لمغادرة الوطن؟... عناصر كثيرة في معادلة من درجة مجهولة خطيرة، ولنعد للاحتياط، احتياط الصائد والصيد معاً. احتياط يقضي بافتراض سوء النية، وممارسة التخطيط المنحرف والشروع في التنفيذ، أن تخسر فرداً أو مجموعة أفراد، وينتصر احتياطك، خير من أن تترك احتياط الطرف الآخر ينتصر.

❑ ❑ ❑

«دخل عليَّ الرجل المسمى أحمد بن الحاج مهدي بشكل هجومي، أفهمته بلطف أن نصاب اليوم قد اكتمل ورجوته أن يعود في الغد، لم يكلمني وإنما رمى إلي أوراقه وهددني، وكانت إحدى يديه طول الوقت في جيبه، بشكل

يوحي بأنها تمسك بأنها تمسك بشيء، قدرت في الحين أنه سلاح أبيض أو ما شابه، كان بادياً أنه يستفزني لأقوم بأية حركة تبرر رد فعله. حاولت أن أقوم لأستنجد، فرمى الأوراق على وجهي، وشتتها في كل اتجاه وتمسك بي...!».

«موظف الجوازات»

«كنت متنبهاً له عند الدخول والخروج، أثار اهتمامي، كان يتفحصني ويتفحص سلاحي بعين مستطلعة لا تخفي الريبة، وفكرت في القبض عليه، لكنني خفت أن أكون متسرعاً خاصة وأن ذلك ليس من مهمتي..».

«عندما كانوا خارجين به، كنت أرقب ثلة الشرطة في الفاركونيت، مطمئناً إلى أن من يحيطون به، مسيطرون عليه، رغم أنهم عزّل، فقد كان بدوره مجرد أعزل ضعيف البنية. أخذني على حين غفلة مني... لكني تداركت الموقف بمجرد ما عاد نحو الساحة.... أدركت من حركاته أنه غير خبير بهذا النوع من السلاح، لكنه كان في أية لحظة قادراً بالصدفة على تحريك زر الأمان وينطلق الرصاص.. كانت مغامرة مني لكنني نجحت..».

«حارس الباب»

❑ ❑ ❑

ولا يملك المرء إلا أن يشهد بعظمة هذا الفكر المهتدي إلى هذه النظرية من قديم الزمان، ربما منذ وجدت جماعة بشرية ألا وهي التضحية في سبيل الجماعة، وبجماعة صغرى في سبيل جماعة كبرى، وإذ يكون فرد أحياناً أو جماعة صغرى، أقوى أو أدهى أو أغبى فالتضحية لصالح من هو أصلح، سواء كان داهية أو غبياً أو قوياً.... هذا الكشف النظري العظيم، لم تكن فائدته في أنه حاول أن يعطي للتاريخ معنى، ولا في أنه أبان عن محرك التاريخ، بل في كونه

نبّه إلى وجوب المغامرة للكشف عن ذلك المحرك.

❑ ❑ ❑

يقول سي المختار أستاذ الاجتماعيات إن المشاغبين في الفصل كانوا طغمة حرمت من حرية الحركة والشغب في أسرها. يكرر ذلك بأصوات متفاوتة في الشدة والغضب، يريد بذلك أن يستنفر المستفزين، ليعلنوا عن أنفسهم بدون جدوى، وبمجرد ما يعود ليلتفت إلى سبورته السوداء أو يخفض نظرة إلى أوراقه، يعود الشغب وتعود لهجة الأستاذ المستفزة دون جدوى، يراقب التغّيب وينادي الأسماء، يسجل الحضور دائماً، الكل حاضر دائماً عندما تكون كلمة «حاضر» كافية، لكنه بمجرد ما يقارن بين عدد الأجوبة «حاضر» وبين عدد الرؤوس الموجودة فعلاً في الفصل يجد فرقاً. من المسؤول؟ مرة وجد سي المختار فارقاً بالزيادة في الرؤوس الحاضرة فعلاً! اضطر إلى أن يعيد النداء وأن يتقدم إلى اللوحة كل من سمع اسمه، كان الفائض اثنين:

ـ اسمكما؟

ـ .....

ـ من أنتما؟

ـ ....

ـ أين تدرسان؟

ـ ....

ـ من أتى بكما؟

ـ ....

ـ من هل متى..؟

ـ ...!

أخيراً دفعهما سي المختار أمامه متجهاً نحو الإدارة. لا بد أن تتدخل الشرطة لإطلاقهما. الموضوع أصبح جداً، وقبل أن يصل الموكب لآخر منعطف نحو الإدارة، طارا وتركا سي المختار يقدم تقريراً شفوياً عن شابين مجهولين! كان هذا بأيام قبل حوادث الشغب! شيء كالريح الخافت، كهبة نسيم عابرة طائشة تمريك ولا تتكرّر، شيء كالهمسة الوحيدة ردد اسم احمد بن الحاج مهدي ثم غاب ولم يتكرر، كطيف حلم. أنكر أحمد، انتهت الواقعة على أنها من عبث صبية، ولم تبلغ الشرطة بالأمر، بعد ذلك بأيام معدودات تثور حوادث الشغب واضطراب التلاميذ... من ومتى وكيف..؟ احمد بن الحاج مهدي بعيد عن كل شبهة، مرتعب ومرتعش، وقطعة حديدية ترتمي بين يديه بالصدفة، فإذا هي مسدس بالصدفة! وبسحر ساحر... تقدم للحاج مهدي المواطن الكبير والغيور ضحية الطحالب والطفيليات.. الحكاية.. بالصدفة!!

❑ ❑ ❑

«تعرفنا عليه في العمل بالإدارة، بيننا وبينه علاقة عمل ليس إلا، زرناه مرة واحدة في منزله أثناء إجازات مرضه، سلوكه لم يكن يخلو من غرابة، لكنه لم يؤذ أحداً قط، ولا شيء أكثر من ذلك...»

(ملخص من تصريحات حميد ومسعودي)

❑ ❑ ❑

وكما اكتشف الفكر البشري عقده الاجتماعي المزعوم، ومفهوم القانون والشرعية والتنظيم الحزبي والحكومة... اكتشف كذلك نظريته الذهبية في الصدفة يلوذ بها في الملمات والمحارج. عملة ذات أوجه لانهائية وقابلة للتغيير بكل القيم. هكذا يمكن القول بأن العقل البشري في مجال النظريات الإنسانية قد

أعطى كل ما عنده. ومن الخير له أن يتوقف عن اكتشافاته السعيدة، التي بلغت أوجهها، وبدأت منذ مدة تناقض وتنقض بناءاته الجميلة والمتينة، لتتوقفْ نظرياته تلك، وإذا كان لا بد له من نشاط، فلينصرف بكليته إلى التقنيات والتطبيقات.

... مهما اجتهد المحققون والقضاة فسبيلهم لحفظ الجماعة البشرية واحد وحيد: الاعتماد على القرينة إذا انعدم الدليل المادي والتلبس، أو الاعتماد على القرينة أولاً، وعلى غيرها ثانياً وثالثاً: لأنك أمام نظرية خطيرة كنظرية الصدفة.... لا تكون في مستواها إلا بمنطق القرينة لا منطق التلبس... كل ذلك إذا أردت أن تحافظ على بناءات الفكر الجميلة... هكذا يكون من الضروري ممارسة الاحتياط والتحفظ والتوقع، كما تتطلب ذلك نظرية الانتظار وقيام الجماعات البشرية...

❑ ❑ ❑

والكلمة الآن للدفاع، فالفكر البشري أوجد أيضا مفهوم الدفاع ونظرياته... الكلمة للدفاع... الدفاع..

قال الراوي: بحر، بحر هائج تتلاطم أمواجه، تتسابق وتتعالى لتنكر فجأة على شاطئ رملي فسيح، تتكسر فجأة كما لو اصطدمت بسلسلة صخور عاتية غير مرئية، ويمتد بعدها مباشرة شاطئ رملي سهل فسيح. تحدق العين لتتبين السر، يبدو ما يشبه الصف المتراص لأجسام صغيرة دائرة سوداء، تطفو على الماء وتتكسر عندما الأمواج. كيف يمكن لما يطفو على الماء أن يكسر عاتي الموج؟! تحدق العين.. يتقدم الصف المتراص أو ما يشبهه، نحو الشاطئ الرملي، تكبر أمام العين تلك الأجسام الصغيرة السوداء المتراصة، تكبر حتى تتضح وتملأ الرؤية... رؤوس آدمية. والأمواج المتكسرة فقدت زرقتها، وبياض الزبد، ليحل الأحمر القاني... أيدٍ، مجرد عظام بلا لحم أو عصب؛ أيد بالعظام والدم فقط،

تخرج من الرؤوس مباشرة، تمتد نحو الواقف الوحيد على الشاطئ الرملي الفسيح... تمتد نحوه كأنها تناديه، تستغيث به... تقترب منه، يدفعها الموج المتكسر.... تتكسر، الأمواج العاتية دونه، لكنها تقترب منه ممتدة الأصابع العظيمة، ترد عنه الموج، وتتبعه مهما يفر... توشك أن تمسك به تكاد تلمسه، تتمسك بتلابيبه والموج يتكسر خلفها،خلفه... يجزي ولا يقوى... أوشكت أن تمسكه بل أمسكته، بل أوشكت وارتفعت منه صيحة.: أفاق لها بدر زمانه مذعوراً يتصبب عرقاً. انتشر ضوء قنديل زيتي على فراش بدر الزمان ورفيقته ميكاري المجاورين. يظهر وجه زاهور... مرة أخرى يعيش بدر الزمان كابوساً، تقلص تكرار الكوابيس، عما كان عليه في البداية ولكنها لا تتقطع، كوابيسه وكوابيس ميكاري عالمهما الجديد.... كان زاهور كلما أفاق من حالة مرعبة، وذكرا له بعض ما شاهدا من مناظر الرعب، اكتفى بأن يقول إنه ليس حكيماً ولا عليماً بالأحلام، إنه يعلم فقط أن ما يرياه، هو بالضبط ما كان يجب ألا يرياه لو سارت الأمور، كما كان يرتجى لها ومنها.

وضع زاهور القنديل الزيتي في نقرة في الحائط الصلد، فظهرت بعض تقاطيع الكهف الأجرد الذي يأويهم، وظهرت إلى جانبهم أفراشة متعددة لبعض أصحابهم.

قال الراوي... في مكان ما من أقصى جبال كغاشي جهة الشرق، التجأ زاهور بعد جهد في التخفي والتستر، ومعه الأميران بدر الزمان وميكاري، نجاتهم كانت أعجوبة وبقاؤهم أحياء بعد ذلك كان أعجب. لم تكن منطقة مجهولة أو مما يغفل عنه أعوان همشير وجنوده في البحث الجاد عن الفارين من المذابح رفقة زاهور وبتدبيره، كانت منطقة رعاة سرعان ما أكتسبهم زاهور، لحنينهم لما يمثله ولتعلقهم بالذكريات الجميلة القريبة البعيدة، فأرشدوه والأميرين إلى الكهوف التي يحتمون بها عادة عندما تفاجئهم الطبيعة بغضبها العاصف.

قدموا لهم الأمن والكساء والغذاء، وأنكروا لعساكر وأعوان همشير أن يكونوا قد سمعوا أو رأوا عن غريب أو غرباء في المنطقة كلها. وتطرقوا يعدون بأنهم سيبلغون بكل طارئ جديد.

قال الراوي... كانت قطعان الرعاة من أغنام وماعز وأبقار تقبل على المراعي الجبلية صباحاً، وتؤوب منها مساء... وكلما أقبلت، خرجت من بين رؤوس الماشية رؤوس آدمية جاءت متخفية لتنضم إلى زاهور والأميرين... وظهرت كهوف عديدة لسيل المنضمين الجدد شباباً وكهولاً رجالاً ونساء... ويرتفع الضحى كل يوم عن خلايا لا تكف عن الحركة كخلايا النحل تحيط بها وتحميها أحزمة من قطعان الرعاة... أوراش في العراء ودخل الكهوف لكل الصنائع... قطع الأواني المعدنية تتحول بين المطرقة والسندان إلى دروع وسيوف ورؤوس رماح، ونبال وخناجر... جذوع الأشجار وأغصانها تنقلب إلى عجلات وأقواس وأعمدة وعصى... الحجارة تنحت وتعالج لتصبح ذخيرة للمجانيق....

قال الراوي... كان بدر الزمان وميكاري يعرفان كثيراً من هذه الصنائع، تعلماها في بيوت الأمراء المائة، فكانا يشاركان فيها جميعاً، وقد حذقت الأميرة ميكاري بالإضافة إلى ذلك نسج الصوف وصناعة الأصباغ من الأعشاب الكثيرة المتنوعة في المنطقة، فكانت تخرج من كل زاه مبهج تزين به ما تنسج. كما حذقت بعض ما تعلمته من صناعة الأدوية ومعالجة الأمراض وتوليد النساء والماشية...

قال الراوي... لم يكن من الصعب على الأميرين المشاركة في هذه الصنائع والأشغال، بل وقيادتها والتفنن في ابتكاراتها وتعليم ذلك لغيرهم، ولكن الصعب كان في إقناعهما وجعلهما يطمئنان إلى ضرورة اقتصار هذه الصنائع على أدوات الحرب إذ تجاوزت ما يضمن الكساء والغذاء لمجموعتهم

التي يزداد عددها يوماً عن يوم... ولم يكن زاهور وهو صاحب الفكرة وقائدها ليستطيع إقناع طفلين في العاشرة من نشء روزباه، بفضيلةِ ما يقوم به وما يخطط له. كان يقول إن هذا ضروري لأنه لا يعرف غير ذلك، لأنه ليس روزباه الحكيم ولا حتى مراقادو الراعي... إنه فقط زاهور، مروض الوحوش القديم، لابد له بعدما جرى أن يعود لطبيعته القديمة، أو إلى ما يشبهها، يروضّ المعدن ليصنع منه آلة الحرب والقتل، يتسلح بها ويسلح بها بني جنسه، ليمارسوا الحرب والقتل مؤقتاً على الأقل، عندما يحين الوقت المناسب، كان منطقه محدوداً مستقيماً، لا يطيق تعقيدات ما يطرحه الطفلان من أسئلة. يقول ببساطة، إنني لا أعرف ما أجيبكما به، وإذا أجبتكما، لا أعرف إن كان ذلك صحيحاً أو خطأ، كل ما أستطيع أن أؤكده، أنني أشعر بالضرورة تدعو إلى ذلك...

قال الراوي.... وضع بدر الزمان منقاشه بجانب مطرقته وسندانه، مسح عرقه عن جبينه وبدأ يتأمل الآية التي أنجز، حد السيف البتار، وروعة النقوش والزخارف على مقبضه. تأمل التعاريج والالتواءات، وتداخل الرسوم راضياً عن نفسه، آلم عينه انعكاس شعاع الشمس على حد السيف الصقيل، فاغتمّ لما ستسخر له هذه الآلية الفنية من تقتيل... لا لفضيلة واضحة، وإنما لأنها الضرورة... عند ذاك، ثقلت همته للعمل، أشياء كثيرة بقربه، تنتظر دورها لتحول إلى آلة حرب جميلة، رمى السيف المعجز جانباً على الأرض، وغاصت نظراته الساهمة في نار الموقد، الملتهب جمره والذي يلين الصلد ويذيبه.... تناول بلا وعي قطعة معدن صغيرة مستوية، من فضلة ما صنع منه السيف، داعبها بين يديه وهو ساهم، فضلة لا شأن لها، لا تصلح لشيء إلا أن تذوب مع غيرها لتكون قطعة أكبر، أو لترمى منفردة مع النفايات إلى غير رجعة... ظل ساهماً محدقاً في النار والمطرقة والسندان والمنقاش... ينقل النظر والخاطر بين النار والمطرقة والسندان.... الملقاط والمنقاش... الملقاط والمطرقة والمنقاش

المنقاش... وتأمل بين يديه نفاية المعدن الصغير، الفضلة المهملة التي لا قيمة لها في ذاتها. تأمل ما بين يديه، لم يشعر بأنه مراقب عن قرب... ثم قالت ميكاري، يا لها من فراشة جميلة... وتناولتها منه، فضلة المعدن، النفاية التي أصبحت على يديه فراشه توشك أن تطير. أكدت ميكاري إعجابها الشديد. وقالت إنها ستلونها بأصابعها الساحرة، ولن يشك من يراها في أنها فراشة حقيقية، مسح بدر الزمان عرقه بيد مسودة بالصدإ والفحم، تركت أثارها على جبينه ووجهه. اتجه إلى ميكاري صامتاً يقرأ في تقاسيم وجهها آثار إعجابها بإبداعه. تذوقُها إبداعٌ فوق إبداعه، وصفُها للفراشة وحده، يجعلها تطير من زهرة إلى زهرة تنقل الحب والصفاء... تذكرا أنهما بين المراعي والجبال منذ شهور ولم ينتبها إلى فراشة أو نحلة أو طير... لم لا ينصرفان قليلا في استراحة قصيرة إلى تتبع الفراشات، إلى أن يطيرا معها بخفة واضطراب من زهرة إلى زهرة، تلقح حباً بحب بصفاء...

قال الراوي... ذكرا رغبتهما تلك لزاهور. هل ينسيان طبيعتهما الأولى في طبيعة الضرورة. هل بالإمكان أن يمارسا بعضاً منها من جديد؟ قال زاهور: أيها العزيزان، قد أكون في هذا الوقت أسعد الناس بالبقاء رفقتكما، والسير معكما إلى هدفنا النبيل العظيم، ولكنني بالتأكيد اشد الناس بؤساً وألماً لعجزي عن إعطاء أجوبة شافية لما تسألان عنه... لو بقي لكما روزباه أو مرقادو أو شهراموش... لأفاد كل منهم في حدوده فيما تسألان عنه، ولكنني عاجز من أن أكون في مستوى أدناهم، فكيف وأنا الوحيد المسؤول الذي يرجى منه الجواب؟.... اسمعا أيها العزيزان. إن لكما عزاء لا أملك مثله. إن لكما طبيعة أولى تحنّان إليها، هي ما نُشئتما عليه من مبادئ روزباه، تحنان إلى ممارستها بشوق ولهفة. وتشعران بالضرورة تدعوكما إلى ذلك، وسيحقق ذلك آجلا أو عاجلاً، أما أنا فلا أحن إلى طبيعتي الأولى التي نُشئت عليها، والضرورة تدعوني

مع ذلك إلى ممارستها فأين عزائي؟ نشئت على ترويض الوحوش وتهيئ أساليب القتل والافتراس. أنقذت من ذلك فترة، وها أندا أعود مضطراً، كارهاً، ويجب على أن أخلص في ذلك لدرجة الحب.. إنه قانون الضرورة أيها العزيزان... إنكما عزائي الوحيد، وعزاء هذه الجموع الملتفتة حولكما، وكغاشي كلها التي تنتظركما، المغمور بأسره... لقد آن الأوان لأفضي بكل ما عندي، وأنا أجيبكما بما أستطيع، أقول لكما لا مانع في رأيي البسيط من أن تمارسا طبيعتكما تلك. أن تطاردا الفراشات وتقفزا وراءها، وتصنعا منها باقات الزهور والورود، وتلونا الأشياء بأصباغ ساحرة، وتتناشدا الشعر وترسما البسمة والفرحة على حد السيف، لا مانع من تجولكما في الأحراش كما تشاء لكما طبيعتكما تلك، لكن لا تنسيا أبداً ما تشاء الضرورة منكما، وتقتضيه عيون همشير التي ترصد ظهوركما. ويجب ألا يحدث ذلك قبل الأوان. تجولا في الأحراش والجبال والكهوف الآمنة من عيون همشير، ولكن بقلادة سيف، حزام خنجر، وكنانة وقوس. يمكنكما أن تشفقا على ظبي شارد أو أرنب مفزوع فلا ترميانه، ما دام أصدقاؤنا الرعاة يهيئون لمجموعتنا كفايتها من الطعام، ولكن إذا شممتها ريح ذئب أو ثعلب أو سمعتهما عواء أو زئيراً أو التقطتما خشخشة، إذا صادفتما نيرا أو كنجان: فلا تردد، ولا رحمة، ولا شفقة. سددوا وأطلقوا، لا تنخدعا بالألوان أو الأنغام، فقد انطلق عقال الضرورة. لا أخفي عليكما أن الضرورة تدعونا إلى الإسراع، تدعونا إلى تتبع آثار صديقنا وحكيمنا روزباه... سمعت أنه أصابه الخبل في النهاية، فخرج من مخزنه ريشة عارياً يهذي مناجياً أن كلوا التراب، احصلوا حبات الرمل، اشربوا ماء البحر... احرقوا البحر. لا. لا أعتقد أن مثل ذلك العقل الجبار يمكن أن يصاب أو ينطق بهذا الهذر، وإن صح أنه نطق به، فيجب الكشف عن مكنونه. لا بد من تنفيذ قانون الضرورة لنتمكن من تتبع آثاره واكتشافاته. لقد أحرق مخزنه، ومدخراته العلمية وقتل مساعدوه، فلن نعثر

على شيء مكتوب أو محفوظ عنه، ولكننا نستطيع أن نتتبع آخر ما كان يقول، ونتحقق منه على وجه الضبط، بجمع الشهادات والوقائع ومقارنتها، ولن يعز علينا أن نكشف عن مدلولها العظيم، نحن أصدقاء روزباه وتلاميذه...

قال الراوي... تواهى صوت زاهور، قبل أن يتوقف ويعم صمت الذكريات الرهيب. ترتفع فيه بين الحين ضربة مطرقة من هنا، أو حشرجة منشار من هناك، أو دق مسمار، دون أن تبلغ عتبة السمع. صمت أبلغ وصلاً لخواطر الثلاثة من كل حوار. وفي آن واحد وبلا وعي، تلاقت نظراتهم عند الفراشة المعدنية المبرقشة، وقد لونتها أصباغ ميكاري الساحرة.. تلاقت أعينهم من جديد.... وبهدوء كامل وتأن مدّ بدر زمانه يده نحو قلادة سيف مغمد قرب فراشه على الأرض... سحب السيف بتؤدة، مرّ بكفه على صفحته الصقيلة. داعب حده بأصابعه، شد على مقبضه المنقوش، ثم حركه في الفضاء يميناً وشمالاً، فانعكس على حده اللامع ضوء القنديل، ودفع به أمامه كأنما يبقر به عدواً مواجهاً، وكرر كل ذلك مراراً قبل أن يعيده إلى غمده بتؤدة، ويتوجه نحو الجدار، حيث علقه بجانب القنديل الزيتي[12].

هذا ما سـرى يا حـضـارْ	مـن وقـائع وأخبـارْ
رووها صـغـار وكـبـار	إخـوان ونـدمـا
كـل زمـان عنده بـدره	اللـي يضويه ويعمـرُه
مـا هـموه اللي غـدروا	هذا حـال الزعـمـا
كـل بدر عـنده زْمـانُـه	كل قـول عنده مكانـه

(12) هذا موقع الرواية التي تقول بأن الفتى وصاحبته، لم يكونا بالذات بدر زمانه وميكاري المعلومين، بل هما مجرد اثنين من أمراء المائة، أنقذهما زاهور بأعجوبة وفر بهما وبنفسه... وتضيف الرواية، بأن كل أولئك، الأمراء، كان يطلق عليهم بدر الزمان، وأن هذا الاسم أو اللقب، لم يكن علما لأحد بعينه منهم، والله أعلم.

اللي غبروا لا بـــد يبـانـــو دايرين في الفلك علامـا
اخبارنا مشت مع الواد الـواد واحـنا بقينا مع الجـــواد
وجــوه الخير والاســيـــاد متعــنا وياهم بالسلامـا
اللـــهــم يا رب يـا متعـــال زيّن عـــبـدك بالفعـــال
بـلـــغ مـــرادُ والمــنـــال مع الاولـيـا والعـلمــا
بـــجـاه نبـيك المصطـــفى مـــا بـلـغ ومـا وفـــي
والصـــالحين والــشـرفــا تـنـفـع بكلامنا الامـمـا

□ □ □

الطـيّـبـون

روايـة

(الطـبـعـة الرابـعـة : 1988)

الطيبون
وجائزة المغرب العربي

فازت هذه الرواية سنة 1971 بـ «جائزة المغرب العربي للرواية والمجموعة القصصية» التي نظمتها وزارة الشؤون الثقافية والأخبار بتونس، لمكافأة أحسن إنتاج قصصي على مستوى المغرب العربي.

وقد انبثقت فكرة تأسيس هذه الجائزة عن توصيات ومقررات «ملتقى القصاصين المغاربة» الذي انعقد بالحمامات في دجنبر 1968.

1

أب... أبتا... أبك... وتتابعت الأفياش بين أنامله في سرعة ولهفة ثم توقف أخيراً. وقرأ وهو يتنفس الصعداء: إبكتيت... وشرع ينقل على ورقته الخاصة أرقاماً وأسماء من الفيش... لم يكن يقدر أن يجد هذا الاسم. هذا الكتاب، خيل إليه منذ اللحظة أن الطلبة جميعاً سيهرعون بعد المحاضرة مباشرة لطلب الكتاب، وما كاد الأستاذ ينتهي من الدرس حتى كان قاسم يقفز نحو المكتبة، وخيل إليه أن أقداماً تركض وراءه، تسابقه، وللحظات كان يلتقط نفساً لاهثاً وراءه، يتردد بجانبه وهو يقلب الأفياش، وكان يحس نظرات نارية تلهب عنقه وأذنيه وأصابعه، وهو يمرر الأفياش.

والتفت أخيراً خلفه، كأنما ليعلن إلى الرفيق أو الرفاق انتصاره بعثوره على الكتاب، على التحفة النادرة، وأعد نغمة الانتصار يتصنع لها التواضع:

ـ نسخة واحدة منه، وجدتها...

لكن أحدا لم يسمع، لم يكن هناك غيره، حتى ولا عامل المكتبة، ليس إلا الهدوء. وأجال بصره، فقط، توجد على أحد الرفوف حيث يترك الطلبة محافظهم عادة قبل ولوج غرفة المطالعة، محفظة نسوية قد تكون لطالبة داخل الغرفة، أو هي لإحدى العاملات بالمكتبة.

وتقدم إلى غرفة المطالعة، يخطو في فسحتها نحو العامل الذي يقف في الطرف الأقصى، يحادث بهمس شخصاً جالساً إلى أحد المكاتب. وقدم ورقة الطلب للعامل. فرنا هذا للساعة، وحينئذ تنبه قاسم إلى أنها جاوزت منتصف النهار بعشر دقائق، وهمهم العامل متأففاً:

ـ لم يبق وقت...

وبدت الخيبة على ملامح قاسم، ويده ترتد بالورقة معتذراً.

ـ معذرة، ذهلت عن ذلك.

فاستدرك العامل وكأنما تأثر لذلك.

ـ لا بأس، هات، ما دامت هذه السيدة تستمر لدقائق أخرى... ومضى يصعد السلم الحديدي وعينا قاسم ترقيان معه الدرجات، لم يكن للهفته على الكتاب حد. كم كان الأستاذ رائعاً هذا اليوم، خيل لقاسم أنه لم يره بمثل هذه الروعة في البلاغة والأداء، أو لعل الروعة من الموضوع ذاته، لا يدري قاسم على التحقيق. ولكن صدى هذه الأخلاق لم يكن غريباً عنه، كان ضارباً في أعماق نفسه، كأنه علمه من قبل وعايشه. ترى هل ذلك صحيح أم هي فقط وحدة الطبيعة ووحدة التفكير.. أم أن المعرفة تذكر، كما قال بعضهم؟ لا يدري على التحقيق. لكن صورة الحكيم الذي استشف السر ورفع له الغطاء، ولم يعد منفعلا لضراء أو سراء، كانت تسكن أعماقه.

هذا الهدوء، هذا الاتزان، هذا الصفاء، هو بالضبط ما يتردد في نفسه منذ وقت لا يستطيع تحديده، فالتوافق بين هذا الصوت المطمئن الهادي، وبين ما يعتلج في نفسه، لا ينسب إلى الصدفة وحدها.. هذا الهدوء والصفاء، هو ما يبدو أن الكون بأجمعه يبحث عنه وينشده ويود أن يهتدي إليه... بل إنه اهتدى إليه في فترة الحكيم الرواقي فكيف تجاوزه؟ حقاً إن الإنسان للغز محير. وإلى أين

يسير الآن؟ إنها لمعضلة حقاً.

وسمع صوت خطوات على الدرجات الحديدية. وبدا العامل هابطاً وبيده الكتاب، فتقدم قاسم نحوه واستلمه منه، ودار على عقبيه بسرعة، وهو يتصفح أوراقاً عريضة متهرئة، وحين رفع نظره محاذراً أن يصطدم بأحد المقاعد، التقى بنظر السيدة التي لم ينتبه إليها طيلة الوقت، كانت بمفردها، وقد وقف بجانبها عندما ناول الورقة لعامل المكتبة. بل إن الرجل كان يحادثها عند مقدمه. وتذكر كذكرى باهتة عابرة. إنه لمحها تنظر إليه أو على الأصح، لمحها ترفع بصرها إليه وهو مع عامل المكتبة بجانبها، لكنه لم ينتبه، وهذا مؤكد... لهفه على الكتاب أو جنونه به طغى على كل شيء... وبدا كأن المرأة كانت ترمقه منذ مدة في ابتسام وعتاب. قالت وابتسامتها تتسع وتفصح عن صفاء اللؤلؤ:

ـ تغيرت كثيراً يا سي قاسم.

أجاب في ارتباك:

ـ أنت؟ أوه معذرة... لم أرك... لم أنتبه إليك.. أقصد أني كنت منشغلا كيف الحال؟

أجابت وهي تجمع أوراقها متهيئة للخروج:

ـ لا بأس، قد التهمتك الكتب.

ـ أو أني التهمتها.

وضحكا معاً وهما يغادران المكتبة ويسيران في رواق الكلية، عندما أردف بجد:

ـ في الواقع أني أقرأ هذه الكتب بعسر شديد، فلا أزال أعاني من ضعف اللغات الأجنبية، ولست محظوظاً مثلك.

وتأوهت:

ـ مثلي؟

وبدت له مسحة كآبة تخيم على ملامحها. كانت هنية سمراء طويلة القامة، تميل إلى النحافة، ترتدي معطفاً أبيض ناصعاً، يضاعف من أناقتها. تخطو في تؤدة لا تخلو من كبرياء، ولم يكن يبدو في مظهرها كله من مرح سوى شعرها الطويل المنسدل على كتفيها.

قال محولا مجرى الحديث:

ـ لنترك هذا، كيف حال العمل؟

ـ يسير...

ورد بسرعة مبتسماً:

ـ طبعا، معك لا بد أن يسير.

وردت عليه بابتسامة فيها عتاب على مجاملته فأردف:

ـ لا أجاملك مطلقاً، أقسم لك. ولو عرفتني جيداً، لأدركت أنني فاشل في المجاملات.

وزمت شفتيها قائلة:

ـ يجوز. أذكر أنك التحقت بالجامعة بعد أيام فقط من تسلمي إدارة المدرسة. وأذكر أن المديرة التي كانت قبلي إذ ذاك، تحفظت بشأنك؛ بعض الشيء وهي تسلمني مقاليد الإدارة... أظنها قالت إنك عنيد أو شيئاً آخر من هذا القبيل.

ورد وقد أصبحا على الدرجات الخارجية لباب الكلية:

ـ ربما كنت كذلك في نظر البعض، وحتّى في نظر نفسي أحياناً... ولكن هناك أشياء لا أستسيغها من سلوك بعض الناس، خذي مثلا تلك المديرة

بالذات التي خلفتها، كانت لطيفة مهذبة لكن سلوكها لم يكن يخلو من رعونة أحياناً، سيما تجاه المعلمات بالذات. وهي مع الرجال المعلمين ألطف بكثير، وهذا لا يليق برئيس مؤسسة أيا كان جنسه... ثم هي كثيراً ما كانت تصرح بأنها لا تعرف من دنياها إلا محلات الأزياء وما إليها... وهذا في رأيي عيب أساسي فيمن يشرف على مؤسسة تربوية... هذا الإشراف أو التسيير هو عمل تربوي قبل كل شيء ويتطلب من صاحبه ثقافة متينة، لا تقدمها مجلات الموضة والسينما.

وأمنت هنية على كلامه:

ـ هذا صحيح.

واستأنف مبرراً مجاملته الأولى لها:

ـ من هنا ترين أني لم أكن مجاملا لك، فأنت في الواقع مثقفة وتسعين وراء الكتب... بل تسافرين وتقطعين المسافات في سبيلها...

وقاطعته وابتسامة حفيفة على ثغرها:

ـ منطق سليم يا سيدي...

وتعمدت أن تظهر لهجة استخفاف محببة في نهاية جملتها، ثم أردفت في لهجة من يغير موضوع الحديث.

ـ لنتحدث عنك الآن... عندما تسلمت إدارة المدرسة بأيام، أدركت أنك معلم مخلص، ومحبوب عند تلاميذك، لذا فكرت عندما قدمت طلب المنحة الجامعية، في أن أعترض سبيلك واحتفظ بك، لكني لم أسمح لنفسي بذلك، سيما وأمنيتي كانت أيضاً، أن تتاح لي فرصة إتمام تعليمي في الجامعة.

قال في مرح معلقاً على كلامها:

ـ لعلك أدركت أن التحاقي بالجامعة، خير طريقة تتخلصين بها من عنيد مثلي.

وضحكت من أعماقها ضحكة مقتضبة وردت:

ـ لم يبد لي منك عناد، على كل حال، لم تقض بالمدرسة منذ توليت إدارتها، إلا أسبوعاً أو اثنين.

وكأنما كانت تفكر في إضافة شيء عندما سألها:

ـ هل من جديد في المدرسة؟

أجابت وهي تهز كتفيها هزاً خفيفاً:

أبداً، لا جديد فيها عدا الحديقة الصغيرة التي أنشئت لتفصل جناح البنين عن البنات.

وتساءل من جديد:

ـ وإني أتعجب كيف أن إدارة مدرسة لا تحوز كل اهتمامك؟

وردت في أسى ظاهر:

ـ أف، لولا ظروفي الخاصة لتوقفت عن الشغل نهائياً وانقطعت إلى الدرس، مضت الآن ثلاث سنوات منذ غادرتنا... لقد تغيرت بالفعل أشياء كثيرة. وجوه الأسرة الذي كنت تعهده بين المعلمين والمعلمات، لم يعد منه شيء... لا أدري ما الذي حدث...؟ لقد بدا وكأن كل واحد منهم يطارد شيئاً بمفرده وفي اتجاه مخالف لسواه... وبدا الأسف على قاسم أيضاً:

ـ هذا عجيب حقاً. لا أزال أذكر تلك الحفلات الدورية الرائعة التي كنا نقيمها في دور بعضنا أو في المدرسة عقب الدروس، وجو المرح... ثم حفلات نهاية السنة... حقاً إنه لعجيب.

وعقبت على كلامه:

ـ كل ذلك تغير الآن، وأصبح كل واحد جزيرة منفصلة، حتى ليصعب

علي في كثير من الأحيان أن أنظم اجتماعاً يضم الكل.

ونزلا الدرجات الثلاث وخطوا في تؤدة، مبتعدين عن الباب الحديدي الكبير، وسألها:

ـ ما مشاريعك الآن؟ وأجابت في لهجة اللامبالي:

ـ لا شيء. أحاول أن أشغل نفسي بتتبع دروس الكلية عن بعد، أزور العاصمة كل ثلاثاء. أقضي بعض الوقت في المكتبة، وأحضر بعض المحاضرات... وأستعير كراريس من الطلاب والطالبات، لأطلع على ما فاتني... لكنني أشغل نفسي فقط. أما النجاح والدراسة الجدية فلا أمل لي فيها.

ورد:

ـ لا أرى لمثلك أن ييأس.

أجابت وهي ترنو إلى صفحة السماء الممتدة تجاه البحر، بحيث صدرت كلماتها في هدوء طبيعي، لم يلحظ معه انفعالاتها:

ـ يأس، أمل، لم يعد لذلك من معنى لدي.

وعندما عادت ببصرها من سرحة الأفق، تبين بوضوح معالم حزن عميق تحاول إخفاءه. لم يتغير منها شيء منذ عرفها، ربيبة هيبة ووقار، وتلك سمة المهنة كما يعتقد. لكن مسحة الحزن لا تزول عنها.

قالت وهي تتطلع مرة أخرى إلى السماء في نظرة خاطفة:

ـ لعلي أخرتك؟

أجاب وهو يضغط المجلد العريض على صدره:

ـ أبداً، فرصة طيبة هذه... ونحن أصدقاء قدامى قبل كل شيء... بودي لو أستدعيك للغداء... لكن ما تعده والدتي لا يرضيني، فضلا عن أنه بسيط.

وابتسمت بعمق امحى معه آخر أثر للحزن على محياها، أو هكذا خيل إليه. وتلألأت أسنانها في صفاء قائلة، وهي ما تزال تغالب ابتسامتها:

ـ لا تزعج نفسك بهذه الأمور... أنت الآن طالب بحق... وإذا لم يكن لديك مانع، فإني أدعوك إلى مائدتي، في مطعم مناسب عثرت عليه.

ثم استدركت قبل أن يجد الكلمات:

ـ لا تقل إني كريمة معك، فقد استغلك لبعض الخدمة.

ازداد ضغطه على الكتاب، وكأنما فوجيء بالعرض، لم يكن هو جاداً في دعوتها. فهل يرفض؟ ما معنى ذلك؟ وأجاب:

ـ لا مانع! لا مانع مطلقاً... لكن...

ـ إذن لنمض

وصعد إلى جانبها في السيارة. الكتاب ما زال إلى صدره. وسادت فترة صمت وهما ينحدران نحو وسط المدينة، وأتاح له انهماكها في القيادة، أن يتأمل لطافة يديها تتحركان على المقود.

ـ أنت تسوقين بكيفية جيدة. وهمهمت، بينما أردف:

ـ يقولون إنكن تضاعفن الحوادث. ردت مبتسمة وهي تتوقف أمام إشارة حمراء:

ـ ما أكثر ما يقولون عنا.

وأردفت تسأله:

ـ مع من تعيش هنا؟

ـ والدتي، وأخ أصغر في الدراسة الثانوية، أسرة محدودة جداً.

ودلفا إلى المطعم. كان المكان جميلا هادئاً فوق ربوة صخرية، مشرفاً

على مشهد البحر وهو يحتضن نهر بو رقراق. وعلى أقدام الربوة الصخرية تتكسر الأمواج في صخب، لا ينفذ منه إلا هدير واهن، من خلال الواجهة الزجاجية المغلقة للمطعم... وعلى مد الأفق، زرقة صافية تخالج سماءها نقط بيضاء، لطيور البحر المتحركة في كل اتجاه. وعلى مدى أبعد، بدت معالم مدينة سلا على الضفة الأخرى للنهر، ورمال الشاطىء الداكنة، تموج بالطيور البيضاء الرابضة على أديمها.

قالت وهما على المائدة:

ـ كيف وجدت الإقامة هنا؟

ورد:

ـ الرباط صعبة. والإقامة غير مريحة إطلاقاً، لكنني اعتدت. في الأول كان الأمر أشق. عانيت كثيراً من غربتي، لكني ألفت غربتي ذاتها...

وتوقف قليلا ثم تساءل:

ـ وأنت أتراك ستألفين هذا الذهاب والإياب؟

أجابت وهي تضع الشوكة؟

ـ إني أشغل نفسي فقط، كما قلت لك، ولا أطمع في النجاح... زوجي لا يمكنه نقل تجارته إلى العاصمة، ومتاعب الإدارة بالنسبة لي، وما تتطلبه الدروس من جهد... كل ذلك لا يترك لي فرصة الطموح الجاد لحياة الجامعة.

وذهب به التفكير مذاهب عدة، ولعله كان يتهيأ لوضع سؤال محدد احتار في صياغته عندما أردفت:

ـ بالمناسبة، كما قلت لك، فإني سأطلب مساعدتك، وعسى ألا تثقل عليك...

رد وقد أخرجته من عالمه:

ـ بالتأكيد... بكل سرور.

واستأنفت.

ـ أود، لو أمكنك أن تحضر عني بعض المحاضرات خلال الأسبوع. واحدة أو اثنتين اعتبرهما هامتين... ولا أظنك تضيع وقتك، لأن مادتهما فلسفية... إني أغريك، ألا ترى أني نجحت؟

أتمت جملتها في مرح ظاهر، وقال:

ـ هذا يسير وإغراؤك ناجح، وربما استطعت أن أحضر لك أشياء أخرى.

شكرته وهي تنظر إلى ساعتها ثم قالت:

ـ علي أن أحضر درساً في الثانية بالضبط.

كان ما يزال يقشر برتقالة، بينما سرحت هي بنظرها نحو الأفق، وأتيح له أن يتأملها، من جديد: في العقد الثالث خمرية اللون... وفاجأته:

ـ ما رأيك؟ أليست البقعة جميلة؟

رد مؤكداً:

ـ بل أجمل مما قدرت... تصوري أني لم أعتقد أن في العاصمة بقعة بهذا الجمال والهدوء. وابتسمت:

ـ لا تكن سيء الظن بمدينتك.

ورد مبتسماً:

ـ سأتفاءل منذ اليوم.

أنزلته في منتصف طريقها إلى الكلية، بعد مغادرة المطعم، فاتجه إلى بيته غربي المدينة مسرعاً.

2

ما أن فتحت والدته الباب حتى تناهى إليه سعال منقطع من الغرفة القصوى، فنظر إليها قاسم في تساؤل. قالت وهي تغلق الباب:

ـ عندنا زائر يا قاسم.

ـ من؟

تمتمت له بهمس، فسار وراءها إلى الغرفة:

ـ عمي... آه مرحبا، أهلا وسهلا.

وقبل أن يحاول الشيخ القيام بصعوبة، تداركه قاسم، وعانقه قبل أن ينهض:

ـ لا تتعب يا عم، استرح... كيف الحال؟

هيكل طفل، وملامح شيخ طاعن في السن. كذلك تراءى له عمه مطوياً على نفسه...

أجاب الشيخ وعيناه الرطبتان تحدقان في قاسم، تحت حاجبين كثيفين أشيبين:

ـ ما شاء الله... كبرت يا قاسم، كبرت والله، أنت رجل.

لم يتضايق قاسم كثيراً وإن كانت هذه اللهجة بالذات، طالما قد أهاجته. لهجة من لا يلتفتون إلى صيرورة الحياة وتطورها. كثير من معارفه أعادوا على سمعه أنه قد كبر... إنه صار رجلا، كأنما كان من المفروض أن يستمر صغيراً، ذلك الطفل الذي عرفوه عندما فارق القرية. لكنهم لا ينتبهون إلى أنهم، قد تقدموا هم أيضاً في الزمن. ومن يدري؟ فقد يكون سؤالهم الاستنكاري لتقدمه في السن، ناتجاً عن رغبة لا شعورية، تدفعهم إلى إنكار تقدمهم فيه أيضاً، أيكون هذا صحيحاً؟

وسعل الشيخ سعالا متواصلا، واهناً، وعاد قاسم يسأل:

ـ أهلا وسهلا، كيف الحال يا عم؟

وجمع الشيخ أنفاسه الموزعة، ومر بيده على لحيته الكثة، يمسح رشات تناثرت عليها:

ـ ما شاء الله يا بني. كبرت ونسيت البلد.

وعاد يسعل من جديد.

ـ أنت مريض يا عم؟

وعدل له وسادتين عاليتين وهو يرد:

ـ استرح، هكذا يا عم.

كانت والدته ما تزال واقفة، تتأمل أول لقاء لابنها بعمه، وكأنما اطمأنت إلي التعارف الذي حصل بينهما، فتحركت نحو المطبخ.

عاد الشيخ يحدق في ابن أخيه من جديد:

ـ ما شاء الله. كأني أمام المرحوم أخي، وجها لوجه. الله، الله.

وتذكر قاسم صورة قديمة لوالده كثيراً ما تملاّها. وعبرت خاطره من وراء السنين كلمات أمه: أنت شبه المرحوم يا قاسم. لك عم يا قاسم. لا يشبه والدك، كانا شقيقين، والدك أصغرهما؛ وكان وريث الجد في الصحة والنضارة وسلامة القلب أما أخوه، عمك...

ووجد قاسم نفسه يتفرس في الهيكل الواهن المنكمش جنبه. لولا لحيته، لو حلق، لما بقي من وجهه شيء... عمك يا قاسم فلاح كبير، يملك قرية بكاملها لكنه قاس لا يرحم... وعاد الشيخ يقول:

ـ حرام يا بني يا... قاسم... الحر لا ينسى أهله وبلده... لكنك لست المسؤول عن ذلك. الكبار هم المسؤولون. والدتك سبب ذلك، وهذا ما قلت لها منذ ساعة، هذا حرام، كفر يا بني... يجب أن تعرف أهلك.

وتوقف يستريح قليلا، ثم استأنف في استنكار:

ـ أنا عمك، أقرب الناس إليك، ولا تعرفني ولا أعرفك... أعوذ بالله... وأولادي لا تعرفهم ولا يعرفونك...

وتوقف مرة أخرى والأسى واضح على محياه، واستأنف وكأنه يعتصر الأحداث من ذاته الواهنة:

ـ لم يفرق بيني، وبين المرحوم أخي، إلا الممات. كنا ذاتاً واحدة، كما تركنا والدي رحمه الله. تزوجنا وأنجبنا، ولم نفترق حتى فرقنا الموت... أمر الله.

وأخذه السعال من جديد، ومضت فترة قبل أن يستعيد أنفاسه ويستأنف:

ـ كيف هذا؟ عشرون عاما أو أكثر، لم أرك؟ كان من الممكن لو قدر ذلك، أن أصادفك أو تصادفني، ولا نتعرف على بعضنا... هذا كفر.

وتوقف قليلا ثم تابع:

ـ خرجت بكِ فاطمة، أمك، وكنت ترضع... آه يا أماه... كم انتظرت أن تعود بك يوماً... خرجت ليلا من القرية... ما زلت أذكر... وكم سألت وحاولت... مشيئة الله يا بني، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

واحتقن وجه الشيخ، وحرك يديه في كل ناحية يبحث عن شيء ما، ورفع بخاخة صغيرة مطاطية يلمع في رأسها عنق زجاجي معقوف، به سائل أصفر، وبخ في حلقه عدة بخات... وبدا أنه يقاوم نوبة سعال، وأزمة تنفس.

وانبعثت في قاسم كلمات أمه تعبر خاطره وهو يتابع حركات الشيخ، سأل عنا كثيراً في أول الأمر... بل إنهَ اتصل بي في المدينة. لم تكن في الرضاع بل فطمتك بكثير... وأخوك إبراهيم إذ ذاك جنين في بطني. نعم أذكر جيداً كل ذلك يا بني... وعمك نفسه، عندما زارني إلى المدينة، أشار بأصبعه إلى بطني مغتاظاً، وقال لي أنه لا يريد أن يراك غريباً، في مدينة لا حدود لها... بل قال أكثر من ذلك، إني أذكر جيداً ولا يستطيع عمك أن ينكر أنني كنت إذ ذاك حاملا... وحاول إرجاعي إلى القرية بعد حوالي ثلاثة أشهر أو أربعة، منذ وفاة والدك... اغتاظ عمك مني، لكنه كان قد أغاظني من قبل، بصورة أشد، ولم أره بعد ذلك.

وحرك قاسم رأسه كأنه يطمئن صوت والدته القديم... كم كررت عليه ذلك، فعندما كانت تحدثه منذ عقل، كان الحديث يعود دائماً إلى هذا الموضوع، بنفس الأسلوب وبنفس الطريقة. عمك مريض يا قاسم بضيقة خطيرة، لا تفارقه أبداً، وستؤدي به إن كان لا يزال حياً... إنها لعنة وعقاب نزل به. أقسم لك يا بني... وقع ذلك منذ حرث أرض المجذوبة... لقد ماتت المسكينة بعد ذلك بشهور، أسى على أرضها نظير لقمة تصيبها في داره... دارنا جميعاً... هي

وأطفالها الصغار ثم وقع النزاع. لا أدري لماذا؟ ربما كانت إحدى زوجات عمك هي السبب. فطردها وسلب أرضها... وأصابته الضيقة بعد ذلك... أصابته ولم يمض يومان حتى أصبح عمك لا يكاد يتنفس الهواء. حسرت المجذوبة رأسها ومرغته في التراب ودعت عليه، دعوة مظلوم... وماتت بعد ذلك... الكل يعرف أن دعوتها نزلت به، لكنهم يخافونه جميعا.

ـ ألا تزور الطبيب يا عم؟

وابتسم الشيخ في مرارة:

ـ الطبيب هو الله يا بني... هذا لا دواء له.

ومسح لحيته وهو يكمل حديثه:

ـ الصحة يا بني كالبيضة المشقوقة لا تنجبر.

وكأنما أراد أن يغير مجرى الحديث:

ـ كيف الأرض يا عم؟

وابتسم الشيخ وهو يرد:

ـ المحصول يتناقص سنة بعد سنة. الله يلطف بعباده، لكن الرزق موفور. إن شاء الله تزورنا، وتعرف الأرض والأولاد.

ورد قاسم، وهو ساه في حكايات قديمة، من حديث والدته:

ـ إن شاء الله يا عم.

ليست حكاية المجذوبة، إلا واحدة من مثيلاتها في حياة عمك يا بني مع الأرض. كان أبوك رجل خير، خالف عمك لكنه كان الأصغر. وصفعه عمك، عندما رفع عليه صوته، وأقسم والدك ألا يستمر شريكا لأخيه، وطالب بحقه، واشتد الخصام بينهما، فتدخل رجال القرية وأصلحوا... وكانت قسمة كما

أرادها عمك، تخلى فيها عما لا يريد، وتمسك بما أراد، بوفاة والدك، استولى على كل شيء...

وانتبه قاسم على صوت عمه المتأسي:

ـ كم كان بودي أن أربيك، أن أجنبك العوز، وظللت لذلك أبعث ببعض المحصول لوالدتك، وأنتما في الدار البيضاء لكن وقعت أشياء وأشياء...

محصول؟ آه له أن يقول هذا يا بني، لكن لأي غرض كان يبعث لي بذلك المحصول؟ لو تعلم يا بني، وأي محصول؟ كان زهيداً جداً... حاز أرض والدك كلها، وبعث لي بحفنة حب...

ولولا أني تدبرت أمري بتركة مال اشتريت بها المسكن، لولا حذقي ودأبي بالليل والنهار... على كل، الحمد لله.

وتملى الشيخ ابن أخيه، وكأنه يعود بالأحداث إلى الوراء:

ـ كانت قد مضت سنتان تقريباً على وفاة والدك، عندما خرجت بك أمك من القرية.

وضجت في ذهن قاسم ذكرى صوت أمه بعنف:

ـ بل لم يكن قد مضى أكثر من شهر، أو شهرين، منذ مات والدك، وكنت حبلى بإبراهيم...

واستمر حديث الشيخ واهناً:

ـ لحقت بكما، وجدت والدتك قد اقتنت مسكناً متداعياً أجرت غرفتين منه وشغلت الأخرى... مضى الآن كل شيء، لكني لم أكن راضياً على والدتك... وجدتها قد تغيرت شيئاً ما، ضمرت جداً حزامها كان يبدو محزوماً على عود، وأنت. وجدتك هزيلا... وأشرتُ إليها بأصبعي هذا... نعم لا أزال أذكر أشرت إليها. قلت: «لا أريد لابن أخي هذه الحال، أما أنت فلا شغل لي بك...».

ـ بل أشار إلى بطني المنتفخة، وأكد لي أنه لا يريد لك ولا للمولود المنتظر ـ أخيك إبراهيم ـ أن تعيشا على هذه الحال.

واستمر الشيخ في كلامه:

ـ رفضت والدتك أن تعود... ولم أستطع بعد ذلك أن أراكما. وتوقف قليلا. وهو يحدق في وجه قاسم، كأنما يحدثه بسر:

ـ أنت الآن رجل، يمكنك أن تفهم وتحكم. كانت لي والدة أيضاً، رحمها الله. وفهمت أمور النساء في سن قبل سنك الآن، على كل حال، سنستعيد باقي الأرض بحول الله. وقسيمة والدك، لا تزال تحت يدي.

وابتسم قاسم في مجاملة ظاهرة:

ـ الخير، خيرك يا عم.

وتفرس الشيخ طويلا في قاسم مبتسماً وقال:

ـ والدتك غير مرتاحة هنا، فيما يظهر، ربما كانت تفضل البقاء في الدار البيضاء.

ورد قاسم موافقاً:

ـ نعم يا عم، وأنا نفسي لم استأنس بالعاصمة، إلا منذ قريب... ولكن لا خيار لي... كان لابد أن أقسو على نفسي، لأغادر مدينة بها أصدقائي، ومعارفي.

وتمتم الشيخ كأنه يحدث نفسه:

ـ القسوة... نعم يجب أن يكون المرء، قاسياً في كثير من الأحيان.

عمك يا بني ما رأيت أقسى من قلبه... مرة واحدة فقط، رأيته يتألم، بل ذهب إلى حد البكاء، كانت الأولى والأخيرة، وذلك عندما وقعت لنا المحنة.

أبوك كان يخالف عمك في الطبع، بل يخالف كل الفلاحين، ورجال القرية... كان عطوفاً ودوداً... وقع ذلك بعد اقتسام أبيك وعمك، تلك القسمة، بأقل من سنة. لم تكن في بطني بعد، وأذكر تلك الخيول المطهمة اللامعة العتاد، والسيارة التي لم نكن ألفناها في القرية بعد، والحاكم الفرنساوي الذي جاء صحبة شيخ البلد، والقائد. وجمعوا القرية وحدثوهم عن أرض القرية حديثاً لم يرتح إليه الرجال. كان المترجم يقول: «إن المخزن» يريد أن ينشيء معملا على النهر، ويحتاج ذلك إلى أراضي لبناء بيوت وحدائق، وأشياء كثيرة لفرنسا... وعرفنا أن نتيجة هذا، أن يفقد رجال القرية أكثر أراضيهم، والجزء الأكبر منها كان في ملك أسرتنا، وفي ملك أبيك خاصة... ورفض الرجال، أذكر جيداً أن والدك المرحوم، قال في وجه الحاكم والقائد: «هذه حيلة لسلب أرضنا» والتفت إلى الرجال، وقال لهم: إن سكتم سيكون حالكم كحال أولاد صامد وأولاد حمو وكل القبائل... وقبض على أبيك، وعمك وبعض رجال القرية... ثم أطلقوهم بعد التعذيب وعادت الخيول مرة أخرى، والسيارة... ونادى المترجم على بعض الأسماء، من بين جمع القرية، فكانوا يغمسون لكل واحد أصبعه في المداد،يحطونها على الورق، ويقولون لكل واحد منهم: ستقبض الثمن غداً... ورفض أبوك أن يغمس أصبعه في المداد، وطلب قلماً... وتشاوروا ثم أعطوه قلماً، فرفض أن يوقع، لأن الورقة كانت مكتوبة بالفرنسي، وهو لا يعرفه، أبوك كان يقرأ القرآن، الله يرحمه، وبعد ذلك أحاط به العساكر، وقيدوه وغمسوا أصبعه في المداد، وحطوها على الورقة، ثم حملوه إلى السجن. وفي غيبته أحاطت الأسلاك بكل الأراضي وعاد بي عمك إلى البيت وكان يبكي، لأول مرة رأيته يبكي.

وعاد الشيخ يقول:

ـ لا بد أن تزور قريتك وأرضك.

وتوقف قليلا ثم أتم:

ـ أصبحت الآن رجلا، وأنت تتحمل ربط الصلة بنا من جديد... حتى وإن لم ترض والدتك عن زيارتنا و...

وتوقف وهو يتفرس جيداً في وجه قاسم، كأنما يريدان أن يعرف مسبقاً، أثر ما سيقول له في نفسه، وقال في لهجة خافتة:

ـ لك أخ، أظن اسمه إبراهيم، كما قالت والدتك... إني لم أره بعد. ورد قاسم، كأنه غير مهتم:

ـ نعم، أخي إبراهيم. لعله لا زال في المدرسة. وهمهم الشيخ بينه وبين نفسه، ثم عاد يسأل:

ـ كم يكون عمره؟

ورد قاسم بلهجته الأولى، مع إحساس باطني بالحرج، حاول أن يتغلب عليه.

ـ عمره... لا أدري... نحن متقاربان.

وطرفت عينا الشيخ بسرعة، وقد شع منهما لمعان غريب، وخيل لقاسم أنه يبتسم، ابتسامة خفيفة ماكرة. وعاد الشيخ يقول:

ـ يكون قد ازداد، بعد وفاة المرحوم أخي، بعدة سنوات... وغير من لهجته مستأنفاً:

ـ هذا غير مهم... أنت رجل كما قلت لك... وتفهم... قلت إن إبراهيم يدرس.

ورد قاسم، معتزماً ألا ييسر لعمه أن يفهم:

ـ في الباكالوريا.

ولم يبد على الشيخ أنه فهم شيئاً، وإلا لعاد يسأل من جديد. وعادت نوبة الربو شديدة ملحة، فسعل الشيخ ويداه تبحثان عن البخاخة.

وانبعثت مشاهد قديمة من أعماق قاسم، وهو يتابع حركات الشيخ...

ـ لا تنسي يا أماه أنني الآن في الجامعة، وقد سبق لي أن انقطعت قبل ذلك عشر سنوات اشتغلت فيها مدوساً ابتدائياً... فلا يعقل أن يكون عمري ثمان عشرة كما تدعين... مجموع سنوات العمل، والدراسة، لا يسمح بهذا!

وتدور عينا الوالدة في محجريهما، بحيرة، تطلبان عوناً تتشبثان به، ويخيل لقاسم أن زرقة عينيها تخالطهما حمرة... ووجهها الوسيم النحيف، يشي بانفعالات عميقة مكبوتة لا حد لعنفها، وتقول وهي تنظر إليه:

ـ إذا كنت محقاً... وأنت غير محق، فيكون عمر أخيك، يجاوز العشرين.

وتنظر إليه في شبه استعطاف، وباطنها ينتحب، فيخفض بصره عنها، ويتناول كتابا، ويقول مغيراً موضوع الحديث:

ـ لا علينا... ربما كنت محقة... أعطني شاياً... ولا تنصرف بسرعة، بل تظل واقفة برهة إليه في انكسار، كأنها لا تصدق أنه اقتنع بهذه السرعة... ويتجاهل هو ذلك منشغلا بالقراءة، بينما تجر هي نفسها جراً، لإعداد ما طلب.

وعندما تعود بالشاي، أو القهوة، يقف قاسم متحفزاً للخروج، فتسأله:

ـ ألا تشرب؟

ـ بلى، ولكن بسرعة، عندي موعد.

وتصب له قائلة:

ـ لم تخبرني بذلك وإلا كنت أسرعت أكثر، في إحضارها...

ويقاطعها:

ـ لا عليك يا أماه.

وينهمك في إعداد نفسه للخروج، وهي تنظر إليه جامدة. لقد أصبح يعرف سلوكها. فما جلست معه منذ رشد، إلا وكانت في ذهنها محاولة لفتح حديث السن هذا. ومناسبات الامتحانات بالنسبة لأخيه، وما يطلب من أوراق الأسرة، كلها فرص جيدة لإثارة هذا الحديث... وبدأ قاسم يضيق بمحاولاتها للتقريب بين سنه وسن أخيه. من السخافة أن تحاول تقليص فارق العشر سنوات... والحديث معها، محض فراغ في هذا الموضوع... وما الفائدة من كل ذلك؟

ويتجرع كأسه في جرعات متتالية، وتحذره متقربة إليه:

ـ خذ حذرك، إنه ساخن...

لكنه يكون إذ ذاك قد أعاد الكأس فارغة إلى الصينية، فتقف بجانبه، تنفض كتفيه، وتتقدمه بعد ذلك إلى الباب. وتفتح له:

ـ احفظ نفسك يا بني، الله يحفظك...

وقبل أن يخطو نحو الباب، تضيقه دونه، وتقول وكأنها تهمس له في محاولة أخيرة لإقناعه.

ـ أنت مخطيء في حسابك يا بني، نحن النساء أدرى بهذه الأمور. تواريخ المواليد لا تنسى لنا أبداً... إن الصدمة التي أصابتني بوفاة المرحوم والدك، أرقدت الجنين في بطني، مدة لا أعلم كم طالت، هي الفارق بينك وبين إبراهيم.

وينحيها برفق عن الباب، وهو يبتسم لها:

ـ ممكن... أعرف... لا تتعبي نفسك.

ويقبل جبينها ويخرج. ويتخيلها تتسمع أقدامه إلى أن تغيب عن سمعها. ويتخيلها تبكي، وتخرج عن إطار التجلد الذي تتكلفه أمامه. سلوكها شاهد على مقدار قلقها، من أجل إثبات ماضيها بالصورة التي تريد، ليتها تكف عن هذه المحاولات السخيفة.

ومسح الشيخ لحيته من رشات العطاس وعاد يخاطب ابن أخيه:

ـ أشياء وأشياء، حدثت يا بني لكننا لا ننساها. عندما أطلقوا سراحنا كانت الأسلاك قد أحاطت بكل أراضي القرية إلا قليلا. كم نصحت إذ ذاك والدك أن يتريث، لكنه رفض، فاكتسحوا كل أرضه وأنا أيضاً اغتصبوا أجود أراضي... لكن المرحوم لم يتريث.

وتوقف ثم قال:

ـ لعل والدتك حدثتك بذلك.

ويتناهى إلى قاسم صوت أمه:

ـ عمك كان ماكرا. اغتصبوا أرضه حقاً، لكنه تآمر مع القائد على أراضي الآخرين. أخذ الفرنسيون أرضه... وساعدوه على اغتصاب ما تبقى من أراضي الفلاحين. وبذلك عنده أكثر مما كان يملك. أما والدك فكان من طينة أخرى، فقيها مستقيما... لم يتخذ خطة ماكرة، فسجنوه، ولم يكتفوا بذلك وقتلوه.

ويندهش قاسم. لم يسمع قط بأن أباه قد قتل، فيضع الكراسة من يده، وينصرف إلى أمه، متسائلا في دهشة تناسب السنة العاشرة من عمره إذ ذاك.

ـ أقتل؟ ألم يمت كغيره من الناس؟ ولماذا لم تخبريني من قتل؟ وتمسح عينيها وهي تجيب؟

ـ لماذا لم أخبرك قبل الآن؟ وما الفائدة من معرفة ذلك؟

وعاد ابن العاشرة يسأل:

ـ كيف قتل؟

وتتم:

ـ سجنوه وعندما أطلقوه، ووجد أرضه نزعت منه وحصنت بالأسلاك، حمل بندقيته ليلا، وتسلل دون علم أحد، يتربص بالحاكم... وربما أبصره البعض دون أن يعلم بذلك، فلم ينتبه إلا والعساكر تحيط به. فقبضوا عليه... ولم يطلقوه إلا بعد شهور... وكان جسمه... ما الفائدة من الوصف؟... إنه لم يعش إلا أياما قليلة بعد ذلك، كأنما أطلقوه فقط ليموت في داره. وتدمع عيناها، وتغيم عينا الطفل. وعندما تنتبه الأم إلى نفسها تستجمع قواها، وتقول لابنها مواسية:

ـ لا عليك... ما كان يجب أن تعرف هذه الهموم، منذ الآن.

وتقوم بعد ذلك، وتضع الكراسة من جديد، بين يدي الطفل وتأمره بأن يقرأ، بينما تخرج هي متظاهرة بالتوجه إلى شغل ما.

دخلت الأم فاطمة بالصينية، فانقطع الحديث بين قاسم وعمه فترة. كانت نحيفة مديدة القامة، تظلل وجهها غمامة انكسار. تخطو في حذر كأنما تتوقع العثر...

جلست متربعة قبالتهما، على لبدة صوفية ثخينة، وبدأت تصب الشاي، واعتدل الشيخ قليلا في جلسته، وتناول الكأس. وخيم الصمت فترة فاجأ قاسم نفسه أثناءها متسائلا:

ـ فيم يفكر كل منا؟

أما هو، فكان يفكر فيما يمكن أن يجول في خاطري عمه وأمه. ووجد نفسه يرقبهما: والدته ترشف مرة بعد مرة، محدقة في الكؤوس والبراد، منشغلة بجمع أذيال دفينتها حينا بعد حين، أو مظهره اهتماما لا معنى له بنقوش الصينية

تتقراها بأصابعها، وقد بدت على بقية من جمال، يشي بروعة شباب قديم لا تخفي معالمه تجاعيد السنين. كم قاست في حياتها، وكم تعبت!

ماذا تنتظر بهذا الهدوء؟ موتة طيبة وخاتمة ومغفرة، كأنما في الموت درجات؟! والشيخ يتأمل كأسه بعد أن أبعدها عن عينيه قليلا...

وأفاقت الوالدة من شرودها، على صوت الشيخ:

ـ هذا الكأس، كان يجب أن يشرب بين الخضرة، والسنابل ترتمي على حد البصر.

ورد قاسم:

ـ القرية جميلة، في هذا الفصل يا عم.

وتابع الشيخ تأملاته، وهو ينظر إلى فاطمة:

ـ إني أتضايق من حياة الجدران، وأعجب لمن يفضل حياة المدينة على الريف.

ورمشت عينا فاطمة بسرعة، وخيل لقاسم أنه يرى على سحنتها معالم هلع، كأنما فوجئت بجريمة تقترفها.

ورد قاسم:

ـ لو كانت حياة البادية هينة، ما هجرها أحد.

وتحركت الوالدة قائلة وقد استعادت بعض هدوئها:

ـ باديتنا لا ترحم الضعيف ومن لا سند له. في المدينة يجاهد الناس من أجل العيش فقط، أما هناك، فأنت تجاهد من أجل الأرض، والمحراث والبقرة، وأشياء أخرى كثيرة... هذا صعب، وأتمت كلامها مؤكدة:

ـ جد صعب على الضعفاء.

وضع الشيخ كأسه جانباً. كان يتابع حركاتها. لقد أهاجت فيه أحاسيس كثيرة، كان برغم كل شيء يشعر نحوها بالأسى. ويتحدث عنها بينه وبين نفسه بأنها امرأة وأي امرأة، ويكبر فيها أنها عرفت كيف تدير أمرها، بما تبقى لها من مال، بجرأة عظيمة وبدأب نادر. ولولا ذلك، لذابت بين يديها الدراهم كما يذوب الملح. امرأة وأي امرأة... لكن شيئاً ما يلبث أن يخالط صفاء خواطره، ليعلن جهاراً إلى نسائه وأولاده ذات يوم، وقد جلسوا حول الشاي:

ـ كلبة... مالها وللمدينة. كأن اللقمة امتنعت عليها هنا... أتيت بها إلى بيتي وحرثت أرضها بيدي ووهبتها الزرع، ومنعتها من أن تخرج شيئاً من مدخرات أخي لتبيعه، كنت أكفيها مؤونة كل شيء...

ويلتفت إلى زوجاته:

ـ هل أسأتُ إليها بشيء؟ أليست زوجة أخي الوحيد؟ ماذا كان ينقصها؟

وما لبث أن يتوقف، يتأمل سلسلة أحداث تنحدر من عهد آدم.

ـ لكنكن جميعاً نساء. من يدري أي خاطر مريض مر برأسها... أو برؤوسكن؟ لكن عندما يصبح ابن أخي رجلا، لن يكون من السهل عليها أن تبرر فرارها من القرية. ماذا عساها تقول له يومئذ؟ قد تدعي أنني أخذت أرضها والمحصول وأنني ربما... من يدري؟ قد تجمع كل الخرافات التي تحوكها النساء.

وورد الشيخ على حديث فاطمة مؤيداً لها، وكأنما يحس بأنه يتجنى عليها كثيراً. أو كأنه يكفر عما يجول بخاطره:

ـ ما قلته حق يا للا. حياة القرية شاقة، ولا يتحملها إلا الرجال... لكننا كجميع الناس، ولستُ ككل الناس، ولست ككل النساء. كان عندك من

يكفيك كل مشقة... دعينا من ذلك الآن... ما وقع قد وقع ... لكن حياة البادية هي الحياة الحقيقية.

ويتدخل قاسم بهمة من ينهي موضوعاً شائكاً، وينزع إلى التوفيق:

ـ لكل حياة مساوئها ومحاسنها يا عم، الخير كله في البادية ورجالها، لكن لولا حياة المدينة ما كنت لأتعلم ولا أخي، وهذه من حسناتها.

ورن في هذه اللحظة جرس الباب، فأسرع قاسم لفتحه، وسرعان ما عاد ووراءه فتًى في السادسة عشرة:

ـ أخي إبراهيم، يا عم علي.

وتقدم إبراهيم مرتبكاً، وقد احمر وجهه كفتاة عذراء... وقبل يد عمه متمتماً بما لا يفهم.

واسترد الشيخ يده في انشراح ظاهر:

ـ تبارك الله... إنه رجل أيضاً، بارك الله فيك.

وخيل لقاسم أنه يرى مسحة رضى وطمأنينة تخامر ملامح أمه، وهي تجيب:

ـ الله يبارك فيك يا حاج علي... الفضل فضلكم، ما عرفت إلا الخير منذ حللت بداركم، وكنت قبل ذلك يتيمة ألتقط اللقم في القرية بعد وفاة والدي.

وقاطعها الشيخ:

أعوذ بالله، لا تذكري ذلك... كلك بركة، منذ تزوجك المرحوم عمت دارنا البركة، أنت من غرس طيب، ولذلك أخترتك لأخي.

وعادت فاطمة تقول في انطلاق:

ـ الفضل فضلكم.

وبدا لقاسم أنه يرى لأول مرة سعادة حقيقية، ترتسم على وجه والدته... يالله لو تزوجها بعد أبي؟ ما أشبههما الآن بفتيين يمثلان مشهد غزل قديم بوجوه مستعارة، وتسمع قاسم في داخله، لصوت منتحب واهن لأمه، تقول:

ـ لم يكن فراري من القرية فحسب، بل من عمك، نعم عمك... أرادني زوجة بعد وفاة أخيه.

وتابع قاسم ما يرتسم على وجه عمه من انفعالات مرحة، ترى بماذا يفكر هذا الشيخ الواهن؟ ما قوله فيما تدعي؟

كان إبراهيم لا يزال مسمراً في مكانه حائراً، ثم غادرهم نحو المطبخ، والكأس في يده، وانتبه إليه عمه:

ـ ألا تجلس معنا؟

وتدخلت الأم:

ـ إنه هكذا يا حاج، لا يكاد يجالسنا أبداً.

وهمهم الشيخ مع نفسه قليلا.

ولم تمض برهة، حتى سمعت آهة وصوت فرقعة زجاج على الأرض، حاولت الأم أن تقوم فأقعدها قاسم، وقام متجهاً نحو المطبخ. كان إبراهيم مضطرباً، وجلاً، وقد تناثر زجاج الكأس على الأرض، وربت قاسم على كتف أخيه مستنكراً:

ـ لم هذا الاضطراب من أجل كأس؟

تلعثم لسان إبراهيم:

ـ ليس الكأس هو السبب؟ لا أدري ، أحسست بدوار وارتعدت.

وقاطعه قاسم في لهجة من يفهم:

ـ لا عليك. كلنا يحدث لنا مثل ذلك، هيا نجمع الشظايا.

وعندما انتهيا، أخذ قاسم بيد إبراهيم، كأنه يجره إلى مجلس الأسرة، وقال له بلهجة آمرة لا تخلو من عطف.

ـ اجلس معنا. أنت رجل، وهذا عمك.

وبدا على الفتى أنه يغالب بركانا من انفعالاته الداخلية، فجلس على حشية منخفضة قرب الباب، وأطرق إلى الأرض.

ومد له قاسم كأساً:

ـ اشرب. وعندما تتوظف، أو تصبح غنياً، ستشتري مجموعة كؤوس، لا كأساً واحداً.

وضحك وهو ينهي خطابه، محاولا أن يزيل أثر كل اضطراب عن أخيه.

وبدا على وجه الأم اصفرار ذهب بمعالم الحياة من وجهها. أما الشيخ فكان يحدق بعينيه الضيقتين في الفتى، كأنما يريد أن يستشف باطنه.

وقال قاسم في لهجة مشجعة، يغير بها موضوع الحديث:

ـ هل شرعتم في الامتحانات؟

أجاب الفتى دون أن يرفع بصره إلى أخيه، ثم ما لبث أن أعاده إلى الأرض في طرفة عين:

ـ سنبدأ بعد أسبوع.

واستأنف قاسم:

ـ يجب أن تستعد جيداً.

ولم يجب الفتى، كان قد أفرغ كأسه، وطفق يدلكها بين يديه...

وقال قاسم:

ـ بالمناسبة، أود أن تطلعني على أشعارك يا إبراهيم.

وارتعب الفتى، فطمأنه قاسم:

ـ عثرت على الكراسة صدفة، فوق مكتبي وقرأت بعضها... إنها لا تخلو من جمال.

واستعاد الفتى هدوءه وهو يقوم متمتماً:

ـ عندي... عندي دروس أراجعها.

وخرج، وما لبثت الأم أن قامت أيضاً، وهي تقول:

ـ خذ عمك يا قاسم إلى غرفتك. قالت ذلك بلهجة من تعتذر بأشغال المطبخ.

وأعان قاسم عمه على النهوض إلى الغرفة الأخرى.

أمسك الشيخ بمصراعي النافذة المفتوحين، ووقف يتأمل الشارع والبنايات المتراصة أمامه. ووقف قاسم بجانبه.

قال الشيخ في لهجة مازحة:

إن النظر إلى المباني البيضاء يؤذي البصر، أما عندنا فهناك الخضرة ومنظر التراب والنهر.

ورد قاسم موافقاً في مجاملة، بينما تابع الشيخ حركات رجل يحمل قفة خضر، ويغيب في العمارة المقابلة، ثم التفت إلى قاسم متسائلا:

ـ من يكون؟

واستفهم قاسم:

ـ ما تعني؟

ـ الرجل الذي دخل هناك...

لم يكن قاسم قد انتبه لذلك فأجاب:

ـ لا أعرفه. نحن هنا لا نتعارف كثيراً.

ونظر إليه الشيخ متعجباً. لم يفهم كيف لا يعرف المرء جاره.

واستأنف قاسم:

ـ لو سألتني عن جاري المباشر، وبابه يحاذي بابي، لما وجدتني أعرفه.

وازداد عجب الشيخ:

ـ إنهم في القرية يعرفون حتى الكلاب والأبقار، وينسبونها إلى أصحابها، كما يعرفون أشياءهم الخاصة.

وبدا أن النسيم البارد قد أساء إلى الشيخ، فأغلق النافذة، واتكأ عليها يسترد أنفاسه، وبدأت أزمة الربو تشتد عليه، فساعده قاسم على الجلوس، وبدأ الشيخ يبخ في حلقه، ويسعل سعالا واهناً متتابعاً. وحينما بدأت حاله تهدأ قال وهو يعتصر الكلمات اعتصاراً:

ـ لا يوافقني جو البحر... في القرية أكون أحسن حالا.

لم يسمع قاسم ذلك وإن حرك رأسه موافقاً، لشد ما تتشبث عظام الشيخ بالحياة، لم يكن يتصور أن مثله في وهنه وعلته، يوجد على قيد الحياة. وكم من أقوياء يفقدون الحياة بعلة أقل خطرا. مما يعاني العم.

واستأنف الشيخ:

ـ أريد أن أسألك عن شخص... لا تقل إنك لا تعرفه، إنه أكبر رجل في العاصمة... شهرة وثروة... ومحسن كبير.

ـ نعم؟

ـ الحاج المنصوري؟

وتحسس الشيخ جواب قاسم:

ـ المنصوري؟ المنصوري نعم أسمع به كثيراً، ثري جداً، لكنني لا أعرفه إلا من بعيد. رأيته مرة أو مرتين.

لم يرتح الشيخ لهذا الجواب:

ـ تعرفه من بعيد؟ كيف؟ هذا من أقربائنا... لنا به نسب قوي... يجب أن تعرفه، وذلك ينفعك كثيراً، كيف تقضي سنوات في العاصمة، ولا تتصل به؟

وكان قاسم أشد عجباً.

ـ تقول أنه قريبنا يا عم؟

ورد الشيخ في صيغة توكيد:

ـ نعم، كان يجب أن تعرف هذا، وهو يعرفني جيداً... نلتقي معه في الجد الأكبر. جده الأصغر، كان فقيهاً، يعلم القرآن للصبيان . كان جوالا، واتصل بأسرة اتخذته مقرئاً لأبنائها في الرباط، وهنا تزوج وأنجب... وإلى وقت قريب في حياة والدي، كان المنصوري الابن الحالي وأبوه، يترددان كثيرا على والدي إبان المحصول. كان الأب يتاجر في الحبوب أما المنصوري هذا الذي أصبح اليوم من هو، فكان طفلا في سن ابني صالح أو أخيك إبراهيم... إبراهيم أطول، وكنت أصغر منه بكثير... لكنه نوّع تجارته بعد أبيه واغتنى. ولم يتردد علينا إلا مرة أو مرتين، بعد وفاة والده. لكنه كان لنا عوناً في كل ضائقة، وفي معركة الأرض، تلك التي ذهب والدك ضحيتها.

وتوقف الشيخ قليلا محدقاً في قاسم، كأنما يريد أن يستوثق من شيء ما:

ـ تكون أمك قد أخبرتك بظروف وفاة والدك؟

وأكد قاسم:

ـ نعم. أخبرتني.

وتأسى العم قليلا قبل أن يستأنف:

في قضية الأرض تلك لم ينفعني إلا المنصوري هذا. إذ أرادوا انتزاع كل أرضي، كما فعلوا مع كثير. وقصدته لست أدري كيف تذكرته، في تلك اللحظة، وكانت له يد قوية مع الحكومة الفرنسوية في العاصمة. فأعطاني رسالة توجهت بها إلى الحاكم الفرنسوي عندنا، فأصبح الجميع يهابني، وبذلك أمكنني أن أسترد بعض أرضي، وعوضوا لي عن باقيها بأراض أخرى...

وتوقف الشيخ يبخ في حلقه ثم تساءل:

ـ ترى كيف هو الآن، إني لم أراه منذ عشرين سنة أو أكثر...

ورد قاسم:

ـ يبدو من بعيد في صحة جيدة، يسير قويماً.

وقاطعه عمه:

ـ لا عجب فهو لم ينحن طول حياته على الأرض مثلنا... ومع ذلك فهو أكبر مني بكثير، قد يكون جاوز الثمانين، بكل تأكيد... أين أصبح يسكن؟

ورد قاسم:

ـ قصره الفخم في السويسي.

وتمتم الشيخ بذكريات قديمة.

كان يعرف المنصوري في زقاق ضيق، بالمدينة القديمة قبل أن ينتقل إلى غيره وغيره.

وقال:

ـ يجب أن تزوره يا قاسم، لقد جئت من أجل هذا أيضاً، وسأعرفك به.

أريد أن أتصل به من أجل الأرض أيضاً.

ـ الأرض؟

وأكد الشيخ:

ـ نعم، هذا حالنا يا بني...

لم يع قاسم صوت عمه، فقد طغى في أعماقه صوت والدته.

ـ عمك والأرض، حكاية لا تنتهي يا بني. لا تصدق عندما يقول إنه مظلوم في قطعة أرض. إنه يلتهم كل الأراضي ولا يقنع. تصور قرية بكاملها، أصبحت خماسين ورعاة عليه، وأراضيهم أين هي؟ التهم الفرنسيون بعضها، والتهم هو الباقي،. من يقف في وجهه؟ معه الحاكم والقائد والعساكر؟

وتساءل قاسم: أيكون مظلوماً هذه المرة؟

واستمر الشيخ يعرض موضوع الأرض، ووجد نفسه في عالم غريب عنه، أحداث لم يعلم بها من قبل: حكومة الاستقلال تضع مشروعاً لاسترداد أراضي المعمرين الأجانب، ويتقدم لشرائها أغنياء المدن وكبار الموظفين بطرق ملتوية. أما الفلاحون أصحاب الأرض الحقيقيون، فتضيق بهم السبل، ولا يجدون طريقاً يؤدي بهم إلى الأرض. وهنا يأتي دور الحاج علي.

ـ وماذا تنوي أن تفعل يا عم؟

ويرد الشيخ معتزاً، وهو يتكيء جيداً على وسادة:

ـ جمعت الفلاحين وكتبنا عرائض إلى الوزارة، وتجمعنا بمكتب القائد والعامل. وأخيراً توقف البيع. والأرض تحت رعاية الحكومة بصفة مؤقتة.

وبدا على قاسم أنه يريد مزيداً من الإيضاح:

ـ وما يمكن أن يفعل المنصوري؟

وابتسم الشيخ كأنه يقول لقاسم: ما أقل إدراككم بالأمور يا أبناء اليوم، وقال:

ـ إن المنصوري، يمكن أن يقطع كل محاولة من جانب من يريدون شراء أراضي الفلاحين.

وتوقف الشيخ قليلا مستسلماً لأزمة سعال، ثم عاد يقول:

ـ وهناك جانب آخر في الموضوع، هو المهم، فالحكومة سوف تقسم الأرض على رجال القرية دون تمييز، بالتساوي.

أجاب قاسم بدون تدبر:

ـ هذا جميل.

وغاب الشيخ في إحدى نوباته ثم قال:

ـ تقول إنه جميل... ليكن... نعم جميل، لكن يجب أن يكون المرء فطناً... على كل، هذا موضوع آخر سيتضح بعد الاتصال بالمنصوري.

وعاد الشيخ يبخ في حلقه، بينما دخلت فاطمة تعد مائدة العشاء، فتمتم الشيخ وطلب ماء ساخنا يتوضأ به، فقد أنساه الحديث صلاة العشائين.

3

ارتدت يد قاسم عن الجرس كمن لسعه تيار، على الصوت المرح الذي ناداه من خلفه:

وارتبك قاسم وهو يصافح غناماً، أحد زملائه في الدراسة.

ـ ماذا تفعل هنا؟

لم تخل نبرة غنام من لهجة مرح، وعيناه تلمعان ببريق انتصار. أجاب قاسم في تلعثم ظاهر، كما لو فوجيء يقترف إثماً، كان واضحاً أنه لا يرتاح إلى غنام:

ـ أزور الحاج المنصوري... لا تتعجب ، أو أولى بك ألا تتعجب، فقد اكتشفت أن لي به علاقة نسب.

وابتسم غنام ابتسامة العليم بالأسرار:

ـ طبعاً، طبعاً هذا هو الطريق إلى مثل هذا الرجل الكبير. وأجال بصره في القصر الفخم الشامخ، وأردف:

خطة جهنمية، أهنئك.

توقع قاسم ذلك من زميله. وآلمته اللهجة، وتفرس كثيراً في الوجه الأمرد الصغير، على القامة القصيرة، المتينة، ككرة صغيرة فوق كيس مكتنز.

وبدت له بشاعة صاحبه، في عدم التوافق بين الرأس والجسم الضخم القصير. وطالما غاظته أناقته التي لا حد لها. وأجاب أخيراً وكأنه ينهر زميله:

ـ أية خطة؟ قلت لك إن الرجل من أقربائي، أو هذا ما كشفه لي عمي أخيراً وهو معه الآن داخل الدار.

لم يبد على غنام أنه اقتنع، لكنه خفف من استهتاره الظاهر... وقال في لهجة الناصح:

ـ ما قصدت إغضابك... مهما يكن، فهذه ورقة رابحة في يدك ... لا تضيعها، لو كنت مكانك...

وعدل إطار نظارته الذهبي، في حركة غير ضرورية، وهو يستأنف:

ـ على كل حال، فقد كنت أود أن أتعرف على هذا الرجل من قريب... مهما يكن. فإني أهنئك.

ومد يده إلى قاسم مودعاً مصافحاً.

وظل قاسم في مكانه، يتابع سير غنام وخطواته السريعة الثابتة. ولم يبتعد هذا كثيراً، حتى التفت مرة أخرى إلى قاسم، وقال كأنه يصيح:

أود أن أراك يا قاسم... بعض محاضرات تخلفت عنها، ولن أحضر غداً أيضاً.

أشار مرة أخرى مودعاً، والابتسامة لا تفارقه. وتساءل قاسم بينه وبين نفسه: ما الذي أتى بغنام إلى هذا الحي؟ وخيل إليه أن زميله ما زال واقفاً أمامه يجيب، بابتسامته المعهودة:

ـ أنا؟ جئت أيضاً في زيارة عائلية، لبعض الكبار!

لكم يكرهه الآن، ويعجب لثقته بنفسه التي لا حد لها. معرفتهما قديمة، لكن الانسجام لم يمتد بينهما قط:

كان غنام معلماً مثل قاسم، قبل أن يظفر بالمنحة أيضاً. وكان غنام مفتتح العلاقة بينهما. أظهر إعجابه بقاسم، مطرياً مواهبه، وتلك طريقته.

واكتشف فيه قاسم ثعلباً، أو هكذا خيل إليه، يتسلل إلى كل الأجواء. لكن قاسم مع ذلك، لم يكن متيقناً من صدق حكمه. إنه يخشى أن يحاكم الناس، كل ما هو متيقن منه، شعوره بعدم الارتياح إلى سلوك غنام، وحتى ما يبدو من هذا صراحة، يبدو في فهم قاسم، وقاحة أو مكراً. ذات يوم، بعد أن استمع إلى انتقاد قاسم لسلوكه:

ـ أنا فقير كما ترى، ويجب أن أسلك كل طريق يبعدني عن هذا الفقر. إني أعمل بمثل إنجليزي يقول: «اجذب صنارتك أو أضرب في الوقت المناسب». ولن أراوغك يا قاسم، أنت فقير مثلي، وطريقنا يجب أن يكون واحداً، لست مثالياً ولا أتعلق بالأوهام. أريد أن أعيش في أحسن حال، وكفى.

لم تتعد علاقتهما ذلك. ويتضايق قاسم باستمرار من لهجة زميله، ويراقب سلوكه من حيث لا يشعر، ولا يريد، وربما حاول أن يتجاهل وجوده دون أن يستطيع، وكثيراً ما سأل قاسم نفسه عن سبب هذا الشعور من جانبه، وعن سبب اهتمامه بغنام، وتوصل إلى أن سبب شعوره ربما كان ناتجاً، عن سلوكهما المختلف في الدراسة. فرغم أن غناماً، يجتاز كل مراحل دراسته بنجاح كقاسم، فهو لم يكن موفقاً كل التوفيق كطالب مجد. لكن هل يكفي هذا لزرع شعور معين في ضمير قاسم على صديقه؟

كلا، بل ربما رجعت عوامل هذا الشعور بالضبط، إلى أن غنام، كان يتوسل إلى نجاحه في الامتحانات، بكل الوسائل. يذكر قاسم، مواقف زميله

في مختلف الامتحانات، وهو يدخل مستعداً بكل وسائل الغش... ولكن هذا أيضاً يبدو سخيفاً، كسبب لهذا الشعور الحاد بعدم الارتياح إلى هذا الصديق. ومهما تكن الأسباب، فهناك اعتداد بالنفس إلى درجة الغرور، يبدو على سلوك غنام. وهناك أيضاً وصولية واضحة في هذا السلوك، قد يكونان أهم ما يدخل في عوامل ذلك الشعور، وكم مرة كرر قاسم: لم لا أدعه وشأنه؟ ليكن من يكون. فما دمت لا أحتمله فلم أشغل نفسي به؟ أما مظهر قاسم فكان هادئاً متزناً، وتواضعه الجم يفرض الاحترام، ومساعدته للغير، وجده في العمل، كل ذلك كون له سمعة... لكن هذا قد لا يكون إلا مظهرا، وربما كانت أعمق أعماق قاسم، لا تختلف في طبيعتها عن طبيعة غنام، بل ربما كانت هذه الطبيعة الباطنية، التي يلتقي فيها الزميلان، رغم مظهريهما المختلفين، هي سبب عدم الارتياح السائد بينهما. ويكون معنى ذلك أن قاسماً مدفوع عن لا وعي، إلى رفض الصورة التي يظهر بها صديقه، والتي تحمل بالنسبة لقاسم، طبيعته الأصلية، التي يحاول أن يغطي عليها، بمظهر مكتسب مخالف لها. وهنا يتساءل قاسم بينه وبين نفسه، مرتعباً: أحقا؟ يكون مظهر غنام، نسخة من شخصيتي الباطنية؟!

وما لبث أن ثار على هذا الخاطر. يكاد يصرخ ليقنع نفسه: مهما يكن، فأنا أرفض مظهر غنام، سواء انطبق مع باطنه أم لم ينطبق، وأرفض طبيعتي الباطنية، إن كانت تطابق ما عليه غنام، وأعمل ضدها وهذا يكفيني...

وكأنما ارتاح لهذا التبرير، فانتبه من جديد إلى مكانه، وجال نظره في الحي الهادي الجميل، وقد تلونت السماء بلون الغروب، وفاحت في الجو روائح الأزهار والرياحين... فاتجه من جديد، نحو الباب الحديدي الكبير، ومد يده إلى الجرس، ضاغطاً عليه بقوة.

انفرج الباب الحديدي الكبير، وبرزت رأس صغيرة لطفل أسود. متسائلا. فرد قاسم:

ـ أريد الحاج المنصوري.

وغاب الطفل دون أن ينبس بلفظ، وما لبث أن عاد على أثر ذلك، رجل في ملابس بيضاء، يبدو أنها خاصة بالخدم، وبدا من ملامح الرجل، أنه والد الطفل، وسأل قاسماً:

ـ من تريد يا سيد؟

ـ الحاج المنصوري. أهو هنا؟

وبدا التردد على وجه الخادم، ثم تجاهل الرد على سؤال قاسم، وسأله بدوره:

ـ من سيادتك؟

ـ قاسم...

وتلعثم لسانه لأول مرة باسمه. واستفهم الخادم مرة أخرى:

ـ قاسم، ياش؟

وارتاع قاسم من فراغ اسمه، كأن مقاطعه غريبة. وردد اسمه في خاطره مرات، نكرة لا معنى له ولا تحديد، أجوف، وترددت في خاطره، سلسلة أسماء، لها المعنى والوزن اللازم. إنها ليست منه ولا هو منها، هذا يعرفه من قبل، لكنه لم يعش لحظة حرجة يعاني فيها وزن الأسماء. والرجل ما زال يتطلع إليه: قاسم ياش؟ ياش؟ تلك الأسماء لا يعقبها هذا السؤال، القصير البليغ، المعبر عن المعاني والأوزان في عالم الأسماء: ياش؟

ورد قاسم متردداً، كأنه يلتمس موقعاً لقدمه في الظلام:

ـ قاسم... الشاوي.

هل امتلأ الآن؟ هل اكتسب اسمه وزناً؟ نظرة الخادم لا تدل على ذلك، وقال موضحاً للرجل الذي أوشك أن يعود إلى الداخل:

ـ اسمع... يوجد الآن في الداخل، مع الحاج المنصوري، شيخ بدوي... الحاج علي، إنه عمي... أريد أن أراه أو أعود به.

وغاب الخادم دون أن ينبس، ثم عاد وفتح الباب. فخطا قاسم يتبعه ليجد نفسه في ساحة مستديرة، ذات أرضية رخامية، تتوسطها خصة ضخمة، يتقاذف من عيونها الماء. وعلى جانبي الفسحة، وراء طوار بارز، تمتد حديقة منسقة غناء، يميناً وشمالا، محيطة بالقصر الرابض في أقصى الفسحة، على درجات عالية.

صعد قاسم وراء البواب، ووقفا تحت سقيفة عند مدخل القصر، يتوسطه باب من زجاج ثخين ملون، مدعم بشباك معدني، ذي أشكال هندسية متشابكة. ضغط الرجل على جرس صغير، وسرعان ما انفتح الباب، فأومأ إلى قاسم بالدخول، فإذا هو في بهو كبير، ترتفع في وسطه قبة مجوفة بنقوش بديعة، وقد تدلت من السقف، من كل ركن، عناقيد الزخرف والنقوش، وتعدد على جوانب البهو، غرف عديدة يبدو أثاثها الفاخر من أبوابها المفتحة. ولمح قاسم من أحد الأبواب، رجلا فارغ القامة قائماً يصلي، بينما أشار إليه الخادم بأن يتقدم، نحو غرفة إلى اليسار، لم يجد بها سوى عمه متكوراً بين الوسائد الفخمة، يكاد يغيب فيها، وأمامه أدوات الشاي، لم تمض مدة، حتى دخل المنصوري، الذي كان يتطلع إلى قاسم وهو يجلس قبالته، على حشية واطئة، وفي فمه ما تزال، دعوات تتردد:

ـ هو ذا ابن أخي... قاسم.

وردّ المنصوري ويداه تمرران سبحة لؤلئية.

ـ نعم عرفت... مرحباً به.

وجمع حاجبيه المشوكين النافرين إلى أعلى، ووجهه الذي بدا مستطيلا قوي العظام، وأنفه الضخم البارز... في مظهر يشي بالقوة التي كان يتمتع بها الرجل في شبابه، إن جاز أنه الآن، ليس على مثل تلك القوة، وقال كأنه يلوم قاسماً:

ـ كيف لا تزورنا يا بني، وأنت هنا منذ سنوات حسب ما أخبرني عمك؟

وردّ قاسم في استحياء، وقد أخذ بتواضع الرجل، وكان في نيته أن يقول: لم أكن أعرف أن بيننا قرابة. لكن عندما تذكر شهرة المنصوري، وما عرف به من إحسان، وكثرة قاصديه، لم يجد فيما دار في نيته مبرراً، وقال:

ـ لم يحصل لي الشرف، يا سيدي.

وتدخل عمه:

ـ هكذا شباب اليوم، لا يهتمون بصلة الرحم والبحث عن الأحباب...

وطفق يعيد حكاية الجد الأكبر للمنصوري، الذي هجر القرية، وأبناءه الذين لم ينسوا قريتهم وأهلهم أبداً، وبعث صورة المنصوري وهو فتى يافع مع والده يزوران القرية إبان المحصول، ثم أنهى عبارته موجهاً الكلام إلى المنصوري، الذي بدا أنه يؤمن على كل ما يقوله محدثه:

ـ ولكنك يا حاج، تتفق معي على أنك بعد والدك، الله يرحمه، لم تتردد علينا إلا مرات قليلة جداً.

وبدا المنصوري كأنه يعاني ألماً وهو يقول:

ـ الصحة يا حاج تدهورت.

وأومأ الآخر، كأنما ذكرته كلمات المنصوري، ما يعانيه هو من أمراض، فبحث عن بخاخته، وضغط عليها مرات في حلقه، وإن لم يبد عليه، أنه يعاني أزمة ما.

ووجه المنصوري كلامه إلى قاسم، مرة أخرى:

ـ أين تدرس؟ لم أفلح في فهم ذلك من عمك؟

ـ في كلية الآداب، فرع...

وقاطعه المنصوري كمن لا يعبأ بالتفاصيل:

ـ أعرف كثيراً من الطلبة، يترددون علي لبعض المساعدة، أستغفر الله، لا أذكر الأسماء، لكن ابن أخي والفقيه التاغي، يسجلان الأسماء، لا بد أنك تعرف بعضهم.

قال قاسم، وهو يضغط على كأس شاي، ناوله إياه صبي من خدم الدار، بعد أن ملأه من براد ضخم أنيق، على الصينية التي أمام عمه. ولمجرد أن يرد على حديث المنصوري، وكأن الكلمات تخرج من باطن شخص آخر:

ـ أنت طيب ورجل خير وإحسان، فالمدارس والمستشفيات والمساجد التي أقمتها و...

قاطعه المنصوري غير عابىء بذلك:

ـ لا فضل لي يا ولدي في ذلك، الله هو الذي يعطي، ويبني ويحسن، أما أنا فلست إلا وسيلة...

وتوقف يستغفر ويحوقل، والحبات اللؤلئية تسرع بين أصابعه، ثم توقف، وأتم كلامه:

ـ ما ترك لنا الأولون شيئاً نفخر به، أين أنا من إحسان والدي؟ لقد رأيت العجب من كرمه يا بني.

وصادف هذا الحديث هوى في نفس الحاج علي، كما تصادف الريح شراعاً مبسوطاً، فاندفع يحي صور الماضي، والأسلاف وزمن البركة وقناعة الناس، أما اليوم فكل شيء قد تغير، وتحدث عن زمان، كان شرب الشاي فيه نعمة أي نعمة. في قريته لم يكن يملك الصينية والبراد والبقراج النحاسي، إلا والده... بل لم يكن في القبيلة كلها إلا أفراد قلائل، لا يتجاوزون الخمسة يملكون ذلك... وعندما ينزل ضيف عند البعض، فإن أحد الأتباع يمتطي فرساً، ويسرع إلى أقرب قرية، لاستعارة أواني الشاي. وربما استعار السكر والشاي أيضاً... ولم يكن أحد يجد غضاضة في ذلك، أما اليوم فلا أحد يتحدث بنعمة ربه، وختم مؤكداً وموجهاً كلامه، إلى المنصوري الذي بدا أنه حق الفهم، ويتابعه:

ـ ضاعت القناعة يا حاج.

وأضاف الحاج في تحمس:

ـ ضاع الإيمان، والشكر والإحسان... ضاع كثير يا أخي.

وأكد الشيخ علي:

ـ صدقت ضاعت القناعة والإيمان و... وكثير.

وأحس قاسم بأنه غريب، لا يشعر به، وطفق المنصوري يتحدث عن أيام زمان أيضاً، عندما كان الإحسان إلى شخص، لا يتعدى تمرة أو كرموسة أو كسرة. أما اليوم:

ـ الفلوس. كل واحد يطلب الفلوس. حتى المتوسلين لا يرضون بالقوت، وتعطي صبحاً، من يعود إليك ظهراً وعشاء. الله يلطف... الله يلطف...

وعادت أصابعه تسرع على حبات المسبحة، ثم توقفت ليقول المنصوري، وكأنه يحدثه بسر خطير:

ـ بمناسبة القناعة والشكر، اسمع يا حاج: وانبعثت من حديثه صورة

الرئيس الكبير، الذي لا يستعطي كسرة ولا تمرة، ولكنه يطلب الوساطة لترقية أكبر. والمسؤول الآخر، الذي يطلب تدخلا هنا أو هناك، والثالث... والرابع... وإنهم لكثير، يقتلهم الخوف على مراكزهم، ويملأ نفوسهم طمع لا يرتوي إلى ما هو أرقى...

ووشت حركة يده بالتذمر، وهو يعود إلى مسبحته قائلا:

ـ الكل يتسول... والله يلطف.

وربطت حكايات العمر الذهبي للقناعة والإحسان، والحاضر المتسول الطموح، بين الشخصين، وقاسم بينهما حلقة مجهولة السبب، مبتورة، لا تنتمي لفترة معينة.

ودخل خادم يعد السفرة، في الطرف الأقصى للغرفة الفسيحة. ودخل على الأثر رجل بدوي، رث الحال، يبدو عليه الاستئناس بالدار وأهلها... جلابته صوفية غليظة سوداء. وبَلْغَة متهالكة، خلعها عند العتبة. سلم بيد خشنة على قاسم وعمه، وانتحى مجلسه قرب المائدة، قائلا بطيبة ابن الأرض:

ـ العاقل يختار مكانه.

وسرت البسمة في وجوه الحاضرين وكان الخادم قد بدأ يصف الأطباق وقطع الخبز على المائدة. وأومأ المنصوري إلى ضيفيه بأن يأخذا مجلسهما إلى المائدة. وسرعان ما استغرق الحاج علي، مع القروي، في أحاديث طويلة، ربطت بينهما برباط قوي، من الاستجابة والتفاهم. وانتهز المنصوري، فترة صمت بينهما، ليسأل صاحبه البدوي:

ـ هل أنهيتم يا عباس؟

أجاب الرجل في تذمر متكلف:

ـ مع فقيهك التاغي، لا ننتهي قبل الصبح... إنه يسأل عن النعجة،

والخروف، والعجل، عن علامته ولونه... يا شيخ سجل العدد والسلام...

قال ذلك ونفض يده، كأنه بالفعل ينهي الشغل كله بهذه الحركة.

وعلق المنصوري على ذلك، بلهجة استنكار أرادها أن تكون بين الافتعال والحزم:

ـ وماذا تريد؟ إنه يقوم بشغله، أم تريد أن يكون مثلكم؟

وتساءل عباس مستنكراً:

ـ مثلنا؟ يا سيدي إن أردت...

وتوقف ينظر إلى الجميع، كأنما يهيؤهم لسماع ما سيقول ثم أردف:

ـ إن أردت يا حاج. كما قلت لفقيهك: اعملوا صورة، واطبعوا أوراق تعريف، للنعاج والعجول!

وضحك بملء فيه، وضحك الجميع معه. كانت خفة الدم، بادية عليه واستأنف يقول، متوجهاً إلى الحاج علي، ولكنه في الواقع يعني المنصوري:

ـ يا سيدي... هذه دارنا، الله يكبر ويزيد، ويطول عمر مولاها...

وكانت هذه مناسبة، ليتحدث عن عمل أبيه، في رعي وحرث ممتلكات المنصوري، وعن ترعرعه في تلك النعمة، ومشاركته لوالده، ثم مشاركة أولاده له اليوم، في نفس الشغل، وأنهى كلامه، كما يعود المنشد إلى اللازمة.

ـ يا سيدي الدار دارنا، الله يطول عمر مولانا ويزيده...

كان الثلاثة قد بدأوا يأكلون، بعد أن شجعهم القروي، أما المنصوري فاكتفى بأن قال لهم:

ـ بالصحة.

وتناول تفاحة بدأ يقشرها، من إناء كبير، تنوعت فواكهه. كان واضحاً

أنه يلتزم بنظام معين في التغذية، وسرعان ما انتبه إلى شيء فتمتم:

ـ أعوذ بالله... نسيت الدواء...

وتساءل المنصوري بعد فترة، عن حال الماشية، وانطلقت مع اللقم في فم القروي، مئات الأعداد، من الخرفان، والنعاج والثيران... عن القطعان السوداء، والبيضاء، والبلدي والرومي منها، وأنهى حديثه متوقفاً في لهجة أسي:

ـ إنما يا حاج.

وتساءل المنصوري:

ـ ماذا؟

ـ قبيلة أولاد عمران.

ليس عباس إلا واحداً من عشرات من أعوان المنصوري، ورعاته، وليست الضيعة التي يسيرها، إلا واحدة من عشرات غيرها. لكن أولاد عمران هؤلاء، قبيلة تحسد عباس على نعمته، أو على الأقل هذا ما يفهمه عباس، ولذلك فهذه القبيلة تشاغب، تارة تسرق بعض العجول أو الخرفان من المراعي، في غفلة أبنائه أو تترك مواشيها تعيث في الزرع...

ـ الحسد يا سيدي والكفر بالله... والمزاليط، الكلاب، لا يصلحهم إلا السوط.

وحرك المنصوري رأسه، علامة الموافقة، وكذلك فعل الحاج علي. الرأس الوحيدة التي لم تكن تتحرك للريح، هي رأس قاسم.

وأردف القروي، موجهاً كلامه إلى الحاج علي:

ـ تصور يا سيدي. هذه القبيلة الكافرة، خصص له الحاج مراعي فسيحة لماشيتها. لكن ذلك لم يكفهم، ولم يقفوا عند حد. لأنهم يعرفون أن سيدي

الحاج، قلبه هش، ويحسن إلى الضعفاء... أما أنا فأعرفهم. وكان من رأيي ألا تخصص لهم شبراً واحداً، إلا بالإيجار.

وتنحنح المنصوري وقال:

ـ قل لي يا عباس؟

ـ نعم؟

ـ هل أنت تأخذ منهم إيجاراً، عن تلك الأراضي.

وتوقفت يد عباس عن اللقمة، مبهوتاً أول الأمر، ثم ما لبث أن قال:

ـ إيجار يا سيدي؟ إنك لم تقبل ذلك، وقلت لي...

وقاطعه المنصوري:

ـ نعم، نعم، لكن أحدهم قدم عندي، وأخبرني أنك تؤجرها لهم، خلاف ما وعدتهم!

وابتسم عباس:

ـ أخالف أمرك؟ هها، كذب. من قالها... أهو المعطي أم ابن فاطنة؟ من هو؟ من هو؟

ولم يبد له أن المنصوري سيخبره باسم الشخص، بل لم يبد له إن كان المنصوري صادقاً، أم فقط يتخذ ذلك طريقة لاستطلاع ما يجري، وقال عباس:

ـ على كل يا سيدي، أنت تعرف هؤلاء القوم. طمع وحسد وشر. وتعرف شغلي، حتى زوجتي والصغار يشتغلون معي، بأيديهم يكنسون ويحرثون ويرعون، فلا تنصت لأحد، ويجب أن تزور بنفسك.

وبدا المنصوري يتألم، لأنه لم يعد يستطيع أن يطوف على مزارعه، وأعوانه

المنتشرين في كل قبيلة بعد تدهور صحته، وهو لا يتجول أحياناً في السيارة إلا مخالفة لأوامر الطبيب، حتى السائق، أصبح وكأنه لا شغل له. لو كان له أولاد، لأراحوه من مثل ذلك. لكن رجلا مثله بدون عقب، ما عليه إلا أن يستسلم لأعوانه وقال:

ـ أعرفك حقاً يا عباس، وأنت مصدق عندي.

وارتاح عباس، وعادت يده نشيطة الحركة إلى فمه.

وعندما رفعت المائدة، قال عباس، وكأنه يتابع حديثه:

ـ عندي يا سيدي الحاج طريقة تؤديهم بها، ونحفظ الزرع والماشية. وتساءل المنصوري:

ـ قل؟

ولمعت عينا عباس، في مكر ظاهر: الغابة يا سيدي، الغابة كاريتوز «كاليبتوس» يا حاج. نغرس الأشجار من حافة النهر إلى الضاية، حزام محيط من ثلاث هكتارات عرضاً، وبذلك نعزلهم عنا، وإذا أكلت ماشيتهم ورقة واحدة من شجرة. سجنتهم الحكومة، وتنتهي من كل شيء.

ونظر القروي باعتزاز إلى من حوله، وتطلع إلى المنصوري الذي حاول أن يخفي إعجابه بالفكرة، فتشبثه بعباس وأمثاله، لم يكن لغير سبب: فهم عند الحاجة تتفتق أذهانهم بعفوية، عن العجائب وقال:

ـ ستتطلب هذه الغابة، أكثر من خمسمائة هكتار.

وقال عباس مشجعاً:

ـ خمسمائة هكتار، ألف هكتار، هل تنقص الأرض؟ يا سيدي الحاج، هذا سور أبدي بينك وبين القبيلة كلها!

وأظهر المنصوري أن منطق عباس، يغلبه فقال:

ـ إذن، لا تنس أن تحدث الفقيه التاغي بالموضوع، لينفذه في أقرب وقت ويجب أن تنتهيا هذه الليلة، من تسجيل الماشية.

وصدرت عن عباس حركة كأنه يقول:

ـ ننتهي الليلة؟ يا ليت...

كان القروي، آخر من غسل يده بعد الأكل، فقام مسرعاً، مودعاً الحاج علي، بحرارة.

تحفز قاسم يهيب بعمه أن يودع، لكن المنصوري أدرك الحركة، فعرض عليهما أن يطيلا الجلسة معه، وأن يشربا الشاي مرة أخرى، فاعتذر قاسم، واعداً بأن يكرر الزيارة مراراً.

رافقهما المنصوري إلى الباب، وهناك ودعه الحاج علي شاكراً.

ـ أبقاك الله لنا... يدك لا تنسى، سأخبر الفلاحين بكل شيء، ودائماً أذكرك لهم، ليتك تزورنا.

كان واضحاً أن زيارة الحاج علي، بلغت غايتها، فالانشراح باد على كل جارحة منه. ومد قاسم يده إلى المنصوري مودعاً، فأبقاها هذا وسأله في همس تسمعه الحاج علي:

ـ كم منحتك الدراسية يا بني؟

وأحس قاسم بالدماء، تندفع حارة إلى وجهه:

ـ هي... هي...

ولم يبن، فقاطعه المنصوري.

ـ أعرف. والعيشة مرتفعة هنا، لا تنس أن تمر غداً عند الفقيه التاغي،

مكتبه في الواجهة الخلفية. سأحدثه في الموضوع الليلة، ثم تساءل: والكراء؟

وانحلت عقدة قاسم:

ـ مائتا درهم.

وابتسم المنصوري مشجعاً:

ـ سندبر هذا أيضاً إن شاء الله، عندما تزورنا...

وتمتم قاسم بالشكر، وهو يقبل يد المنصوري بحركة عفوية، تعجب لها فيما بعد. أما المنصوري فقد سحب يده، مستعيذاً بالله.

ظل المنصوري واقفاً عند الدرجات، وقد بدا البواب مستعداً لإغلاق الباب الخارجي، وراء الضيفين.

4

أقبل على مقهى الكلية في لهفة، للمرة العشرين، لم تأت بعد، بل لا أحد والعجوز الفراش وحده بين الأفران التي لم توقد بعد. الوقت مبكر إذن. وكرر هذا لنفسه مراراً، وهو يتجه صوب الحديقة. أصبح لهذا اليوم من كل أسبوع، طابعه الخاص في حياة قاسم، وكل ما عداه من أيام، لم تعد سوى أرضية باهتة يطفو عليها الثلاثاء. كان قد أكمل الدورة وعاد إلى المقهى. طالبان فقط، دلفا واقتعدا كرسيين في انتظار أن يعد العجوز الجدران، تمثل كائنات يونانية، كأنه يراها لأول مرة...

أنهى قهوته، وطفق يلقي نظرات هائمة على كراساته، واكتشف أنه لا يقرأ، وإنما يفكر في أخطار الطريق وحوادثها، ويتحدث بأن هنية قد يصيبها حادث، في الطريق إلى الرباط.

وهتف به صوت ناعم:

ـ صباح الخير.

ـ أهلا، تفضلي، كيف كانت الرحلة؟ أجابت هنية، وهي تمد إليه يدها مبتسمة:

ـ الجو رائع هذا الصباح.

قال وهو يرنو إليها:

ـ خواطري لم تكن مناسبة. وبحركة رشيقة، أزاحت الخصلة السوداء عن جبهتها، وهي تتساءل:

ـ خواطرك؟

ـ تصوري أني فاجأت نفسي، أفكر منذ لحظة في أخطار الطريق التي قد يعرضك إليها السفر.

ردت، وهي تزيح محفظتها عن ركبتيها، لتضعها على المائدة الواطئة أمامها:

ـ أنت إذن لا تصدق أني ماهرة في السياقة.

وابتسمت فقال مغيرا الموضوع:

ـ ماذا تشربين؟

ـ عصير برتقال.

وردد نظره بينها، وبين الطلاب والطالبات المزدحمين على البار. وقال في ابتسامة آسفة:

ـ الطالب غال. هنا لا يوجد إلاّ شاي أو قهوة.

وردت:

ـ إذن ماء.

وبعد أن جرعت من الكوب. قاربا مقعديهما، وشرعا يراجعان بضع كراسات، قبل ابتداء الدرس.

تراقصت أمواج المحيط، متسابقة ترتمي في مياه أبي رقراق، منسابة بهدوء

تحت نظرهما. كانا في مجلسهما المعتاد، في المطعم البحري، وعلى نفس المائدة لم ينس أن يخبرها، أنه هو الذي يدعوها اليوم للغذاء. وقال في مرح ظاهر:

ـ سأمثل دور الغني هذا اليوم، فلا تحطمي كبريائيّ... هبطت على ثروة مفاجئة. فما رأيك؟

زمت شفتيها الورديتين، وقطبت قليلا بين الاستغراب والاستهزاء.

ـ لا تهزئي، إني أتكلم الجد.

وتسربت إلى ثغرها ابتسامة، وهي تقول:

ـ متى تعلمت الهذيان؟

ـ هذيان؟ أبداً.

وبدون مقدمات شرع يحدثها عن المنصوري، الثري الكبير والمنحة الإضافية، التي خصصها له:

ـ تصوري، أصبح لي عنده راتب شهري، كأنني موظف. تصوري، ولست الوحيد، بل هناك كثير... إني لأتعجب، كيف كانت خطوات معدودات، ولحظات تعارف وجيزة، كافية لإحداث كل هذا، ولم أفعل ذلك من قبل. حقاً إن الحياة محيرة! وتصوري، أن هناك الآن، في كل بقعة من بلادنا العريضة، يوجد من هم على بعد خطوات، من مثل هذا ولا يخطوان...

وتساءلت دون انتباه إلى تعليقاته:

ـ هنيئاً. كنت مقصراً في حقه، ما دام من معارفك.

ورد عليها في جد ظاهر:

ـ ربما... لكنك لا تعلمين أني مريض بكبرياء فظيعة. يخيل إلي أن كل ما يأتيني عن طريق الغير، يستعبدني. أريد أن أعطي، ولا آخذ من أحد، لكني

لا أملك ما يعطى، وهذه إحدى مشاكلي... أتعلمين أي شعور يخامرني؟ إني أشعر بهذه المنحة، كأنني جريح أو بائس. وعبثاً أقاوم هذا الشعور، لأقنع نفسي بأن الحياة هكذا، والأمور هكذا، كل شيء هكذا... تصوري أي عذاب أقاسيه. عندما أتذكر حركة صدرت عني عفواً، وأنا أودع المنصوري. هممت بتقبيل يده، بل ربما قبلتها أو التهمتها. من يدري ما قد يصدر عنه في تلك الأحوال الفجائية؟... وكنت على وشك أن أقرر عدم زيارة الفقيه التاغي. لولا تشجيعات عمي ووالدتي وبقية في نفسي تغالب ذلك الشعور، وترده إلى مركب النقص.

وعلقت على تفصيله بإيجاز:

ـ ستتغلب على شعورك، وتعتاد مثل هذه المواقف.

واختطف منها الكلام:

ـ سأعتاد؟ هذا ما يرعبني. ومع ذلك، أحس بأني مدفوع إلى أن أعتاد... ومكتب الفقيه التاغي، لا يقاوم إغراؤه. خيل إلي وأنا أحوم حول مكتبه، وأدور متردداً، كأنني فراشة يجذبها النور. ثم أغمضت عيني، وارتميت في اللهيب. هكذا خيل إلي.

وقاطعته في شبه احتجاج:

ـ خيالك يضخم الأمر، كن بسيطاً في تصوراتك.

وقال:

ـ البساطة؟ هذا ما أعشقه في كل شيء... إني قد أعقد الأمور عندما أرد كل شيء إلي ذاتي، وربما لأني أهتم بنفسي كثيراً. وهذه أنانية ما في ذلك شك. لكني أريد أن أعرف نفسي، وفي كل لحظة أكتشف في الأعماق أخدوداً غائراً من الشعور بالإثم. لا أومن بالخطيئة الأولى. لكني من وسط لا يخلو من ذلك

الشعور. والدي مات نتيجة تعذيب وحشي، تحت ضرب من ذلك الشعور. إن لم يكن شعوره بذنبه هو، فبذنب الآخرين نحوه، فمثل مأساة المسيح في قريته. ووالدتي تحمل شعوراً مركباً بالذنب، بذنبها وذنب الآخرين في حقها، ولن يفارقها ذلك. إنها هيكل مصلوب متحرك. كم تحاول أن تكفر عن لحظة اقتنعت بأنها آثمة، أثمرت في بطنها. ومن ثم، خلطها المضني المتعمد في تواريخ الازديادات والوفيات...

وإني لأقسو عليها عن وعي، علها تفهم وضعها، وتدرك أن ما تتكلفه من خلط، لا يمحو الجريمة، إن كان ما تعتقد أنه جريمة قد لا يكون كذلك من زوايا أخرى. وإن شر ما في الأمر أنها أصبحت ضحية تبريراتها، مصدقة أكاذيبها. فعندما تدافع عن تاريخ معين، لا ينسبها المرء لغير الجنون، لتفاهة الحجة. ومع ذلك كم تتشبث وتتحمس لما تقول.

أترين أي جو يساعد على كل المركبات نعيش فيه؟ وعندما تدرك والدتي، أنني أفهم، وأغفر لها عملها دون أن أقتنع بادعاءاتها، تنكسر نظراتها وتبكي، متعللة بأوهى العلل، لأن ذلك لا يكفيها. إنها تريد مني اقتناعاً تاماً، بأنها لم ترتكب إثماً، بينما قد لا أرى فيما فعلت أي إثم... لكنها لا تحتمل النظرة الفاهمة العارفة، ولا تحتمل بوجه خاص، ذاكرة الزمان القوية، متمثلة في التواريخ والمقارنات ونظرات الغير...

وأخي، إنه يبدي مظهر غير العليم بما يدور، لكن سلوكه الشاذ، حياءه الزائد عن الحد، بل خجله الشديد، وهروبه المستمر إلى نفسه، وانطواءه... إنه قد لا يشعر فقط بالذنب، بل ربما ملأ نفسه، أنه هو الذنب ذاته... أترين؟

كانت قد تراجعت بمقعدها، قليلا إلى الوراء. لم تجب عن سؤاله، وإنما قالت:

ـ حسناً، أكمل غذائك.

وانتبه إلى أنها قد كفت عن الأكل منذ فترة، فقالت، وهو يقبل على طبقه من جديد:

ـ العيب الوحيد فيما قلته، أعني في موقفك، هو ما انتبهت إليه ولكنك فيما يبدو تتجاوزه، أما أنا فأعتبره أساسياً، وإني أحاسب نفسي على أساسه: يجب أن تخرج من ذاتك، وهذا سبيل التخلص من شعورك الذي تصف. لو خرجت من ذاتك، لما تضايقت من الغير، بل لبدا لك كل منهم شبيهاً لك ونظيراً، يستحق العطف، والحب، والمساعدة، ولوجدتهم في حاجة إلى من يكتشفهم، ويتعاون معهم.

قاطعها وقد خفت حدته بعض الشيء:

ـ ربما كنت محقة، فأنا لا أستطيع أن أزعم أنني الوحيد من نوعي، أو أن أسرتي تنفرد بلعنة معينة. لكني مع ذلك، أريد لأشباهي ونظائري أن تفصح عن نفسها، وأن تتمثل واقعها بما فيه من نقائص برؤية واضحة، وما لم يفعلوا ذلك، فلست مستعداً لأجدد حكاية الذئب المقطوع الذنب، الذي سعى لقطع أذناب كل الذئاب حتى لا يتميز عنها. لذا فإني أفترض، أنني لا أزال في مرحلة الكشف عن نفسي، وهنا يجب أن أتجاهلهم أو أحاول ذلك ما أمكنني.

ردت في استنكار واضح:

ـ تتجاهلهم؟

ـ مؤقتاً، لابد من ذلك.

وكأنما أدرك أن هذا الحديث، قد لا يكون مناسباً، فاعتذر وأجابت:

ـ أقدر ظروفك ومواقفك، وأظن حديثك، جعلني أفهمك عن قريب.

وعرضت عليه أن يغيرا المكان، فغادرا المطعم. كان عليهما أن يدورا حول نصف المدينة القديمة، قبل أن ينحدرا في ممر بين مقبرتين قديمتين، يسلمهما

إلى فضاء خال، يحده الشاطيء الصخري. وقفا على الحافة والأمواج تنكسر على بعد أمتار تحت موقع سيارتهما. كانا صامتين. يتأملان الأفق، غارقين في هدير الموج، وخيط خفي، يربط خواطرهما، لكن ذلك لم يدم. وسرعان ما بدأت شفتاها تفصحان، وتفتحت أمام قاسم عوالم جديدة وقال معقبا على ما قالت:

– إني لجد متأثر، لم أكن أتصور...

قاطعته دون أن ترفع عينيها النائمتين:

ـ لعل هذا يغير من نظرتك إلى الآخرين.

ولمت شعرها بيديها تتعهده، ونظرت إلى ساعتها، وأدارت المحرك وعند باب الكلية، شد على يدها بقوة، وكأنه يود الاحتفاظ بها إلى الأبد، وظل يتابعها وهي تخطو بين أزهار الساحة، متسائلا في نفسه: من؟ من يتصور أن هذه الزنبقة الغضة، تحمل كل هذه الهموم؟ الحق كما قالت، يجب أن نخرج من ذراتنا لنكشف تلك الجزر المجهولة، والقلاع المحصنة التي نسميها الآخرين ولنحقق ذلك، يجب أن نغامر كما يغامر المكتشفون في العادة.

ظل صوتها يتردد في سمعه ممزوجاً بهدير الموج، وتلاحقت حلقات من حياتها في ذهنه كما سردتها: نشأتها في الأسرة التجارية الموسرة، من أغنى أسر الدار البيضاء. والدها الحاج التهامي متدين، وعالم من علماء القرويين. كان من الممكن أن يكون سياسياً، لأنه ينتمي إلى جيل أغلب أفراده قادة، من قادة الأحزاب الوطنية. لكن اندفاعه في عالم التجارة، أدى به إلى أن يكون مجرد عامل مساعد في الحركة الوطنية. وآلت به مصالح التجارة إلى أن ينزلق من موقف المساعدة الصريحة، إلى الموقف الوسط بين مطالب الحركة، ومصالح التجارة.

وأكدت هنية:

ـ كثيراً ما أعلن والدي، أنه ضد العنف معللا ذلك، بأن العنف لا يضر المحتل وإنما يزيده ضراوة، لذلك كان متضايقاً جداً من انبعاث المقاومة المسلحة. التي كانت الدار البيضاء، أهم مسرح لها. وبالتالي كانت مصالحه معرضة لها. في كل لحظة...

واستدركت هنية الكلام:

ـ كان يبرر موقفه، لكننا كنا ندرك الأسباب الحقيقية لموقفه. وتتابعت الأحداث في ذهن قاسم:

ركب الهلع أوساط التجار على أصوات التفجيرات، ومشاهد الحرائق اليومية، وجثت المحتلين والمتعاونين، التي تتساقط في كل ركن، في كل لحظة، وكان الحاج التهامي معبراً شديد الحساسية، عن ذلك الهلع... وفي تلك الظروف ظهرت في أسرته شخصية المقدري، كان مجرد تاجر بسيط، في القيسارية بجوار متاجر الحاج التهامي.

وذات مساء، رجع التهامي إلى داره مضطربا، ممتقع الوجه أحاطت به زوجه، والبنون والبنات الذين كانت هنية أكبرهم... لم يقل شيئاً لأحد إلا بعد أن خرج الصغار، وبقي منفرداً مع زوجه وبنته الكبرى، وبدا عليه التردد. كأنه يستوثق من قدرتهما على كتمان السر. ثم أخبرهما، أن المقدري همس له اليوم بشيء، طلب منه قدراً من المال، مساعدة لبعض المنظمات الفدائية. وعلق على ذلك:

ـ أعرف المقدري، لا يمكن أن ينتسب إلى أية منظمة...

وجواباً على حيرة زوجه وبنته البادية، أجاب:

ـ لم يدع المقدري الانتساب للفدائيين، ولم يزعم أنه يعرفهم، بل قال أنه

مجبر على القيام بهذا الدور، وامتنع عن التفصيل.

وركب الأسرة هلع شديد، وقالت الزوجة بصوت متلعثم:

ـ ادفع...

ورد التهامي:

ـ أدفع، نعم، لكني أعرف المقدري، وإذا كان كاذباً، فسيستمر في استغلالي. ليتني فقط، أتأكد من أنه صادق أو كاذب. أو أن الدفع سيقف عند حد، بل حتى لو كان صادقاً، في دوره فلن يكون صادقاً في المبلغ الذي يطلب. ما الذي يمنعه أن يضاعف المطلوب مرات؟!

هذه فرصته الوحيدة ليغتني وينهض بتجارته، بل ما يدريني أن المقدري متعاون سري، وأنه يريد أن يختبرني ليوقع بي...

وتراكمت المخاوف. لكن الاتفاق تم على الدفع... ولم يلبث الطلب أن تجدد وتجدد، ولعن التهامي الحياة، فقد انقلبت إلى مرارة، وأقبل على أسرته أشد اضطراباً ذات مساء. كانت تقاسيمه صارمة إلى حد مهول، لم ينزع جلابته ويسترح كالعادة. وتنهدت هنية، وهي ترمي ببصرها في الأفق الأزرق وقد بدا عليها أنها تعيش تلك الأحداث من جديد واستأنفت:

ـ أمرنا أبي بأن نكف عن كل نشاط في الدار السفلى، لأنه ينتظر زائراً أو زواراً، وامتنع عن كل شرح، وأغلق عليه غرفته فأذعنا، وصعدنا إلى الدار الفوقية، ولم يبق مع والدي إلا الخادم... وظللنا نترقب حدوث شيء غير معتاد، غير محدد. وقبل أذان العشاء، سمعنا طرقا على الباب، وخطوات الخادم يفتحه. كنا نرقب صحن الدار من فجوات الشبابيك، وتبينا شبحا مجلببا يحادث والدي، ثم تقدما نحو الغرفة. لم نسمع شيئاً، لكن دقات قلوبنا كانت تتسامع بيننا... وخيل إلينا بعد حين، أننا نسمع أصواتاً ترتفع، وكأن مناقشة حادة

تجري، ثم ارتفع صوت والدي، ينادي الخادم، وما كاد باب الغرفة يفتح، حتى دوى صوت الرصاص متتابعاً من الباب الخارجي. يا للهول، مر كل شيء في لمح البصر، وهبطنا نتقافز، كان أبي والخادم، كل منهما غارق في الدماء...

يا للأيام الكالحة، تحريات البوليس المعقدة. وإصابة أبي الخطيرة، والأطباء... كان هولا أي هول...

وعاد المقدري إلى حياة الأسرة من جديد يحوطه الغموض. هل كان كاذباً في المرات الأولى صادقاً في المرة الأخيرة؟ أم كان صادقاً أو كاذباً في الكل؟

مهما يكن، فإصابة الحاج التهامي والخادم، تدل على أن جماعة مسلحة كانت وراء الطلب، وهي في الغالب جماعة فدائية، لكن من غير المعقول أن تنهال كل تلك الطلبات المتتالية، بمقادير مرتفعة من منظمة فدائية، أو على الأصح هكذا كان الحاج التهامي يفكر... ولم يصرح للشرطة بشيء.

واستمرت الغيبوبة بالتهامي، قرابة شهر، وعندما بدأ يستفيق، لم يصرح أيضاً بشيء. كان عازما على أن يطوي هذه الصفحة إلى الأبد، وأن يتجنب الأخطار. وطيلة هذه المحنة، لم يخل البيت لحظة واحدة من المقدري، فقد بدا الرجل لطيفاً، مهتماً بأحوال التهامي وتجارته. وأخبرهم أنه قد نصح الأب بأن يدفع المال المطلوب ويتجنب الأخطار، لكنه ارتاب أيضاً في الشخص المقنع الذي انفرد به في غرفة الدار، وكان قد رتب الأمر مع الخادم، للقبض عليه قصد التأكد منه، دون أن يقدمه للشرطة إذا تبين أنه صادق. دوامة، عاشت الأسرة دوارها الصاخب.

ووقفت هنية، تسترد أنفاسها المتلاحقة، وهدير الموج المتكسر كالنحيب، واستأنفت بصوت خافت:

ـ لم نر بعد ذلك والدي إلا مرة أو مرتين، فقد تكفل المقدري بإخفائه بعد خروجه من المستشفى مباشرة، إذ بيّن لنا المقدري، أن المنظمة ستحاول قتله مرة أخرى، وكان أبي لا يستطيع الحياة في المدينة أو الظهور بين التجار، بعد الحادثة التي جعلته في نظر الناس عميلا، ومتعاوناً... وقل ما شئت من نعوت، بل إن العيون كانت تزور عنا جميعاً، وتجنبنا الناس كالمجذومين... وعلمنا من المقدري أنه أخفى أبي في مكان آمن بأقصى الجنوب، ومضت سنتان، لم يصلنا من أخباره إلا رسائل متقطعة، وأصبح المقدري طيلة الفترة، متصرفاً في تجارة والدي، وقائماً على شؤوننا بإخلاص ووفاء، لم نكن نتوقعه...

وفي بداية السنة التالية من اختفاء والدي، وقبيل عيد الأضحى بأيام، أخبرنا المقدري، بأنه رتب كل شيء لعودة والدي، وأنه أقنع متابعيه بحسن نيته واستبشرنا بذلك. لكن رسالة وردت من والدي، ترفض العودة رفضاً باتاً، وتطلب من والدتي أن تلحق به، في تارودانت، حيث يقيم، وأن أظل مع جدتي والصغار لمتابعة تعليمنا تحت رعاية المقدري، وعلمنا إذ ذاك، أن هذا الرجل قد أصبح شريك والدي، في كل ما يملك...

وتوقفت قليلا، أما قاسم فكان جامداً كتمثال. أية أحداث هذه؟ واستأنفت، وقد خبا إشعاع عينيها:

ـ مضى الآن أكثر من عشر سنوات، على هذه الأحداث ولعلك تتساءل، ماذا أمثل في دوامتها؟

وجدت هنية نفسها، تفتقد حناناً فائضاً كان ينصب عليها، وتتحمل إلى ذلك مهمة الإشراف على تعليم الصغار، وتنظيم الدار الكبيرة... بالإضافة إلى تعليمها، وكانت إذ ذاك قبيل الباكالوريا بسنتين. كان والدها يحرص على تعليمها تعليماً جيداً، فأدخلها مدرسة أجنبية خاصة، وجعل لها أستاذاً خاصاً

للعربية في البيت... وبعد لحاق والدتها بتارودانت، بحوالي سنة، انتقل الجميع إل تارودانت مع الصيف، لقضاء العطلة ولحق المقدري بهم أيضاً لقضاء فترة وجيزة، وهناك جاءت تتمة الأحداث.

وابتسمت ابتسامة مرة، وتساءل قاسم، يستحثها:

ـ ماذا تقصدين؟

وردت بابتسامتها تلك.

ـ أقصد فقط أن مأساتنا، تتلخص في أننا جيل مثقل بأحمال لم نساهم في خلقها، وبذلك نعاني مصيراً لم نضع خطوطه... إني أصل الآن إلى الصفحة التي تتحدث عني... أو عن زوجة المقدري على الأصح...

وصعق قاسم، لكنها لم تترك له فرصة وأكدت:

ـ نعم، المقدري، هو زوجي...

كان شمل الأسرة قد اجتمع في تارودانت. ذات صيف، كما أخبرت هنية. وما كاد المقدري يلحق بهم، حتى سرت بين الأسرة همهمة استغربت لها هنية. لكن ذلك لم يطل، وسرعان ما أخذتها أمها من يدها، مترفقة مبتسمة. وقادتها إلى غرفة الوالد، وهي تمرر على كتفها بيدها متلطفة، وكأنما تعمدت الأم أن يكون الحديث بمحضر الوالد، كما فكرت هنية فيما بعد، ليكون تأثيره أقوى. كان الحاج التهامي يمثل دور المستغرق في تلاوة مصحف، لكنه في الواقع كان يتابع كل حركة، وتحدثت الأم عن افتخارها بهنية، لما أبدته في غيبة والديها، من اهتمام بالصغار والدار... واستطردت إلى امتداح المقدري، وأياديه البيضاء عليهم، وحكمته في تصريف مال والدها، في الوقت الذي تخلى كل الأقارب عنهم... وبعد اللف والدوران، تفهم هنية أنهم قرروا زواجها بالمقدري.

استولت عليها الدهشة، فدارت بها الأشياء والأرض، وهوى رأسها على

كتف والدتها فاحتضنتها، وتردد في سمعها منطق والدها:

ـ يا ابنتي، هذا خير ما يمكن أن يتم، لا أستطيع أن أطمئن عليك، ما لم تتزوجي، وهذا الرجل خدمنا كما لم يخدمنا أحد. تصوري أننا فقراء بدونه، وأنه أكثر من شريك، أي أنه المالك الحقيقي لكل شيء، فلا خير من أن نضمه إلينا، ويصبح واحداً منا...

وفهمت أشياء كثيرة: أن أباها في الواقع يستنجد بها ويستغيث لإنقاذه. ومستقبل الأسرة كله بيدها. متعلق بقبولها أو رفضها... ودخلت في دوامة حقيقية. الزواج؟ إنه آخر شيء كانت تفكر به... والمقدري؟ آخر شخص يمكن أن يخطر ببالها! يا لله، ووجدت نفسها تتأمله بعين الخيال، وبعين الطفلة التي رأته قبل كل تلك الأحداث التي حلت بهم، عندما كانت تزور والدها في المتجر، أو يزور المقدري والدها في البيت لبعض الشؤون.

رأته إذ ذاك، شخصاً خالياً من كل إغراء، قصيراً، أسمر، حاد الملامح، أجدب الوجه، رسمت عليه الحصبى آثارها، وكأنما كان والداها يدركان ذلك، فأكدا لها أنه رجل الملمات، وهذا يكفي. وجمال الوجه يذوب مع الزمان، وتبقى الرجولة والشرف. وفهمت من آخرين وأخريات أن الحب يتولد مع الألفة... لم تكن تصدق كل ذلك، لكنها لم تستطع أن ترفض أو تقبل، فاستسلمت كأن الأمر لا يعنيها، وكأن ما بين الرفض والقبول، هو الاستسلام.

ووجدت هنية أنها يجب أن تتأمل المقدري بعين أخرى، والواقع أن الشعور الذي غلب عليها طيلة الإعداد لذلك الزواج، هو شعور الضحية في لحظاتها الأخيرة. ولا تستطيع الآن، بعد أكثر من عشر سنوات من زواجها، ذاك، أن تنكر أن ذلك الشعور، ما زال يلازمها، إلا أنه يزدوج بشعور آخر ترى معالمه كل يوم في وجه أفراد الأسرة: إنها أنقذت أسرتها، وحفظت ثروتها.

بعد أن لم يكن من الممكن أن يتبقى لها شيء، لو رفضت هنية ذلك الزواج. لكن هذا الشعور ما كان ليميزها عن واقعها بقدر ما يضاعف من حسرتها. لم يقدر عليها وحدها، أن تتحمل هذه الأثقال؟ لم لمْ تكن أصغر البنات، وبذلك تفلت من ذلك المصير؟ لم يتدخل المقدري في حياة أسرتها؟ لم لا يكون موقف أبيها مخالفاً لما كان عليه؟ لَمْ لَمْ... ولا تجد جواباً، بل كل جواب سخافة جديدة. وكم تساءلت، بينها وبين نفسها، هل تحقد على أحد؟ والعجب أنها لم تتبين حقيقة مشاعرها نحو زوجها، وأسرتها بوضوح، كل شيء كان غامضاً. هل سعى المقدري إلى طلب يدها، أم دفع إلى ذلك بوحي من أسرتها؟ هل كان أميناً مخلصاً في علاقاته بالأسرة، منذ المحنة وقبلها، أم أن كل ما حدث جاء بتدبير محكم منه؟ أما هو فلم يكن يفصح إلا عن طبيعة هادئة ولطف، ولكن ملامحه كانت قاسية من دون شك. أما والدها، فلم يكن مدفوعاً إلا بدافع الحفاظ على ثروته، وهو بعيد عن مركزها. وكذلك أمها. ولكن هل قدرا قيمة ما يمكن أن تعانيه هنية؟ كانت تتألم في صمت وتتحمل بصبر وهدوء. ولم تكن تستطيع غير ذلك. وتأكدت من حسن ما فعلت لصالح الأسرة، بعد أقل من سنة من حياة الاستقلال، فقد طلع اسم أبيها ضمن «اللائحة السوداء» التي يجب أن تصادر أملاك أصحابها. لكن زوجها حول... كل شيء باسمه الخاص بمجرد استشفافه للحادث، وقبيل وقوعه. ولم يكن لأحد أن يعارض، وهكذا أصبحت هنية ملزمة بالاستمرار في الصبر والتحمل، أو لنقل، أن ذلك أصبح عندها عادة أو غريزة ثانية، ولم يكن في سلوك زوجها من الناحية المالية ما يريب. فوالدها رغم البعد ينفق كما يشاء وبكامل السعة، ولم يكن من قيد على يد هنية في أن تأخذ أو تدع ما تشاء... لكنها في الواقع لم تكن في حاجة إلى كل ذلك، لأن مأساتها كانت أعمق.

قالت بحدة تهز المقود وتضغطه:

ـ إن كان في حياتي تمرد، فهو التمرد ذاته. كثيراً ما فكرت بأن كلمات: أسرة، تضحية، مجتمع، أخلاق... هي أغلال يجب تحطيمها والإطاحة بها. بالنسبة لي مضت تلك الفترة الذهبية التي تزهر فيها القلوب، ولم أصبح بعد، إلا زهرة ذاوية تنتظر سموماً تعصف بها في آخر العمر.

لم يكن قاسم متأكداً، من أنه سمع كل شيء منها، في تلك الجلسة على الشاطىء الصخري أم أن خياله يضيف إلى ذلك، ولكنه متأكد من أن خياله، مهما يجمح، فسيظل عاجزاً عن تصوير انفعالاتها، وتلوين لحظاتها في بيت الزوجية. وبدا له الزوج عاجزاً عن فعل أي شيء لإصلاح الموقف. إنه بدوره قد يكون أسير عدة شباك:

حبه للمال، أو الجاه، أو لعدة اعتبارات أخرى. وبدا له الزوجان ينزلان من سيارتهما ذات مساء، بعد سهرة خارج البيت. فتحت الخادم الباب فصعدا إلى غرفة النوم.

كان المقدري يبدو لطيفاً مؤدباً، حريصاً على إمتاع زوجته، في حدود ما تسمح به طبيعته، وأشغاله الكثيرة، وأسفاره.

وسبقها إلى السرير، بينما مالت هنية نحو المرآة بعد أن تخففت من ملابسها... وطفا إلى خاطرها سؤال أمام المرآة: لمن أتزين؟ لمن أزف؟ وظلت تتحرك كأنها تنتقي عطراً أو مشطاً أو صبغة، لكنها لم تتناول شيئاً من ذلك... وما لبثت أن توجهت نحو السرير منهكة، والزوج يوشك أن يغمض عينيه، وينفلت سؤال من شفتيه أو تعليق مقتضب، عن السهرة.

وترد هنية دون أن تعي:

ـ ممم...

ويعيد:

ـ هل أنت موافقة؟

وتجيب:

ـ طبعا. لم لا؟

ويقوم من الفراش مستندا على مرفقيه قائلا باستغراب:

ـ أحقاً؟ هذا عجيب!

وتنتبه في شبه ذعر:

ـ عجيب؟ لماذا؟

لم يكن ينتظر موافقتها، بعد معارضتها المتعددة. وتتساءل:

ـ موافقتي على ماذا؟

ـ على ما قلت منذ برهة: سأنقل تجارتي إلى فاس.

وتجيب بدهشة:

ـ فاس؟! لا. قطعاً لا.

ويرتخي مرفقاه، عائداً برأسه إلى الوسادة متمتماً:

ـ إذن لم تكوني منتبهة إلي، منذ فترة وأنا أحدثك عن المشروع.

وتجيب في غير مبالاة:

ـ وما فائدة المشاريع؟

وتلمح صورتها على المرآة المقابلة، فتعيد الهدوء إلى قسماتها وتقول مبررة موقفها:

ـ ما دام المال متوافراً، فلماذا نطلب المزيد؟ هذا ما أقصد دائماً.

ويصدر صوت عن السرير صوت، لا ينم عن شيء:

ـ ممم...

كم حاولت أن تصنع حياة سعيدة. ما دامت لم تهد لها، كما يقول الاجتماعيون! حللت وضعها مراراً، فوجدت خيوط الغربة تنسج كل يوم بينها وبين زوجها. وحاولت تجنب ذلك، فأقبلت على زوجها بكل الضروب، أملا في ولد، يخرجها من الوحدة. لكن الأمل خبا، حين أخبرها ذات مساء بأنه لا ينجب، وأنه متأكد من ذلك بقرار الطبيب. صدمها ذلك، وألحت عليه في استشارات جديدة لم تجد شيئاً. وهكذا انطوت على خيبة ثانية وحديث المرآة يعاودها: لمن أتزين؟ لمن أزف كل مساء؟

واستمع إليها المقدري ذات مساء، وهي تعرب عن مللها من هذه الحياة، فأجاب وهو ينتظر مفاجأة كبرى، يظهر أنه أعد لها نفسه:

ـ إذن نسافر أو... سافري وحدك، حيث تشائين.

وردت بسرعة:

ـ وعندما أعود، يجد شيء...

ورفع حاجبيه متسائلا:

ـ ماذا؟

أجابت بدون تردد:

ـ قررت أن أشغل وقتي بالعمل، سأدخل التعليم.

وخفت أساريره، كأنما كان ينتظر شيئاً أقوى من ذلك، فدار حول نفسه قائلا:

ـ افعلي ما شئت.

وخرج.

مضت بها سنوات في التعليم، صبت فيها عاطفة زائدة على تلميذاتها، كانت تصرف أحيانا أكثر من مدخولها على تزيين الفصل، واقتناء اللعب، والآلات الموسيقية والتصوير... وذهبت إلى تنظيم وجبات لبناتها وتوحيد لباسهن...

ثم هبط عليها قرار بتعيينها مديرة لمدرسة أخرى دون سعي منها، وأقبلت على مهنتها الجديدة، لكن أملها خاب بعد ذلك، إذ وجدت أن معاشرتها للأوراق الإدارية الميتة. والمكتب الجامد، تؤدي بها إلى التفكير في وضعها... إنها في حاجة إلى حياة صاخبة حولها، متجددة، تضيع فيها ذاتها، وتفني طاقتها، تحرقها طول اليوم، لتسلمها إلى السرير رماداً آخر النهار...

وهكذا فكرت من جديد، في شيء آخر ينسيها ذاتها ومأساتها...

وتردد في سمع قاسم جوابها عن سؤال وهما في الكلية:

ـ مشاريعي؟ لا شيء، أحاول أن أشغل نفسي بالدراسة...

5

ترك قاسم المطالعة مجهداً، ومر بحديقة الكلية نحو المقهى. الساعة حوالي العاشرة، ومعركة نقاش حامية بين الطلبة. وعلا صوت أحدهم:

ـ إنها خرافة، أية أخوة أو سلام؟ إنهم يسخرون منا برفع هذا الشعار. كل يوم يقيمون ألف مأتم للحرية والأخوة والسلام. وهذا الرجل بالذات مهما يحط به غموض، فمواقفه معروفة من السلام، والأخوة، التي يحاول أن يغشي بها أبصار السذج، وهي فرصتنا الوحيدة لكي نوضح له كل شيء، لنحتج على محاضرته، إن كان حقا يريد سلاما، فنحن دائماً في سلام، ولا حاجة بنا إلى محاضرته، لنمارس السلام. وعليه أن يقول ذلك في بلاده، ولمواطنيه، لا للسذج من شعوب العالم الثالث... إن كان يريد أخوة، فليعلمها لمواطنيه، ليعملوا بها شيئاً من أجل اللاجئين والمشردين بالملايين في فلسطين من أجل الحرية والكرامة والسلام والأخوة... وليقلها لمواطنيه المتهافتين، على نصرة الصهيونية. ليقلها للمستعمرين المهاجرين من كل ركن إلى القدس، لطرد أهلها.

وتوقف الطالب قليلا، كان أشعث الشعر، نحيفاً، عرفه قاسم. إنه الإدريسي من شعبة التاريخ، شاب معروف بتحمسه. وتبين موضوع المناقشة،

إنه زيارة أجنبي كبير للبلد، في محاولة للاتصال بكل الأوساط وإلقاء محاضرات عن مبادىء الحرية، والأخوة والسلام.

واستأنف الإدريسي، في صوت أقل حدة:

ـ إن هذا الزائر كما نعلم. مرشح لمنصب رئيس الدولة، وعليه أن يعرف حقيقة مشاعرنا نحو بلده، أو علينا أن نجعله يعرف ذلك، ويكف عن تجاهله. وهذا رأيي بكل اختصار، وإني أعرضه عليكم للموافقة.

وتلت ذلك فترة صمت، كانت الأنظار موجهة نحو عزوز، بصفته ممثلا رسمياً في المنظمة للطلبة.

مسح عزوز إحدى نظارتيه، ومال برقبته الطويلة إلى اليسار، كعادته، عندما يود الحديث، وقال بهدوء:

ـ مبدئياً، نحن نتفق مع الزميل الإدريسي، لكن الأمور معقدة، والعالم ينقسم إلى قوي وضعيف كما نعلم. والمهزلة أن القوي يمثل دور المسالم، أو داعي السلام، فماذا علينا أن نمثل؟... يبدو أن الدور الذي تبقى لنا، والذي يجب أن نلعبه في المهزلة، هو دور المخدوع بدعوة السلام، والمنجذب نحو مبادىء الأخوة، مهما تكن مزيفة، أو كاذبة. وهذا لا يمنعنا، من أن نعمل على توضيح آرائنا، وعلى اتخاذ المواقف التي تمليها الأخوة الحقيقية، والسلام الحقيقي، وبدلا من أن نحتج ونعارض على محاضرة هذا الرجل، علينا أن نستجيب للدعوة ونرحب به، ونتصل به ما دام يطلب ذلك، لنكلمه بمنطقه. إننا لا ننخدع طبعاً، لكن الطريق طويل... واسمحوا لي أيها الزملاء، أن أوضح لكم بمثال، على مفهومهم للأخوة والسلام. وهذا يؤيد ما ذهب إليه زميلنا الإدريسي، وإن كان الموقف الذي اقترح أن نتخذه. مخالفاً لموقف زميلنا.

ـ وتوقف قليلا، ينظر إلى الحلقة المغلقة المحيطة به، واستأنف:

ـ لقد حدثني مرة بعضهم، عن مبدإ الأخوة كما يفهمه، وعن السلام، فذهب إلى أن الأخوة، تفرض علينا كعرب وكمسلمين، ألا نترك إخواننا المشردين في الخيام، معرضين لويلات الطبيعة، وللبؤس والحرمان، وأن علينا أن نؤويهم في أرضنا الفسيحة، وأن نضمهم ونحن ملايين، وأن ننزع عنا العنصرية العرقية أو الدينية...

طبعاً... أجبت بأننا لسنا عنصريين، وأن اليهود عايشونا منذ قرون، وأن الصهيونية هي الحركة العنصرية العرقية والدينية، وعرضت كل الوقائع والحجج، المعروفة، التاريخية والسياسية، بل وأوضحت أن الصهيونية فوق كل ذلك، حركة استعمارية... فماذا كانت النتيجة؟ لا أزعم أنه اقتنع حقيقة بمنطقي، ولكني أؤكد أنه بدا مندهشاً، كأنه لم يفقه ذلك من قبل، وأبدى بعض التفهم لموقفنا... قد يعارض بعضهم، بأن ما بدا عليه إنما هو جزء من اللعبة! ليكن، فلا سبيل لنا للاطلاع على السرائر.

وتوقف مرة أخرى، ونظر إلى الإدريسي مبتسماً وقال:

ـ لكل ذلك، استسمح الزميل، إذا خالفت رأيه في أن نحتج، ونعترض على محاضرة هذا الرجل أو الحوار معه، وأدعوه إلى إجابة الدعوة، لشرح موقفنا لا من قضية السلام والأخوة في فلسطين، بل في العالم أجمع... وهذا ما سأعرضه في جمعنا العام للمصادقة...

وبدا أن منطق عزوز الهادىء، يجد طريقه إلى الطلبة، في حين بدا أن كلمات التهدئة، الموجهة إلى الإدريسي، لم تزحزحه عن موقفه، فقال متهكماً:

ـ إذن ما علينا إلا أن نرحب بالزائر، ونصفق له. بل علينا أن نفعل ما هو أكثر من ذلك.

وتوقف متطلعاً إلى وجوه الطلبة، وحدق جيداً في وجه معين وقال بتهكم:

ـ أقولُ ما علينا إلا أن نطلب من صحافيينا النزهاء، أن يذبحوا مقالات عن هذه الزيارة، ويشيدوا ببلد الزائر المسالم، داعية الأخوة.

كان واضحاً أنه يعني غناماً بكلامه... لكن هذا، لم يبد عليه أي تأثر بذلك... فأخرج الإدريسي صحيفة من جيبه، ونشرها وهو يشير إلى صفحتها الأولى، قائلا:

ـ ... بل إن الموقف الذي يقترحه الزميل عزوز، ربما كان مكتوباً هنا... يا لها من عبقرية!

وتطلعت بعض الأعناق نحو الصحيفة. أما غنام، فقد كان ينفث دخان سيجارته هادئاً.

ورد عزوز، على إشارة الإدريسي بحدة:

ـ تعلم جيداً، أن لا علاقة لنا بالصحيفة ولا بالمقال، بل نحن ندين لهجته، ومضمونه... ولذا فليس من حق أحد، إقحام مثل هذا الموضوع...

إن لنا مسؤولية ومبادىء، نحترمها ونعمل بوحيها، وهذا يكفي... لم يكن عزوز ينظر إلى أحد، وهو يتحدث أما غنام، فلم يزد على أن رمى بعقب سيجارته عند قدميه، وتراجع عن حلقة الطلاب كأنه يقول:

ـ لا أريد مشاغبات... سلوكي الشخصي ، يهمني وحدي.

وقام عزوز يقول:

ـ لنؤجل هذا الموضوع...

وتفرق الطلبة، بينما توجه عزوز نحو الإدريسي، واضعاً يده على كتفيه، واتجها نحو الحديقة يتساران.

أعلنت الوالدة، مقدم عزوز فنهض قاسم لاستقباله. جلسا متقابلين: كانا يشتركان في أكثر من صفة: الجدية والهدوء، وإن كان عزوز يعتبر متأخراً عن

رتبة زميله في الدراسة، باعتبار مهامه العديدة في منظمة الطلبة، والتي تأخذ أكبر قسط من بعض أساتذته. وكان أهم ما يميز عزوزاً عند قاسم: صراحته وتشبثه بالمبادىء وقدرته على شرح فكرته بثبات، رغم لعثمة في لسانه. أما قاسم، فلم يشغل نفسه بشيء عدا الدراسة، لذلك كانت مكانته مرموقة عند أساتذته، وكان بذلك مرجعاً لكل من تغيب من زملائه عن حصة ما، وكان ضعفه في اللغة الأجنبية، يدفعه إلى مضاعفة جهده في الدرس، وزيارات عزوز تفتح أمامه آفاقاً ما كان ليطلع عليها بسبب انهماكه في المطالعة وانطوائه. لذلك تراه يستغلها، ليعلم ويستفسر عن أمور الطلبة، ويناقش بعض قضاياها. وما من شك في أن الثقة بينهما كانت عظيمة.

طلب قاسم من والدته إعداد شاي. ومسح عزوز نظارتيه قائلا في ابتسامة:

ـ ألا تقلع عن هذا الكرم الشرقي؟

ورد قاسم في لهجة جد، يشوبها ابتسام:

ـ إني أعتبر كرم الشرق، من خصائص عبقريته، ولا دخل له في مشكلة التخلف...

وتساءل عزوز، وهو ينظر إلى أوراق على مكتب زميله:

ـ هل تكتب شيئاً خاصا بك، خارج الدرس؟

أجاب قاسم:

ـ قليلا... لكني أعتقد أن كتابة سطر، يجب أن تسبقها قراءة مجلدات...

وأكد عزوز:

ـ هذا صحيح، لكن الكتابة شيء ضروري... أذكر ما قاله لي طالب صيني، في مؤتمر ذات يوم، وقد تعجب حين أجبته بأن لا وقت لي للكتابة فقال: اكتب، اكتب ولو سطراً في اليوم، ولو جملة...

وتناولا كأسيْ شاي، فقال قاسم:

ـ إني معجب بالإدريسي... يعجبني تطرفه. ورشف عزوز، ثم قال وهو يضع كأسه على المائدة الصغيرة:

ـ الإدريسي. إنه حسن النية، لكنه في حاجة إلى ممارسة وتمرين.. ثمة طاقات كثيرة تنمو، إذا أهملت، كالعشب البري. وكل مناضل يبدأ على نحو فوضوي. قبل التمرين.

ورد قاسم في دعابة:

ـ إذن لن أكون مناضلا!

ـ أنت؟

وتوقف عزوز، يعدل وسادة بين ظهره وبين الجدار، واستأنف:

ـ أنت بخيل بجهودك، من المنتظر أن تصبح في يوم ما ذا مرتبة علمية كبيرة، لكن هذا في نظري، أقل بكثير مما يمكن أن تفعل...

كان قاسم ما يزال ينتظر المزيد من رأي زميله، فوضع عزوز كأسه، وهو يميل بعنقه إلى اليسار، كعادته قائلا:

ـ في الواقع، أنت تبدو عالماً مغلقاً... متأمل مفكر في ذاتك وفيما حولك، لكن ذلك لا يكفي، ولابد من الخروج إلى دنيا العمل والممارسة... وإني لأفضل ألف مرة ذاتية فوضوية، إن جاز التعبير، كتلك التي يبين عنها الإدريسي، على ذاتية منطوية، من مثل ما عندك...

لم تكن هذه أول مرة، يسمع فيها قاسم، مثل هذا الرأي من صديقه، بل طالما سمع وكان مقتنعاً به يعرف أنه بالفعل انطوائي، وكثيراً ما تساءل بينه وبين نفسه: إن كنت أعرف نقصي، أعرف انطوائي، فلم لا أخرج عنه؟! ويظل متردداً، لأنه في الواقع، لم يتأكد من طريق الخروج... كأن ثقته لم تكن عميقة في عمل عزوز، وأمثاله... مع أنه ـ وهذا غريب ـ طالما كرر في نفسه عن اقتناع، بأن عمل عزوز وزملائه، في المنظمة، طريقة ناجحة في خدمة الغير، وتجاوز الذات... لم يبق إذن إلا أن يكون قاسم على بعض التعقيد، أو على بعض الغموض في الفكرة... وهذا ما انتهى إلى استنتاجه، وتساءل قاسم:

ـ بمناسبة الإدريسي، هل تنتظر أن يجد رأيه موافقة في الجمع العام؟

وقطب عزوز قليلا:

ـ بالتأكيد في البداية، إذا تركنا له الفرصة ليشرح موقفه بمثل ذلك الحماس، فسيميل إليه كثير من الطلبة. موقفه مغر دون شك... لكننا سنعمل على أن نجعل منه رأي الأقلية!

وتعجب قاسم:

ـ لماذا؟ وكيف؟

وابتسم عزوز، ابتسامة لا تخلو من اعتزاز، رغم تواضعه ورد:

ـ لماذا؟ لأن خطته غير مناسبة في الوقت الحاضر، بالنظر إلى الظروف العامة، أما كيف؟ فنستغل حماسة الإدريسي، في مهمة تستغرقه وتبعده في نفس الوقت عن الجمع!

وأطرق قاسم قليلا، كأنه يتفحص بعينيه شيئاً دقيقاً للغاية. عيب الديموقراطية في احتفالها بالأكثرية... فبأي حق ينبذ رأي الأقلية؟ حقاً ليس هناك معيار للقيم، ولا توجد طريقة للعمل، لوقف الآراء المتعارضة في المجتمع.

صحيح. لكن ليس من المعقول أن ينبذ رأي الأقلية، كأنها غير موجودة... وكل الحركات الإصلاحية، سياسية ودينية بدأت أقلية، وكانت محط اضطهاد بحكم مخالفتها لمعتقدات الأكثرية، وللديموقراطية، لكنها انتصرت بعد ذلك... إن هذا لمريع: هل انتصرت لأنها تمثل الحق أم لأنها تمثل الأكثرية، والعدد، والوفرة؟ وما أسهل صناعة الكثرة والعدد! ولكن أين الحق؟

وأخرجه عزوز من خواطره مبتسماً:

ـ أتفلسف الموضوع؟

وبدت على قاسم شبه انتفاضة:

ـ لا أدري. لكن عيوب الديموقراطية كلها، مثلت أمامي الآن.

ـ مثلا...

ـ إبعاد الإدريسي قبيل الاجتماع، واستغلال حماسه في مهمة أخرى، أي ما يسميه العرب قديماً، إصابة عصفورين بحجر... ما معناه بكل نزاهة؟ معناه أنكم بذلك تصنعون الأكثرية صنعاً... وأين الحق في كل هذا؟

لم تفارق الابتسامة عزوزاً، وهو يرد بأناة:

ـ هذا نعرفه. لكن المصلحة قد تقتضي ذلك... أنت في ميدان النظر، لكن العمل والتطبيق شيء آخر... والعمل الجماعي ممارسة واقعية، قد تكون أعمق بكثير من تأملاتك، وقد تكون أقل بساطة مما ذهبت إليه، ولكنها على كل حال، تحتاج إلى الموقف الحاسم والتنفيذ، والحساب السريع... والتسيير الجماعي سعى وراء النظام، ويطابق النظام العدالة أحيانا، لكن عند الاختيار بين النظام والعدالة، نميل إلى النظام ويسمى في هذه الحال: العدالة بالنسبة لأكبر عدد ممكن... من أجل هذا، لا مانع من صناعة العدد كما تقول.

لم يبد على قاسم اقتناع، بل كانت مأساة ترتسم على ملامحه، إنه يبدو غريبا في أفكاره حتى عن نفسه، وهذا ما يجعله لا يطمئن إلى شيء... وعزوز مطمئن حتى في حالة إبعاده لزميله. أما هو فمأساته في أنه يناقش الشيء وضده. ولا يقف عند أمر...

وعدل عزوز من نظارتيه، وهو يقول:

ـ لنترك هذه الأمور الآن، وعندما تلقي بنفسك في العمل الجماعي، ستفهمها بسرعة، كما سيفهمها الإدريسي أيضاً، عندما تزداد ممارسته وسنتفق.

ليس خلافنا إلا مؤقتا، وسنلتقي حتماً...

وبدت على قاسم معالم تشكك، في تفاؤل صاحبه. أما عزوز فاستأنف:

ـ جئتك لأستعير بعض الكراسات...

ودون أن يجيب قاسم، اتجه إلى مكتبه في ركن الغرفة، وبدأ يبحث بين دفاتره، ثم قدم بضع ملفات إلى صديقه، فقام هذا شاكراً. وعندما تصافحا لاحظ قاسم بعض التردد على صاحبه، وسرعان ما داعب عزوز نظارتيه، ومالت عنقه إلى اليسار، كأنما هو يتفحص هوة قبل أن يقفز، وقال:

ـ شيء آخر، جئت أطلبه إذا أمكن.

ـ نعم.

غاب كل تردد على عزوز، وعاوده الهدوء، وهو يقول ناظراً إلى قدميه:

ـ سنقابل ذلك الرجل كما تعلم، في مركز سفارته قبل المحاضرة، وأحتاج إلى حذاء صالح، كما ترى...

ورنا مرة أخرى إلى حذائه، ورنا قاسم مثله، ليرى الحذاء المتآكل المثقوب كأنه يلمحه لأول مرة. ورفع قاسم نظره خجلا، من نظرته تلك:

ـ طبعا عندي... ليس جديداً لكنه...

اتجه كأنه سيأتي به، فاستدرك عزوز:

ـ ليس الآن؛ عندما تحدد الزيارة، سأطلبه منك وسأستعير بذلة...

وهز كتفيه كأنه يقول:

ـ ماذا نفعل؟ هذه مواقف رسمية.

وتأمل قاسم صديقه بعين جديدة. لم يكن فيه من جديد أو لامع سوى نظارتيه البيضاوين.

6

ما الذي حدث؟ أي شيء جعل هذا اليوم ثقيلا قاسياً مراً؟ ما هذا الضجر؟ أخلفت موعدها اليوم؟ وهل كان بيننا موعد ما؟ كانت فقط تحضر للدراسة، ولا شأن لها بها بعد اليوم!

لعل خيوطاً خفية، نسجها عقله الباطني في غفلة عن رقابته. لكنه لم يكن غافلا طول الوقت، منذ تعرف عليها. كان واعياً أنها لغيره، ولا يجوز له أن يحبها. لا يجوز أن تسأل عنه. وهذه ثانية.

واستمر يناقش نفسه، كأنه يعترف بحبه. كأن العلاقة بينه وبينها، ضاربة بأشد وثاق، كأية علاقة بين شابين متكافئين طليقين. لتكن صداقة عابرة، مرت وانتهت. هذا ما لا يمكن أن يحتمله. لماذا لا يحتمله؟ لأنه يحبها بالفعل، عن خطإ أو صواب، عن حق أو باطل... إنه يحبها، وهذا ما لا يمكن أن ينكره بعد اليوم. أي حق؟ أي خطإ أو صواب؟ زوجها يقتلها، مرات في اليوم الواحد، وكذلك كل أفراد الأسرة، وهي تتعذب في صمت وفي ابتسام. سلسلة ثقيلة من أوزار ماض مظلم، تشد رقاب الأبرياء. أي جيل ننتمي إليه؟! مهما يكن، فليعترف بأنه أخف منها حملا، ولكن من أين له صبرها؟ من أين لأحد غيرها،

أن يتجرع الموت قطرة قطرة، طوال عقود من السنوات في حياة بلا أمل، ولا رجاء؟

ويظل الوفاء صليباً للبراءة إلى الأبد، والحرمان. لو عاش والده هو إلى اليوم، مثلما عاش والدها، لما قدر أي ثقل سيحمله أيضاً. وأمه حمل في الماضي، وأخوه إبراهيم. إن قاسماً لا يتجاهل ذلك. كم ينتظر أخاه من أثقال في المستقبل؟ لكن لماذا أخلفت موعدها، ولم تأت هذا الأسبوع؟

حماستها للدراسة لا تفسر هذا الغياب، حتى وإن لم تكن تحبه. تحبه؟ إنه ليفاجىء نفسه كل مرة، يهذي بالحب. ليقل إنها ربما كانت ترتاح إليه لكنه لا يرضى بالواقع الذي يشدها، ويقيد سلوكها. لو كانت طليقة... لو كانت مثله على الأقل... لو... لو ماذا يجدي النحيب، والرجاء الكاذب.

بدا له رفاقه اليوم في النقاش، مجرد أقنعة أو تماثيل من شمع. ولم يكن وقوفه في حلقتهم إلا إحساساً بالانتظار، بأنه في وقفة مؤقتة ريثما يحصل شيء، ريثما تأتي هنية. وبلاغة الأستاذ اليوم كالنعيب. أي فراغ كانت تملأه من حياته! أي رجاء، أي أمل، كان يعيش عليه طيلة أسبوع. أفاق اليوم على نصف سنة، يمضي منذ أول لقاء لهما بالكلية. كيف مرت هذه المدة؟ كان غائباً، ذاهلا، عن كل ما يمر حوله إلا انتظار الثلاثاء. أتكون مريضة، أم في نزاع مع الزوج؟ من يدري؟ ربما تكون قد قررت ما لا يحلم به، أو ما يحلم به بالفعل: أن... و؟ ولم لا؟ كل شيء ممكن. يا للأحلام ولا عزاء، وعليك بالتجلد والصبر. ولا حق لك في التذمر، والشكوى، وثمة أمل في أن تظهر في الأسبوع القادم. أية قرون تفصل بينك وبين أسبوع قادم، بين غد وبعد غد!

أسبوعك القادم تعلة أخرى. وليتك تطمئن على حال. أين فلسفتك الأثيرة والصوت القديم: الطمأنينة، والهدوء والسلام، ومبادىء فوق اللذة

والألم، وفوق كل البشر. أصبح الصوت في داخلك بلا طعم، ولا معنى، وهكذا تكشف أنك لم تفهم بعد شيئاً، من أسرار الكون والإنسان. لا صبر بعد اليوم على قراءة أو كتاب، إن لم تحضر. ليتها تتمرد وترمي بالأثقال، تمرداً في نفس اتجاهك أنت، لا تمردها ذلك المعكوس، ها أنت ذا تعود إلى الأحلام، فأقلع، هيا، جرب أن تعود للصوت القديم: الطمأنينة وما فوق اللذة والألم، واغنم سعادتك. هل تستطيع ذلك؟

وجد نفسه يدلف إلى بار كازبلانكا، أي طريق سلك؟ ما أحوجه إلى ضجة تخرجه عن نفسه.

وغاب في رائحة الشواء، والسمك المتصاعدة، وسحابات الدخان.

ـ مرحبا بك. أهلا ما هذه الغيبة الطويلة؟

قالتها الإسبانية الشقراء، بلهجة متلعثمة وهي تسأله عما يشرب. وعادت له بكأس صافية، تحيط بها صحون الصول والزيتون والحمص:

ـ في سفر كنت؟

أجاب:

ـ نعم، سفر طويل.

وابتسمت مترنحة:

ـ نرجو ألا تطول غيبتك، مرة أخرى.

لن تطول مطلقاً، لن تفتقديه بعد اليوم، شريطة أن يطول أسبوع صاحبته.

وضعت أمامه صحناً رابعاً:

ـ ألا تراني كريمة معك؟

لم يجب وظن أنه ابتسم لها، ليت الأخرى تكون كريمة مثلك، بحضورها كل ثلاثاء على الأقل.

وتركته الإسبانية متجهة إلى الركن الأقصى. أسرع في الشراب، تدفئه الضجة والأكل الساخن. وطلب المزيد، ومن خلال غمامة الدخان الكثيفة، قال شخص بجانبه وهو يحتك به، ولسانه لا يستقيم من السكر:

ـ انظر، إلى الإسبانية، سأجلبها إلينا...

ضرب الشخص على البار بيد ثقيلة، وأومأ إليها أن تصب إليه، وبينما هي تفعل، أمسك بعضدها عابثاً فانفلتت منه، قهقه وهو يلكز قاسماً بمرفقه:

ـ بنت الكلب، تتمنع الآن!

ورفع كأسه في وجه قاسم:

ـ في صحتك، إننا نشرب نوعاً واحداً.

ورفع قاسم بقية كأسه، وثقل يرين عليه، وامتنعت الإسبانية عن تلبية رغبات الزبون، وبدأ يثور، حين تدخل زوجها وهو رجل ضخم، مفهماً زبونه أنه شرب كفايته الليلة ولا مزيد.

واحتج الزبون مستعيناً بقاسم. لم يكن يبين، وحركاته الطائشة المتنافرة تنبيء عن سكر بالغ. وتدخل قاسم بحل وسط:

ـ آخر كأس، هه؟

وحين نهض قاسم لينصرف، أفرغ الزبون الكأس دفعة، ولحق به عند الباب:

ـ أشكرك.

ورد قاسم على حركة الشكر، محاولا أن يخطو ، لكن يد صاحبه استوقفته:

ـ اسمي اسـ... أحمد الوعدودي... رئيس قسم الموظفين بـ... وقاطعه قاسم محاولا التخلص:

ـ تشرفت.

لكن يد الوعدودي، ما تزال تتشبث به وهو يوشك أن يهوي:

ـ ما اسمك. بلا بروتوكول...

وتصفح قاسم صاحبه، يقارب الأربعين في سمرة واضحة، يميل إلى الضخامة، وقال:

ـ اسمي قاسم، طالب... لا شيء كما ترى... وابتسم الوعدودي ابتسامة عريضة ترنح لها جسمه:

ـ بل كل شيء. أنت في زهرة العمر... في بداية الطريق... عندما. كنت طالبا هنا، وفي فرنسا...

ـ هل أنت متجه من هنا؟

ورد قاسم يريد التخلص:

ـ لا، من هناك.

ـ إذن طريقنا واحد... هيا.

ووجد قاسم نفسه، يسير مسنداً صاحبه في أزقة مظلمة، وحكاية عمر غير متماسكة تقرع سمعه بلسان متعثر: الطفولة الجافة في الوسط المتدين الصارم. استقامة الوعدودي في بداية شبابه، ثم انحراف كامل بعد ذلك، وزوجة أنجب منها بنتين، حين خيل إليه أنه وجد الحب الحقيقي بلقاء أخرى، وفارق الزوجة والبنتين ليعانق الفراغ والندم.

ـ أوصيك يا أخي، يا ابني، أنت في سن ابني... أنت لا تحب إلا مرة واحدة، وتعبث بقية العمر... والندم لا مخرج منه...

وخارج سور باب الحد، اعتذر قاسم محاولا أن يتخلص من رفيقه، فدعاه هذا إلى حانة أخرى، واعتذر قاسم بكل قوة الرفض، فبدا الاستياء على وجه الوعدودي، كأنه لا يفهم لم يرفض المرء دعوة للشراب؟ ولكنه ما لبث أن استدرك، وكأنما تبين أخيراً أن لا حق له على صديقه:

ـ عندك حق، يجب أن تراجع دروسك، عندما كنت طالباً مثلك...

ـ وقاطعه قاسم متكلفاً الابتسام:

ـ إلى اللقاء.

وخطا بعيداً في عجلة، بينما خيل إليه أن الوعدودي استمر جامداً في مكانه فترة يتابعه، قبل أن يلوي رأسه في عجب وأسف، ويتجه صوب أقرب حانة!

إلى أين؟ أي فراش يؤويه؟ ما أحوجه إلى حانة تمتص طاقته هو أيضاً، لتسلمه عند الفجر ركاماً منهكاً. وتذكرها فجأة. عائشة. كيف غابت عن فكره طوال ما لا يدري، من زمان. لشد ما ألهاه حبه عن كل شيء. حبه؟ يا للمهزلة. يفاجيء نفسه مرة أخرى، يعود لهنية، رغم إرادة النسيان. عائشة كانت ملهاه كلما ثارت به غريزة العبث. ونظر إلى ساعته. حوالي العاشرة... لم تنم عائشة بعد، إنها مستلقية جنب الفونوغراف، وشقوق النافذة تشي بضوء أحمر خافت تنبعث عن آهاته نغمات: ماريا... ماريا... عندها آخر؟ لن ترده هو على أي حال... أمها في الحجيرة الجانبية، مع الصغيرة نجوى، نجوى الأم أم نجوى البنت؟ لا يخلو بيت من خطيئة وأثقال. ومتى تجد الحملان الضالة سبيلها إلى الحظيرة؟ متى يعود بها المساء السعيد؟ وأخيراً هل يدخل؟ دفء الآهات الخافتة الحمراء، والنغمات المبحوحة، ماريا... ماريا... يغريه بذلك. ولم يدخل.

واعترته قشعريرة برد من جو المحيط في الحي الرطب، تجاوز بيتها. لم يكن في الواقع، قادراً على تحمل جلسة مع أي كان، ما جدوى ذلك؟ وأي حديث يمكن أن يقال؟ وباطنه يضج بالحديث... وغمرته أضواء شارع المقاومة، هارباً من حي المحيط نحو بيته... رأس مثقلة صاخبة، ورغبة قوية في التدمير، وعند المنعطف يحتك بشبح أبيض مجلبب.

ـ معذرة.

ـ العفو.

وسار خطوات ثم توقف بما لا يقاوم. أي صوت من الأعماق؟ من؟ أعماقه أم أعماق الزمان؟ هل اصطدم بشيء حقاً؟ هل سمع شيئاً أم هو يهذي مع خواطره؟ صوته لنفسه، لم يكن يوماً بهذا الهدوء القوي الواثق المتسامح الرحيم المؤثر... والتفت وراءه، ليجد المجلبب متوقفاً متلفتاً أيضاً:

ـ من؟

الصوت المطمئن، مألوف يسكن أعماقه، والملامح، أين؟ وبدأ المجلبب الشبح، يقترب متمهلا، متضحاً شيئاً فشيئاً على ضوء يشع من مصباح على عمود، فوق قاسم، كيف؟ أهو حقاً؟ وفي العاصمة؟ في هذا الوقت؟ وبهذا؟...؟

ـ قاسم؟

وهتف:

ـ أستاذ... النوري!

وأوشكا أن يتعانقا، لولا مقاومة قاسم. رائحة الشرب كفيلة بأن تفضحه، وهذا أستاذه القديم، بثانوية الحي، بل صوت سكن أعماقه منذ سنين.

ـ صدفة سعيدة جداً.

ـ كيف الحال؟

وحدقت العينانِ الضيقتان الحادتان، بوجههما الأسمر النحيل، في قاسم، تتابعان قصة سنين منذ افترق بهما الطريق.

والتقط النوري أنفاساً متتابعة، كأنه يتشمم الجو:

ـ جيد. جيد.

وابتسم، فلمعت أسنانه المعدنية وهو يتشمم ما حوله، أو هكذا خيل إلى قاسم:

ـ مضطرب يا قاسم؟

وارتبك قاسم، كطفل يفاجأ متلبساً بجريمة، ويد النوري على كتفه، وابتسامة حنو، وأنفاس متتابعة تتشمم الهواء. وأجاب قاسم:

ـ نعم مضطرب أنا، بعض الشيء...

ـ أين تتجه؟

أشار قاسم، عكس وجهة النوري، وتساءل هذا:

ـ ألا تسايرني قليلا؟

وسارا جنباً إلى جنب، ويد النوري ما تزال تمسك بيد قاسم، في ود. وبدا لقاسم أشد نحافة وأكثر طولا، أكثر مما عهده أيام الثانوية، في تلك الأيام، استوى النوري مثالا حياً، يوجه ضمير قاسم، ولعل السنوات التي فصلتهما، والمنعرجات التي تاهت بكل منهما، لم تطح بالمثال، بقدر ما جعلته يترسب في أعماق قاسم، ولعل صوت الحكيم الذي أعجب به قاسم في الجامعة، لم يكن إلا انبعاثاً لما ترسب في أعماقه من شخص أستاذه النوري.

وقال النوري معلقا على جهود قاسم:

ـ كنت أنتظر منك شيئاً ما. كان ذلك واضحاً عليك...

وأكد قاسم في خاطره: أنت الذي رسمت لي الطريق، وتتابعت في ذهنه صورة الأستاذ النوري منذ سنوات. حزم ومثابرة وحب للتلاميذ، وجهود الليل والنهار، للخروج من مستوى التعليم التقليدي الذي ناله، إلى ثقافة العالم المتحضر.. وأتقن النوري أكثر من لغتين أجنبيتين في وقت وجيز. واشتهرت عبقريته، بذلك وبتآليفه التربوية، وبعزفه الموسيقي السمفونية على عدة آلات، كان أكثر من عبقرية. معجزة في تواضع جم وتفان في العمل. ولم يتم قاسم دراسته الثانوية بعد، حينما انتقل النوري للإشراف على الخطة التربوية في عدة أقاليم، ولم يعد يربط بينه وبين تلميذه، سوى مكاتبات متباعدة، لكن الأثر العميق في نفس قاسم، كان بحيث يخفى ولا يمحى...

وتساءل النوري، ويده تزداد ضغطاً على كف قاسم:

ـ ماذا بك؟

وحدقت عيناه الضيقتان في قاسم، كأنما تحاولان اختراق سره، وهو يقول مبتسماً كأنه يواسي:

ـ هذا طبيعي. أعني أنه خطير. لم نخلق للهم والحيرة، بل للطمأنينة والسلام...

وبدا لقاسم أن الصوت المألوف كفيل بإحداث المعجزة، علاج الحيرة والعذاب. من غيره لمثل هذا؟ وهل مثله يعرف الحزن والحيرة؟ ما تزال ابتسامته صافية كالعهد بها، ربما منذ كان طفلا بريئاً. إنه الوحيد الذي يجب أن تكون لده القدرة على الاحتفاظ بابتسامة الطفولة، عبقريته قادرة على كل شيء.

ورد قاسم مؤكداً قول النوري:

حقا إننا نتعذب كثيراً... في مأساة مغلقة،كلنا...

وأشرق وجه النوري، ولمعت أسنانه المعدنية بابتسامة، وقال صوته الثابت:

ـ كلنا... ربما. لكن بعضنا بالتأكيد يتعذب، وفي الإمكان ألا يحدث ذلك، لو عرفنا المخرج...

أي ترياق هذا الرجل؟ بعضنا يتعذب؟ من منا لم تلفه دوامة المأساة؟

وتوقف النوري أخيراً، عند منعطف قائلا:

ـ نأيت بك يا قاسم. أود أن تزورني ونتحدث طويلا.

وناوله ورقة صغيرة وهو يودعه، مؤكداً أنه لا يكاد يغادر المكتب طوال اليوم، وان مسكنه في الشارع الخلفي للمؤسسة الحكومية، التي يشرف عليها.

ظل قاسم واقفاً يرقبُ مسيرة النوري، في خطوات الحثيثة المتباعدة، لا يلتفت إلى شيء وعاد إلى نفسه وأخذ طريقه ببطء، يملؤه الصوت المألوف، الذي انبعث نابضا بالحياة.

7

تفقد غنام ربطة رقبته، ومر بيده على مقدم كتفيه وصدره، يتفحص هندامه بحركة جعلت قاسماً يفيق من شروده وحملقته في أناقة زميله، وحين دخلت الوالدة بالشاي، مد غنام سيجارته لقاسم:

ـ تبدو شارداً...

وسحب قاسم السيجارة معتذراً.

ـ لا مواخذة، هندامك متناسق...

هل يقول له أكثر من ذلك، إن عزوزاً كان في نفس الجلسة ذاتها يوم بحذاء مثقوب ومعطف مستعار؟

وتساءل غنام مبتسماً:

ـ لعل زيارتي تفاجئك!

ـ أبداً.

واستمرت ابتسامة غنام على حالها وهو يقول:

ـ كالآخرين، أنت لا ترتاح إلي. لكنك هادىء متزن، وتفهم. وهذا ما يدفعني إلى احترامك.

لم يرتح قاسم لهذا الإطراء. فهو وإن كان يبدو مخالفاً للآخرين في مظهره. لا يود أن يعتبر ذلك مخالفة جوهرية، تستثنيه منهم، من طموحهم وآمالهم، من متاعبهم ومشاكلهم.

ورد قاسم:

ـ شكراً، لا داعي للمجاملات بيننا.

ونفث غنام دخانه، وهو يستنكر:

ـ مجاملات؟ أبداً. بل ما جئت إلا لأكون صريحاً معك. اعلم أنهم لا يرتاحون إلي، ولكنني انتظر أن تفهمني، أنت على الأقل.

وتململ ليدخل الموضوع، وهو يضحك:

ـ جئت من أجل بعض الكراسات.. أنت المرجع دائماً... بل إن أمكن أن انتفع ببعض التلخيصات لما تطالعه خارج المحاضرات...

لم يخف قاسم بعض استياء:

بكل سرور، وإن كنت لا أقرك على التقصير، في المطالعات الخاصة...

لم يبد على غنام انفعال ما، قال:

ـ الحق معك. لكني كما تعلم فقير... وتفكيري في مستقبلي، في المال ضرورة ملحة...

أرجو أن تفهمني.

ـ أفهمك؟ هذا سهل، لكن... لماذا هذا الاستعجال؟ وهذه الأناقة والكماليات تثيرني فيك، ويخيل إلي، أنك تدفع ثمنها باهظاً، من راحة ضميرك.

تساءل غنام في استغراب، وإن ظل هادئاً:

ـ راحة ضميري؟!

فكر قاسم، بأنه لن يكون مرتاحاً في وضع غنام، وان الفقر خاصية أساسية لطالب العلم، وأن... واستأنف غنام:

ـ لا داعي لحديث في الضمير... أؤكد لك أني مرتاح، وأني لا أدرس حباً في العلم... بكل صراحة، كما قلت لك، يهمني المال... الحاسة السادسة للإنسان، كما قرأت مرة... والمفاهيم الأخلاقية بالنسبة لي تجريدات لا واقعية لها، وغيرها من المبادىء أيضاً...

وتوقف ليقول:

ـ أترى صراحتي تؤذيك؟

ونفى قاسم ذلك، وهو يعلق على ما قال زميله:

ـ بمناسبة الواقعية... الزميل عزوز يتحدث باسمها أيضاً.

واستفهم غنام:

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنكما نقيضان، فكيف تلتقيان في الواقعية، والإدريسي أليس واقعياً؟

وبدت صديرية غنام المنمنمة، وهو يفتح زر معطفه قائلا:

ـ واقعيتي تهمني وحدي، وكل ما أفكر به أو أنجزه كذلك... إني لا أختط لأحد غيري... ما رأيك؟

وانزعج قاسم للسؤال. الحكم على الناس يرعبه. ربما كان لا يملك القوة الكافية لمحاكمة الآخرين، ربما كانت تنقصه الثقة بما عنده، لكنه لا يحتمل أن يتعسف على أحد.

وكأنما عزم غنام على إنهاء هذا الموضوع، فقام قاسم إلى المكتب يفتش كتباً، وأوراقاً من أجل زميله. كان ظهره إلى غنام، وتناهى إليه صوت زميله:

ـ وجئت لشيء آخر يا قاسم...

والتفت قاسم، كأنه سيواجه عزوزاً يطلب منه حذاء صالحاً، كما حدث ذات يوم، لكن صوت غنام لم يكن متردداً كذلك ولا متلعثماً، وصاحبه مسترخ... رجْل على رجل، وحذاء لامع... وجوارب رقيقة شفافة...

وتساءل قاسم:

ماذا؟

وقعد قبالة غنام وهو يضع الأوراق على المائدة الصغيرة المستديرة بينهما.

قال غنام:

كلمتك بصراحة، لأني خمنت رأيك في، وأردت أن نبني علاقتنا على وضوح في المستقبل.

علاقة ومستقبل؟ وتذكر قاسم محاولات غنام لربط علاقته به منذ تعارفا، لكن مزاجهما كان مختلفاً، أو أن أحدهما على الأقل، لم يكن يرتاح للآخر. وأردف غنام:

ـ أنت حازم ومستقيم، وقادر على العمل إذا أردت.

لم يستطع قاسم أن يتبين وجهة غنام، من هذه المقدمات، واستأنف غنام:

أنت مثلي فقير. ومواهبك واضحة... وأمامنا فرصة ذهبية لعمل مشترك، أظن أنني وفرت عليك الكثير منه، ولم أترك لك منه، إلا ما يتفق مع مبادئك.

وبدا على قاسم، أنه لم يفهم ولا يريد أن يتكلم، فاستأنف غنام بملامح جد:

قد أكون في رأيك انتهازياً أو نفعياً... بكل صراحة... وأنت في رأيي مثالي أو غير واقعي، هذا هو الموقف بصراحة... تتساءل عن الحقيقة؟ لا تهمني. إنها شغل الفلاسفة والمختطين للآخرين، أما أنا فكما يقول مثل إنجليزي: أجذب صنارتك في الوقت المناسب.

تلمس قاسم كأسه، كان قد برد، وقال:

ما الموضوع بالضبط؟

وطفق غنام يشرح: منذ لقائه بقاسم ذات مساء، عند باب المنصوري. كانت تلك فقط مناسبة أوقدت في ذهنه الفكرة، إذ كان دائماً قبل ذلك يبحث عن مشروع ما، ويبحث بوجه خاص عمن يساعده. وكان بوده أن يقدمه صديقه إلى المنصوري، ما دام يملك مفتاح هذا الباب. لكن أدرك أن قاسماً يتردد، وشخص كالمنصوري ورقة رابحة، ولا بد من العثور على مفتاح.

ولم يخف قاسم دهشته واستغرابه، متسائلا:

ـ أحقاً تعرفت على المنصوري؟

أجاب غنام في حركة المستسلم:

ـ ما كان لي أن أنتظر، أو... أحرجك...

واستأنف حديثه. وجد أن المنصوري رجل طيب وخطير في نفس الوقت. ثروته، مكانته في المجتمع، إحسانه المعروف... كل ذلك خطير، ويتيح فرصة ثمينة لعمل شيء...

ـ تحدثنا عنك في جلستنا. المنصوري وأنا.

وبدت الدهشة على قاسم، فطمأنه غنام:

ـ لا تنزعج، كان الحديث مصادفة فحسب، بمناسبة المشروع.

ـ وتناول من محفظته صحفاً من الجريدة التي يعمل بها، ناولها لقاسم وهو يقول:

ـ انظر الصفحة الأخيرة.

وقرأ قاسم عدة أشياء. صفحة «في خدمة المجتمع، وعناوين ضخمة: رجال يحاربون الفقر... الإحسان حرب على الفقر... وعدة صور للمنصوري، ولغنام في استجوابات مستفيضة، ومشاريع لخدمة الفقراء.

ورفع قاسم بصره دهشاً:

ـ إذن تعرفتما بالقدر اللازم.

ولم يبد على غنام اهتمام، وهو يقول:

ـ كما ترى، الصحافة مفتاح الكل. ولذلك اخترتها... والحاج المنصوري يتوج لأول مرة على صفحاتها... ونحن الآن صديقان وسنستمر على ذلك. ولم ينكر غنام أنه استفاد من المنصوري، وأنهم بصدد عمل كبير.

وتساءل قاسم:

ـ من هم؟

ـ أنت. نعم أنت وأنا وآخرون... سننظم عملاً كبيراً بمساعدة المنصوري... عملاً إحسانياً وتجارياً في نفس الوقت...

واستمع قاسم إلى التفاصيل بهدوء، وقد غابت عنه الدهشة الأولى. وفهم كيف اقتنع المنصوري، بأن إحسانه يجب أن يكون أعم. وأشمل، وكيف هداه غنام إلى فكرة تأسيس مشروع إحساني تجاري، ينخرط فيه كبار الناس

وأثرياؤهم، وتفتح أسواق في كل إقليم بأثمان منخفضة للفقراء. وأبان غنام للمنصوري أن هذه الأسواق فضلا عن إحسانها مربحة، وسيكون المشروع موزعا حسب الأقاليم... كان المشروع مدهشاً طريفاً، زعم غنام أنه استوحاه من إحدى المنظمات الإحسانية في الخارج، وأكد:

ـ وأهم ما في هذا العمل، أنه يجب أن يرتبط بمنظمات أخرى في الخارج، تهدف لغايات مشابهة أو مقاربة. فذلك يساعدنا...

وأطرق قاسم مفكراً فيما يسمع، بالطبع كل شيء يساعد. وربما كانت زيارة رجل السلام الكبير المزعوم أيضاً، مناسبة لافتتاح هذا العمل.

لابد أن يكون، أعد الأمر لذلك...

وتساءل وهو ينظر إلى غنام:

ـ ربما فهمت المشروع بالإجمال، لكني لا أجدك فيه واضحاً. ويخيل إليّ أنك لم تعد نفعياً بالقدر المناسب...

وقاطعه غنام، كأنه قرأ فكرته بأتمها:

ـ تقصد أن هذا التعب لا يناسب المردود؟ أؤكد لك أنهما سيكونان متناسبين.

أنت تعرف الثروة التي يمكن أن نتصرف فيها حسب المشروع. وستنشأ تنظيمات أخرى فيما بعد، وعندما تشتد المنظمة يمكن القيام بعمل آخر أهم بكثير... لابد من مراحل...

وتساءل قاسم عن دوره، الذي اختاره له غنام. دوره؟ لقد اختار له أن يكون فكر المشروع، ومخططه. ويقوم غنام وصحافته بالباقي. قدّر غنام أن مواهب قاسم صالحة لمثل هذا العمل، بانطوائه ورزانته. وأكثر من ذلك، أنه يصلح لأن غناماً يركن إلى استقامته، ولا يخشى منه انجرافاً أو خديعة، إنما

يجب إقناعه. وهذا ما يحاوله غنام وهو يقول:

ـ لا أنكر عليك. مثل هذا العمل، قد يحتاج إلى ما قد يبدو مناقضاً لمبادئك أو مثاليتك. لا أنتقدك الآن، وإنما أؤكد لك أنك لن تقوم إلا بما يناسبك، والباقي علي وعلى الآخرين. هناك محامون ومثقفون وأثرياء إلى جانب المنصوري، ولن تخسر شيئاً بل سنفوز بكل شيء...

وظل قاسم صامتاً. لقد قدر من زمان، أنه لا يلتقي مع غنام في شيء. اتضح له ذلك بنظرة بسيطة، فهل أخطأ؟ إنه الآن يتأكد من صدق نظرته الأولى.

ونفوره من مشروع مغر كهذا، يؤكد ذلك. لكن أهو ينفر فعلا من هذا العمل لطبيعته، أم لمجرد أن غناماً هو المحرك له؟ ليته يتأكد من ذلك. لكن المشروع وغناماً شيئاً واحداً. لم يكن لمثل هذا المشروع من مدبر غير غنام، وإذن فلا داعي لتصور يفصل بين غنام والمشروع. لكن الشخص الثالث يبدو أكثر إثارة للعجب: المنصوري: أهو الطيب المغفل أم العنكبوت المتربص؟

ولم يهتد قاسم إلى مخرج من أفكاره، وجاء صوت غنام من جديد:

ـ إن خيوطاً ما، تربط بيننا. اختلافنا نفسه يربط بيننا. قد نتكامل، كل ما أريده منك، هو أن تفكر تفكيراً حراً شخصياً. تحرر من كل ما تعلمته في الكتب ومن المجتمع، واسأل بصراحة، وأجبْ بمثل ذلك، ألا ترغب في حياة سعيدة؟ لن تكذب أو تسرق! أو تؤذي أحدا، وحتى إن لزمت هذه الأشياء فسيقوم بها غيرك... أما أنت فستمارس عملا بعيداً عن كل ذلك... بعيداً حتى عن الأضواء إذا أردت...

وساد الصمت. غنام ينتظر الجواب. وقاسم يفهم كل شيء بالإجمال. لكنه يحتاج إلى ثقة بما يجب أن يقبل عليه. أيكون الرباط حتمياً بينه وبين غنام؟

وحضرته صورة عزوز. ماذا يكون رأيه في ذلك؟ والنوري، ماذا يقول لو اقترح عليه مثل هذا العمل.

حقّا إنه يفكر بعقول غيره، كما أدرك ذلك غنام، وكيف ينفصل عن مثل ذلك التفكير؟ هنية تفكر بالآخرين مثله، وربما بعقولهم، لكن على نحو آخر... وأفاق على سؤال غنام:

ـ لعلك الآن، عرفت ما يجب أن تعمل؟

إنه ما زال يلح بطلب الجواب، وقاسم لم يعرف ما يجب أن يعمل. بل... وقال غنام.

ـ إني أعتمد عليك وسأباشر اتصالاتي...

وأحس قاسم بالحرج، وغنام يقوم مودعاً. هل يكون ذلك آخر الكلام؟ أهو القبول إذن؟ أهو الرفض؟ وقال أخيراً:

ـ لا أعدك بشيء.

ورد قاسم مبتسماً:

ـ وهذا وعد منك أيضاً. على كل، أنت لم ترفض، وهذا مشجع لي.

ليته يكف عن الإلحاح. وقاسم نفسه، يستغرب من نفسه هذا التردد الذي انتابه. كان يتصور أن أقل شيء يأتيه من جانب غنام، يرفض بسهولة. واستمر على هذا الشعور طوال جلسة غنام معه، لكنه في الأخير لم يقرر بعد. وترددت في ذهنه نصيحة غنام: فكر تفكيراً شخصياً... دع ما تعلمته... ليكن. وسيفكر بل لعله قد انتهى من تفكيره، وهو يتسلم من زميله أوراقاً، وصحفاً أخرى، تساعده على فهم المشروع كما قال غنام.

8

«صديقتي العزيزة:

أي فراغ تركت؟ هل تدرين أن الوجود بدونك هول مرعب؟ والناس، أخشاب على نوابض، تنط بشكل مأساوي مضحك؟ ليتني أضحك ولو في مرارة. والنوم عندما يجفو، يصبح الإقبال على الفراش مغامرة لها حساب طويل... والليالي أشباح مفزعة، والصمت مدفن عميق لخواطر الخير. وفضائل الصبر والتجلد حماقات المستضعفين. لم أكن أعلم أن الكتب على هذا القدر من السخافة. وخطة الدراسة، وطريق المستقبل كريه. الزمان صفحة كالحة يضيئها يومي الموعود معك، كأمل كاذب في خاطر محتضر سرعان ما يخبو... ومحياك لو يطلّ في هذا الخضم... لو يرن وقع خطواتك على الأرض الموات... صديقتي العزيزة... ».

وتوقف القلم في يده، يجب أن يمزق الورقة، ويبحث عن لهجة أخرى، ما هذا الهذيان؟ بأي حق يخاطبها على هذا النحو؟ يحبها؟ ليكن. ومتى كان الحب هكذا، عملية ذات طرف واحد؟ وهل للحب معنى في موقفها؟ ما أحوج البشرية إلى مراجعة مفاهيمها عن الحب والتضحية وسائر القيم. مهما

يكن، فليس من حقك أن تكتب ما كتبت، ولا أن تفعل ما تنوي. دع هنية في سلام وابحث لنفسك عن مثله. رفقة عابرة انتهت، ولتعد إلى طريقك القديم. وأي طريق؟ شرود وقت المحاضرات، ويد تخط في غير رقابة... خطو مسرع نحو كازابلانكا... ضجة السكر، وروائح السمك والشواء، طرق متصل على باب عائشة... لم يعد لأي شيء حلاوته، أي معنى لحياة تفتقد الحب والأمان؟ أي طريق لك بعد اليوم؟

والأخشاب الآدمية ما تنفك تنط في طرق المكر والخداع، لا تستقيم، والحقيقة مطلب المغفلين والمعتوهين. طريق غنام؟ يا للمهزلة الكبرى. أن تكون على يقين من سريرة شخص، وتخدع نفسك، تمد يدك في يده، لقطع مرحلة من سفر طويل مجهول. أيه كبوة للضمير والمثال؟... ويؤكد لك غنام: لن تقوم إلا بما يرضي ضميرك. أية خرافة وأي هذر. والكثيرون الآخرون، هنية وعائشة، أخوك والوالدة، ماذا يمثلون أمامك؟ والمنصوري صفحة فريدة، تطالع على مهل في مدى دهر. من أي مزيج متنافر يصاغ هذا الكون؟ عزوز ورجال السلام والجوارب الأنيقة الشفافة، والحذاء المثقوب، ماذا أنت من كل هذا؟ أن يكون غنام واضحاً صريحاً فهو علامة الخطر على منعطف الطريق، وبذلك ينقص إشكال الغموض ولو مرة، ويكون للتاريخ معنى. والزيف آفة الوجود، والطيبون في الشباك كالفراش المتهافت حول النور، والطيبون الآخرون...

بأي جهد وبلبلة فكر، يجب أن يعود إلى الكتاب؛ نار لا يتحملها. والكتاب القديم فقد قوته فهل يحفظها النوري؟ وعزفت رجلاه عن طريق الدراسة. ماذا ينتظر أن يسمع؟ لن يرد الصدى بعد اليوم. وعبثاً بلاغة المحاضر وحسن البيان والحكيم... والفلسفة ممارسة الموت... أي موات بين جدران أربعة؟

ودلف قاسم تحت الاسم العريض للمؤسسة الحكومية الكبيرة، حيث مكتب النوري. قام الشاوش عن كرسه قرب الباب كعصفور سادر، أجفلته حركة الباب. عينان غائبتان لشيخ نحيف قصير، سأله قاسم عن السيد النوري. لم يبد على الشيخ أنه يقظ أو نائم، كأن غائباً. وأشار بدون كلمة إلى ممر على اليمين. وفتح قاسم، أول باب لظبية أوربية شقراء، نفثت من دخان سيجارتها ببرود، قائلة:

ـ «أكوتي»

فتح الباب الموالي. فتاتان بالجلباب، إحداهما تطبع بآلتها والأخرى تتلفن:

ـ نعم؟

ـ الأستاذ النوري.

ـ عندك موعد؟

ـ لا

ـ ما الموضوع؟

وأفاق على السؤال. نعم، ما الموضوع؟ إنه لا يدري. وقال:

ـ شخصي.

ونظرت الفتاة إلي صاحبتها كأنها تستشيرها، ثم مدت له بطاقة يملأها. ثم غابت بها في باب جانبي لتعود مشيرة له بالدخول. وجد نفسه في مكتب بسيط، بدا غير مناسب لضخامة البناية، وأهمية المؤسسة. وفسر ذلك بتواضع النوري الذي لا يفارقه. وأخذه ترتيب المكتب وتنسيقه. وبضعة كتب على الرفوف وكراسي، تكون نصف دائرة حول المكتب، فنظر إلى الآنسة التي أدخلته متسائلا، فابتسمت، وهي تشير إلى باب جانبي نصف مفتوح قائلة في

شبه همس:

ـ لحظة. إنه يصلي.

ومضت بضعة دقائق. خرج بعدها النوري، من الباب الجانبي الصغير بقامته المديدة النحيفة. يتهلل وجهه إشراقاً. وظل ممسكاً بيد قاسم، بعد أن أخذ كرسياً إلى جانبه. كانت عيناه الضيقتان تتفحصان ملامح قاسم، وهما يتحدثان عن مصادفة ذلك المساء، وعن السنوات التي فصلت بينهما. انقطاع الرسائل بينهما، منذ التحاق قاسم بالعاصمة. أما النوري فقد تقلب في عدة مهام وأقاليم، ولم يكلف بمهمته الجديدة في العاصمة إلا منذ شهور. ولم يجد قاسم غضاضة في أن يعلن لأستاذه القديم، أنه يتخذه مثالا، وأنه يدين له بكل نجاح. واعتبر النوري الحديث مجاملة، لكن ملامحه اكتست صبغة الجد، وهو ينصت إلى حديث قاسم، يخبره بأنه اكتشف أن صوت الحكمة الذي بهره في الجامعة، لم يكن راجعاً إلا لتأثير أستاذه النوري وسلوكه، منذ الدراسة الثانوية. وأكد النوري أنه بالفعل إذ ذاك كان شديد الإغراق في دراسة الحكمة القديمة، وعالمها الجميل. ثم توقف قليلا خافضاً بصره، كأنه يتهجى سطورا في الأرض، وحين رفع رأسه، كانت غمامة خيبة تظلل وجهه وقال:

ـ عالم جميل حقاً... ما أسرع ما يعشقه المبتدىء، لكنه سراب، هش، سرعان ما يتحطم... أما السلام الحقيقي فبعيد...

وافق هذا هوى قاسم. ألم يكن هو رغم تجربته القصيرة بالحياة. يعجب كل الإعجاب، بفيض زاخر من المفكرين فوق اللذة والألم، فاهتزت الأرضية تحت قدميه، ولم يعد يجد طعماً لذلك؟ أين موقع الطمأنينة والسلام، في عالم يقدم فيه البعض رقابهم في غفلة وبلاهة، وآخرون يقتنصون في مكر ودهاء. بعض يحمل أوزار غيره. وبعض يثقل الغير بأوزاره. فأين الطمأنينة والسلام؟ ألف مكيدة تحاك، والفضيلة الحق تدفن طرفة كل عين، في بقاع المعمور...

والجوع والتخمة والإملاق والجهل الغافل والعلم الماكر وتبرير كل شيء. أين موطن قدم مطمئنة في كل هذا؟ أحقا غفل الحكيم عن هذا الخليط، أم أن عالمه كان منسجماً سعيداً فلم يمارس الاختيار؟

كان بادياً أن النوري يتابع خواطر تلميذه القديم، في اهتمام منكساً رأسه، وعندما رفع بصره، كانت شفتاه تتمتمان بشيء، ويده تعبث، تتحرك في جيب بذلته الرمادية الأنيقة. وبدا لفترة كأنه خارج الغرفة، لا يرى قاسماً، ولا يسمعه، بل خارج العالم، عيناه مفتحتان على غير مدى، مرهف السمع كأنه، يلتقط أنغاماً خافتة... وبعد لأي أفاق من سرحته. كان قاسم قد توقف منذ برهة ولم يأت بحركة احتراماً للرجل.

قال النوري وقد هدأت قليلا حركة يده، في جيب سترته:

ـ أنت إذن مهتم بالموضوع.

ـ أي موضوع؟

وازداد النوري ابتساماً:

ـ الحقيقة. الأمن والسلام والخير والطمأنينة، وكل ما يحفل به عالم الحكيم القديم.

وأكد قاسم أنه مهتم، وأدرك النوري ذلك من لقائهما ذات ليلة. لهجة قاسم واضطرابه، وربما الرائحة التي كانت تفوح في ذلك المنعطف، والتي تشممها النوري وأشياء أخرى، لم تكن لتغيب عن بصر هذا الرجل، وقال قاسم:

ـ إني في دوامة عذاب، وحيرة...

واستبشر النوري بذلك. هذا ما خمن، وهذا ما أراد. الحيرة الدوامة شيء أكثر من الاهتمام. الاهتمام حركة عقلية، أما الحيرة فهزة في الأعماق، تحتاج إلى

علاج يحيلها هدوءاً وسلاماً. قبل حدوث الحيرة، لا ينفع شيء مما يريد النوري، أما معها وبعدها، فقد يستطيع الكثير. وتمتمت شفتا النوري مرة أخرى، بينه وبين نفسه. وتابع حديثه مفرقاً بين الهزة العابرة، هزة الفضول، وبين تجربة الحيرة الحقيقية، والاضطراب العميق، وأكد قاسم:

ـ قد تكون حيرتي واضطرابي، أعمق مما تتصور.

وابتسم النوري مرة أخرى. الحكماء لم يكونوا إلا من ذوي الهزة العابرة، هزة الفضول. تجاربهم تظل في مستوى العقل والحس. حتى من يدعون أكثر من ذلك منهم، لم يتعدوه، فأعطوا للناس كلاماً جميلاً متناسقاً، ورسموا الحقيقة بخيالهم لا كما هي. وبدأ النوري بحكاية طويلة، حكايته عندما كان هائماً في حيرته، تكتنفه الدوامة كقاسم، أو أكثر من قاسم. حاول أن يصرفها بدراسة الحكمة، واللغات وتعاطي الموسيقى والفن. واعتقد الجميع أنه عبقري ناجح سعيد، لكن الخيبة كانت تعمره، كلما أدرك شيئاً بدت له تفاهته، وتساقط كل شيء متهافتا حوله. ما بناه العقل يهدمه العقل نفسه. وحتى الكبار الذين نبالغ في تقديرهم، لم يقدموا له غير الكلام. وجذب النوري مجلداً ضخماً من الرف تصفحه وهو يقول:

ـ هذا المجلد تجربة رائعة. «الفتوح المكية». لكنها كلام تافه، بالغ حد السخافة، إذا تجلت لك الحقيقة...

وقال النوري أنه لم يعد يحزن على كتبه جميعاً، لو أحرقت برمتها، وهو الولوع بالكتب. لقد تبدت له حجاباً كثيفاً بيننا وبين السلام الذي ننشده. إنها تلهيك عن نفسك فترة، أما عندما تعصف الدوامة بك، فلا تفيدك بشيء. وفي مرحلة من حياته العاصفة، مارس النوري صيد العصافير. يبدو ذلك الآن سخافة. لكنه كان تجربة قاسية بالنسبة لمن ينشد أي شيء يخرج به من دوامة

الضجر والحيرة والقلق... دون جدوى، ولا صيد السمك أجدى... إنها نار محرقة، ولا قراءة القرآن والصلاة. كل شيء يعود إلى نقطة البداية، وتوقف النوري قليلا، يتأمل صاحبه، ويعد حبات المسبحة التي كانت تعبث بها أصابعه في الخفاء، وقال:

ـ عندما هدتني العناية الإلهية للخير الحقيقي، جاد ذلك في غاية اليسر، وندمت على ما

ضيعت من طاقات.

منذ ذات يوم، عندما عين النوري في هذه المؤسسة، وأزمته في أقصى حدتها كان قد انتهى من صلاة العصر، في أحد مساجد المدينة، وقام لينصرف كغيره من المصلين، وإذا فتىً يتصدر المسجد منادياً أن اسمعوا يرحمكم الله. وظن النوري أنه لا يختلف عن غيره، من الواعظين الذي يكررون كلاماً مبتذلا طلباً للرزق، لكن أذنه مع ذلك علقت بالفتى الذي كان يخالف كل من عرف من أمثاله، لم يكن مجلبباً أو معمماً، بل فتى منظم الهندام يرسل لحية خفيفة، ويتحدث عن ضرورة اتباع التدرج على يد الشيخ... وكان النوري قد قرأ شيئاً من ذلك، في كتب بعض المتصوفة فلم يهتم به. إلا أن تأكيد الفتى على ذلك كان مغرياً بطلاقة، وثقة بما يقول، وكان النوري قد جرب كل شيء، فلم لا... الشيخ؟ وأقبل على الفتى بعد أن انتهى من وعظه، غير واثق بأنه سيصمد لأسئلته، فما راعه إلا الصوت الواثق الذي لا يدعي علماً بكل شيء، ولكنه يدعو إلى تجربة.

وتوقف النوري، كأنما تخوف أن يثقل على قاسم بتفاصيله قائلا:

ـ أكلمك الآن بعد أن رسخت قدمي في هذه التجربة، واهتديت إلى السلام الحق، والأمن، والطمأنينة.

لم يبد على النوري تلهف لإقناع صاحبه بطريقته. بل بدا كمن يورد خبراً غير مهتم بنتائجه، وعندما بدا قاسم مأخوذاً بصدق لهجته، اكتفى بأن يدعوه إلى مشاهدة الشيخ ومعاينة التجربة. ولم يجد قاسم مانعاً في مثل حاله. ألم يسع هو إلى النوري؟ ألا يعتقد في دخيلته أن عبقرية أستاذه القديم، إن لم تجد حلا لشيء، فلن يكون له حل على الإطلاق؟ وإذا كان يحتمل دوامة الحيرة، فليحتمل طريق البحث عن مخرج، وليمض فيه إلى النهاية... وصدق النوري ضمانة كبرى في الطريق، لا تقارن بهذيان الوعدودي أو عري غنام...

لكن عذاب هنية لا نظير له، وعذابه بذكرياتها. ترى كيف كانت حيرة النوري، قبل اهتدائه إلى ما هو فيه؟ أتكون مثل حيرته هو الآن؟ إن كان كذلك فأي ترياق سحري سيتجرعه! لكن حكاية النوري وحيرته ليست وحدها. هاك الشهود: هذه الأوروبية الشقراء التي في المكتب المجاور، كانت فاجرة داعرة، ودارت عليها الدوامة أيضاً، عندما انتبه إليها النوري منذ أسابيع، وتقدمت للتجربة، وإذا الهدوء يشملها وإذا هي تقلع عن سيرة الماضي، حتى سجائرها التي كانت تستهلك منها، أكثر من علبة في اليوم، أصبحت تضعها عند النوري، ولا تتناول إلا ثلاثاً في اليوم من يده وبعلمه. منذ أسابيع فقط، تغيرت هذه المخلوقة، كأنها خلقت خلقاً جديداً. والبواب الشيخ، والفتاتان المجلببتان في الغرفة المؤدية إلى مكتب النوري، كلها خلائق جديدة ناطقة بسحر الترياق، وبالمعجزة.. إن المعجزة نفسها تفقد معناها في هذه التجربة. والنوري لا يذكر كل شيء لمبتدىء وراغب، لأنه لا يملك الحق في ذلك، لكنه يصف بالإجمال وهو يظن الآن، وهو لا يزال في بداية الطريق، أن أموراً من قبيل المعجزة بدأت تقع له في اليقظة والنوم: حدس صادق وتوقعات لا تخطيء. وتأثير في الناس يكاد يبلغ السحر، وحب للحياة وثقة في النفس... وليس هو الوحيد في هذه الأحداث، ولكنه من بين الذين صمدوا لها ولا زالوا يصدمون، وهو يذكر

لقاسم حكايات بعض المبتدئين الذين خدعتهم هذه الوقائع، فاغتروا وظنوا بأنفسهم ما ليس فيها، فخذلوا...

وتوقف معتذراً عن إسهابه:

ـ مهما أصف، فلن أبلغ القصد. ولا أريد أن أخوض معكِ فيما لم تتصوره بعد.

وبدا قاسم مستعجلا:

ـ ومتى أبدأ، وكيف؟

ورد النوري:

ـ لاشيء. تصحبني فقط.

ولكنه ما لبث أن استدرك:

ـ وهناك مبدأ أساسي لابد منه...

واستمع قاسم بانتباه. لا بد من التصديق، لا الكذب ولا التكذيب يوصلان إلى شيء في التجربة. إنه عالم آخر يتطلب التسليم. ما يحدثك به عقلك شيء، وهذه التجربة شيء آخر فوق التعليل، والباقي يتم بعد ذلك. وبدا قاسم مقطباً، بعض الشيء متأملا فيما سمع، فسأله النوري:

ـ ما عندك؟

ورد:

ـ قد تكون مشكلتي في التصديق بالذات، كيف أنسلخ عن طبيعة متسائلة تفترض الشيء ونقيضه؟

وبدا كأن النوري يفهم جيداً أزمة قاسم: من ينجيه من تساؤل كبير بأنه عندما يسلم ويصدق، إنما يمثل دور النعامة التي تخفي رأسها في الرمال، خوف

الخطر؟ وبأية مغالطة أو قوة سحرية ينفي عقله؟ وقال النوري معقبا:

ـ إنها تركيبات العقل ما تزال تحيط بك، ولا خطر من ذلك.

وأكد قاسم تردده:

ـ لكن التصديق يبقى مشكلة.

ورد النوري في ابتسامته تلك:

ـ اطمئن سيكون ذلك رياضة روحية، تدركها بالتمرين.

لكن التمرين عادة ثانية، وفعل العادة معروف. ومتى كانت العادة صادقة؟

وعلق النوري على خواطر، كالتي تجوب ذهن قاسم:

ـ لندع هذه التساؤلات؛ فقد مر بها غيرك.

وعندما عرض النوري على قاسم أن يصحبه، مساء اليوم، أجفل هذا كمحكوم عليه، تلقى خبراً بساعة التنفيذ.

ورد:

ـ اليوم؟ لا أظن.

وتعجب قاسم نفسه من تردده، ألم يقصد النوري لمثل هذا؟ كأن الجواب خرج عفواً وبدون قصد. وقال النوري في ابتسامته المعهودة.

ـ عندما تشاء إذن.

وعندما نهض قاسم مودعاً، جذب النوري مجلداً، نيلياً أزرق ناوله إلى قاسم، قائلا:

ـ استعن به.

وقرأ قاسم العنوان المذهب، «كتاب الابريز» ولم ينس، أن يؤكد أنه كغيره من الكتب يردد مجرد كلام أجوف، لكنه يساعد المبتديء اللبيب.

عندما أغلق قاسم باب مكتب النوري خلفه، هاله الهدوء الشامل الذي يحتوي المؤسسة، كضمائر أصحابها. أما حيرة قاسم واضطرابه، فكانت النغمة الوحيدة الناشزة في هذا الملكوت.

ولم يدر لم تضاعفت حيرته الآن، بعد زيارة النوري، وبعد الحديث عن التجربة الموعودة، والثقة الكاملة بصدق النوري، والشهود والأوروبية الشقراء و... ولم يدر كيف يعلل رفضه لدعوة النوري هذا المساء، لم التأجيل؟ وعول على عودة جد قريبة، قد لا تتعدى الغد... ومر بالشاوش الشيخ، في جلسته قرب الباب الخارجي، وخيل إليه أن الرجل غائب لم يلحظه، وأن شهقات عميقة تصدر عنه. ودفعه الباب إلى ضوضاء الشارع.

9

لوّن الغروب سماء المحيط بمسحة من جماله الساحر. الغروب أجمل ما في هذه المدينة. بهذا تحدث قاسم إلى نفسه، وهو يقتلع نفسه، من المشهد. لم يكن يشعر بمثل هذا الفراغ من قبل. ومشهد الغروب على المحيط. بالرغم من أنه أسره من أول يوم، فإنه لم يكن ليقطع هذه المسافة بين حيه والمحيط، ليتأمل مشهد الغروب، لو كانت المحاضرات والكتب ما تزال على إغرائها القديم... والامتحانات تقترب. كان قد استكان إلى عزوفه عن كل شيء منذ انقطعت هنية عن المجيء. وأحس بشيء يرتجف في داخله، وهو يذكر أنه بعد أقل من ساعة سيكون عند النوري... أما النوري فقد أفهمه من قبل، أن هذا الإحساس معتاد لدى كل من يقبل على هذه التجربة. ودفع قاسم باب المؤسسة الحكومية فانقطع ما بينه وبين ضجة الشارع، ليلفه الهدوء الشامل، كأن عتبة الباب فاصل بين عالمين متباينين. مجلس الشاوش خال. والظلال تستطيل في طريقها لاكتساح ساحة المؤسسة وتشكيل الظلام. لم يبق من أحد هنا. وسار قاسم في الممر، وقد بدا له ضوء يطل من مكتب النوري. طرق فلم يجب أحد، وانتظر فترة، ثم فتح الباب ودخل، كان الأمر كما قدر. النوري منهمك في

صلاته في الركن الخفي، المنفصل عن المكتب. لم يطل قاسم ليراه، لكنه سمع شهقات وتنهدات فأدرك ذلك، جلس بهدوء على مقعد. كتب بمختلف اللغات على المكتب والرفوف. تناول واحداً وقرأ بالفرنسية «الحياة الروحية بالهند» وبدأ يتصفحه. مستطلع أوروبي يتحدث عن رحلته في الهند، اتصل فيها بكبار الروحانيين هناك، وهو يعرض من خوارقهم ما يدهش... وبعض صور لشباب البيتلز وهم يحيطون بشيخهم الهندي العجيب...

انفتح باب الركن الصغير، ودخل النوري مبتسماً.

ـ أهلا، أهلا.

وظل يضغط يد قاسم، وعيناه عليه، جلسا جنباً إلى جنب.

ـ كنت منتظرك، هذا المساء.

ولم يقل قاسم شيئاً، وتساءل النوري مشيراً إلى الكتاب الذي في يد قاسم:

ـ هل أعجبك؟

ـ كنت أتصفحه.

ـ تجربة جميلة، أحسن ما فيها أن صاحبها وهو يسرد ما مر به، يبقى حائراً متردداً، لا يجد تفسيراً لما يرى... إنه خير من موقف أولئك الصحفيين المهرجين الذين يتحمسون لكل شيء، سواء كانوا معه أو ضده.

وأكد قاسم ذلك، وهو يسأل النوري عن رأيه في هذه التجربة. وتوقف النوري قليلا كالمتردد، كالذي يستوثق من صلابة أرض قبل الخطو فوقها. كان واضحاً أنه يخشى على قاسم، أن يبهره نور العالم الجديد. فيتراجع. لذلك قدر قاسم أنه يكتم عنه الكثير من أسرار تجربته وهو لم يبدأ بعد الطريق. لكنه مع ذلك، لم يخف رأيه في التجربة الروحية للهنود؛ إنهم يتوفرون على طاقة

هائلة من الاحتمال والصبر، أو من الحياة الروحية كما يسميها البعض، وهم بالفعل يصلون إلى مستوى الخوارق. وأكد النوري وهو يتلفت حوله، كأنه يتلمس مثالا:

ـ الخوارق بالنسبة لما أنا فيه، شبيهة بلعب، وحلويات، وأصباغ، يصادفها طفل في طريقه إلى المدرسة، إنها تلهي وتغري، لكن الوقوف عندها غفلة ما بعدها غفلة...

ألم يقل قاسم إن هذا الرجل لا يعجزه شيء؟ لو كذب تجربة الهنود لكان معقولا. لو تقبلها لكان معقولا كذلك، لكن هذا الرجل فوق المعقول، إنه يزدريها، ويتحدث بلهجة الواصل الواثق، ويتلمس ما يبين به أفكاره بمهارة ودقة. الهنود أيضاً فقدوا الطريق، وتاهوا في الضلال. لسنا أمام هدف نصله من عدة سبل، بل من سبيل واحد، سبيل واحد لا ثاني له. النوري يؤكد هذا. وقاسم لم يعد شيء يدهشه، فهو يستمع صامتاً. البيتلز ضائعون تائهون، إنهم مجرد رمز لشباب القرن العشرين، لكنهم يتشبثون بمن هم أكثر ضياعاً. غريق يتشبث بغريق.

وتناول النوري كتباً مختلفة، كلها تتحدث عن التجربة الروحية، عن سلام النفس وأمنها، لكنه كلام للبيع، خال من كل دلالة، كما يؤكد لقاسم. وقال النوري أخيراً:

ـ إذن ستصحبني الليلة.

ـ نعم.

وازداد وجهه إشراقاً.

ـ هذا جميل.

ـ هل توضأت؟

ـ نعم.

ـ فلنقم إذن.

سارا تحت أضواء الشارع. ورأى النوري أن متسعاً من الوقت لا يزال أمامهما لموعد زيارة الشيخ، فاقترح أن يسيرا على القدم، فتلك رياضته المحببة؛ واختارا أطول طريق إلى سلا، طريق جانبي يمثل قوساً، يحزم العاصمة من جانبها الغربي، ليمر بالميناء القديم وينتهي عند القنطرة فوق النهر. وعاما في أضواء القنطرة، القوارب المنعكسة على سطح الماء، وأحاديث الطمأنينة والسلام وخيبة أمل النوري في مودة الناس والحب والرؤساء، وفي كل القيم. لقد قاسى التمزق والغربة قبل أن يهتدي إلى نفسه، وينكشف له طريق التصديق.

والتوت بهما المنعرجات، في أزقة سلا القديمة الضيقة، تفوح منها رائحة الرطوبة والتراب، وبين الحين والحين، يؤدي بهما السير إلى ساحة فسيحة تتجمع فيها عربات الخضر، والأطفال، والنساء حول سقاية، وترتفع أصوات البائعين، لتسلمها مرة أخرى إلى الضيق.

وارتفعا مع الطريق أخيراً، عبر ساحة متربة مهملة، تحيط بها المباني العتيقة التي اتجه النوري نحو إحداها، وطرق الباب، ثم تراجع إلى الوراء.

وسمع صوت نسوي:

ـ من؟

ـ الشيخ هنا؟

وفتحت الخادم الباب، وأشار النوري إلى قاسم ليتبعه وهو يدلف لا يلوي على شيء. دار أهلية لا يخبر ظاهرها عن باطنها، كعادة الأبنية في المدن القديمة. وصعدا إلى الطابق الثاني، واتجه النوري صوب إحدى الغرف. كان واضحاً أنه يعرف كل شيء هنا بدقة. وانحنى على يدي الشيخ يقبلهما ويتشممهما. وسلم

قاسم والنوري يقدمه. وجلسا قبالة الشيخ. لم تكن الغرفة فسيحة رغم زخرفها القديم، فاخرة الأثاث، لكنها تشي بعز ووجاهة، والشيخ قوي البنية، عليه وسامة، يفيض عافية وإشراقاً، تجلله لحية قصيرة ناصعة البياض، ولباس مكتمل أبيض. وتحدث النوري عن قاسم إلى شيخه، عن حيرته واضطرابه، ومعرفته القديمة به.

وتساءل النوري في رجاء:

ـ هلا حدثته يا سيدي؟

ورد الشيخ في بهجة وتودد:

ـ أولمْ تحدثه أنت؟

والتفت الشيخ إلى قاسم ملمحا إلى النوري:

ـ حديثه يفتح النفوس المغلقة.

وارتمى النوري، على يدي الشيخ يقبلهما، وهو يردد:

ـ ببركتك وفضلك يا سيدي.

وبدأ الشيخ يتحدث عن النوري، ومرتبته السامية في التجربة. لقد فاز بسرعة لم تكتب حتى لشيخه. هذا الطريق لا يعترف بالوجاهات؛ والعناية الربانية تدرك من تشاء في أي حين. وكم من متعب لا تكتب له السعادة. وهذا الشيخ ابتلي بأكبر محنة يمر بها مريد. ولكن الشيخ الأكبر في أقصى شرق البلد، لم يتعب كثيراً في تحصيل المنة، وهو أمي فقير، لكن نوره يبهر، وكراماته وسحره فوق الوصف، ولابد من التصديق. أما هذا الشيخ فكانت بلواه كبيرة. كان سياسياً كبيراً وقت الحماية، أدرك فيما بعد أن ذلك لم يكن إلا امتحاناً وتطهيراً، رموه إذ ذاك بأشنع ما يرمي به شخص: خائن متعاون عميل... وكم ضاق بذلك، لكن قوة ما، كانت تشده إلى عمله وتحبب إليه كراهية الناس له، أو تجعله

يحتمل. وقال له شيخه الأكبر فيما بعد، كان ذلك مقدراً لتموت كبرياؤك. لتتعلم التواضع. أما النوري، فيظهر أنه خلق متواضعاً، وذلك ما سهل عليه كل شيء. أما هذا الشيخ، فقد نبذه الأقارب أيضاً، حتى أولاده وعشيرته... واشتدت الإذاية عليه مع الاستقلال، فاتجه إلى الحج وهناك ضمه مجلس مع بعض رجال الدين، من عدة أوطان وتذاكروا، ولأمر ما برم الشيخ بتلك المذاكرة، وترك المجلس قبل انفضاضه.

كان النوري يتابع حديث الشيخ كأنه يلتهم كلماته، ولم يكن بادياً عليه أنه يسمع ذلك لأول مرة، لكنه كان يتمتع متعة بالغة، بسماع ذلك، كل مرة. واستأنف الشيخ:

ـ تركت المجلس وإذا بشخص غريب، كأنه نبت من الأرض يقف جانبي، مهمل الحال أشبه بالدّراويش. سلم علي فرددت عليه بإهمال، وإذا به يكلمني قائلا: عجبت لمن يملك النبع كيف يظمأ!

ويقول:

ـ عجبت لمن يترك المركب، ويلقي بنفسه للموج؟

ويقول ويقول...

ومددت له يدي بشيء، فقد كان غموضه يغري بذلك، وإذا به يستاء ويتفرس في وجهي جيداً، ويقول:

ـ متى تفهمون؟ متى تستيقظون؟!

واستيقظت مذعوراً من الحلم. إلا أنه ظل يتكرر.

كان التأثر بادياً على الشيخ، وهو يروي ذلك، وقاسم يتابعه بينما يشهق النوري بين الحين والحين وبذكر الله. ويعول الشيخ على أن يفهم دلالة رؤياه إذ ذاك: كيف يظمأ من يملك النبع؟! كيف يترك المركب ويلقي بنفسه في الموج؟!

ما معنى كل ذلك؟ واهتدى بنصيحة مسلم من أندونيسيا، أن عليه أن يعود إلى بلده، ويبحث عن النبع والمركب الذي خلفه.

وظل الشيخ يبحث حتى اهتدى إلى شيخه الأكبر في قفر شرقي البلد، ولم يسبق له أن رآه إلا في الحلم، كان نفس الشخص الذي تراءى له في الحج في حالة درويش. وهكذا انفتح الطريق...

توقف الشيخ عن الحديث وساد الصمت، كانت القصة مؤثرة بأسلوب الشيخ الواثق المتأني، لكن صورة أخرى طغت على خيال قاسم: تبدت له من خلف اللحية الكثة البيضاء صورة السياسي الكبير... أو المتعاون الذي كانت تزخر به صحف الحماية. لقد رآه في هذه الصورة مراراً، وأحس الآن بشعور غامض، يحمل آثار الماضي، يلح عليه. هل يزعم لنفسه أنه شعور الكراهية القديم تجاه رجل تعاون مع الأجنبي؟ لا يجزم بذلك قطعاً. لكنه من دون شك، شعور الرهبة. والنوري يؤكد كأنما يقرأ خواطر قاسم:

ـ الرهبة؟ الاضطراب؟ كل ذلك مألوف في البداية. مد يديك للشيخ. لكن اليد لا تمتد، والرهبة تمعن في التسلط، وخشية المجهول. ليس بينك وبين السلام الحقيقي، إلا أن تمد يدك. والشيخ يبتسم والنوري لا يلح. وقد تفوت الفرصة. والخوارق تتداخل والحكايات... والنوري صادق لا يكذب.

وبدأ بعض الرجال يفدون علي الغرفة، يقبلون يدي الشيخ ثم يتعانقون عناقاً طويلا، وبعضهم يتشمم بعضاً، كانوا شباباً من غير استثناء، النوري أقربهم مجلساً إلى الشيخ. واستغرق كل اثنين أو ثلاثة، في حديث هامس تتخلله ابتسامات وضحكات خفيفة، وإقبال وإشراق...

وقطع الشيخ الجو قائلا في مرح:

ـ إذن نبدأ التلفزيون؟

ابتسموا، جميعاً، ولم يفهم قاسم. لكن النوري يشرح له بأن الكلمة من دعابات الشيخ في حال تجليه، وأنه يقصد بالتلفزيون رؤى المريدين، وحنا النوري رأسه في أدب واستحياء وهو يقول، كأنه يتقدم نحو الشيخ:

ـ رأيت رؤيا يا سيدي...

وأنصت الكل باهتمام بالغ إلى النوري، وهو في مجلس لا يعرف مكانه بالضبط، لكنه كان حقيقة من دون شك، وأمامه يجلس الشيخ على حائط صغير متهدم، وما لبث الشيخ أن رمى إلى النوري بقطعة فحم حجري، ثم وزة...

انتهت الرؤيا، وابتسم الجميع لبعضهم كالموقنين بدلالاتها السارة، وإن لم يحددوها بالضبط، أما الشيخ فقد ازداد إشراقه، وهو يقول:

ـ هو ذاك، سأشرح لك.

ـ وتراجع النوري مستبشراً، وسأل الشيخ شاباً فوق العشرين بقليل، في أقصى القاعة، تبدو عليه الدعة، غائب في ذكر لا ينتهي:

ـ كان لك رأي لم تبح به البارحة؛ يا سيدي محمد.

واحمر الشاب كالخجول، وأطرق إلى الأرض وهو يقول:

ـ كانت ليلة عجيبة يا سيدي!

والتفت الشيخ إلى النوري:

ـ ما رأيك في سيدي محمد؟

ودون أن يرفع بصره إلى الشيخ قال:

ـ سيدي محمد له أحواله، وهو يتحدث عما يرى.

وبدا السرور على محيا الشيخ، وطلب من الشاب أن يعرب عن خواطره،

وازداد الفتى إطراقاً وهو يقول بهدوء:

ـ أثار انتباهي يا سيدي ما قلتم، عن برد الرضى وحرارة التدبير. قلتم يا سيدي إنهما مرتبطان، ولم أتبين ذلك الرباط. واعترتني حيرة شديدة، كيف يلتقي القطبان المتنافران: برد وحرارة، رضى وتدبير؟ وقضيت ليلي ويومي في حيرة. وفي الطريق إلى هذا المجلس، تبدى لي كل شيء، لست أدري أذلك مني، أم من الطريق؟

وتوقف الشاب قليلا ورفع بصره إلى الشيخ كأنما يستأذن في الإتمام، أو يستطلع أثر ما يقول، ثم أحنى رأسه وتابع:

ـ تبدى لي ذلك الرباط، فحرارة التدبير هي التي تقود إلي برد الرضى. أداء الواجب يتطلب حرارة في الإنجاز، واكتماله على خير وجه، يحل الرضى والبرد والسلام في النفس.

وما كاد الشاب ينهي كلامه، حتى انخرط أحدهم في بكاء ونحيب، وجسمه يهتز بعنف وهو يشهق بالكلمات:

ـ الرحيم، الرحيم. رحمت يا رحيم ارحم.

بدا أن الموقف مألوف لدى الحاضرين الذين استغرقوا في أذكار خافتة، والسبحات تتردد بين أيديهم، وخرج النوري عن ذكره الخافت، بعد فترة بدا فيها قاسم غريباً، ليحدثه عن مرتبة سيدي محمد في التجربة وعن رؤاه، وما يحظى به من منن، إنه مدرس، أما المنتحب الذي لا تتوقف دموعه حتى في حالة صمته وهدوئه، فهو طالب في الجامعة. والآخر مهندس في السكك الحديدية... وموظف كبير، وكثير ممن لم يحضروا بعد، أو لن يحضروا هذه الجلسة. ووقف بباب الغرفة شاب، لم ينبس. وسرعان ما وقف الشيخ، ووقف الجميع وخرجوا يتبعونه. في الخارج كانوا يسيرون جماعات من اثنين أو ثلاثة

متعانقين، متمايلين، والشيخ يملأ الأزقة الضيقة بقامته الفارغة وبرنوسه الأسود فوق اللبسة البيضاء الناصعة، في حركات ثابتة لا يلوي على شيء. وكان المارة والواقفون يتتبعون حركات التمايل والعناق، في دهشة لا تخفى...

وسأل النوري قاسماً:

ـ ما رأيك؟

أجاب قاسم وهو يتتبع حركات المتعانقين، وقد وقفوا يتسارون تحت مصباح باهت:

ـ كأنهم سكارى.

وأكد النوري:

ـ إنهم كذلك بالفعل، ومن غير خمرة. إنهم بهذا الصفاء نواة لبيئة بشرية طيبة.

ـ تقصد مدينة فاضلة؟

ولم يلاحظ قاسم علامة استنكار لهذا التعبير الفلسفي، بدت على النوري وهو يرد علية:

ـ إذا شئت...

ألف خاطر يتصارع في ذهن قاسم. إن كان هؤلاء في ضلال فيا لهوان الإنسان وغفلته، وإن كانوا على حق فما أضيع الآخرين... الحيرة مرة أخرى، ولا بد من اختيار. والمتعانقون يتمايلون في الزقاق، والقامة السوداء الفارعة اختفت في المنعطف، وصوت النوري يردد: تشجع، ودع الشك والتردد، تسلح بالتصديق. وإعجابه بالنوري كيف يضيع؟ هل يخيب حدس الرجل، وحكايات الابتلاء.

داروا في منعرجات. وانحدروا بضع درجات، وانحنوا ليدخلوا داراً واطئة قديمة، علت عليها أرض الزقاق، وصعدوا سلماً خشبياً، كان يئن تحت أقدامهم المتأنية. واجتمع الكل في الغرفة الضيقة الوحيدة التي تكون الطابق الأول. الشيخ على سرير يبدو أنه لنوم صاحب البيت. والآخرون كثيرون كانوا أكثر من عشرين، بالإضافة إلى من كانوا في بيت الشيخ، يجتمعون كل ليلة في بيت الشيخ أو لدي واحد منهم. الألفة ضاربة بينهم جميعاً، وبدا أنهم ينتمون إلى طبقات جد متفاوتة، من اليسر والفقر، والجهل والتعلم والأعمار.

موظفون كبار ومتوسطون، مثقفون، أميون، أطفال ورجال، وقال الشيخ لقاسم في ابتسامته المعهودة: إن النساء أيضاً يدخلن في جماعتنا، والأجانب أيضاً، وإن هناك حركة في أوروبا لنشر مبادئهم لاقت كل الإقبال... ضاقت الغرفة بالجماعة، لكن الاستبشار كان يعمهم، كل واحد يعانق الآخر ويتشممه، ويتبادلون السبحات، ويتمتمون بالأذكار ثم ارتفع صوت أحدهم بالذكر... بعضهم أغمض عينيه في نشوة، يتمصص الألفاظ متلذذاً بها، وآخر لا ينقطع عنه سيل الدموع... وشهقات وأطفال يهتزون، وعنف واضطراب ونشوة بادية، وواحد يقفز بينهم فجأة، ويقف متصلباً، والزبد يتكاثف حول فيه، ويتشنج ويتلوى ليسقط على ركبتيه في عنف ويطرق إلى الأرض ليرفع يديه ووجهه إلى السقف صائحاً: الرحيم، الله، الرحيم...

كان جواً عجيباً يصعب تخيله، وفي فترة استراحة بين الأذكار، همس النوري في أذن قاسم، ليتأمل أحدهم في الطرف المقابل، شاباً شديد السمرة في الثلاثين قوي البنية، قابعاً في هدوء واستكانة، كأنما ثقل ران على كتفه، يرفع رأسه حيناً بعد حين إلى السقف، في شهقة يهتز لها بدنه، ليعود إلى إطراقه وذكره الهامس وسبحته.

ونزلت مائدة طعام متواضعة، صحن من المقرونة بالماء والملح لا غير، لم يجد فيه قاسم لذة على قلة ما يعاف، وحصى الملح لم يذب بعد، يصل بين الأسنان، ومع ذلك كانوا يتهافتون بمعالقهم على كثرتهم. ويوسعون لبعضهم، كان واضحاً أن الجوع ليس دافعا إلى ذلك، لكنه حب الاشتراك مع الجماعة في الطعام. تسقط الحبة من ملعقة أحدهم، فيتسابق رفاقه لالتقاطهما من حجره، من الأرض متلذذين، ويتبادلون الملاعق في انتشاء.

وانسابت حكاية الشاب الأسمر في أذن قاسم. إنه بلوى من نوع آخر كما قال النوري. كان الشاب منخرطاً في جماعة فدائية، وكان من حظه أن يقتل الشيخ...

ـ شيخنا؟!

هتف بها دون وعي وفي استغراب، وأكد النوري:

ـ نعم شيخنا هذا بلحمه وعظمه!

إحدى حكايات الماضي أثناء محنة التطهير، التي اجتازها الشيخ قبل أن تناله بركة الرحيم ومنته، يرويها النوري مرة أخرى بأسلوبه الودود وتصديقه الذي لا يعرف حداً. لكن الرصاص رفض أن يخرج، أو أن الزناد امتنع عن الاستجابة لضغطة الحقد من يد الشاب الأسمر، ونجا الشيخ أكثر من مرة لتتم النعمة عليه. وبعد أكثر من عشر سنوات. تتبدل الأشياء والناس، ولا يجد الشاب الأسمر منقذاً له من الحيرة والضيق، إلا غريمه القديم، بعدما عجز عن ذلك منصبه العالي، الذي خوله له ماضيه المشرق، وكما عجز عنه الأصدقاء والزوج والأولاد، بل إن صدمة الشاب ما جاءت إلا من هؤلاء جميعاً، لتجد لها ترياقاً في طريقة الشيخ.

حكايات وحكايات... خلف كل وجه صدمة ومحنة وحيرة... وفي كل

مقطع من ألفاظ الذكر، نداءات الألم العميق تتبدد حباً وعناقاً، ورؤى سعيدة إلى آخر الليل، إلى بداية الصباح.

والأطفال؟ أيةِ صدمات وراءهم؟ أية استغاثات في سن العاشرة والثانية عشرة؟ كان قاسم يفكر في كل هذا وهم سائرون بعد انفضاض الجمع بعد آخر الليل. كل شيء هادىء في المدينة الصغيرة. والجماعة تبعثرت مثنى وثلاث في سكر وعناق. والنوري يجيب عن تساؤل قاسم، وهم يتجهون صوب محطة التاكسي للرجوع إلى العاصمة:

ـ ما بال الأطفال؟

ورد قاسم:

ـ لا أتصور صدماتهم، ولا أتصور كيف يعودون إلى الدرس نهاراً بعد قضاء سهرات مستمرة، كهذه...

ورد النوري بدون تردد:

ـ تربية الروح أهم، إنهم يسعدون في صباهم بما لم نسعد به نحن، ولا حتى الشيخ، ولحسن حظهم هذا...

وبدا لقاسم، كأن غنة تردد خالطت صوت النوري، وهو ينهي كلامه.

وأردف قاسم:

ـ هل توجه أولادك لمثل هذا؟

يا للصاعقة! كل حيرته في هذا السؤال. نفثها مرة واحدة. وأحس راحة بعد هذا السؤال، سيفهم قاسم وربما إلى الأبد، أو لا يفهم، وإلى الأبد أيضاً. يا رحيم. قاسم يعرف النوري كرجل تربية مطلع... وإنه لا يدخر حيلة في تربية أطفاله، على أحسن وجه وأنه أدخلهم منذ الصغر مدارس أجنبية، وساد الصمت فترة ثم أجاب النوري:

ـ التصديق يا قاسم، لا بد من التصديق.

لكن أجيج النار لا تطفئه العواصف، بل تذكيه. والصاعقة لا بد أن تصيب شيئاً. وحيرتك يا قاسم، بعضها على الأقل، لا بد أن يلقى جواباً شافياً واضحاً.

وكرر قاسم:

إنما أسألك عن أولادك، هل تريدهم لمثل هذا؟

كان الظلام خافتاً مؤلماً، يتجاوب في أعماق النوري، كأن كائناً في داخله يتحرك بعد رقود طويل، أصوات استغاثة وصخب غضب وثورة تغلي.

... وخيل إليه أن النوري يسرع الخطو اتجاه التاكسي الرابض، على الطوار الآخر، يلمع معدنه في الظلام، لكنه هو ما يزال راغباً في جواب، يريد أن يفهم أو لا يفهم وإلى الأبد. وكرر السؤال لنفسه وللنوري الذي لم يجب بعد:

ـ أتريد هذا لأولادك؟

ومن داخله أجاب صوت النوري الذي لم يجب بعد:

ـ التصديق، التصديق يا أخي.

ودلفا إلى التاكسي دون أن ينبسا بعد ذلك، بكلمة.

10

أيصدق عينيه؟ لم لا؟ هي بدون شك. كانت تبتسم، ابتسامتها الهادئة المعهودة، لكنها باهتة أو أكثر حزناً. كيف يخفى عليك ذلك؟

وتجاوز إليها زحام الطلاب، في الساحة ومد يده:

ـ أنت، ما هذه الغيبة؟

ـ هكذا.

زادها الحزن ظلالا أضفت على محياها مزيداً من الجمال. ما أشد قابليها للحزن، بل ما أكثر ما تحتمل. وتوقف عن خواطره، عندما رفعت طرفها إليه وقد بدت في أعماق عينيها، دمعة لم يفرج عنها. نظرت هنية يميناً وشمالا وهي تقول، في ابتسامة تخامرها تنهيدة:

ـ كل شيء بخير، الطلبة والدراسة... مما يسعد المرء أن أموراً ما، تسير في طريقها المرسوم.

وعاد يسأل كأنه لم يسمع ما قالت:

ـ سألتك فيم الغيبة؟

ـ طرأت أشياء.

وتعجب:

ـ أشياء؟ والدراسة؟

نظرت إليه في عتاب:

ـ الدراسة؟

وتذكر أشياء كثيرة. لم تغب عنه قط، فاستدرك:

ـ أقصد فقط، أن الدراسة بالرغم من كل شيء هي...

وبدا عليه التلعثم، كمن لا يجد الكلمة فنظرت إليه متسائلة:

ـ هي... ماذا؟

ـ لنقل إنها مصرف جيد الاهتمام.

لنقل؟!

ـ بل تهربت من اللفظة المناسبة.

ـ ربما.

وتوقف لحظة عن الحديث. خواطرهما كانت تتلاقى في نقطة ما، وقالت:

ـ الدراسة عزائي الوحيد. هذا ما كنت تريد أن تقول ولم يزد على أن قال:

ـ ربما.

وتحركت بخطوات وئيدة، إلى أقصى الساحة. قالت وهي تنظر إلى الأرض:

ـ أرفض فكرة العزاء. إني أعي موقفي بكافة أبعاده.

وبدا عليها التأثر، رغم الهدوء الظاهري، وبدت رجلاها تضغطان الكعب العالي، بشدة على الأرض الصلدة. وتحرك قاسم، فتبعته حتى تجاوزا الباب الحديدي، وأصبحا تحت السقيفة الخارجية، لمبنى الكلية وقال:

ـ بعد أسبوع، تصبح غيبتك، وقد طالت ثلاثة أشهر.

لم تجب، فعاد يسأل:

ـ ألا تنوين متابعة الدراسة؟

أجابت:

ـ أعتقد أن رسالتك هي التي جاءت بي اليوم.

لم يزد على أن تأوه. لم يكن مقتنعاً. رسالته ذهبت إليها منذ شهر فكيف تأتي بها اليوم؟

وأكدت له كأنها تقرأ خواطره:

ـ وصلتني الرسالة منذ أربعة أسابيع...

وقاطعها في لهجة لا تخفي تهكماً:

ـ وأتت بك اليوم؟

ـ أظن ذلك. لأني كنت ولا أزال، قد قررت الانقطاع عن الدراسة.

ـ كنت ولا تزالين؟

أكدت ذلك، وطرفها يسرح في الأفق الفسيح، وبعد لحظات تساءل:

ـ لم جئت إذن؟

وتلعثمت ثم رفعت وجهها إليه أخيراً:

ـ ربما... لأودع... وأشكرك فقد ساعدتني كثيراً، ولم أجد عنوانك على رسالتك.

إذن لم تكن الرسالة حدثاً عابراً بالنسبة إليها، كما لم تكن علاقتهما عابرة بالنسبة إليه. ولا أحد يدري ما تخفي السرائر، ورد كمن يؤنب نفسه:

ـ حقا لم أكتب عنواني، ربما... لأني خشيت أن تقع في يد أحد.

وردت في لهجة متشككة:

ـ أحقاً؟

وأكد في احتداد كمن يدافع عن نفسه:

ـ نعم، زوجك مثلا.

ـ زوجي لا يتدخل في شؤوني، ولا يدخل مكتبي في المدرسة، وأنت تعرف ذلك.

ورد في احتجاج:

ـ لا أدري، ما الذي منعني من كتابة عنواني...

لكنها أمعنت في لهجتها، كأنما تود متابعة اللعبة إلى النهاية، لعبة الحرج والإحراج. وما وراء ذلك؟ أتستنكر أن يكتب إليها؟ ربما كانت محقة في ذلك، لكن بدون هذا الإصرار والإلحاح، أم شيء آخر، ترمي إليه؟ وقالت

ـ على أني لم أر في الرسالة ما يدعو إلى خشيتك.

وتململ كمن لا يجد راحة. لم هذا التساءل؟ وقال:

ـ ليس فيها شيء. إنما...

وتوقف كمن يبحث عن كلمة:

ـ إنما ماذا؟

ورد:

ـ ربما كنت فقط، أود تذكيرك بأهمية الدراسة، أو أي شيء من هذا

القبيل، وربما فكرت بأنك قد تكونين مريضة أو ...

وتوقف قليلا ثم أردف في رمية اليائس:

ـ أعتذر عن إزعاجك.

عادت إليها سيماء الهدوء.

ـ لا تسيء فهمي. فأنا شاكرة على كل حال، ولهذا جئت.

وسأل:

ـ لماذا إذن تنقطعين عن الدراسة؟

ـ أسباب كثيرة.

ـ مثلا؟

أجابت في صيغة لا مبالاة:

ـ بالإجمال. مشروع تجاري لزوجي، لجماعة شركاء يقتضي انتقالنا إلى الجنوب.

وكأنما لسعه عقرب:

ـ الجنوب؟ ولماذا بالذات:

تنهدت وهي ترد:

ـ نعم الجنوب بالذات، وسأتخلى عن وظيفتي، لدي ما يشغلني هناك.

وقطب.ولعله تمتم بغير مفهوم، ثم قال:

ـ ألا ترين أن ننأى لنتحدث قليلا؟

أجابت في يأس:

ـ ما الفائدة؟ وماذا نقول؟

ـ لدي ما أقول.

وردت:

ـ أشك في ذلك.

وألح:

ـ أرجوك.

نظرت إليه قليلا، كأنما تتأكد من أنه بالفعل يملك ما يقول، وما جدوى ما يملك وما سيقول؟ نداء الجنوب قوي في أعماقها وأشياء أخرى تتنازعها، وماذا عساه يقول؟ وتقدما إلى السيارة. لم يتكلما. كانت تقود في طريقها المألوف، وهو إلى جانبها يضغط محفظة صغيرة في حجره، وتوقفت عند الحافة الصخرية الصغيرة، حيث تتكسر أمواج المحيط تحت أقدامها. كان المنظر موحشاً. وراءهما المقبرة الصغيرة القديمة يخترقها طريق ضيق، والأحياء الرطبة المتراصة على جانبيها، وهدير الموج وأصوات كالنعيب.

وقطع لحظة الصمت:

ـ هل قدرت قيمة ما تفعلين؟ في ظروفك؟

أجابت وهي تتحاشى نظرته:

ـ أظنني قدرت.

ـ أنت مخطئة، ستندمين، بل تنتحرين.

ونظرت إليه في استغراب.

ستبعث والدها من معزله، ستبعثه من جديد، ويجمع شمل الأسرة. ومشروع زوجها فرصة مناسبة لذلك، لطالما رفضت مشاريعه قبل ذلك. لكنها هذه المرة تملك أكثر من دافع قوي. كانت مشاريع زوجها تجارية خالصة من قبل، أما هذه المرة فهناك جانب إحساني مغر... سيتولى أبوها هذا الجانب، وبذلك يتسلل إلى الحياة من جديد، أو تتسلل إليه الحياة، وتساعده هي، أما المقدري

فسيمارس تجارته بهمة جديدة، يذكيها جمع الأثرياء الشركاء، من كل مدينة وحملة الصحافة... ويذوب كل فرد في اتجاه... وتذوب بعض مشاكلها...

ـ كيف ترمين بنفسك في هذا الخليط؟

واستنكرت:

ـ خليط؟ والدتي، أسرتي، زوجي والإحسان، كيف تسمي هذا خليطا؟

بل هو أكثر من خليط بالنسبة لقاسم على الأقل، ويجب أن يكون كذلك بالنسبة إليها أيضا. أي إحسان وأي مشروع؟ الرؤوس المدبرة لكل ذلك يعرفها: غنام والمنصوري ويمكنه أن يعرف غيرهما: المحامي والتاجر... والمقدري والتهامي يعرفهم أيضاً ولو من خلالها. ليتها تكون صريحة مع نفسها، وتنظر إلى الأمور كما هي. من أبوها؟ عميل قديم يبحث لنفسه عن عباءة، عن غطاء، عن وقاء ينسجه كثير منهم، كل لغرضه الخاص. وهي ما غرضها من كل هذا؟ لماذا تمثل الضحية في كل عصر؟ وزوجها من أي معدن هو؟ تزوجته إنقاذاً لوالدها وأسرتها، بل إنقاذاً لثروتهم بعد أن فقدوا كل اعتبارات المجتمع. لم يهبها الحب ولا حتى الطفل الذي يملأ فراغها، ومع ذلك تظل مرتبطة به في إصرار، من أجل ماذا؟ لا شيء، إلا حفظ ثروة أسرتها، وإلا اعتبارات أخرى متهافتة فيا للضياع.

وبدا أن صراحته تؤذيها. كان متأكداً من ذلك من طريقة إنصاتها، من صمتها، وكان حريصاً على أن يقول لها كل ذلك، وقد احتد وأمسك بذراعيها.

ـ أجيبي بصراحة. لا تجيبيني، بل أجيبي نفسك، في أعماقك. هل يستحق هؤلاء أن نضحي من أجلهم؟ هل يقدرون قيمة ذلك؟ لم لا يضحون من أجلك، ويقول الوالد ولو مرة في الزمن: ما لي وللثروة، إن ضاعت سعادة ابنتي، أو

يقول الزوج قبل أن يقترن بك: ما لي ولبريئة لن أسعدها. ما لي ولثروة لا يد لي فيها، ما لي وو...! لم لْم يقولوا أي شيء من ذلك لفائدتك وفائدة غيرك؟ لماذا نكون كبش الفداء ونتحمل أوزارهم؟ عبثاً نحاول بعث الحياة في الرميم، عبثاً نحترق لنغذي الهياكل النخرة. ووالدك ماذا يمكن أن يكون بعد الذي كان؟ يد الحطاب لا تنبت. وما فائدة الإحسان بعد أن تجمع المال من ألف سبيل؟! وبعد أن يصبح الإحسان تجارة، والسلام وسيلة حرب؟ إلى متى نرتق الماضي ولا نتبين معالم المستقبل؟ إلى متى؟

وتوقف مرة أخرى، كانت ساهمة في الأفق ما تزال، تناول يدها في حنو طبيعي، ورجاها أن تصدق نفسها. جمعتهما الظروف أكثر من مرة: في الوظيف وفي الجامعة، في الصداقة والتفاهم، وربما في المشاكل أيضاً. إنه يحمل بدوره أثقالا من ماض نسج الغير خيوطه. لنقل إن الصدفة لاقتهما في كل ذلك، أفلا يلتقيان بإرادتهما مرة واحدة، وإلى الأبد؟ بالعزم والتصميم. ويخططان مسيرتهما عن وعي وإصرار، يداً في يد. ويبدآن عصراً جديداً يحمل كل فيه وزره، ويرسمان على الدهر بسمة العدالة. المذنب بقدر والمسيء بقدر. وينطوي عهد المصلوب، وتنبت الأجيال القوية الصريحة. لم التجاهل والتغافل؟ إنهما يتفاهمان، وليسا بعد طفلين. تجاربهما تكمل بعضها، وذلك ما أحس به أول يوم، وربما أحست به أيضاً، وذلك ما يعلنه إليها اليوم في قوة ولا تزال تضمره. منذ انفتح له عالمها أحس بأن شيئاً ما، يجب أن يقوم، شيئاً ما يجب أن يستأصل، ليقوم على انقاضه بناء متين:

ـ أحبك يا هنية ولا مفر من هذا الاعتراف، وأنت تحملين نفس الشعور، فلم التخفي؟ ولم التهرب؟ ألم تعارضي مشاريع زوجك من قبل؟ أو ليس قبولك الآن مجرد هروب من حب حقيقي عنيف يدهمك؟ بل إني لأتخيل زوجك وقد تهيب أن يقرر شيئاً، في موضوع المشروع الجديد، فإذا بك تشجعينه وتزينين

له لمجرد أن تهربي، ولمجرد أن تجدي شيئاً جديداً يشغلك، بعد أن لم تعد تجدي الوظيفة أو الدراسة. وأخيراً في سبيل من؟ لحساب من تحترق الشمعة في وسط معتم؟ كل ما أرجو، أن تكوني صريحة وحازمة في أخذ حقك. العدالة لا تقبل ظلماً ولا انظلاما.

انتهى كلامه إلى أن يكون همساً، لكنه همس قوي يهز كيانها هزاً. دعوة عنيفة صريحة بلا مواربة ولا تخفٍّ، لقطع سلسلة ثقيلة تنوء بحملها، ولم تتجرأ من قبل على التفكير بالتخلص منها.

كانت وما تزال ساهمة. يدها مستكينة في يده، ونظرها إلى الأفق البعيد، والرأس مرخاة على مقعد القيادة، ودموع صامتة بدأت تنساب في هدوء. وانتحابها مكبوت في الأعماق، تنم عنه ارتعاشة الشفتين. ليرحم ضعفها الآن، وليترك لها فرصة التفكير.

أدار أكرة الباب في هدوء، وانساب من مقعده، وفتح رئتيه لهواء البحر. مهما يكن فقد أفرغ حمولة ناء بها دهراً، وجاء دورها. ليقر بأنها تتألم أضعاف ما يتألم، وأنها تحملت قبله بكثير، ضروباً أشد، من الألم... لكنه لا ينسى أرقه وعذابه وحيرته. الآن بالقرب منها يجد كل طمأنينة وسلام، يجد الترياق العجيب الذي عز عن كل حيلة، وحسناً فعل بمصارحتها، ولو انتظر الدهر لما اعترفت له بحبها، ولما أبصرت ما حولها بالمنظار الذي رسمه لها به، منظار الأشياء والناس كما هم. لو لم يصارحها لكانت قد ارتمت في أحضان الجنوب، والمشروع، والإحسان، والتجارة... المصلوب لا يطلب أجراً. ولعلها لم تحضر لتودعه، أو تشكره، حسب قولها، بل لتعرف ما يحمل بين جوانبه. كبرياء المرأة تدفعها إلى التريث والتدبر. والخطوة التي يتطلبها الموقف منها، قوية جبارة، وعليها أن تستوثق من الأرضية التي يمدها تحت قدميها... ليتها تخطو معه نحو المستقبل بقوة... ليتها تكف عن هذا العذاب... ليت...

واستدار على صوت المحرك يدار بسرعة، والسيارة تنفلت وتلوي اتجاهها، مثيرة حولها سحابة غبار، قبل أن تصل الإسفلت، لتصعد في الممر الضيق بين جزأي المقبرة، مخلفة في أذن قاسم الجامد في موقفه، أزيزاً حادّاً يمتزج بالدهشة والعجب وعويل البحر. وبدت المحفظة الصغيرة مرمية، حيث كانت السيارة واقفة؛ أخذها بتثاقل، كانت مفتوحة، تطل منها ورقة مطوية بيضاء.

«ما جدوى أن أسميك عزيزي أو حبيبي؟ ما جدوى الألفاظ وأنا أشعر بأني أخلق من جديد، أكشف عالماً جديداً، حلمت به كثيراً في يقظتي ومنامي، قرأت عنه ولم أترقب وجوده، لأني كنت يائسة من أن يوجد، أو أنه إن وجد، فليس لي فيه نصيب... عالم ألوان وفراشات وعصافير، عالم الصمت والحب والنغم... لكنه ليس عالمي.

تقبلْ هذا مني. إنه ليس عالمي. عالمي أعرفه، بصقيعه ولا مبالاته، بآلامه الصامتة، بجراحه وأثقاله وأوزاره. عالمي أعرفه، ولا أعرفني خارجاً عنه. تلومني أن ربطت مصيري بمصير الهياكل النخرة، برفات ورميم، ذلك لأني رفات ورميم، وهيكل نخر. والشعلة التي تتقد في أعماقك، انطفأت عني منذ زمن وإلى الأبد، تلومني... ولكني أيضاً ألومك لما تحاوله معي، لا لجدار الزمن، لا لأني أكبرك بسنوات معدودات، بل لأني في أعماقي أنتسب إلى جيل مضى، إلى زمن انقرض، أو يجب أن ينقرض، لا تحاول مرة أخرى. فلن تزيد الجروح إلا نكأ. ولتدم شعلتك لهيباً يذكي أجيال المستقبل. وحسبي أنا، أني بعد الضلال عثرت على حبي، على نفسي، وأني عدت إلى الضلال. كفاني أن برهة ما من الدهر، عزفت لحن وجودي، وتلك أعز ذكرى منك».

بل هو الذي عاد إلى الضلال. طريقه القديم لا يجمع قطبين متكاملين، ولا طريق النوري. لم يكن له أي طريق. ويفترّ النوري عن ابتسامته المألوفة. ها قد عدت سريعاً. نعم عدت. هات ما عندك وهاك ما عندي. أذكر ربك الرحيم،

أرأيت هذه الأوروبية الشقراء؟ ماذا فهمت من حديث سيدي محمد؟... عن الهنود؟ أولئك أخطأوا الطريق كغيرهم، لم يفهموا السر الأكبر. الطمأنينة والسلام والإحسان والناس والبر والتضحية وكبش الفداء. والمنصوري من رجالنا، وإنما أقعده عجز الشيخوخة عن حلقات الذكر، ومرض الثروة. من ألسنة اللهيب تخضر أوراق الجنة. تجارة الإحسان وإحسان التجارة. برد الرضى وحرارة التدبير، النار في الطوفان. غيرك كان أقسى تجربة، وهو اليوم في بحبوحة النعيم. ماذا رأيت في منامك؟ خيراً وسلاماً. والدتك تعلق من أجفانها في الجحيم، ووالدك مع الصديقين، أو العكس. الكل صحيح عندما يفنى الكل في الكل. وما عند ربي إلا النعيم. أخوك لا مكان له في أي مكان، حتى في الجحيم، بطاقة تعريف بدون توقيع. لا تؤكد على الماضي، على الأوزار القديمة، ربي خارج الزمان. لا خوف على صاحبتك هنية، ستعود إليك. تعود إلي؟ أو تعود إليها حتى تذوبا معاً، أو لا تلتقيان أبدا. هل تهزأ بي؟ معاذ ربي الرحيم، وعندما يفنى الكل لا يبقى إلا النعيم. هذا تفسير رؤياك. ألم تعرف الجالس على الأريكة والحوريات من حوله والقطوف؟ إنه المقدري زوجها، والباقون جماعة المحسنين ورجال التضحية والحب والسلام والأمن والطمأنينة وكبش الفداء والناس. ماذا يلعقون؟ ألم ترها إذن؟ انظر فوق، إنها المصلوبة. المسامير كما ترى هي علة الدم المتقاطر منها، لا الصلب ذاته، يلعقون دمها لأنهم يحبونها، وهي تجود عليهم به لأنها تحبهم.

لا بد من التصديق. رحمت يا رحيم ارحم.

11

فقد قدرته على الحساب في الضجة، والزحام، والبخار المتصاعد. ولا يدري أي كأس يشرب. ركز مراراً في المرآة أمامه، ومرفقاه على متكإ البار. ترفض المرآة أن تعكس صورته. وكشر حتى بدت أسنانه. يقولون تصنع المرح، تجد نفسك سعيداً. يحاول أن يبتسم في أعماقه فلا يحس إلا صدى كآبة يتردد. والكأس من شأنها أن تفرج الكرب. وكلما أمعن في الشرب، لم يحس بأكثر من امتلاء خبيث، كأنما السائل يتراكم بعضه فوق بعض في جوف مبلط. طبق الصول بارد أمامه يشكو الهجر. أية كأس يشرب؟ الكأس الكثير، ولا داعي للعد والترتيب. جيبه ما زال يحتمل المزيد، الا يسقط مغشياً عليه ويحمله اثنان يجاهدان بدورهما قصد الصحو، فلا يظفران إلا بتمايل يشي بسكر كسكره؟ لماذا جاء إلىٰ هذا المكان؟ هارباً من واقعه؟ لا يزال إذن رأسه يسأل ويجيب. وكيف جاء؟ إنها العادة. الفأس وحدها كفيلة بأن تقطع هذا التيار. أحقاً يحزنون عليه لو وقع ذلك؟ يحزنون عليه؟ من هم؟ هي وذاك وتلك وهو... وما الفائدة؟ أيدل ذلك على أنهم حينئذ ندموا على التفريط في إسعاده، عندما كان حياً بينهم؟ ما الفائدة من ذلك عند ذاك؟ أم أنهم فقط يجدون فرصة،

لينفسوا عن أحزانهم الخاصة؟ ربما بكوا بفعل العادة فحسب، ويستمر كل شيء كما كان ويكون: الضجة العارمة هنا، ورائحة السمك والشواء والإحسان والتجارة هناك، والطيبون في كل واد والسلام المصلوب، وألف خطيئة، وكل مهزلة. أحسن ما يفعله امرؤ أن يقف ليلة نعيه بالباب عند انصراف الجمع، ليتابع أحاديثهم وسلوكهم بقية الليلة. لكن العادة لا تسمح بذلك، جرت بأن يكون الميت غائباً فلا يشهد أكبر مهزلة. لو انفتحت ضمائر الناس للناس، لكان كل شيء سهلاً وواضحاً. الشقاء الدائم أو النعيم. يجب أن تمسك على الحرباء في الفراغ، لتظفر بلون واضح ثابت. ليت صداع الرأس يخف، وتذهب الضجة...

وتجرع كأسه طالباً المزيد. وعول على أن يحصر انتباهه فيما حوله، ما دامت رأسه لا تكف وخواطره لا تتوقف. سخافات هذه الوجوه، أخف وطأة. المرآة المواجهة ترفض دائماً أن تعكس صورته، وخلفه شخص سكران يمارس زرع النقود في جوف الفليبر، لكنها تتساقط وتحدث رنيناً على الأرض فلا يحفل بجمعها، ويظل يمارس زرعها بيد لا تثبت على شيء... والباقي أشخاص يشربون، وكلهم متشابهون بلا وجوه ولا ملامح، يغلفهم الدخان والبخار. كل من يدخل هذه البقعة توأم للآخر... ماذا بقي إذن؟ من أين ترتفع الضجة؟ كل شخص يتحدث بهمس إلى نفسه أو جاره، فكيف تتجمع الأصوات وترتفع ضجة؟ لم لا يكون مجموعها صوتاً واحداً أشد خفوتاً، وكيف يكون مجموع السالب موجباً، وبأي قانون؟ آه، يعود الرأس من جديد إلى السؤال والجواب.

الإسبانية تلبي الطلبات. لم تبد يوماً بهذا القبح والدمامة، والمرآة اليمنى أكثر وداً، تعكس الصور بأقل جهد من المرء. في الركن المظلم شبح منطو على نفسه، عائم في الدخان، جامد لعله ميت لولا أنه يتحرك، بدأ يتحرك فعلاً:

ـ أنت حزين يا أخي، هذا المساء.

لم يجب قاسم، والشخص يخرج من غمامة الدخان ويدني مقعده الطويل حذو مقعد قاسم، بدا أنه كان يرقبه منذ مدة، ولم يكن غير شخص ليلة ما، من عمر قاسم في هذا المكان بالذات، الوعدودي.

ومد يده نحو قاسم:

ـ أخوك الوعدودي. ألا تذكر؟

وهز قاسم رأسه علامة التذكر والموافقة، وأردف الوعدودي:

ـ ليس في الدنيا ما يستحق الحزن. جئت أشرب. كنت تشرب، فلنشرب.

وكأنما أفاق فعلا. وتذكر عدة أشياء، فتحرك كالمنصرف:

ـ تنصرف؟ هل أضايقك؟ إذن اشرب معي.

وصبت لهما الشقراء، حسب رغبة الوعدودي وهو يترنم:

عد بظهر الغيب واليوم لي...

وكأنما انتبه الوعدودي إلى شرود صاحبه فتساءل:

ـ لا شيء يستحق الاهتمام، فيم تفكر؟

لم يجب قاسم، فاستأنف الرجل تساؤله:

ـ امرأة؟

وهمهم قاسم، واستأنف الوعدودي في ثورة، يود بأي ثمن أن يفهمه هذا الشاب المبتدىء في أمور الحياة. لا شيء يستحق الاهتمام. الماضي؟ وماذا نعمل لنعيد الماضي أو نصلحه؟ المستقبل؟ سيصبح ماضياً ولا تبقى له أهمية. الغير؟ وهذه أكبر سخافة، أنا واللحظة والكأس.

أنا اللحظة ولا شيء آخر. كل شر وراءه امرأة. وأكد الوعدودي:

ـ لا تترك للمرأة مكاناً في نفسك.

ورد قاسم ساهماً، كأنما يحدث نفسه:

ـ لكنها تتعذب.

ـ لا تتعذب امرأة.

ـ وضحك ضحكة مجرب فتساءل قاسم:

ـ لك أخت؟

ـ لا. كانت لي امرأة.

ـ افرض أنها تتعذب

ـ لا تتعذب امرأة على الإطلاق

ـ افرض...

ـ لكنها لم تتعذب...

ـ ضحت بشبابها وحبها من أجل عناكب الأسرة، بكل شيء من أجل لا شي.

ـ ضحكت علي... فارقت بنتي، هدمت أسرتي في سبيل حبها.

ـ زُفت إلى العذاب والحرمان، وبوداعة مريرة تسلم عنقها للغير، حفاظاً على أي زواج؟

ـ زواج؟ هه اعتقدتُ أنه... أنه، يا للغفلة... أنه الرباط الأبدي بيننا، لكنها كانت تطمح إلى ما ليس فيّ، إلى السهرات والأنوار والجاه... وكسرت كل شيء.

ـ آلامها في صمت وبلا أمل. والعناكب ما تزال تمتص من دمائها.

ـ تسبح الآن في الأنوار والأضواء، تتلقفها الأذرع... وبنتاي...

والكأس.

والتقت أعينهما خلال الغمام. لم يكن أحدهما يسمع الآخر، لكنهما كانا يتفاهمان بدون شك. كل في واد، يجمعهما وادي الكأس. وقهقه الوعدودي بحركة قطعت الهمس الصارخ فترة، وفتحت أعيناً خابية متطلعة... لتعود الضجة الهامسة:

ـ عدنا للمرأة.

وهمهم قاسم موافقاً. وضرب الوعدودي على البار كأنه يراهن على صدق رأيه:

ـ المرأة، والسلام، والعالم، ثالوث لا يلتقي...

ـ وهل يلتقي ثالوث الرجل والعالم والسلام؟!

وكأنما تذكر قاسم شيئاً، فهمهم لصاحبه:

ـ هناك محاضرة عن السلام.

لم يجب الوعدودي، كان يتجرع الكأس. واستأنف قاسم:

ـ محاضرة لرجل كبير كبير.

وتساءل الوعدودي متصنعاً الجد:

ـ هل استدعوا إليها السيد سلام؟

ـ لا. تعذر حضوره، بعثوه في مهمة يخطط لحرب هامة يجب أن تتسع رقعتها بفضله.

وصفق الوعدودي بقوة كما لو كان يحيي المحاضر نفسه في قاعة عمومية.

وأقبل على قاسم يقبله... وأمعنا في الشراب...

أحس قاسم بارتياح كما لو لقي شطراً من ذاته. والأشطار الأخرى، أين يلاقيها؟

وبدا الوعدودي شارداً في الغمام، وقال بتؤدة كأنه يتهجى الحروف:

ـ عندما يرتفع صوت السلام، عندما يتردد في الآذان... اعلم أن العنكبوت أرخى حبائله وأن فريسة على وشك الوقوع.

ـ يجب التصديق.

ـ وتساءل الوعدودي في استنكار:

ـ عدنا للمرأة؟

ـ عدنا للسلام... سلام النفس.

وحملق فيه الوعدودي بينما استمر قاسم في شبه هذيان:

ـ كل المعاني الجميلة في التصديق. تدمير العالم وسلام النفس... خذ زجاجة، كسرها، أو تمسك بها من العنق، وابقر أخاك... افعل كل موبقة... اجمع ما شئت من مال، واصنع حساء من تراب نقي لبطون الجائعين، واظفر بسلامك... كن طيباً، واظفر بهنائك... لا تقل شراً. لا تعمل خيراً، واسعد.

وكأنما أدرك الوعدودي، منطق صاحبه، فتصنع الجد وأتم:

ـ إذا تركت بنتيك، وأسرتك، من أجل امرأة، وتركتك المرأة لأنها اكتشفت أن لا أضواء في طريقك، ولا بريق، فاصنع لها تمثالا وتعبد، لا بد من التصديق...

كن حمار شغل ربع قرن، والمح غيرك يرقى في طرفة عين، واظفر بهنائك. لا تعاند، لا تجادل، لا تسأل لا تجب.. لا بد من التصديق... إذا قتلت وشردت الملايين، ونصبت السلام أركان حرب، فطف في البلاد محاضراً مبشراً

باسم السيد سلام... لا بدِ من التصديق، واظفر بهنائك واسعد.

وقهقها معاً، لم تتطلع إليهما العيون الخابية، حتى غمائم الدخان خفت، والشقراء اختفت، وزوجها يدفعها للخروج. لم يبق من أحد. وتأففا. وبدا شبح شرطي يحوم، فخرجا متكئين يكمل كل منهما حديث صاحبه، تعانقا للوداع، والوعدودي يتصنع الجد:

ـ اسمع. لا امرأة، لا رجل، لا سلام لا عالم لا أرض ولا سماء... لا شيء إلا الكأس.



12

خرج قاسم من المحاضرة مسرعاً، شيء ما يثقله، يدفعه إلى التفرد، منذ مدة لم يعد ينعم بأحاديث الطلبة. ربما كان عزوز وحده قادراً على إخراجه من عزلته، أو هكذا خيل لقاسم. وكم يتوق إلى حديث صريح بريء، بعد أن ضاق بأحاديث نفسه. والدروس لم يعد يحضرها بانتظام، وبذلك اتسع نطاق الفراغ حوله، وبذلك غبط عزوزاً لأنه على الأقل، لا يجد الفراغ. ومشاكل الطلبة تجدد حياته كل يوم. الكتب لم تعد على إغرائها القديم، رغم الإجهاد والمحاولات. منفي في المدينة، بين الضجة والزحام، فيا للمفارقة! واعترف لنفسه بأن به شذوذاً اجتماعياً أو ما يشبه الشذوذ. وكم كانت هنية تغني عن كل كتاب. أف لم تعود الذكرى، بعد الفراق الطويل؟ كل شيء يعود به إليها. يجب أن ينسى، وإلا فلا جدوى غير الحسرة والألم. في الكأس ينسي، لكنه يكره نفسه عندما ينتهي مفعول الكأس، ويعود إلى الذكرى في إلحاح. والوعدودي يغلق كل منفد، ولا يفتح أي عالم...

هبط قاسم درجات الكلية الخارجية ببطء، كأنما يثقله زحم الخواطر، كأنه لا يريد أن يغادر البقعة، وتوقف عند الفضاء الخارجي، إلى أين يتجه؟ يا للفراغ.

السماء كئيبة في صبغة المغيب. كل شيء داكن وتجاوزه جماعات الطلبة ينحدر بعضها نحو المدينة، وبعضها مصعد نحو الحي الجامعي. لو تناول عشاءه معهم في الحي، لأتعبته المسافة، وملأ بعض الفراغ، يا للسخافة. كيف يفكر بهذه السفاسف؟ وأحس بيد على كتفه:

ـ دائما في تأملاتك؟

ـ نعم. لا. أبداً.

كانت يد غنام وصورته، وتلعثم قاسم بالمفاجأة. والقامة القصيرة بأناقتها الفائقة تدعوه:

ـ هيا، تحرك يا قاسم.

وفي حيرة ظاهرة أجاب:

ـ أتحرك؟ لا. أنا ذاهب.

وبابتسامة لا يحبها قاسم، تساءل غنام: إلى أين؟ تعال نشرب قهوة في «البيارتز».

اعتذر قاسم. أشياء كثيرة تنتظره. حيث يعلم أن لا شيء ينتظره، سوى الفراغ.

ـ أدعوك، ولابد أن تقبل.

واحتوت لهجته غنة أمر لم يرتح لها قاسم. فاعتذر مرة أخرى وهو يتحرك. كفاه، ولم يعد يريد مزيداً من المضايقات، لو دعاه عزوز لرحب. بل لو شاهد عزوزاً لدعاه هو، إنه في حاجة إلى سريرة صافية، يطلعها على مكنون خواطره، أما آخر، وغنام بالخصوص، فلن يجالسه إلا تكلفاً ومجاملة. ورد قاسم:

ـ شكرا، عندي موعد.

وألح غنام:

ـ جلسة سريعة... قهوة بسرعة، تعال يا أخي.

وتبين لقاسم أن شيئاً ما يدفع غناماً إلى الإلحاح. أهو المشروع القديم؟ وما عسى أن يكون غيره موضوعاً لحديث بينهما إن تصور أحد أن بينهما حديثاً، أم لمجرد تمضية الفراغ؟ لكن غنام لا فراغ عنده... بل وقته يضيق عن مشاغله... وكأنما قرأ غنام، ما يجول بخاطر قاسم، فبادر يقول:

ـ أريد أن أحدثك بشيء.

ولم يخف قاسم تعجبه، أو لعله تعمّد أن يبالغ في إظهار العجب.

ـ شيء؟!

وبابتسامة، قال غنام:

ـ شيء هام، وقد لا يعجبك، لكنك ترغب فيه بدون شك. وبنظرة لا تخلو من مكر. كما بدت لقاسم، تابع غنام:

ـ شيء يتصل بشخص تعرفه جيداً، أو تهتم به.

ولم يفهم قاسم هذا إلا على سبيل الإغراء إن لم يحدثه غنام عن المشروع، فحتماً سيحدثه عن علاقته بالمنصوري، هذا الرجل الذي أصبح في لحظة ما، نقطة اتصال بينهما في ذهن غنام على الأقل. لكن غناماً لا يعرف أن الأشخاص والأشياء، فقدت اهتمام قاسم، وأن الشخص الوحيد الذي يمكن أن يهتم به، يحاول في الوقت ذاته أن ينساه:

وتساءل قاسم:

ـ من يكون الشخص؟

ـ فتاة مثلا، أعني امرأة...

وقطب قاسم. ماذا سيزعم غنام؟

قد يأتي بكل الأكاذيب. إن كان له غرض لاجتذاب قاسم إلى جلسة. لكنها لن تكون جلسة مجانية، وإلا فكل تصوراته عن غنام تحتاج إلى مراجعة، واجتذبه غنام بمرح:

ـ هيا يا أخي تحرك...

وتحركا. لم يتكلما طوال الطريق، أو على الأصح لم يخرج قاسم عن نفسه، رغم محاولات غنام، لاختلاق مناسبات للحديث.

ـ يجب أن نفهم الحياة.

لم يجب قاسم أو لم يسمع. وبعد فترة أخرى سأل غنام:

ـ كيف حال الوالدة؟

ـ لا بأس.

ـ الحياة صعبة.

ـ نعم.

ـ وكرر غنام، كأنما يلح على أن يسمعه قاسم:

ـ يجب أن نفهم الحياة.

ـ نعم.

ويعود الصمت والطريق. الشارع الكبير يعج بأفواج الموظفين منحدرين صوب المدينة القديمة، أو يبحثون عن مكان مناسب لجلسة فارغة.

وانتحيا ركناً خالياً. جاء الجرسون.

ـ ماذا تشرب؟

وبدون اهتمام:

ـ قهوة.

وتريث غنام، قبل أن يطلب عصير برتقال. ثم صفر إعجاباً وهو يغمز لقاسم، مشيراً إلى سرب فتيات بالميني جوب:

ـ كأننا في لندن أو باريس.

وابتسم قاسم مجاملة. كان يتلهف لاكتشاف موضوع الدعوة، لكنه تمالك نفسه، وانتظر أن يبدأ غنام.

ورشفا من كأسيهما وقال غنام، بدون مقدمات:

ـ عندي خبر عن هنية.

واهتزت أعماق قاسم، أيمكن؟ أحقاً؟ خامره الخاطر عن تلميحات غنام الأولى، لكنه أبعده.

وتساءل:

ـ هنية؟!

ـ نعم. لا تتعجب. الحياة صعبة...

وتمالك قاسم نفسه، بعد المفاجأة الأولى وسأل:

ـ كيف عرفت؟

وبرغبة في الاختصار أجاب غنام:

ـ كنت في الجنوب، أتفقد المشروع. زوجها معنا.

كل شيء يسير في خطته المرسومة. مما يسر المرء أحياناً أن أموراً ما، تسير في طريقها المرسوم، هكذا قالت هنية يوماً، لكن سير الأمور في طريقها، كما يخططها غنام أو المنصوري أو كما تتقبلها هنية لا يسر قاسم، بل يسوؤه على وجه التأكيد، لَم إذن هذا الخبر؟ ما المقصود منه؟ أهي أرسلت إليه مع غنام؟ لم إذن؟

كانت أعمال المشروع تتطلب من غنام، زيارات عدة الأقاليم، وتوطدت علاقته بالمقدري، الذي أظهر مهارة تجارية كبيرة في الجنوب، وتردد على بيته مراراً، وهناك عرف أشياء كثيرة عن هنية وعرف اهتمامها بقاسم، وإن لم تبح بكل شيء، إنه لم يكن غبياً، ليتبين ملامح فشلها مع زوجها ومع أسرتها. وفي عملها الخيري، رغم تنقلها الدائم في القرى والمدن، رغم الحركة المستمرة. وتساءل قاسم:

ـ كيف هي في الجنوب؟

ونظر غنام برهة في وجه قاسم، كأنما يتبين وقع ما سيقول له:

ـ لم تعد هناك... إنها هنا.

ـ في الرباط!

ـ في سلا.

ولم ينتبه غنام لاستغراب قاسم، فرشف من كأسه وهو يكرر:

ـ الحياة صعبة.

لم يفهم قاسم شيئاً، وبدا له أن غناماً يعقد الأمر أكثر مما يلزم، كان عليه أن يستمع إلى سير المشروع، إلى تكدس الأرباح، وإلى المؤسسات الإحسانية، وإلى الحركة، وإلى الصيت الذائع في الداخل والخارج، وأهمية الصحافة، وأن يتقبل انتقاد، غنام:

كنا ولا نزال في حاجة إلى مثلك. الفرصة لم تضع منك بعد.

لم يعلق قاسم بشيء، كأنه لا يسمع وتساءل:

ـ ما الذي جاء بها؟

ـ المرض.

يا للهول، كأنما عجز أطباء الجنوب، كأنما عجزت كل المدن الأخرى، حتى أضخمها وأكثرها مرضى وأطباء. وحتى العاصمة عجزت عن شفاء المرض، لتحتضنه سلا الصغيرة! لعل غناماً يهزأ وينحرف بالموضوع أو... الواقع أن أناقة هندامه تناسب ترتيبه لأفكاره، فلا يقول إلا ما يشاء عندما يشاء. إنه كما يقول المثل الإنجليزي الذي يعمل بواجبه: يجذب الخيط في الوقت المناسب. على أن انتظار قاسم لم يطل، لأن غناماً شاء أن يخبره.

يشهد غنام بأن المقدري زوج لطيف، وأنه يبيح لهنية كل ظروف الحياة، وإن كان يعترف بأن ذلك لا يجدي، لتفاوت طبيعتهما، وللظروف التي تم فيها زواجهما، ويبدو لغنام، أن هنية كانت تكافح ضد مشاعرها، وضد تدفق الحياة في كيانها. لذلك لم يفلح أي شيء في استغراقها وإفناء طاقتها، فاعتراها بعد شهور من العمل، شرود ملازم متقطع. ما لبث أن تطور إلى انهيار عصبي خطير ناتج عن تأثر نفسي، وهكذا لم يكن مفر من أن تنقل أخيراً، إلى مستشفى الأمراض العقلية بسلا، حيث هي منذ الأمس، والحالة كما يصفها غنام خطيرة جداً، ومما يضاعف ذلك، أن لا أحد من أسرتها يستطيع المكوث بجانبها لا الزوج ولا الأب. وربما كان الأنسب للمريضة، أن تنفصل عن كل أفراد أسرتها مدة العلاج، حتى تخرج عن الجو الذي أودى بعافيتها. بل هناك أمل كبير في العثور على عامل قد يساعدها، على الخروج من محنتها، وهو قاسم.

وبدا أن غناماً يعرف كل شيء، بل ربما كان يعرف أكثر مما يعرف قاسم، عن مشاعر هنية نحوه، وأثر ذلك فيما آلت إليه. وبدا ما هو أكثر من ذلك، وهو أن غناماً قد خطط كل شيء. وتصور قاسم أن غناماً قد يكون هو الذي اختار سلا بالخصوص، لاستشفاء هنية لعدة أسباب، لا زال بعضها خفياً. إلا أنه يتلخص في شيء واحد، هو سلامة المشروع والاحتفاظ بنشاطه في الجنوب، بعد أن بدا أن حالة هنية، قد تهدد كل ذلك. ولم يمض الحديث طويلا حتى تبين لقاسم أن

غناماً إن كان قد اختاره للسهر على هنية، فذلك يرجع إلى علاقة قاسم بالطبيب رئيس المستشفى، الذي كان أستاذاً لكل منهما في دراسة الباتولوجيا.

وكان بوسع غنام، أن يستغل معرفته الخاصة بالطبيب لولا أنه لا يجد متسعاً لذلك، بينما يملك قاسم كل الظروف المواتية: علاقة بالمريضة وصداقة الطبيب والفراغ. بدا كل شيء مهيأ ومحبوكاً، وما على قاسم إلا أن يتحرك لينفذ. كأنه شد بوثاق متين إلى عجلة، وآن للعجلة أن تدور.

وحاول قاسم أن يخفض انفعاله بما يسمع، مزيج ارتعاش ورهبة وغضب يخالط مزاجه، وتحركت يداه تدعكان وجهه، بينما رشف غنام من كأسه بهدوء، وعاد يقول:

ـ الحياة قاسية يا قاسم.

وارتسمت ابتسامة مرارة على وجه قاسم، وهو يقول:

ـ إننا نجعلها أشد قسوة.

وأكد غنام:

ـ النتيجة واحدة.

ـ كلا.

وأكد غنام:

ـ ما الذي يتغير؟ سواء كانت قاسية أو كنا نجعلها قاسية، فالنتيجة واحدة.

وبعزم من كان يبحث عن متنفس فاهتدى إليه أخيراً، رد قاسم:

ـ كلا، قد تبدو النتيجة القريبة، النفعية أو السطحية واحدة، أما في العمق، فالنتيجة مختلفة.

ولم يبد على غنام ترحيب بالنقاش، ولكنه تابع قاسم مستفهماً:

ـ لم أفهمك.

ـ الأمر سهل إذا كنا نحن نجعل الحياة قاسية، فالنتيجة أننا نتحمل مسؤولية ذلك، أما إذا كانت قاسية بطبعها، فلا مجال للمسؤولية.

لم يفلح قاسم في إخفاء انفعاله وهو يتحدث. وكان في قرارة نفسه يناقش حادثاً معيناً، وأشخاصاً معينين، هم هنية والمسؤولون عن حالتها. ولأول مرة أحس بقدرته على محاكمة الناس. هذه القدرة التي كانت ترعبه في القضاة دائماً. كيف يتيسر لأحدهم أن يصل به اليقين والقوة، إلى أن يجزم بحكم في حق الغير؟ وبأية قوة لا يبدو كل حكم قابلا لنقيضه؟ لكنه يفهم الآن أن لا بد من أرضية نقف عليها، حتى لا نحيا مجاناً. ويبدو له الآن أن المسؤولية هي هذه الأرضية الصلدة. مسؤولية واقعية لا يبدو فيها الشيء ونقيضه متلازمين، إلى الحد الذي كان يرعبه. وخيل إليه لأول مرة أن تأملاته القديمة وسائر ما كان يشغل به ذهنه من جدل، يبدو شديد الانفصال عن شيء يسمى الواقع، لكن الواقع لا يزال يبدو غير محدد؛ لكن على أي أساس نرفض أو نختار؟ على أي أساس نحدد المسؤولية؟ يبدو التحديد صعباً سلبياً، ولكنه ثابت صلد، فلنحدد أولا ما ليس مسؤولية وهو استغفال الآخر. والتحايل عليه والمس بكرامته... وبذلك قد نصل إلى قيمة ثابتة، أو نحاول بحثاً جديداً.

كان غنام يتابع جدية قاسم، الذي بدا كأنه يكتشف في كل خطوة، جديداً، متحدثاً عن العدل والحب والحرية والكرامة، وبدا غنام غير قادر على كبح التيار، بل لم يكن يقدر ولا يرغب في أن يمتد بهما النقاش إلى هذا الحد. ولعله لم يكن مستوعباً لكل ما فاه به قاسم على وجه الإجمال. لذا وجه الحديث نحو نقطة معينة، أدرك أنها كانت نقطة انطلاق قاسم، فقال:

ـ وفي حالة هنية، من المسؤول؟

بدون تردد وبحزم وثبات، أجاب قاسم، وهو ينظر إلى عيني صاحبه ويشير بسبابته:

ـ أنت، وهي، قبل أي شخص آخر...

وقطب غنام للمفاجأة، وسرعان ما محا كل أثر لانفعاله، وابتسم قليلاً، بينما تابع قاسم خواطره: هنية مسؤولة، لأنها قبلت أن تكون كبش الفداء، أما غنام فهو نسخة متكاملة من عدة نماذج، إنه شتات الزوج الغافل المتهافت على الثروة، ورجل الأعمال، والوالد المتهالك، والوسط العفن الذي يمتص دماء جيل كامل بالدعوات الصالحات. وإنه الذات المترددة المقوقعة في أعماق قاسم، والتي يحاول الانفلات منها أخيراً، لاتخاذ قرار...

وعلق غنام على رأي قاسم بفتور مبالغ فيه.

ـ لم تزد على أن اتهمت الجميع.

ورد قاسم. كانت روح جديدة تركبه:

ـ ليكن. لتكن، هذه بداية. ومن الاتهام نستشف البراءة.

ساد الصمت بينهما، وقطعه غنام، وهو ينظر إلى ساعته كمن يتحين فرصة لإنهاء الجلسة:

ـ يعجبني شيء واحد في حديثك.

واستفهم قاسم، فرد غنام:

ـ كنت ترى، أننا لن نلتقي، لكننا سرعان ما التقينا، في النظر والعمل.

ـ هه؟

وأوضح غنام:

ـ التقينا حسب رأيك في أننا متهمين، أما في مستوى العمل، فنحن معا

نهتم بهنية، وهذا يشير بلقاء آخر قد يكون أهم.

لم يرد قاسم، فأشياء كثيرة كانت تتزاحم في ذهنه، وهو بحاجة إلى وقت ليميز بينها، إلى عزلة مؤقتة. وهنية بالنسبة لغنام جزء من مشروع، أما بالنسبة له فهي شهادة على إجرام تتحرك. ونقطة الالتقاء كما يراها غنام، تبدو مفترق طريقين لا يتصلان أبداً. أعاد غنام النظر إلى ساعته. وقال محاولاً ألا يكون لحديثهما، بقية تأثير في نفسيهما.

ـ قد نعود إلى الموضوع. أما الآن فعندي موعد مع محام صديق، وأدعوك لتصعد معي نحو أكدال.

ورد قاسم ساهماً:

ـ آسف. سأنحدر نحو البيت.

وأحس برجليه تطآن الأرض بقوة وهو ينحدر...

خواطر كثيرة تتصارع فيه، عليه أن يفحصها بهدوء.

13

كان الطبيب ينصت، وقد تأخر بمقعده عن مكتبه واضعاً إحدى ركبتيه فوق الأخرى، وعندما توقف قاسم، سادت لحظة صمت، بدا أن كلا منهما فيها غافل عن الزمان، لكن نقطة مشتركة كانت تجمعهما وهي حالة المريضة، كان قاسم في حديثه صريحاً، يتقصى كل ما يعرفه، أو يتصوره عن هنية في علاقته بها، وبأسرتها، وبزوجها، وبمزاجها قبل الإصابة. وبدا الطبيب مهتماً بما يسمع، يسجل بين الحين والحين شيئا في ملف أصفر أمامه، طواه بعناية وهو يشكر لقاسم صنيعه، إذ أن افتراضات الطبيب، تحتاج إلى سند من الأحداث ما كان ليقدمه زوج المريضة، ولا والدها، لا وسيلة للكشف عنه، ما دامت المريضة تلوذ بالصمت منذ شهور.

كان هذا، أول ما يترامى إلى فهم قاسم من أمارات إصابتها، وتساءل:

ـ أهناك أمل؟

ـ طبعا. هناك أمل.

لكنه لم يخف على قاسم خطورة الحالة، حتى بدا وكأن جوابه، لم يكن إلا مجاملة آلية، تعودها لكثرة ما أجاب بها، ولأن قاصد الطبيب إنما يرتبط به عن

طريق هذا الأمل. لكن موقف قاسم، كان بحيث ييسر للطبيب أن يصارحه.

بلغت حالة هنية أقصى ما يبلغه انهيار عصبي، ومنذ شهور، لم تنطق بكلمة رغم محاولات الأهل والأطباء تظل في شرود مستمر، كأنما لا تعي شيئاً مما يدور حولها، والجملة الوحيدة التي فاهت بها، وهي تدخل المستشفى منذ يومين، طلبت بها بعض دفاتر خاصة، قديمة، وإلى ذلك كانت تعزف عزوفاً مطلقاً عن الطعام، ولم تكن تقتات إلا بحيل طبية دون وعي منها. لقد بدا أنها فقدت كل دافع للتمسك بالحياة، وأنها فقدت حاسة الألم فلم يعد يهمها شيء مما يعتري كيانها الجسمي، وأنها مستمرة في الانغلاق على عالمها الداخلي، والهوة عميقة بينها وبين ما يجري حولها. وكل جهد يبذل لإنقاذها، يجب أن يتجه إلى الكشف عن مكمن إرادتها اللاشعورية، في الانفصال عن الواقع، لكن هذا يتطلب حالة جسمية تصمد لهزات، قد تكون عنيفة أثناء العلاج. ويتطلب استجابة بيولوجية، يبدو أن التدهور الجسماني للمريضة يحول دونها، ومن هنا سيقسم العلاج على مراحل. فيعني بالعلاج الجسمي أولا، وبصفة خاصة رفضها للطعام المتجلي في انعدام مقيت للشهية، إلى حد يدفع للغثيان.

فإن نجح ذلك واستردت المريضة مستوى من الحياة النباتية، أمكن إذ ذاك بداية مرحلة ثانية قصد إشعار المريضة بما حولها، ولن تسترد قابليتها للكلام إلا في مرحلة معنوية أخيرة. وكرر الطبيب عدة مرات بأن الحالة خطيرة جداً، ونادرة الوقوع، على هذا النحو من العنف. لذلك، فالأمل بعيد، وأبعد منه أن تسترجع المريضة عافيتها كاملة كما كانت من قبل.

استمع قاسم بوجوم، وتساءل أخيراً إن كان يستطيع أن يفعل شيئاً، وكان الطبيب على وشك أن يحدثه في ذلك، لكنه تراجع، وأعلن أن لا فائدة من أي شيء في مثل ظروفها؛ وحالتها لا تحتمل أية هزة أو مفاجأة. لذلك ستظل في عزلتها؛ وكأنما قرأ الطبيب شيئاً في عيني قاسم، فقال:

ـ افرض أننا الآن في آخر مرحلة العلاج، وأنك ظهرت أمامها... هل تتابعني؟

ـ نعم.

ـ ما الذي سيحدث.

ـ لا أدري.

وتريث الطبيب قليلا، قبل أن يحور السؤال، عن مدى احتمال انفصال هنية عن محيطها القديم، فيما لو استعادت عافيتها، أو بعضها على الأقل. وبدا اليأس على قاسم. لو استعادت عافيتها، لما فعلت غير ما فعلت. وحرك الطبيب رأسه موافقاً على استنتاج قاسم، وأردف:

ـ هذا يضاعف صعوبة العلاج.

وبدا أن موضوع الزيارة ينتهي، فتساءل قاسم في تردد:

ـ يمكن، أراها؟

ونظر إليه الطبيب قليلا:

ـ ممكن... من بعيد.

وفي اللحظة، فتح الباب وأطل ممرض، فخرج في أثره قاسم، وواجهه عند الباب كهل يبدو قوي البنية، ملتحياً؛ بجلابة ناصعة البياض، وبجانبه شخص قصير، أسمر، في بذلة مهملة، ترك انطباعاً بالنفور. لم يكن قاسم في حاجة إلى إعمال فكر ليتبين هوية الشخصين: زوج هنية ووالدها. لقد أخبره الطبيب بموعد زيارتهما. كانت بقاسم رغبة قوية لتأمل ملامحهما، لو سمحت الفرصة. يريد أن يقرأ معالم الذنب على وجهيهما. حقاً إن هناك نفوساً تتمتع بمناعة ضد أي شعور من هذا القبيل، فلا تقلق من أجل شيء، ولا يخامرها شك في مواهبها ومواقفها.

وانحرف به الممرض نحو سلم إلى اليسار، صعدا، وفتح الممرض باب حجرة صغيرة، وأشار إلى قاسم أن يدخل، وانصرف. كانت الواجهة الزجاجية تطل على ساحة صغيرة مغروسة أمام مكتب الطبيب، ويبدو في أقصى اليمين المدخل الزجاجي الرئيسي المؤدي إلى حديقة المكتب. وظل قاسم ينتظر، لحظة يرى فيها هنية. ترى كيف شعورها الآن؟ وانفتح المدخل، وبدت ممرضة تتقدم ببطء ويدها مستطيلة وراءها، تجر شيئاً متمنعاً. وبدا خلفها هيكل يتحرك، كان فيما مضى هنية. كيف ينتسب هذا الشبح إلى الكائن اللطيف، المكتمل، الذي كانت إياه. أية أثقال تحملها على الكاهل المحني، الضعيف؟ كيف تقلصت إلى هذا القصر، إلى هذا النحول؟ أي خواء في النظرات؟ تكاد تتهاوى في مشيتها، وفي حركاتها نزوع إلى الفرار، إلى الوراء. وشعرها كان الشيء الوحيد، الذي لا زال كالعهد به، وربما بدا أكثر ازدهاراً؛ كان ينسدل في حرية على ظهرها. القميص الفضفاض الطويل، يشي بعظام واهنة في داخله، وكعبان معروقان في بياض الثلج يبدوان عن الخطو، بين الشبشب وأسفل القميص. كل شيء فيها قد استحال إلى بياض يوحي ببرودة مرعبة وصلت حد التجمد. لم يكن يرى سوى صفحة جانبية من وجهها، وعندما غابت داخل مكتب الطبيب، ظل شارداً في خواطره. هناك بين تلك الجدران، أشخاص ثلاثة لا رابط بينهم رغم كل الروابط: حمل ومدية وجزار. ما العلاقة بين هذا الثالوث المتلازم؟ أي زيف تنطوي عليه حياتنا... عندما يعتلي الجزار ربوة، ويرفع صوته بالنصح للقطعان: خير لها أن تسمن، أن تسلم، تتوالد وتُسلم أعناقها... وعندما يبدو على محياه الأسى، وهو يرتد بيده الضخمة عن شاكلة خروف لم يرقه: لم يسمن بعد، أو هو مريض أو جائع...

وعندما تقول المدية: إنني ألمع صفاء ونقاء، فيا لسعادة رقبة أمر بها... أي زيف يبلغ منتهاه عندما يصيح الحمل بدوره: أيها الجزار يا يد الرحمة، يا مدية

طاهرة، إني أتلهف لمعانقتك... أية ملهاة ومأساة نمثل؟...

وبدا الثالوث خارجاً من مكتب الطبيب، يسندها الوالد والزوج، على تنافر قامتيهما. كانت مستسلمة للسير، يوجهان خطوها الوئيد، رأسها منكس كالباحث عن شيء ضائع.

غاب الثالوث والممرضة، نحو جناح المرضى وعاد الممرض يقود قاسماً إلى الطبيب، بطلب منه هذه المرة.

وحين دخل، بادره الطبيب وهما واقفان:

ـ لم تنطق بحرف.

وتساءل قاسم:

ـ وماذا يقول الوالد والزوج؟

وأجمل له الطبيب الموقف. لا يساعدان على شيء لا يفهمان شيئاً، ولا يملكان لها سوى العطف.

العطف. أي عطف بين الثالوث المتلازم؟

ومد الطبيب يده إلى بضعة دفاتر، تصفحها وناولها لقاسم. كانت جملة ما طلبت إحضاره بالأمس، في جملتها الوحيدة القصيرة، لكنها اليوم لم تتفقد شيئاً أو تهتم بشيء. كانت مذكرات خاصة، وبضعة دروس عرف فيها قاسم خطه، من جملة ما كان ينسخ لها من دروس...

وتساءل قاسم:

ـ ماذا قصدت بطلب هذا؟

ورد الطبيب وهو يستعيد الدفاتر:

ـ إنها ما تزال عالماً مغلقاً، ولا يدل هذا على شيء، وقد تكون في عالمها

الخاص، تحاول استعادة ماضيها، ما دام الحاضر والمستقبل لا يثيرانها.

وأشار إلى أوراق أخرى:

ـ هنا دفاتر تعود لدراستها منذ عشرين سنة... وفي هذا خطر على العلاج...

وبدا أن خطة العلاج تقتضي منع كل ما يمت إلى ماضيها. إنها تتشبث بما مضى وتحاول إحاطة نفسها بمعالمه، بينما يجب السير بها في اتجاه معاكس يشعرها بحاضرها ومستقبلها. حرمان آخر، يضاف إلى ما قاست وتقاسي في صمتها وعزلتها.

ـ حرمان؟ هذه لفظة أقوى مما يناسب في هذه الحال.

بذلك ختم الطبيب حديثه.

14

ـ ولد عمك عندنا.

قالتها الأم، بمجرد ما فتحت الباب لقاسم.

ـ ولد عمي؟

ـ تعال.

وتبعها إلى الغرفة، حيث واجهه شاب قروي في مثل سنه، وسيم قوي البنية، قام يعانقه.

ـ كيف الحال يا سي قاسم؟

ـ كيف عمي؟

وجلسا كل منهما يرنو إلى الآخر، والتشابه واضح بينهما.

ـ لا بأس. أنت لا تعرفني.

ـ لم نلتق من قبل.

وتدخلت الأم، كانت قد حكت كثيراً لسليمان، في غيبة قاسم:

ـ إن شاء الله، تكون البداية.

ـ إن شاء الله.

ـ عمي، كيف هو؟

وبدا الألم على وجه سليمان، وهو يقول:

ـ أبويا المسكين في حالة... الله يلطف.

ودلت حركاته على الشدة التي يمكن أن يكون فيها والده. وتساءل قاسم إن كان عمه سيموت حقاً. كان قد شاهد الصراع بينه وبين أزمات الربو والكحة، لكنه سلم بانتصار عمه. إن عشر معشار ما بالعم من علة، كاف ليودي بحياة أقوى الأشخاص، لكن العلة قد تموت قبل أن يموت عمه. بيد أن حديث سليمان جد، ويبدو واضحاً أن الحاج علي، في حالة تستوجب الهلع. وقال سليمان إن أباه كان عازماً على اصطحابه معه، ليتعرف على سي قاسم، إلا أن المرض أقعده، وجاء سليمان وحده للتعارف. وربما لشيء آخر لا يقل أهمية.

وبدا الاستفهام على قاسم. ما عساه أن يكون هذا الموضوع الآخر؟

ـ الأرض؟

لم يفهم قاسم، ولكنه بدأ يلمح شيئاً، في ذكريات بدت له بعيدة، وقال سليمان:

ـ أرضنا... أرض الجماعة، سنذهب إلى الحاج المنصوري مرة أخرى.

لم يبق إلا أن يحدثه عن غنام، والمقدري، وهنية، ووالدها. الشبكة ممتدة على أوسع نطاق. فليستمع إلى بقية حديث ابن عمه ولينتظر مزيداً من المفاجآت.

سليمان يتحدث باعتزاز، ويلمح إلى عبقرية والده: أثمرت وساطة المنصوري، وابتعد كثير من المتدخلين عن الأرض، وأصبح من المؤكد أن توزع على فلاحي القرية، بالتساوي. إنها مرحلة تتحقق من تخطيط الحاج علي. والآن يقعده المرض، عن إتمام المرحلة الأخيرة الهامة الحاسمة، لكن ثقته في

المنصوري كفيلة بتحقيق الغرض، لذلك بعث أكبر أبنائه، وعلى قاسم أن يتوجه معه إلى المنصوري، وتأتي البقية بسهولة.

على الحاج علي أن ينحرف الآن بموضوع الأرض، من اعتبارها للجماعة يجب أن تقسم بالتساوي، إلى أرض تعاد لمالكيها الأصليين، ويجب أن يلعب المنصوري دوره هنا، والباقي على الحاج علي. يتدخل المنصوري بتوصية أو بكلمة، ويضع الآخر حجج الملكية. سليمان متفائل من العملية أو هو يعكس تفاؤل والده، ويؤكد لتردد قاسم، أنها ليست المرة الأولى التي ينجح فيها والده، في مثل هذه القضية:

ـ عملناها... وعملنا أكبر منها...

ورنا قاسم إلى حماسة ابن عمه، لم تكن فيه من خشية أو تردد، وهو يعلن أن جزءاً من الأرض المستردة سيكون قسمة بين قاسم وعمه، كأنما في هذا تعويض له، عن ظلم سابق لحقه، أو هو إغراء له بالسعي لصالح عمه. مرة أخرى يجد قاسم نفسه، وقد أعد له الدور واللباس وما عليه إلا أن يصعد الخشبة. ومرت بذهنه أطياف هنية، هي أيضاً كان قد أعد لها كل شيء، وكان عليها أن تخطو مجرد خطوة بسيطة، ثم لا تملك التراجع بعدها، الخطوة السحرية انتهت بها إلى ما هي فيه.

واكتشف قاسم أن دقائق معدودات فقط، مرت على تعارفه بابن عمه، وإذا هما في موضوع بالغ الجدية.

وأعجب إعجاباً مريراً بهذا الشاب القروي، الذي لا يضيع وقتاً، ويهجم على موضوعه مباشرة. إنه من طينة أنبتت الحاج علي، ووجد متعة في استفسار سليمان:

ـ الجماعة لهم أرض؟

وبملامح احتقار بالغ أجاب سليمان مستنكراً:

ـ لهم أرض؟ كلهم خماسين علينا.

كان يعرف هذا جيداً، والدته أخبرته من قبل، وعمه لم يبخل بالتلميح إلى ذلك، وابن عمه جد معتز. لم يبق إلا هو.

ليحتقر تلك الخلائق من الرعاة والخماسين، والأمل يراودها بامتلاك أرض. كأنها لا تعلم من هو الحاج علي، كأن الأراضي التي يمتلكها هذا الرجل، لم تكن لها يوماً قبل أن تنتقل إليه. يا لسذاجتهم عندما يقعون في الأحبولة أكثر من مرة، ولا يستفيدون. أهو الطمع أم الفقر؟ النتيجة واحدة، إنهم يفقدون الأرض بنفس الطريقة.

وتساءل قاسم عن مساحة هذه الأرض المزعومة للجماعة.

ـ عشرين، ثلاثين هكتار...

ـ والجماعة؟

ـ سبعين، ثمانين رجل.

وبدت العملية بسيطة في الحساب: تؤمل الخلائق الساذجة أن تمتلك نصف هكتار للواحد أو أقل. عملية بسيطة في الحساب ولكنها معقدة في التوزيع أو هكذا تبدو. أما السهولة والبساطة في الحساب والتوزيع، فهي أن تضم العشرين، الثلاثين هكتاراً، إلى ملكية واحدة أكبر...!

وسأل:

ـ كم تكون أرض العم...؟

وتردد سليمان، كأنه لا يدري، أو على الأصح لا يدري كيف يجيب. أيقول إنها ثمانون هكتاراً المصرح بها في دفتر المراقبة لتدفع عنها الضريبة؟ أم يقول إنها تزيد عن الثلاثمائة كما هي في الواقع؟

وهل يقول بين هذا وذاك حكايتهم مع المراقب الفلاحي، والمساومات التي تجعله يقبل تصريحاتهم، وبعدها حسب مشيئتهم؟

ولم يطل تردد قاسم، فقد جمع كل هذه الأحداث في كلمة:

ـ ثمانين... ثلاثمائة هكتار... المراقب يعرفنا.

وفهم قاسم كل شيء بحركة معبرة، من أطراف وملامح سليمان الذي ما لبث أن استدرك كأنه غير واثق من فهم قاسم، ويريد في نفس الوقت تطمينه:

ـ الخير عندنا كثير، إن شاء الله تزورنا وتشوف بعينيك.

وتمتم قاسم شاكراً. بينما أكد سليمان، على زيارة المنصوري صباح الغد.

ولم يرد قاسم على أن قال:

ـ إن شاء الله.

وشاء الله أن يرى قاسم المنصوري، ليلته تلك قبل الصبح. مثل له أكثر من مرة بين نوم متقطع. والعم على فراش أبيض وسليمان يشجع: هيا يا ابن العم... أرضنا نحن الكبار... نموت من أجلها... والخماسون والرعاة، وخلائق معوزة ترقص طرباً وهي تزف العم إلى الأرض... والشبح الباهت يتحرك بين هيكلين وراءهما ممرضة وملف أصفر... وإغراء غنام: كن شريكاً في المشروع. وإغراء سليمان: كن ملاكاً في القرية، وحكايات الأم تتداخل بحكايات العم...

وتناهى إليه أذان الفجر وهو يتقلب ذات اليمين وذات الشمال، بين الرؤى المزعجة والنوم المتقطع... وسمع حركة والدته تقوم للوضوء، وشخير ابن العم قريباً منه يشي بنوم سعيد آمن، كنوم الأرض في حضن السماء. وثقلت رأسه فلم يفق بعد ذلك إلا على صوت والدته، تدعوه للفطور، ليجد سليمان يتأمله في هيئة من استيقظ قبله بكثير، وظل ينتظر صحوه:

ـ صباح الخير.

واستأنف سليمان دون أن ينتظر رداً.

ـ تنام كثيراً.

بل نفيق متأخرين ولا ننام إطلاقاً. أما أنتم فبعد إحكام الشبكة، تنامون سريعاً وبعمق، وتفيقون باكراً حرصاً على الشبكة أن تفلت منها الأرانب...

كذلك كان قاسم يفكر، وهو يغتسل.

تزور القرية إن شاء الله، وتتعرف على حياتنا أو ترى أرضك وتشم تراب أجدادك وتتزوج وتموت وتحيا... وتجيع الخماسين وتشبع، وتستولي على أرضهم وتأكل اللحم نيئاً، وتصبح سيداً وعظيماً وتستنجد بالمنصوري إذا حلت بك ضائقة... نغم عنيف مخلوط بألف نشاز مصم يطرق رأسه منذ الصباح، وقبل أن يجلس للفطور. ودار الحديث حول المائدة فاتراً كأنما كان سليمان وحده المنشرح بينهم، وأعلن لقاسم أنه عين له واحدة، من أجود بقراتهم هدية له، بعجلها الرومي الصغير:

ـ عجلك يا قاسم أجود عجل في القرية.

وتمتم قاسم شاكراً، بينما تدخلت والدته:

ـ وأنا؟ ما هديتي؟

ـ كل الخير لك يا خالتي. قاسم عاش كالغريب.

وخرج إبراهيم. مر بهم وهو يتمتم خجولا:

ـ صباح الخير.

ويخرج متأبطاً دفاتره كالهارب، غير ملتفت لسؤال الأم: هل أفطر؟

والتفت سليمان كالمستغرب. لم يلحظ حتى وجود إبراهيم من قبل، كأنه

كان يتعمد الاختفاء. بيد أن استغراب سليمان لم يجد جواباً.

اكتفت الأم بأن تململت، أما نظرة قاسم فقد كانت فارغة. ماذا يقول لهذا القروي الملهوف على الأرض؟ أيقول إن إبراهيم بطاقة تعريف غفل؟ وساد صمت مريب، الكل يفكر في نقطة واحدة. ولفت الأم ذيول دفينتها، كأنما تلم صفحات ماضيها المبسوطة أمام الجميع، كأنها عارية، كأن الدنيا برد قارس، وتمتمت...

ـ إنه رجل كقاسم.

لا أحد يسمع أو يرد، وكأنما حاول سليمان إصلاح موقف يوشك أن يفلت، فقال محركاً رأسه علامة للتأكيد:

ـ نعم. يشبهه كتوأم.

هكذا تنسدل أقنعة النفاق. فمتى تتمزق؟ لو كان العم هنا لقال نفس الشيء في مثل هذا المجلس، لينفرد بقاسم فيما بعد ويهمس له: أنت رجل تفهم. وليؤكد لنفسه بأن زوجة أخيه، ارتكبت إثماً بعد وفاة زوجها بسنوات، وليقول قبل ذلك لزوجة أخيه المرحوم، بعد أن قامت بعدة مناورات لإفهامه تواريخ الازديادات والوفيات: أنت فاضلة حلت البركة على المرحوم بمجيئك. لو كان ألف رجل من قرية العم، لقالوا نفس الشيء... ولا يدركون آلام نفوس بشرية بما يفعلون ويقولون... آلام بقرة أو عجل، أقرب إلى نفوسهم من ذلك... فليمزق هذا القناع منذ اليوم...

ـ قلت إنه يشبهني يا سليمان؟

ـ من؟

ـ إبراهيم أخي.

وهش سليمان على وجهه بيده. لم يكن ينتظر هذا السؤال. حقاً لم يلحظ

وجود إبراهيم، ولم يسأل عنه، لكنه يعرف كل شيء من والده. ونظرة الاستغراب التي بدت عليه إنما كانت غفلة منه وسذاجة... خروج إبراهيم بتلك الطريقة هو الذي فاجأه، وجود إبراهيم ذاته. ما زال قاسم ينتظر الجواب.

ـ تشابه الإخوة يا قاسم... أنا شبيه...

وقاطعه قاسم:

ـ إبراهيم، أصغر مني بعشر سنوات تقريباً.

اشتد حرج الأم، وخيل لقاسم أنه يتسمع دقات قلبها الواجف. وبدت على سليمان حيرة، حاول معها تغيير الموضوع:

متى نزور المنصوري؟

وأمعن قاسم في اتجاهه كمحموم، كمخبول انتابته نزوة تقطيع:

ـ كنا نتكلم عن إبراهيم، أخي!

يا رحمان. الأم تستغيث، ونظرات استرحام إلى قاسم... وابتسامة باهتة على وجه سليمان، محاولا تغيير الموضوع في بأس:

ـ في القرية... والدي يحتضر، ينتظر...

وبدا أن قاسماً، يتمسك بالموضوع، فتمالكت الأم نفسها وقامت ترفع الصينية، في حركة تشي باضطراب عنيف...

قال سليمان في لهجة حادة هامسة لقاسم... وقد خرجت الأم.

ـ لا أفهمك... لا داعي، كنا نعرف... ما فات مات... والنساء ناقصات... لماذا تجرحها؟

ورد قاسم في حزم:

ـ لا أجرحها.

ـ يعني؟

ـ يعني أن نفتح العيون ونزيل العمش.

وأحس كأنه يجابه خلائق قرون معمشة، لا تنظر إلا كما تحب وكما علمت أن ترى... نظرة شزراء مقيتة لوجود الآخرين، ولهفة على ما بأيديهم، ثروة أرض، وعفن يتراكم. لو اغتصب العم زوجة أخيه كما تعبر هي... لو كانت ثالثة أو رابعة في حريمه على الحلال كما يقول هو، لكان إبراهيم شخصاً آخر، ربما كان سليمان ذاته أو توأمه وشبيهه، ولكانت بطاقة التعريف قانونية...

وشده سليمان. عبثاً يحاول أن يقاطع تيار قاسم، فوهة البركان عندما يتمرد على الصمت:

ـ يا ابن العم... يا ابن العم...

خلائق الخماسين والرعاة تزف سليمان، الحاج سليمان، الحاج قاسم، لن تملك الخلائق موقع قدم على الأرض، كما لم تمنح بطاقة تعريف لوجود غفل... والمنصوري شبكة على مدى أوسع.

ـ يا ابن العم... عمك ينتظر... يحتضر!

ساد الصمت أخيراً. هدأت فورة البركان، ولا يدري أحد متى تعود فورته، سليمان أخذه التهيب والرجفة ولم يهتد إلى استجابة. وصوت انتحاب الوالدة يتسلل من بعيد رغم التكتم... تهيأ قاسم للخروج، يتفقد جيوبه... يلم شيئاً ويضع آخر، دون كلمة... واتجه نحو الباب وإحساسه قوي، بنظرات سليمان المتطلعة المتسائلة في لهفة، وحيرة:

ـ متى نزور المنصوري؟

ودون أن يلتفت قاسم، أجاب في دخيلة نفسه، وبصوت يسمعه جيداً:

ـ المنصوري يحتضر أيضاً، بالنسبة لي على الأقل.

15

لم يفاجئه أن يكون ابن عمه قد غادر البيت، حين عاد هو إليه ولم ترفع والدته النظر إليه عندما فتحت الباب، ولا هشت في وجهه كعادتها. وانتبه إليها وهي تتدحرج أمامه، منحرفة نحو المطبخ كمن ينطوي على جرح عميق. كانت تتحرك في الألم. ليكن. فلا أحد بدون ألم. ربما كان آلامها أقل جدة من آلام آخرين، ربما كانت آلامها وهمية، لو نظرت إليها بعين أخرى، بعين قاسم مثلا. لكنها تأبى إلا أن تنظر إليها من خلال ظلام قرون، وتنكشف لنفسها كل يوم، جريمتها كإثم عذراء.

مهما تكن آلامها، فقد تكون آلام إبراهيم أشد، وكان بالإمكان أن يتجنب ذلك، لولا سخافاتها المتكررة لإثبات تواريخ زائفة للوفيات والازديادات، لولا ذلك لتجنب الفتى إحساساً بلا مشروعية وجوده، ما دامت قد عزلته عن المحيط الذي يشعره بذلك، محيط العم والأقارب. ولو كانت كما يريد لها قاسم أن تكون، لما احتاجت إلى كل ذلك التخفي عن لحظة من حياتها، ولأفهمت الجميع بلسان صريح، أنها تزوجت للحظة بلا عقد بعد المرحوم. أو أن الزوج اختفى أو هرب، لكنها تمعن في التعبد لتمثال الطهارة كما علموها أن تفعل،

لتعلن أنها ظلت وفية للمرحوم، وأن إبراهيم مقارب لقاسم في السن، كأنهما توأمان رغم فارق عشر سنوات. فتخطيء التاريخ، ولتتذوق عذاب ذلك...

فتح قاسم باب الغرفة، فقفز إبراهيم عن المكتب مرتاعاً، كعصفور بلله القطر. كان منهمكاً في كتابة شيء. وبدا القلم يرتعد بين أصابعه، ورأسه إلى الأرض. متى يعتقد بمشروعية وجوده؟ متى يطمئن إلى نفسه وإلى الغير؟ ومحاولات قاسم لتهدئته، لم تتوج بعد.

ربت على كتف أخيه في حنو زائد:

ـ ماذا تفعل؟

لم يرفع إبراهيم رأسه:

لا شيء.

متى يتعلم النظر إلى الغير بقوة؟ أي خاطر أسود في ذهنه عن الوجود؟ كأنه الوصمة الوحيدة في الوسط الطاهر. يا أخي، لو تعلم أنك قد تكون أطهر بقعة... والهروب لن ينفعك...

ـ أتكتب؟

وتمتم إبراهيم:

ـ الامتحانات قريبة...

لكنه لم يكن يهيء للامتحانات القريبة، فقد كان دائماً في امتحان. تفوقه المستمر، لا يعزى لغير الخوف من أن يضيف وصمة أخرى إلى وجوده، وصمة الفشل في الدرس. متفوق دائماً، متخوف دائماً في كل امتحان، غير مصدق أنه ينجح، ويتقدم رغم التقدم والنجاح. لكنه لم يكن يهيء لامتحان هذه المرة، الدفتر الأزرق يشي بذلك. وقاسم يعرف... دفتر مذكرات ومقطوعات، وقصائد مبتورة... لكنه يتخفى، كما يتستر امرؤ على عورة.

وبحث قاسم عن يد أخيه المضطربة ليمسكها، وليظهر تفاؤله بمستقبل أخيه، يذكره بتفوقه المستمر، برأي أساتذته فيه... وترتعش ابتسامة مترددة، مكبوتة، ترفض شفتا الفتى أن تمارسها.

ـ ماذا تكتب؟

ـ لا شيء؟

ـ شعراً؟

ويزداد الاضطراب. حمرة في صفرة، ويد قاسم في محاولتها المهدئة، تتقدم لترفع كتاباً مفتوحاً، يبدو أن إبراهيم كان يطالعه.

«مأساة العلاج»، إنك تقرأ ما يوافق طبيعتك أيها الأخ. متى تنتهي المأساة؟ تصفح قاسم الكتاب ثم رده، وتناول الدفتر الأزرق المفتوح على آخر ورقة، كان يخطها إبراهيم، ومر بعينيه على السطور المشطوبة، وخرج عن همهمته:

ـ اسمعني...

ورفع إبراهيم نظرة لأول مرة، نظرة استعطاف لم تجد لها استجابة:

ـ هيا اسمعني.

وانطلقت حشرجة تنبىء عن صوت سجين لم يمارس طبيعته من قبل، انطلق مضطرباً، متعثراً ليتزن من بعد، في عمق وتأثير:

«نهاية السندباد»

يا بؤس السندباد

والشراع الممزق

ولوح النجاة

والزبرجد والذهب

والفيافي وسرابات الحياة

في الفج المغلق

يا أشلاء السندباد

في كل واد

يا نداء...

ضاع قاسم مع النداء التائه، مع النهاية التي لم تكتمل، وشفتا إبراهيم ترتعشان في تأثر، دون أن يرفع البصر:

ـ انته منها سريعاً، سننشرها.

وفزع إبراهيم:

ـ تنشر؟!

وأكد قاسم ذلك في عزم.

ما من طريقة أخرى مناسبة ليخرج هذا السجين إلى النور، ليدرك أنه ليس عورة ولا إثماً، ليكف عن تمزيق ذاته في العزلة، لينظر حوله بقوة، ويحدق في النور، لتنكشف هويته في النور...

وتراجع قاسم، يترك لأخيه فرصة لمتابعة خواطره، فواجه والدته. كانت تقف على القرب منها تتأمل موقفها في رضى ظاهر وابتسامة. لا يدري أحد منذ متى وهي في موقفها، وقد زالت عنها غمامة الكآبة. وعندما فاجأها بالتفاتته، عدلت من محياها، كأنها تحتج على ما هي فيه، لتعود إلى كآبتها القديمة، كأنما تنتظر استنكار قاسم وثورته عليها، ليصفعها ويركلها صائحاً:

تبتسمين أيتها المجرمة؟ أتجرئين؟!... كأنما فقدت حقها في البسمة، منذ تلك اللحظة اللعينة المجهولة، منذ سنين...

خفضت بصرها، وهي تتقدم بصينية الشاي إلى صدر البيت، وابتسم لها قاسم وهو يأخذ مجلسه. وأخذت مجلسها في تهيب رغم بشاشة؛ كل شيء لأول مرة. وقام يتناول كأسه قبل أن يمده إليه أحد، وجلس قبالة قاسم، وهو يتأمل الكأس، كأن كل شيء جديد عنده، وبدت حركاته رشيقة، وهو يرتشف متلذذاً بالشاي:

ـ أنت ماهرة يا أماه...

نظرت إليه في امتنان. ماذا تقول؟

دمعة رضى تترقرق في أعماقها، وميلاد بسمة.

ورد قاسم:

ـ أمنا تحسن كل شيء.

يا لوزن الكلمة، أمنا. يا لسحرها الدافيء.

انتهى الشاي، فبادر إبراهيم في رضى ظاهر يحمل الصينية إلى المطبخ.

كل شيء يولد من جديد... وقام قاسم إلى المكتب. أحس بنشاط فائض غاب عنه مدة، لكنه لا يغري بالمطالعة رغم الجهد. أدرك قاسم ذلك، وهو يفتح أول كتاب، لم يبدأه ولم ينهه منذ زمان.

وتتباعت الصفحات المتهرئة... أفياشاً بيضاء بين أصابعه.

أب... أبكت... أبتكيت... والتقى نظره، بفتاة لم ينتبه إليها في لهفة... وعامل المكتبة يناوله المجلد:

ـ تغيرت كثيراً يا سي قاسم؟

ويجيب في ارتباك:

ـ أنت. أوه... معذرة...

لا زال الكتاب عاجزاً في استغراقه، رغم فيض النشاط في كيانه، عالم أقوى من الحروف يمثل على السطور بقوة ويخرجه إليه.

كيف يغلب الذكرى، وبين جدران سوداء بيضاء، يقاسي آلام الجحيم، كائن أضحى ملفاً أصفر؟ ويتساءل مرة أخرى عن المسؤول؟ عن معنى الحياة؟ أي سخافة نسميها القدر، عندما نتملص من نتائج أفعالنا؟ أية خدعة وأي عزاء رخيص في الوداعة، والتسليم، والحلم بسعادة النفس؟ إننا لا نزيد على أن نفسح للعناكب الرابضة مجال التضخم، وسوانح الامتصاص؟ ومع ذلك أصبح في عرف التاريخ، كأن مسيرة البشر تتطلب حتماً شهداء وضحايا وقرابين، وأن السير المتوازي لخلائق الكون، بلا ضحية ولا شهيد لا يرضي رغبة التاريخ.

مرة أخرى، يطغى عالم أقوى من الحروف على السطور. طوى الكتاب وارتخى قليلا إلى الوراء، وظل يتابع دخان سيجارته يتلوى.

لنحرق لندمر، ففي هذا تنفيس على كل حال.

وأقبلت من النافذة، نسمة بحرية عبثت بالدخان وملأت خياشيمه... وعاد إلى الكتاب... أي كتاب... وانسحب مع أصابعه مجلد نيلي أزرق، «الإبريز». وانهال معه صخب العالم الخارجي بأجمعه، هدية النوري. كان يجب أن يقرأه منذ زمان، كأنه يراه لأول مرة، ومثلت له الصفحات، وعرائس الجنة والقصور والرياش وألف صلاة على النبي قبيل الفجر والخوارق والمعجزات، والمستنجد المستغيث في أقصى الأرض عندما ضاقت به، تلفظ بالقطب، فانفكت أغلاله، ليجد نفسه في مسجد القدس.

والهنود أضاعوا الطريق. والعقل حجاب. أي ترياق للنفس وأي سلام. وصاحبته في ملف أصفر، والوعدودي والكأس، والحاج غنام والحاج سليمان والعم، وشبكة المنصوري ومحاضرات السلام، وحلقات الوجد والتصديق

وسؤال بلا رد:

ـ إنما أسألك عن أولادك... هل تريدهم لمثل هذا؟

عرائس الإبريز عاجزة عن استغراقه، وفيض النشاط يجب أن يذوب في ضجة الخارج. وقام كالملسوع، يجب أن يحدث شخصاً، يجب أن يعانق... تهيأ للخروج. والمجلد النيلي يرمقه. ليرده إلى مكانه. مكانه؟ واختطفه خارجاً. تسلمه الشارع في خطو كالعدو. تقاذفته الأزقة، والغروب يفوح بروائح العطر، في الفيلات الصغيرة المتراصة في الشارع الخلفي، لمؤسسة النوري.

الشاوش العجوز عند الباب، يده في الجلابة البيضاء الناصعة تداعب شيئاً، لن يكون إلا سبحة، وشفتاه تتمتمان بذكر هامس:

ـ النوري هنا؟

وبدا العجوز يفيق من سرحته:

ـ عفواً...

وأزاح الشاوش قاسماً بيده، كأنما أخفى عنه الشمس، وانفلت في اللحظة أربعة متعانقون إلى الداخل...

وابتسم الشاوش البواب، في شبه يقظة:

ـ نعم موجود... ينتظر الجماعة... تفضل. وتمايلت أغصان الجميزة الضخمة وهي تحجب نوافذ الغرفات العليا، في مسكن النوري.

ورد قاسم:

ـ لا.

ومد يده إلى الرجل بالكتاب:

ـ هذا للسيد.

وتشمم الرجل الكتاب، كأنه يستنشق عطراً، وبدت لقاسم أصابع الرجل وكأنما نالتها زرقة الكتاب، ونظر إلى أصابعه هو أيضاً، وخطا مبتعداً باجثاً عن منديله... أحس بخطوه خفيفاً، كأنما كان يثقله حمل رصاص من قبل. وخشخش المنديل بين يديه. ورقة صغيرة عليها هاتف وموعد، مع الفقيه التاغي. منحة آخر الشهر... راتبه عند المنصوري، أهمله منذ شهور، أو نسيه. ما تزال الشبكة منصوبة، وخيط إحسان أو تجارة ما يزال ممدوداً بقوة وإغراء، وأحس بعيني ابن عمه سليمان، تتطلعان إليه في صمت متسائل:

ـ متى نزور المنصوري؟

وحدث نفسه مجيباً:

ـ المنصوري أيضاً يحتضر، بالنسبة لي على الأقل.

وتناثرت قطع الورقة الممزقة. وإلى أين؟ فيض النشاط يقف عند «باب الحد» متردداً. كازبلانكا؟ وهذيان الوعدودي والعربدة المدمرة لكل شيء، وابتسامة الشقراء إغراء بالمزيد، والكأس مدفن الفشل والأحزان؟

لم يشعر بإغراء، وصار كأنه على موعد حتى توقف عند بائع الصحف، لكنه لم يقرأ شيئاً، عينه تمر على الصفحات المعلقة، في غير انتباه، ولا شيء يجذبه وفيض النشاط ما زال سارياً.

انحرف يساراً مستسلماً لقدميه، وفاحت من حوله رائحة الخبز الساخن، وأصوات البائعين تتناهى إليه عند بداية السويقة، وجرته قدماه للزحام، والخلائق تتدافع في الدرب الضيق الطويل، والأرض المبتلة، وأصوات الركلام بومارشي... الرخا لله يا عباد الله... المليح يا للي بغا يربح...

تحرك في الزحام، والرؤوس تتحرك على مد البصر، في انحدار الدرب الطويل أمامه. وخيل إليه أنه يستأنس بشيء في الرؤوس والأكتاف.

وحدق. رأس عزوز وكتفاه في الزحام إلي جانب رأس أشعث كأنه الإدريسي. ودافع قاسم في الزحام يتحقق من صدق خياله، واقترب منهما وأبعدته حركة الزحام من جديد... أصوات المتسولين والرخا لله... والدرب ما يزال طويلاً، ينحدر... وينحدر.

الأعمال الكاملة

مبارك ربيع

الروايات

الجزء الأول
I

■

الجزء الأول
II

■■■

الجزء الثاني
I

■

الجزء الثاني
II

■■■

الجزء الثالث
I

■

الجزء الثالث
II

طبعة دار المناهل

الثمن :
45 درهما